







THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY











~~Handwritten scribble or signature~~





وزارة المعارف العمومية

---

# المفصل

## في تاريخ الأدب العربي

### للمدارس الثانوية

تأليف

أحمد الأسكندري ، أحمد أمين ، علي الجارم  
عبد العزيز البشري ، أحمد ضيف

الجزء الثاني

---

حق الطبع للدارس الأممية محفوظ للوزارة

---

القاهرة  
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق  
١٩٣٦



893.79

Is 4

v. 2

U. 2



# فهرس الجزء الثانى

## العصر العباسى الثانى

صفحة

|    |                                |
|----|--------------------------------|
| ٢٢ | أبو الفتح البسى ... ..         |
| ٢٥ | الشريف الرضى ... ..            |
|    | الشعر فى مصر                   |
| ٣٢ | الشعر فى عصر الأخشيد .. ...    |
| ٣٢ | ابن طباطبا ... ..              |
| ٣٣ | ابراهيم الجيزى ... ..          |
| ٣٣ | الشعر فى عهد الفاطميين ... ..  |
| ٣٤ | أبو الرقعمق ... ..             |
| ٣٥ | الصالح ابن رزىك ... ..         |
| ٣٦ | المهذب بن الزبير ... ..        |
| ٣٦ | الجليس بن الحباب ... ..        |
| ٣٧ | اهتمام الفاطميين بالشعر ... .. |
| ٣٩ | تميم بن المعز ... ..           |
| ٤١ | عمارة اليمنى ... ..            |

### الشعر فى الشام

|    |                           |
|----|---------------------------|
| ٤٦ | الدولة الحمدانية ... ..   |
| ٤٦ | سيف الدولة ... ..         |
| ٤٩ | حكم نور الدين زنكى ... .. |

صفحة

|  |                                                                                                          |
|--|----------------------------------------------------------------------------------------------------------|
|  | لمحة فى الحياة الاسلاميه من الوجهة السياسية ، نشوء الأوطان السياسية وأثر ذلك فى ظهور آداب قومية ... .. ١ |
|  | الأدب العربى فى الشرق ( العراق وفارس وخراسان ) ... .. ٢                                                  |
|  | الشعر                                                                                                    |
|  | انفراد بغداد بمحاذاة الشعر فى ذلك العصر ... .. ٧                                                         |
|  | الأغراض الجديدة ( الحكمة ، الفلسفة ، التصوف ) ... .. ٩                                                   |
|  | الشعر التهكمى والهزلى ... .. ١٠                                                                          |
|  | وصف الوقائع الحربيه ... .. ١٠                                                                            |
|  | الشعر الشامى والمصرى ... .. ١٠                                                                           |
|  | تأثر الشعر بالصناعة اللغوية ... .. ١٠                                                                    |

### الشعر فى فارس والعراق

#### وخراسان

|    |                     |
|----|---------------------|
| ١٥ | السرى الرفاء ... .. |
| ١٩ | مهيار الديلى ... .. |



## صفحة

|                                   |     |
|-----------------------------------|-----|
| التدوين والتأليف في العصر العباسي |     |
| الثاني في العراق وخراسان ومصر     |     |
| والشام                            | ١٠١ |
| علوم الدين                        | ١٠٢ |
| التدوين في الأدب                  | ١٠٤ |
| علم اللغة                         | ١٠٦ |
| التاريخ والمؤرخون                 | ١٠٧ |
| الجغرافيا                         | ١٠٩ |
| الفلسفة                           | ١١٠ |

## الأندلس

|                         |     |
|-------------------------|-----|
| وصف بلادها              | ١١٢ |
| أثر الاسلام فيها        | ١١٤ |
| محاكاة أهلها للشرق      | ١١٧ |
| الشعر فيها              | ١١٩ |
| الموشع والزجل           | ١٢٢ |
| ابن خفاجه               | ١٢٥ |
| ابن هانئ                | ١٣٠ |
| ابن سهل                 | ١٣٥ |
| ابن زيدون               | ١٣٩ |
| النثر في الأندلس        | ١٤٢ |
| الكتابة                 | ١٤٢ |
| الخطابة                 | ١٤٦ |
| ابن زيدون               | ١٤٩ |
| ابن شهيد                | ١٥٤ |
| لسان الدين ابن الخطيب   | ١٥٩ |
| عبد الملك بن أبي الخصال | ١٦٤ |

## صفحة

|                   |    |
|-------------------|----|
| ابن منير          | ٥٠ |
| ابن القيسراني     | ٥٢ |
| المتنبي           | ٥٣ |
| أبو العلاء المعري | ٧٧ |

## الشعر في الدولة الأيوبية

|                  |    |
|------------------|----|
| كثرة الشعراء     | ٨٠ |
| صلاح الدين       | ٨٠ |
| القاضي الفاضل    | ٨٠ |
| ابن فلاقس        | ٨١ |
| ابن سناء الملك   | ٨١ |
| ابن الساعاتي     | ٨٢ |
| ابن ممتي         | ٨٢ |
| ابن التنبه       | ٨٣ |
| ابن مطروح        | ٨٣ |
| عمر ابن الفارض   | ٨٤ |
| يهساء الدين زهير | ٨٦ |

## الكتابة

|                                   |    |
|-----------------------------------|----|
| ابن العميد وطريقته في الشرق       | ٩٠ |
| القاضي الفاضل وأثر أسلوبه الكتابي |    |
| في مصر                            | ٩١ |
| العماد الأصمباني                  | ٩٣ |

## المقامات

|                 |    |
|-----------------|----|
| مقامات الهمداني | ٩٦ |
| مقامات الحريري  | ٩٨ |



## صفحة

|                                      |     |
|--------------------------------------|-----|
| اللغة العربية وآدابها بالمغرب        |     |
| وجزائر البحر                         |     |
| الكتابة ... ..                       | ١٧٧ |
| الشعر ... ..                         | ١٧٩ |
| ابن رشيق ... ..                      | ١٨٠ |
| ابن حمديس ... ..                     | ١٨٢ |
| الثقافة العلمية بالمغرب وجزائر البحر | ١٨٥ |

## صفحة

|                             |            |
|-----------------------------|------------|
| الثقافة العامة في الأندلس   | ١٦٥ ... .. |
| الأدب وعلوم اللغة           | ١٦٥ ... .. |
| التفسير                     | ١٦٧ ... .. |
| الفلسفة والطب               | ١٦٨ ... .. |
| ابن رشد                     | ١٦٩ ... .. |
| الرحلة من المشرق الى المغرب | ١٧١ ... .. |
| أثر الأندلس في أوروبا       | ١٧٢ ... .. |

## العصر التركي إلى بدء النهضة الحديثة

|                          |     |
|--------------------------|-----|
| ابن الوردى ... ..        | ٢٣٨ |
| صفي الدين الحلى ... ..   | ٢٣٩ |
| بدر الدين الذهبي ... ..  | ٢٤١ |
| صلاح الدين الصفدي ... .. | ٢٤٢ |

## ديوان الإنشاء

ولحة في تاريخه منذ نشأته

## الكتابة

|                                 |     |
|---------------------------------|-----|
| تأثر طريقة القاضي الفاضل ... .. | ٢٤٨ |
| محي الدين بن عبد الظاهر ... ..  | ٢٥١ |
| شهاب الدين الحلبي ... ..        | ٢٥٢ |
| ابن فضل الله العمري ... ..      | ٢٥٢ |
| القلقشندي ... ..                | ٢٥٣ |

## التأليف

|                           |     |
|---------------------------|-----|
| أسباب نهضته ... ..        | ٢٥٥ |
| الكتب الجامعة ... ..      | ٢٥٧ |
| كتب الدين والعربية ... .. | ٢٥٨ |

## عصر المماليك

|                                      |     |
|--------------------------------------|-----|
| سقوط بغداد ... ..                    | ١٨٨ |
| التجاء الآداب العربية إلى مصر ... .. | ١٨٩ |
| عطف السلاطين على رجال العلم          |     |
| والدين ... ..                        | ١٩٠ |
| موازنة بين هجرتين ... ..             | ١٩١ |
| المدارس ... ..                       | ١٩٣ |
| لمحة في تاريخ الأزهر وأثره في اللغة  |     |
| والأدب ... ..                        | ١٩٦ |

## الشعر في هذا العصر

|                                |     |
|--------------------------------|-----|
| تغلب الصناعة اللفظية ... ..    | ٢٠٠ |
| الفكاهة في الشعر المصري ... .. | ٢٠٤ |
| أغراض الشعر ... ..             | ٢٠٤ |
| أوزانه ... ..                  | ٢٠٥ |
| ابن نباتة المصري ... ..        | ٢٠٦ |
| الشاب الظريف ... ..            | ٢٣٦ |



صفحة

٢٧٤ ... .. كتب العلوم العقلية

٢٧٥ ... .. كتب القصص

## العصر العثماني

٢٧٧ ... .. آثار الفتح العثماني

٢٧٨ ... .. النثر

٢٧٩ ... .. الشعر

٢٨٠ ... .. الشباب الخفاجي

٢٨١ ... .. ابن منجك

٢٨٢ ... .. عبد الله الشيراوي

٢٨٣ ... .. التأليف

٢٨٣ ... .. الزبيدي

٢٨٤ ... .. عبد القادر البغدادى

صفحة

٢٥٨ ... .. ابن تيمية

٢٦٠ ... .. القسطلاني

٢٦١ ... .. ابن هشام

٢٦٢ ... .. ابن مالك

٢٦٣ ... .. السيوطي

٢٦٤ ... .. ابن منظور

٢٦٥ ... .. الفيروز ابادي

٢٦٥ ... .. كتب التاريخ

٢٦٧ ... .. ابن خلكان

٢٦٨ ... .. ابن خلدون

٢٧٠ ... .. المقرئ

٢٧١ ... .. كتب تقويم البلدان والرحلات

٢٧٣ ... .. كتب الأدب

## عصر النهضة الحديثة

٣٠٠ ... .. خزائن الكتب

٣٠١ ... .. المعاهد الدينية

٣٠٢ ... .. الأزهر

٣٠٥ ... .. أشهر رجاله

٣٠٥ ... .. الشيخ عبد الله الشراقى

٣٠٦ ... .. الشيخ محمد الحنفى المهدى

٣٠٧ ... .. الشيخ الأمير

٣٠٨ ... .. الشيخ الشنوائى

٣١٠ ... .. أثر الثقافة فى ذلك العصر

٣١٣ ... .. المطابع

٣١٦ ... .. الصحف

٢٨٦ ... .. الحملة الفرنسية

٢٨٨ ... .. إنشاء المجمع العلمى المصرى

٢٩١ ... .. محمد على

تنظيم العلاقات العلمية بين مصر

وأوروبا

٢٩٣ ... .. مدرسة الطب

٢٩٥ ... .. البحوث العلمية

٢٩٦ ... .. المدارس

٢٩٧ ... .. الترجمة والتأليف

٣٠٠ ... .. مصادر الثقافة فى العصر الحديث

٣٠٠ ... .. الكتائب



## صفحة

## النثر

|                               |     |
|-------------------------------|-----|
| الجبرقي ... ..                | ٣٦٥ |
| تطور النثر ... ..             | ٣٦٦ |
| نهضة النثر الأدبي ... ..      | ٣٦٧ |
| أنواع النثر ... ..            | ٣٦٩ |
| النثر الاجتماعي ... ..        | ٣٦٩ |
| نثر الصحافة ... ..            | ٣٦٩ |
| النثر الأدبي ... ..           | ٣٧٠ |
| جمال الدين الأفغاني ... ..    | ٣٧١ |
| قاسم أمين ... ..              | ٣٧٣ |
| الشيخ علي يوسف ... ..         | ٣٧٤ |
| الشيخ محمد عبده ... ..        | ٣٧٦ |
| الشيخ عبد العزيز جاويز ... .. | ٣٧٧ |
| الدكتور صروف ... ..           | ٣٨٠ |
| أحمد فارس الشدياق ... ..      | ٣٨١ |
| عبد الله باشا فكري ... ..     | ٣٨٢ |
| إبراهيم المويلحي ... ..       | ٣٨٥ |
| المنفلوطي ... ..              | ٣٨٧ |

## الخطابة

|                        |     |
|------------------------|-----|
| عبد الله نديم ... ..   | ٣٩٠ |
| مصطفى باشا كامل ... .. | ٣٩٢ |
| سعد باشا زغلول ... ..  | ٣٩٣ |

## صفحة

## النهضة السورية

|                                    |     |
|------------------------------------|-----|
| إسماعيل : وإتمامه أعمال جده ... .. | ٣٢٥ |
| المدارس والبحوث العلمية ... ..     | ٣٢٦ |
| دار الكتب المصرية ... ..           | ٣٢٨ |
| تقدم العلوم والآداب ... ..         | ٣٢٩ |
| الجامعة المصرية ... ..             | ٣٣٠ |
| الجامعة الأزهرية ... ..            | ٣٣١ |
| المجمع الملكي للغة العربية ... ..  | ٣٣٢ |

## الأدب — خصائصه في هذا العصر

## الشعر

|                             |     |
|-----------------------------|-----|
| السيد إسماعيل الخشاب ... .. | ٣٣٤ |
| الشيخ حسن العطار ... ..     | ٣٣٥ |
| الدرويش ... ..              | ٣٣٦ |
| الشعر من عصر إسماعيل ... .. | ٣٣٧ |
| صفوت الساعاتي ... ..        | ٣٣٧ |
| السيد علي أبو النصر ... ..  | ٣٣٨ |
| الشيخ علي الليثي ... ..     | ٣٣٨ |
| نهضة الشعر ... ..           | ٣٣٩ |
| البارودي ... ..             | ٣٤٢ |
| حفي ناصف ... ..             | ٣٤٣ |
| إسماعيل صبري ... ..         | ٣٤٥ |
| محمد عبد المطلب ... ..      | ٣٤٧ |
| حافظ إبراهيم ... ..         | ٣٤٨ |
| شوقي ... ..                 | ٣٥٠ |



اللغة والأدب

|                       |     |
|-----------------------|-----|
| بطرس البستاني         | ٣٩٧ |
| الشيخ حسين المرصفي    | ٣٩٨ |
| الشيخ إبراهيم اليازجي | ٣٩٩ |
| الشيخ حمزة فتح الله   | ٤٠٠ |
| جرجي زيدان            | ٤٠١ |

التاريخ والجغرافيا

|                    |     |
|--------------------|-----|
| علي باشا مبارك     | ٤٠٣ |
| إسماعيل باشا سرهنك | ٤٠٥ |
| رفيق بك العظم      | ٤٠٦ |
| الشيخ الخضري       | ٤٠٧ |
| المستشرقون         | ٤٠٨ |



## العصر العباسي الثاني

لمحة في الحياة الإسلامية من الوجهة السياسية

أو

نشوء الأوطان السياسية وأثر ذلك في ظهور آداب قومية

كان من أكبر أغلاط الخليفة المعتصم قلة ثقته بالعرب ، وإخراجهم من ديوان الجيش ، وإنشاء جيش عظيم من أرقاء الترك يستعين به عليهم وعلى الفرس أنصار الدعوة العباسية الأولين : فأصبح هؤلاء الأجناد الأتراك بعد حين من الدهر أصحاب الأمر والنهي في الدولة على جهلهم وسفاههم . وتدخلوا هم ونساء القصر في اختيار أرباب المناصب العالية من الوزراء والكتاب والولاة والقضاة ، واستطالوا على الخلفاء يقتلونهم ويَسْمُلُون أعينهم ، ويولّون الخلافة من يشاءون من الصبيان والمستضعفين من أبناء الخلفاء ، فسقطت هيبة الخلافة من أعين الناس واختلّ نظام الحكم في بغداد وسرّ من رأى ، وثارت العامة مرارا فيهما ، وكثر الشغب والهرج ، وامتدت الفتن والثورات إلى الأقاليم ، وعجز الخلفاء والمسيطرون عليهم من الأتراك عن إخمادها .

فحينئذ رأى بعض ولاة الأقاليم أنهم ليسوا دون أتراك دار الخلافة ، حتى يسمعون لهم ويطيعون تلك الأوامر الخرقاء التي تصدر منهم إليهم باسم الخليفة المستضعف فاستبدّ كل منهم بحكم البلاد التي تحت يده



كذلك رأى زعماء الفرس وسلاسل الأكاسرة الذين كانوا يتربصون بدولة العرب الدوائر أن قد آن الأوان لاستنقاذ ملكهم من أيدي العرب وأيدي الأتراك المختصين سلطتهم ، فدعوا إلى أنفسهم ، وأعلنوا استقلالهم عن الخلافة ، وأنشؤا عدة دُول وإمارات كالـدولة السامانية في خراسان والبويهية في فارس والجل ، وتجنح هؤلاء فزحفوا بجيوش الديلم والفرس على بغداد ، وانتزعوا السلطة من أيدي الأتراك ، وحجروا على الخلفاء في قصورهم وكفوا أيديهم عن كل شيء من أمور الملك .

ولما رأى رؤساء القبائل العربية النازلين بسوق الفرات وبالجزيرة وشرقي الشام ما فعل غيرهم قاموا هم أيضا بنصبيهم من الثورة ، واستبد كل منهم بجهته . أما العلويون الذين لم تقترهمتهم يوما عن المطالبة بالخلافة منذ زمن يزيد بن معاوية فقد وجدوا الفرصة مواتية لهم أيضا ، فهبوا ينشئون لهم دولا وإمارات بطبرستان والحجاز واليمن ؛ بل تهبأ لبعضهم — وهم الفاطميون — أن ينشئوا لهم خلافة عتيده امتدت أملاكها من المحيط الاطلنطي إلى شمالي الشام وشرقي الحجاز .

ولهذا السبب عينه رأى أمراء بني أمية بالأندلس الذين كانوا يتيسبون مزاحمة خليفة بغداد في لقبه أنهم أصبحوا بعد أولي منه بهذا اللقب فتلقبوا بالخلفاء وأمراء المؤمنين ، وتبعهم بعض ملوك الطوائف الذين اتوا بعدهم وإن لم يكونوا من قريش ولا من العرب .

وهكذا آل أمر الدولة العباسية إلى تجزئتها إلى دُول وإمارات : إما مستقلة استقلالاً تاماً ، وإما مستقلة استقلالاً فعلياً داخلية مع اعتراف ملوكها وأمراءها بإمامة خليفة بغداد ويتولون الحكم بتقليده ، ويخطبون على المنابر باسمه .



ومع تميز بعض هذه الإمارات من بعض في الجنس واللغة الوطنية لم يستغنوا جميعهم عن اتخاذ العربية الفصيحة لغة رسمية لهم في التعليم والسياسة والقضاء والتعبّد ، إلا أنّ بعضها طال عمرها إلى أكثر من قرن أو قرنين ، وأصبح لها أنظمة في حكمها وفي معيشة قومها وفي ثقافتهم العقلية والأدبية . فافتضت طبيعة الحال أن تصطبغ الآداب العربية فيها بصبغة موضعية قومية ، وإن لم تُخرجها هذه الصبغة عن طبيعتها الأصلية ، من وجهة البلاغة والذوق العربي وطرق الأداء والتفاهم .

وهذه الصبغة القومية التي طرأت على الآداب العربية في كل صُقع ، هي التي نتعرض لها الآن ببعض البحث والبيان .



## الادب العربي في الشرق

### العراق وفارس وخراسان

#### في العصر العباسي الثاني

فتح العرب أواسط آسيا وورثوا فيها ملك دولة عريقة في القدم ذات حضارة راسخة ، ونظام وطيد ، ولغة منتشرة ، وديانة ذات رسوم وتقاليد ، وعصبية للجنس : تلك هي دولة الفرس .

وكل هذه الأمور قوى معنوية عظيمة يقاوم بها المغلوب سلطان الغالب عليه ، القاهر له . وتحمل الغالب على أن يعمل بحذق ودأب على إخماد هذه القوى المعنوية فوق إخماده القوى الحسية ، قوة السيف والساعد .

ولذلك كانت أواسط آسيا مجال نضال دائم بين الفرس والعرب ؛ فقد حاول الفرس استعادة ملكهم بجميع هذه القوى وابتدعوا بالقوة الأولى الأصلية ؛ وهي قوة السيف ، نخابت تجربتهم مرارا . وبقى العرب قابضين على ناصية الحكم والسيطرة لشجاعتهم وقوة عصبيتهم ، فأصبح النزال بين الأمتين مقصورا على مغالبة كل منهما للآخرى بما عندها من القوى المعنوية . ولتانة دين الإسلام وعظمة اللغة العربية وافتراض التعبُّد بها على من يدخل في الإسلام غلبت العرب أيضا بدينها ولغتها . فنُسِختَ المجوسية ، واضمحلت آداب اللغة الفارسية القديمة ، ونُقِلت إلى العربية ، وامترجت حضارتا الأمتين ، فلم تعودا موضع نزاع . وبقيت العصبية الجنسية والحمية الوطنية على الرغم من كل هذه الحوادث راسخة في رءوس دُعاة الفرس وسلائل ملوكهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، حتى إذا فترت عصبية



العرب بقاصية المشرق وبادت عناصرهم فيه أو اندغمت لقلتها في العناصر الوطنية بالتأرجح والتناسل ، وكثر إقطاع الخلفاء العباسيين هؤلاء الدهاة من الفرس ولايات الشرق طعمة لهم ولذريتهم ، هبوا ينشئون ممالك وإمارات وطنية على أديم مملكتهم الفارسية القديمة ، ولكن عملهم جاء متأخرا جدا فما استعادوا بعض ملكهم حتى وجدوا الإسلام قد نسخ دينهم ، والعربية حروفها هضمت علومهم وآدابهم وحروف لغتهم بما لا يمكن مقاومته بحال من الأحوال ، فلم يسعهم إلا أن يخضعوا للخليفة الشرعى الواجب طاعته ، واستمداد الحكم منه ، وكثير منهم اتخذ الإسلام ونصرتة والدعوة إليه أو إلى التشيع لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم إما ذريعة إلى تأييد دولته وتمكين سلطانه بإرضاء العامة ، وإما رغبة في الثواب ناشئة عن اعتقاد صحيح للإسلام وإخلاص له .

ولكن الإسلام الذى غلب على أعظم شئ في الأمم التى بسط عليها سلطانه لم يغلب العصبية الجنسية في الأمم القويّة كالفرس والترك والبربر .

لذلك نرى الفرس ، بعد أن أنشؤا لهم دولا مستقلة في أواخر القرن الثالث وكلّ الرابع ، شرعوا في تجديد آدابهم بلغتهم الفارسية يكتبونها بحروف عربية وفي نقل علوم الإسلام إليها فنجحوا في الأولى بعض النجاح وأخفقوا في الثانية؛ إذ كان ذلك يستدعى وضع كثير من الاصطلاحات والرجوع إلى الإحاطة بلغة كانت قد نُسيت أو كادت وخلفتها عامية فارسية لا تنهض بمثل هذا العمل العظيم . هذا إلى أن علوم الإسلام مُستَمَدَّة من القرآن والحديث وهما في قِمة اللسان العربى ، وأن الرابطة بينهم وبين الخليفة وبقية الممالك الإسلامية ليست إلا باللسان العربى ؛ لسان الحضارة والسياسة العامة في ذلك الزمان . نعم إن بعض البيوت من الترك ورث ملك هذه البلاد : كآل سبكتكين بغزنة ، ومن خلفهم من الغورية ، وكآل سلجوق الذين استولوا على أكثر ممالك الشرق والعراق والحزيرة ، وتولد من سلالهم ومماليكهم إمارات كثيرة في الشرق والعراق والحزيرة والشام . وكبيت



خوارزم شاه ، إلا أنهم اضطُروا إلى مُجَاراةِ رعاياهم فاصطبغوا في آدايمهم بصبغة فارسية ، بل كانوا أشدَّ عصبية من الفرس في إحياء آداب الفرس .

ولذلك لم تجد هذه الممالك المستقلة بُدًّا من اتخاذه العربية لغة رسمية للدين والعلم والأدب والسياسة والإدارة دهرًا طويلا ، وزادها في ذلك رغبةً استيلاءً أكثرها على بغداد مقرَّ الخلافة ، ومنازعةً الخليفة السلطة فيها وغلبتها على بعض البلاد التي أصبحت عربية بحتة كالعراق والجزيرة ، فطاول ملوكها الخلفاء في تعلُّم العِلْم والأدب والفصاحة ونافسوهم في اقتناء الكتب العربية وتقريب العلماء إليهم وتفتحهم المال العظيم ، واتخاذ الوزراء ورؤساء الدواوين من عليّة الكُتَّاب وفحول البلاغة . بل نافس بعض هؤلاء بعضا في تزيين كلِّ منهم مملكته بخدمة نوابغ العلماء والأدباء . فبقيت العربية وآدابها وعلومها في هذه البلاد رائجة السوق مدة قرنين ممسوحةً بمسحة فارسية لم تُخْرِجها عن مكانها . غير أنه في غضون هذين القرنين كانت الفارسية الحديثة نمت وترعرعت وظهر لها آداب وشعر حتى زاحمت العربية الفصيحة في الأدب والعلم بمساعي السامانيين ثم الغزنويين ثم السلجوقيين ، فأخذت لذلك العربية وآدابها تتراجع إلى العراق والشام ومصر ، وبقيت مقصورة في الشرق على علماء الدين . أما بقايا العناصر العربية التي كانت تتكلم بالعربية فقد انقرضت هي . ولسانها شيئا فشيئا واندجمت في غمار الأعاجم أخريات العصر العباسي .



## الشعر

انفراد بغداد بجميعة الأدب في العصر العباسي الأول — كانت بغداد في العصر العباسي الأول مركز الثقافة في الدولة ، ومُنْبَتَ العلم والأدب ، وكان العلماء والأدباء والشعراء في الأقاليم والأطراف يرحلون إليها ليعرضوا مواهبهم ، وينشروا علومهم وفنونهم ، وكانوا يجدون هناك آذاناً تستمع لهم ، وعقولا تقدر فضلهم وتعرف منزلتهم ، فيصلون إلى الشهرة من أقرب طريق ، ويسير ذكركم في الآفاق وتُسَدُّ إليهم الرحال ، وتَدِرُّ عليهم أخلاف الرزق . فرب عالم مغمور في بلد بعيد عن حاضرة الإسلام ، رأى أن العود في أرضه نوع من الخشب ، فهاجر إلى بغداد ، فما كاد يستقر بها حتى برز فضله ، وصعد نجمه . ولنا من الشعراء الكثيرين الذين وردوا على بغداد في عهدها الزاهر فارتفع شأنهم ، وسما قدرهم ، شواهد ناطقة بما تقول .

ونحن نعرف كثيرا من أخبار الأعراب الذين كانوا يفدون على الخلفاء ورجال الدولة بالبيت أو البيتين أو بطرائف البادية ونوادرها ، فيقبلون إلى أهلهم مسرورين ، ويرجعون إلى ذويهم بجر الحقائق . وكان الخلفاء والوزراء ومن إليهم يتنافسون في العطايا والصلوات ، ويجهّدون جهدهم في معاضدة النابغين ، والإغداق على المجيدين . والأدب العربي فياض بأخبار هؤلاء ، وأخبار جودهم على الشعراء والأدباء ، مع ما فيها من إغراق ومبالغة تتجاوز حد التصديق . لذلك لا نكاد نسمع في العصر العباسي الأول بشهرة شاعر أو كاتب في أطراف الدولة . وهذا لا يدل على أن الولايات كانت خالية من النبوغ ، فقرا من العبقرية . فكم من أدباء فيها قعد بهم الجحْد ، وعُمِيَتْ عليهم أسباب الشهرة ، فقبعوا في بلادهم راضين بالكفاف من الرزق في ظل السلامة والنجول .



انقسام الدولة من أسباب قوة الشعر — فلما انقسمت الدولة أوطاناً واستقلت أطرافها ، وَجَدَ الشعرُ له أوطاناً عِدَّةً ، وتعددت طرقُ الشهرة أمام الأدباء والشعراء ، واتَّسع حولهم مجالُ الاختيار ، وبعد أن كان الشاعر لا يجد أمامه غيرَ بغداد ، أصبح الآن يستطيع أن يختار الأمير الذي يزوره ، والبلد الذي ينزل به . ومن العجيب أن انقسام الدولة وضعفها هنا كان سبباً في قوة الأدب ونشاطه ، مع أنه من القواعد المعروفة في تاريخ الأدب أنه يَقْوَى ويضعف بقوة الدولة وضعفها ، وذلك لأن ضعف الدولة هنا سَبَّبَ انقسامها أوطاناً ، وذلك اقتضى أن يكون لكل وطن ملكٌ أو أميرٌ مَلَأَهُ الرَّهْوُ ، وأراد أن يجمع لديه أسباب الملك والعظمة ، وأن يُعيد إلى العلم والأدب أيامهما ، وأن ينافس الأمراء حوله ، وأن يجعل إمارته مباءة الأدباء والعلماء ، وأن يرسل اسمه علماً في الآفاق ، وقد عَرَفَ أن الشعر خير أسباب الإذاعة ، وأعظمُ وسائل الشهرة ، فأغرى الشعراء بزيارته والإقامة في كنفه ، وقيدهم في ذراه بإحسانه ، وغمرهم بِصِلاته .

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلْتَقِطُ الْحَبَّ      سَبُّ وَتُغَشَّى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

وهكذا كان يصنع كلُّ أمير ، فارتفع شأنُ الشعر وجودُ الشعراء فيه ، وأبرزوا مكنون بدائعهم ، وتنافسوا وتسابقوا . لهذا نهض الشعر نهضة مباركة وبلغ منزلة عالية .

وسبب آخر دعا إلى رقي الشعر خاصة والآداب عامة في هذا العصر ، ذلك أن الغرس الذي نبت ونما في العصر العباسي الأول آتَى أَكْلَهُ في هذا العصر ، وأن جميع الوسائل التي بُذِلَتْ في إنهاض العلوم والفنون أيام العباسيين الأولى ظهرت آثارها ناضجة ، وأن إحياء العلوم والإقبال على ترجمة آثار الأولين من فرس وروم ويونان في عهود المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم ظهر في النابذة العربية في العصر الثاني ممترجا بروحها ، مخالطاً أفكارها ومشاعرها ، بعد أن تم



نَضْبُجُهُ ، وَمَرَّ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَكْفِي لِمَثَلِهِ وَهَضْمِهِ ؛ فَتَجَلَّتْ آثَارُ هَذِهِ الثَّقَافَةِ الْقَدِيمَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ ، وَبَرَزَتْ نَتَائِجُ تِلْكَ الْجُهُودِ الْمَاضِيَةِ جَلِيَّةً فِي مَعَانِيهِمْ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَتَلَوْنُ الشَّعْرِ بِلَوْنٍ جَدِيدٍ — وَلَا سِيَّامَا فِي صَدْرِ هَذَا الْعَصْرِ — يَدُلُّ عَلَى عِرَاقَةِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَتَمَكُّنٍ فِي أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَظْهَرُ فِيهِ آثَارُ الْبَدَاوَةِ إِلَّا بِقَدْرِ الْمَحَافِظَةِ عَلَى جَمَالِ الْأَسْلُوبِ وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ .

الأغراض الجديدة : الحكمة ، الفلسفة ، التصوف — فانت ترى في هذا العصر شعرا فلسفيا ، وترى فيه شعرا صوفيا ، كلاهما أغرق في الفلسفة والتصوف ، كما في شعر المتنبي والمعري وابن الفارض . وقد كان الشعراء منذ الجاهلية يأتون بالحكمة ، ويرسلون المثل على الفطرة الخالصة والسليقة الصافية . فلما جاء العصر العباسي الأول وتُرجمت علوم الأوائل وفلسفتهم أخذ الشعراء يتظرفون بباراز شيء من ذلك في شعرهم ، ولكن ذلك لم يكن كثيرا ، ولم يكن متغلغلا في قرارة نفوسهم ، فلما جاء شعراء العصر الثاني ظهرت الفلسفة قوية في شعرهم ، وكاد المنطق يقضي فيه على روعة الخيال ، وأصبحت القصائد والمقطعات تؤسس على غرض فلسفي أو صوفي ، وأدخلوا اصطلاحات العلوم العقلية والرياضية في عباراتهم وتشبيهاتهم ، حتى لقد زعم قوم — لهول ما رأوه من ذلك — أن الشعراء في هذا العصر أفسدوا الشعر وقصّوا على ما يتحلى به في عصوره الأولى من سذاجة الخيال وجمال البداوة وروعة البیان .

قال ابن خلدون : ”ولا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ، ولهذا كان شيوخنا (رحمهم الله) يعيرون شعرا أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيرون شعر المتنبي والمعري لعدم النسيج على الأساليب العربية “ .

ومن أشهر شعراء الفلسفة غير من ذكرنا ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطيب . ومن أشهر شعراء التصوف الحلاج والشبلي والقشيري .



الشعر التهكمى والهزلى — وكثر فى هذا العصر الشعرُ التهكمى والهزلى ، كما فى شعر ابن حجاج وابن سُكَّرة وأبى الرِّقَمَقْ وصريع الدِّلاء .

التراسل بالشعر والتهانى — واستجدَّ أو كثر فى هذا العصر التراسل بالشعر ، فخلَّ الشعر محلَّ الكتابة ، وكثرت قصائد التهانى بالأعياد والمواسم ، التى تعددت أيامها فى العهد الفاطمى .

وصف الوقائع الحربية — كما شاع وصف الوقائع الحربية لكثرة الحروب بين المسلمين وغيرهم من الروم والصليبيين . وقال الشعراء وأفاضوا فى التهنئات بالفتوح والحض على الجهاد .

الشعر الشامى والشعر المصرى — ويمتاز الشعر الشامى — ولا سيما فى طليعة هذا العصر — بقوة الأسلوب وبلاغته وكثرة المعانى ودقتها ، واتساع مدى الخيال ، وذلك لقرب الشام من بلاد العرب مهد العربية ، ومن العراق منشأ الحضارة الإسلامية .

وقد كثر فى الشام أوّل هذا العصر الشعراء الوصّافون الذين لا يُشَقُّ لهم غبار ، وهم معظم من اتصلوا بسيف الدولة كالتَّسْرِى الرَّفَاء وكُشَاجِم وغيرهما .

وقد بلغ الشعرُ منتهى رُقيّه فى صدر هذا العصر ، ثم أخذ فى التَّدَلُّ شيئاً فشيئاً ، وكأنه أراد أن يستعِض عن نخامة الأسلوب ودقة المعانى بالركة والانسجام ، فنجح أكثر النجاح حتى وصل إلى غاية الرِّقَّة بظهور بهاء الدين زهير وأمثاله فى الدولة المصرية أيام الصّلاحيين ، وبهذه الميزة وحدها فاق الشعرُ الشامى وظهر عليه .

تأثر الشعر بالصناعة اللفظية — وظهرت العناية بأنواع البديع فى هذا العصر ، وتعمَّدها الشعراء تعمُّدًا لتحلية أشعارهم وتزيينها ، وقد كانت بداية الاهتمام



بالبدیع فی العصر الأول . فكان مسلم بن الولید یُجَمِّلُ شعره بالبدیع أحياناً ، ولكنه لم یُغْرِقْ ولم یَتَجَاوِزِ الحد ، فكان شعره رفیع القدر بعيداً عن التكلف ، ثم تلاه أبو تمام فأولع بالبدیع ، وملك علیه الجناسُ نفسه ، وكادَ یُقْسِدُ علیه شعره ، لولا بقية من البادية فيه ، ولولا ذوقُ أصیل یحول بينه وبين التدهور : وقصیدته البائية البديعة التي قالها فی فتح عمورية — وهی من عیون قصائده — تتجلى فیها النزعة إلى الجناس والاشتقاق ظاهرة ، وإن كان شیء من ذلك لم یذهب بجهاها فی رأى أهل الأدب ونقّدة الكلام .

وقد یَسَخُفُ أحياناً فیقول :

إِنَّ مَنْ عَقَّ وَالِدِيهِ لَمَلْعُو      نَ مَنْ عَقَّ مِنْزِلًا بِالْعَقِيقِ

فیأتی بعقوق الوالدين فی باب النسیب من غیر مناسبة لیجناس بينه وبين العقیق .

وكان البحرى یُقَصِّدُ إلى البدیع أحياناً ، ولكن دىاجته البديعة كانت تأبى أن یؤخذ علیها شیء من تكلف الصناعة ، أو تعمّد ما لا یجرى مع الطبع السلیم . فأنّت تقرأ له القصيدة فیفّر من بین یديك بهض أبياتها ، وقد تحلّى بالبدیع ، من غیر أن تلمحه ، لأنك لم تجد فيه نبوءاً ولم تجد فيه حشواً ولم تجد فی ألفاظه قلقاً ، كقوله :

وَذَكَّرْنِيكَ وَالذِّكْرَى عَنَاءٌ      مَسَاهِيهِ فَيْكِ بِنَةِ الشُّكُولِ

نَسِيمُ الرُّوضِ فِي رِيحِ شَمَالٍ      وَصَوْبُ الْمِزْنِ فِي رَاجِ شَمُولِ

ثم جاء ابن المعتز ، وألّف فی البدیع ، وأغرم به بعض الإغرام ، ورقّش به شعره ، ولكن دقة صناعته ، وروعة بيانه ، وحسن تشبيهاته ، حالت دون أن يهون شعره ، ودون أن يُسَقِطَهُ عَبَثُ الصناعة اللفظية .



وإذا رجعنا إلى هذا العصر رأينا للبديع سوقاً رائجة ، وحظاً موفوراً ، فأكثر الشعراء منه وتعمدوه ، كقول الواواءِ الدمشقي :

يَطُوفُ بِرَاحٍ رِيحُهَا وَمَذَاقُهَا      نَسِيمُ الصَّبَا وَالْعَيْشُ فِي زَمَنِ الصَّبَا

وقول أبي فراسٍ في الفخر :

إِنِّ أَسِيفَانَا الْقِصَارَ الدَّوَامِي      صَيْرَتْ مُلْكَنَا طَوِيلَ الدَّوَامِ  
نَحْنُ قَوْمٌ لَنَا سَدَادُ أُمُورٍ      وَاصْطِلَامُ الْأَعْدَاءِ مِنْ وَسْطِ لَامٍ<sup>(١)</sup>  
وَاقْتِسَامُ الْأَمْوَالِ مِنْ وَقْتِ سَامٍ      وَاقْتِحَامُ الْأَهْوَالِ مِنْ وَقْتِ حَامٍ

وقول أبي الفتح البُستِي :

إِذَا تَحَدَّثْتَ فِي قَوْمٍ لَتُؤَنِّسَهُمْ      بِمَا تُحَدِّثُ مِنْ مَاضٍ وَمِنْ آتٍ  
فَلَا تُعِدْ لِحَدِيثٍ إِنَّ طَبْعَهُمْ      مُوَكَّلٌ بِمُعَادَاةِ الْمُعَادَاتِ

(١) اللام جمع لأمة وهي الدرع .



## الشعر في فارس والعراق وخراسان

كان للانقلاب السياسي وضعف دولة بنى العباس في القرن الثالث الهجري ، وانقسام الدولة إلى ممالك وإمارات ، أن تفرقت جهود العلماء والأدباء التي كانت مدينة بغداد مقراً لها أكثر من قرنين من التاريخ الإسلامي . فانتقل كثير من الأدباء والشعراء إلى خراسان وتركستان ، حيث أنشأ السامانيون دولتهم ، وإلى فارس والعراق ، حيث أقام بنو بويه هناك ملكهم ، وذهب جماعة منهم إلى أفغانستان والهند مع الدولة الغزنوية ، وبعضهم إلى جرجان مع الدولة الزيارية . وقد كان التنافس بين هذه الدول عظيماً على ما هو معروف ، وأكثر ما كان ذلك موجهاً إلى نشر العلوم والآداب . وكان ملوك هذه الدول يحاكون بذلك مركز الخلافة في بغداد أيام عصرها الزاهر . فكان الشعر أسبق علوم الأدب انتشاراً ، حتى كان كثير من الأمراء يقول الشعر ويحيد نظمه : كلوك بنى بويه الذين كانوا فضلاً عن ذلك يفسحون صدورهم للأدباء ويستوزرون الكتاب والشعراء ، كالصاحب ابن عباد ، وزير مؤيد الدولة ، وسابور بن أردشير وزير بهاء الدولة في العراق وغيرهم من ملوك الدول الأخرى الذين كانوا يعملون على نشر الآداب والشعر . فكان للشعراء عندهم منزلة رفيعة ، وكثير من هؤلاء الشعراء كان يعيش من شعره ، ويرتقى إلى منصب الوزارة . وكثير منهم كان من الأعاجم ، فكثرت في شعرهم مدح الملوك والسلاطين والتملق لهم ، وتنافسوا في الحظوة لدى هؤلاء السلاطين . فهجا بعضهم بعضاً ، وكثرت في الشعر التهم والتملق . وكان من بينهم من عرف الآراء الفلسفية والاجتماعية من الكتب التي ترجمت ، والمعاني التي نقلت إليهم ، فذكروها في شعرهم ، واشتمل الشعر على كثير من هذه المعاني الجديدة . ولكن الاضطراب والحروب التي وقعت بعد بين السلاطين والأمراء كان عاقبتها أن عم البؤس ونال الشعراء شئاً كثيراً من ذلك ، فكثرت الشكوى في الشعر من الأيام وجورها



والزمان وبؤسه . وأحيانا كان يسود الوضعُ على الشريف ، فهزَّت الأريحيةُ بعضَ الشعراء إلى الفخر بأنسابهم وأحسابهم ، وكَثُرَتْ هذه المعانى فى الشعر . وكان من بين الشعراء الفلاسفة والأطباء والفقهاء والعلماء . فكان الشعر يحتوى على بعض الآراء الفلسفية والعلمية ، وظهرت فيه أساليبُ الفقهاء والعلماء ، فضعتُ ديباجتهُ لعنايتهم بالمعانى دون الخيال .

ومع ما كان هناك من ذبوع الثقافة الفارسية ، والعناية بأدب الفرس وترجمة كثير من الشعر الفارسيّ ، والأمثال الفارسية إلى العربية وتسرُّب بعض المعانى الدخيلة فى الشعر العربى ، كانت الصبغة العربية غالبة على الأدباء كما غلبت الروح العربية على الكتاب النافرين من الفرس وغيرهم من الأعاجم . وكانت أساليب الشعر العربى مالكةً منهم زمام التفكير ، فلم يخرج الشعراء عن طريقة الشعر العربى إلا فى نشر بعض الآراء ، والتعمُّق فى الصناعة أحيانا ومنج الحكم والأمثال بالشعر وعدم قصر الشعر على الخيال .

وقد ظهرت فى شعر شعراء هذا العصر الأخيلى والأوصاف التى اقتضتها معالم الحضارة ، وأصبح الشعر صناعة كالنثر وبراعة فى تجميل الكلام ، وزادت محاكاة بعض الشعراء بعضا .

فكان الشعر فى هذا العصر يشتمل على كل المعانى المعروفة والأغراض المألوفة من نسيب ووصف وحكم وأمثال وحماسة وغر وعتب ، وشكوى وفكاهة . وكان أسلوبه فى جملة أسلوبا صناعيا لامتلاء نفوس الأدباء من كتاب وشعراء بالصناعة اللفظية ، فامتلاء بأنواع المحسنات اللفظية والمعنوية : من أنواع البيان والبدیع ، ولم يكن الشعر فى كثير من أحواله إلا نوعا من التسلى والتفكك ، والمبالغة فى المدح والذم والشكوى . ولكن كثيرا منه كان من الشعر الفنى الجميل والكلام البليغ .



## السرى الرفاء

السرى بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء ، من شعراء الموصل المشهورين نشأ بالموصل وكان وهو صبي يرفو ويطرز في دكان هناك ، ويختلط بالشعراء وأهل الأدب ، حتى ولع بالشعر وعالج نظمه ، وجاد شعره وذاع أمره بين الشعراء . فقصد سيف الدولة بن حمدان بحلب ومدحه ، وأقام هناك إلى أن مات سيف الدولة ، فانتقل إلى بغداد ومدح الوزير المهلب وغيره من كبار الرجال ، وأصبح من المتكسبين بالشعر في المشرق . فكان يعيش من مدائحه ، فأيسر بعد أن كان فقيرا معدما وهو بالموصل . ولما رجع إلى بغداد سار شعره مسير الأمثال في الشام والعراق وخراسان ، حتى بزغ غيره من شعراء زمانه . وكانت وفاته في سنة ٣٦٢ هـ على أرجح الأقوال .

شعره — كان السرى الرفاء أول أمره يخاطب العامة من الناس في الأسواق . ولما صار من الشعراء المجيدين عاشر الخاصّة ، فجمع في نفسه إلى الفكاهة الحلوّة وخفة الروح ، حسن الأدب ورقة التعبير وسعة الخيال . وقد كان منذ نعومة أظفاره دقيق الإدراك ، فلما عالج نظم الشعر جمع شعره بين الرقة والسلاسة وجزالة المعنى . وكان يستمد ذلك مما يحيط به ويراه في المجالس والمجامع ومخالطة الناس . ولكنه لم يأت في شعره بشيء يدل على قوة التفكير وسعة الاطلاع ، أو الفلسفة كما في شعر الشريف الرضي . لأنه لم يتلق العلم عن أحد ، ولم يُعَن بالاطلاع على غير الشعر الذي كان من هواته ، إذ كان يميل بطبعه إلى جمال القول ، ويدرك أسرار بلاغة الكلام . فلما قرأ الشعر البليغ ، وامتلاّت نفسه به ، أخذ في مجارة كبار الشعراء ومحاكاتهم في أساليبهم ، حتى امتاز عن غيره من شعراء زمانه .

أما أنواع شعره فهي الغزل والهجاء والوصف والملاح والدعابات ، وقد امتلاّت كلها برقيق المعاني . فكل شعره أو جلّه رقيق ، وذلك ما يمتاز به عن



سواه ، كما يمتاز شعره بطرق الموضوعات التي كانت تُحيط به في معاشرته الناس ، وعدم الإكثار من الموضوعات الخيالية .

أما أسلوبه فأسلوب سلس شائق ، لا تكاد تجد به شيئاً من التكلف . على أنه يميل أحياناً إلى الصنعة ، ولكنها صنعة خفية تدعو إلى الإعجاب .

فما قاله في العتاب يتهكم :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| قد كانت الدنيا عليك فسيحة    | فاليوم أضحّت وهي سمّ خياط  |
| أنّظفني وجنّاة عيشك حلوة     | بخنيت مرّ العيش من إسقاطي  |
| وعلمت ، إذ كلّفت نفسك غايي ، | أنّ الرياح بعيدة الأشواط   |
| أتروني وعلى السماك محاتي     | شرفاً وبين الفرقدن صراطي ؟ |

فقال يهجو ويتهكم على شاعر قيل إنه كان جزارا بالمدينة وسرق من شعره :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| أرى الجزار هيجني وولّي    | فكاشفني وأسرع في انكشاف   |
| ورفع شعره بميوس شعري      | فشاب الشهد بالسّم الزعاف  |
| لقد شقيت بمدّيتك الأضاحي  | كما شقيت بغارتك القوافي   |
| توعر نهجها بك وهو سهل     | وكدر وردّها بك وهو صافي   |
| فتكت بها مثقفة النواحي    | على فكر أشدّ من الثفاف    |
| لها أرج السوالف حين تجلّي | على الأسماع أو أرج السلاف |
| جمعن الحسين فين رياح      | معنبرة وأرواح خفاف        |
| وما عدمت مغيراً منك يرمي  | رقيق طباعها يطباع جاني    |
| معان تستعار من الدياحي    | وألفاظ تقدّ من الأثافي    |
| كانك قاطف منها ثماراً     | سبقت إليه إبان القطاف     |
| وشر الشعر ما أداه فكر     | تعرّ بين كدّ واعتساف      |



وقال في عتاب صديق أفسى سرا :

رَأَيْتُكَ تَبْرِي لِلصَّدِيقِ نَوَافِدًا (١)  
وَتَكْشِفُ أَسْرَارَ الْأَخْلَاءِ مَازِحًا  
سَاحِفُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَائِنًا  
وَأَلْقَاكَ بِالْبَشْرِ الْجَمِيلِ مُدَاهِنًا (٢)  
أَنْتُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ مِنْ زُجَاجَةٍ  
عُدُّوكَ مِنْ أَمْثَالِهَا الدَّهْرَ آمِنًا  
وَيَأْرُبُ مَرْجِحَ رَاحٍ وَهُوَ ضَغَائِنُ  
عُهُودِكَ إِنَّ الْحُرَّ لِلْعَهْدِ صَائِنُ  
فَلْيَ مِنْكَ خَلٌّ مَا عَرَفَتْ مُدَاهِنُ  
تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ

وقال في وصف الورد :

لَوْ رَحَّبْتُ كَأْسَ بِنِي زَوْرَةٍ  
جَاءَ نَخْلَنَاهُ خُدُودًا بَدَتْ  
وَعَطَّرَ الدُّنْيَا فطَابَتْ بِهِ  
لَرَحَّبْتُ بِالْوَرْدِ إِذْ زَارَهَا  
مُضْرِمَةً مِنْ تَجَلَّى نَارَهَا  
لَا عِدَمَتَ دُنْيَاهُ عَطَّارَهَا

وقال يدعو صديقا له ويصف غرفة بالموصل على النهر . ويصف قِدرًا

وكانون نار :

لَنَا غُرْفَةٌ حَسَنَتْ مَنَظَرًا  
تَرَى الْعَيْنُ مِنْ تَحْتِهَا رَوْضَةً  
وَيَنْسَابُ قُدَامَهَا جَدُولُ  
وَرَاحٍ كَأَنَّ نَسِيمَ الصَّبَا  
وَدَهْمَاءَ (٤) تَهْدِرُ هَذِرَ الْفَنِيبِ  
تَجِيْشُ بِأَوْصَالٍ وَخَشِيَّةٍ (٦)  
كَأَنَّ عَلَى النَّارِ زَنْجِيَّةً  
وَطَابَتْ لِسُكَّانِهَا مَخْبَرًا  
وَمِنْ فَوْقِهَا عَارِضًا مُمَاطِرًا  
كَمَا ذُعِرَ الْأَيْمُ (٣) أَوْ نَفَرًا  
تَحْمَلُ مِنْ نَشْرِهَا الْعَنْبَرَا  
قِي (٥) إِذَا مَا امْتَطَتْ لَهَبًا مُسْعِرَا  
رَعَتْ زَهْرَاتِ الرُّبَا أَشْمَرَا  
تَفْرَجُ ثَوْبًا لَهَا أَصْفَرَا

(١) سهام نوافذ نافذة . (٢) داهنه أظهر خلاف ما يبطن . (٣) الأيم الحية . (٤) يراد بها القدر

ودهما . سوداء . (٥) الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته ولا يركب . (٦) تغل يقطع من لحم حيوان وحشى .



ومن قوله يذكر صناعته :

وكانت الإبرة فيما مضى      صائنةً وجهي وأشعاري  
فأصبح الرزق بها ضيقاً      كأنه من ثقبها جاري

وقال في المدح :

ألبستني نعماً رأيت بها الدجى      صبحاً وكنت أرى الصباح بهما  
وغدوتُ يحسدني الصديقُ وقبلها      قد كان يلقاني العدو رحيماً

ومن غزله الرقيق قوله :

بنفسي من أجود له بنفسي      ويخلُ بالتحية والسلام  
وحثني كامنٌ في مقتلتيه      كئون الموت في حدّ الحسام



## مهيار الديلمي

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوِيَه عاش ببغداد وتوفي سنة ٤٢٨ هـ . أصله من بلاد الديلم . كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضي ؛ ولازمه وأخذ عنه الأدب والشعر ، حتى تخرج عليه وحاكاه في أسلوبه وطول قصائده وسعة خياله ، وهو أحد الكتاب المشهورين ، والشعراء المطبوعين ، اشتغل بالكتابة في ديوان الخلافة ببغداد .

أما شعره فيشتمل على أكثر الأنواع المعروفة ، وقد امتلأ بالمعاني ودقة الإدراك وكثير من معانيه طريف مبتكر ، وأكثر ذلك في مدائحه . وله صيغة خاصة في شعره تدل على ما بقي في نفسه من أثر الحياة الفارسية وميله إلى جعل شعره وصفالما يحيط به وما يحول بخاطره .

أما أسلوبه فأسلوب رقيق سلس ، بعيد عن الغرابة والتعموض ، وقد جرى الشريف الرضي في كثير من خصائص ديباجته .

فن قوله إلى أبي طالب بن أيوب في الزيرور .

|                                      |                                      |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| بَلَوْتُ هَذَا الدَّهْرَ أَطْوَارَهُ | عَلَى طَوْرًا وَمَعَى تَارَهُ        |
| وَبَصَّرْتَنِي كَيْفَ أَخْلَاقُهُ    | تَجَارِبُ كَشَفْنَ أَخْبَارَهُ       |
| فَصَرْتُ لَا أَنْكُرُ إِحْلَاءَهُ    | يَوْمًا ، وَلَا أَنْكُرُ إِمْرَارَهُ |
| لَا هُوَ إِنِّ شَدَّ رَأَى كَاهِلِي  | رِخْوًا وَلَا نَفْسِي خَوَّارَهُ     |
| وَلَا تَصْبَانِي مِنْ سَلَمِهِ       | زَخَارِفُ لِلْعَيْنِ غَرَّارَهُ      |
| مَنْ عَازِرِي مِنْهُ عَلَى أَنِّي    | ضُرُورَةٌ أَقْبَلُ أَعْذَارَهُ       |



ومنها في المدح :

لولا بنو أيوب لولا هم  
قوم إذا استنجدتهم لم أخف  
ما وجد المظلوم أنصاره  
سهمًا ولا ناصلي القاره (١)  
وبت فيهم حيث لا يؤكل الجار ولا تنهك الجاره  
البيت لا ينكر طرافه  
والليل لا يقدم سماره  
كل غضوب (٣) الغلي هداره  
أعشاره تلعن حراره  
تري الجزور العبل في قلبها  
إن صم عنك الناس أو أغمضت  
فتحت منهم في مغاليقه  
في الخطب عين وهي نظاره  
أسماع ذا الدهر وأبصاره

ومن قوله يتغزل :

هيني أستر النجوى  
لساني فيك أمالكه  
أليس الدمع يفضحني  
ودمع العين يملكني

ومن قوله :

كم صاحب النار لي في قلبه  
واريته أنى وإياه يد  
فإذا ظفرت من الزمان بما جدي  
خالبت (٤) بارق وجهه المتللا  
مع أختها فيما أهم وأعضلا  
فأنخ إليه وكن عليه معولا

وقال :

يذنب دهر ويسقي  
والعيش لون يومًا ولون  
وربما حنت الليالي  
ويستقيم الألى يميل  
كلاهما صبة تحول  
ثم لها مرة غفول

(١) القارة قبيلة مشهورة بالرماية • (٢) يسنى : يرفع • (٣) يريد كل قدر لها عند الغليان

ثورة كثورة الغضبان وصوت كصوت البعير • (٤) الخالبة المخادعة •



فاسْمِرِ فَإِنَّ الدُّنَا طَرِيقٌ أَسْهَلُ مِيلٌ وَشَقَّ مِيلٌ  
لَا غَرَوْ أَنَّ تَظْلَعَ <sup>(١)</sup> الْمَطَايَا فِيهَا وَأَنْ يَغْلَظَ الدَّلِيلُ  
وَالرَّجُلُ الضَّرْبُ <sup>(٢)</sup> مَنْ تَسَاوَى فِي نَفْسِهِ الصَّعْبُ وَالذَّلُولُ  
فَهُوَ إِذَا انْحَطَّ أَوْ تَعَالَى لَا إِلَهَ مِنْهُ وَلَا انْحُمُولُ  
كَالسَّيْفِ لَا زِينَهُ التَّحَلَّى يَوْمًا وَلَا عَيْبُهُ الْفُلُولُ

---

(١) تخرج . (٢) الضرب: الشديد .



## أبو الفتح البستي

أبو الفتح علي بن محمد البستي من كبار الكتاب المعروفين بحسن الصناعة ، والإمعان في أنواع البديع ، ولا سيما الجناس . وهو أيضا شاعر مُقَنَّ يميل إلى الصنعة والتعمُّل . وقد كان من كبار أدباء زمانه وأعرفهم باللغة والأدب . كتب لصاحب مدينة بُسْت (١) . وبعد أن دخلت هذه المدينة تحت حكم أبي منصور سُبُكْتِكِين كان كاتباً له ، فَوَكَّلَ إليه كثيراً من أمور الديوان وأمراره . فكان معظمًا مبدلاً معترفاً له بالفضل . وقد توفي ببخارى سنة ٤٠٠ هجرية .

وله فَرَقَرٌ نثرية قصيرة مُسَجَّعة تدخل في باب الأمثال ، رَصَّعَها بأنواع الجناس ، ذات معانٍ مُتَّعَةٍ ، تظهر فيها الصنعة كثيراً ، وقد اقتبس بعضها من الحكم المعروفة ، أو الأمثال المضروبة . كقوله :

”عادات السادات ، سادات العادات . مَنْ أصلح فأسده ، أرغم حاسده . مِنْ سعادة جدِّك ، وقوفُك عند حدِّك . الدَّعة رائد الضَّعة . مَنْ يكن لك نسبياً ، فلا ترجُ منه نصيباً . إذا بقي ما فاتك ، فلا تأس على ما فاتك “ .  
ومثل ذلك كثير في كلامه .

أما شعره فهو شعر صناعي أيضاً . ولكنه مملوء بالمعان ، فهو من الشعراء الفنيين الذين يُعَنَوْنَ باختيار اللفظ وحسن الأسلوب . وله شعر رقيق في الغزل والوصف ، ومقطوعات طريفة في باب الحكم والأمثال . فهو ناظماً أكثر منه شاعراً مطبوعاً . ومن قوله :

لما أتاني كتابٌ منك مُبْتَسِمٌ      عن كلِّ برٍّ وفضلٍ غير محدودٍ  
حكَّتْ معانيه في أنشاءٍ أسطره      آثارَكَ البيضُ في أحوالي السودِ

(١) مدينة من إقليم سجستان كانت ببلاد الفرس .



ومن قوله :

إِنْ سَنَّ أَقْلَامَهُ يَوْمًا لِيُعْمِلَهَا  
وإِنْ أَمَرَ عَلَى رِقٍّ أَنْامِلَهُ  
أَنْسَاكَ كُلَّ كَيْمٍ<sup>(١)</sup> هَزَّ عَامِلَهُ<sup>(٢)</sup>  
أَقَرَّ بِالرِّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِ لَهُ

وقوله :

لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ كَاتِبًا  
يُبْدِعُ فِي الْكُتُبِ فِي غَيْرِهَا  
لِكُلِّ شَيْءٍ شَاءَ وَشَاءَ<sup>(٣)</sup>  
بِدَائِعًا إِنْ شَاءَ إِنْشَاءً

وقوله :

مَا إِنْ سَمِعْتُ بَنَوَارٍ لَهُ ثَمَرٌ  
حَتَّى أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ مُبَشِّرٌ  
فَكَانَ لَفْظُكَ مِنْ لَأَلَايِهِ زَهْرًا  
تَسَابَقًا فَاصْبَا الْقَصْدَ فِي طَلْقٍ<sup>(٤)</sup>  
فِي الْوَقْتِ يُتَمَعُّ سَمْعَ الْمَرْءِ وَالْبَصَرَ  
عَنْ كُلِّ لَفْظٍ وَمَعْنَى يُشِيرُ الدَّرَرَا  
وَكَانَ مَعْنَاهُ فِي أَشْنَائِهِ ثَمَرًا  
لِلَّهِ مِنْ ثَمَرٍ قَدْ سَابَقَ الزَّهْرَا

ومن قوله في المدح :

إِذَا نَبَى النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ  
فَعِنْدِي لِإِخْوَانِي الْغَائِبِ  
وَخَانَ الْمَوَدَّةَ خَوَانُهَا  
صَحَائِفَ ذِكْرُكَ عَنْوَانُهَا

ومن قوله في الشكوى :

الدَّهْرُ خَدَاعَةٌ خُلُوبٌ  
وَأَكْثَرُ النَّاسِ فَاعَزَّهُمْ  
وَصَفْوُهُ بِالْقَدَى مَشُوبٌ  
قَوَالِبُ مَا هَا قُلُوبٌ  
فَلَا تَغُرَّنَكَ اللَّيَالِي  
وَبَرْقُهَا انْخِلَابٌ<sup>(٥)</sup> الْكَذُوبُ  
فَنَى قَفَا أَشْنَاهَا كُرُوبٌ  
وَفِي حَشَا سِلْمِهَا حُرُوبٌ

(١) الكي : الشجاع أو لابس السلاح . (٢) عامل الرمح صدره وهو ما يلي السنان . (٣) الوشاء

ناقش الثياب بالألوان . (٤) الشوط في جرى الخيل . (٥) برق معه سحاب لا ماء فيه .



ومن قوله في الشَّيْب والكِبَر :

دَعْ دُمُوعِي تَسِيلُ سَيْلًا بِدَارَا  
وَضُلُوعِي يَصَلِينُ بِالْوَجْدِ نَارَا  
قَدْ أَعَادَ الْأَسَى نَهَارِي لَيْلًا  
مُدَّ أَعَادَ الْمَشِيبُ لَيْلِي نَهَارَا

ومن قوله في الفخر :

يَقُولُونَ ذِكْرُ الْمَرْءِ يَحْيَا نَسْلَهُ  
وَلَيْسَ لَهُ ذِكْرٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَسْلُ  
فَقَاتُ لَهُمْ نَسْلِي بِدَائِعِ حِكْمَتِي  
فَإِنْ فَاتَنَا نَسْلُ فَإِنَّا بِهَا نَسْلُو

وقال :

تَأَخَّرْتُ عَنْ قَوْمٍ وَلَا غَرَوَ أَنَّي  
سَأَسْبِقُهُمْ بِالْجِدِّ وَالْجِدُّ مِعْوَانُ  
أَلَسْتُ تَرَى الْعُنْوَانَ يُكْتَبُ آخِرًا  
وَأَوَّلُ مَقْرُوءٍ مِنَ الْكِتَابِ عُنْوَانُ



## الشریف الرضی

هو أبو الحسن بن الطاهر أحمد بن أبي الحسين . ومن أجداده موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ، ولذلك سمي بالموسوى ، وجده الأعلى الحسين بن علي بن أبي طالب . ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ . وتوفي هناك سنة ٤٠٦ هـ .

أخلاقه وصفاته — كان الشریف الرضی ، لعلو منزلته وشرف نسبه ، ذات نفس أبية ، ومكانة رفيعة بين الناس ، وكانت فيه هيبة وجلالة ، وورع وعفة وتقشف وحب لأهله . كان أبوه تقيب الأشراف الطالبيين ثم صارت النقابة إليه ، وكان لاستقامته في أمور الدين والدنيا يرى في نفسه فضلا عظيما ، وهذا ما دفعه إلى الميل إلى الفخر في شعره ، والتحدث بكرم أخلاقه ، والتغنى بعلو نسبه وحسبه .

وقد كان العصر الذي عاش فيه عصر تنافس في العلم والأدب بين الدول التي خرجت على الدولة العباسية ، وقد نضجت العلوم ، فقرأ الشریف الرضی كتب الأوائل من علم وأدب ، وشبَّ على حب القراءة ، وحذق اللغة العربية وفروعها ، وقرأ علوم الدين ، وصنف في ذلك كتباً كما صنف في الأدب والتاريخ . وهو الذي جمع كتاب نهج البلاغة المعروف ، المحتوى على كثير مما نسب إلى الإمام علي بن أبي طالب من الخطب والرسائل البليغة ، مما يحسب من الطراز الأول في بلاغة الكلام . وكان اشتغاله بالأدب واللغة سببا في أن أصبح من كبار شعراء اللغة العربية ، ومن أشعر قريش ، حتى فاق كثيرا من أدباء زمانه وشعرائهم .

شعره — يحسب شعر الشریف الرضی من أمتع الشعر العربي وأجزله ، وأجمعه للعانى النفسية والفلسفية ، وصور النفوس المفكرة ، ونقد الاجتماع وشكوى الزمان والأيام . وقصائده الطويلة الكثيرة مملوءة بالتأمل في الحياة وشرح أسرار النفوس .



فليس شعره شعرا خياليا صرفا ، وليست معانيه من المعاني التي يتصيداها الشاعر ، يقصد بذلك إظهار براعته في نظم الكلام والتصرف في ضروب التعبير ، كما هي حال كثير من الشعراء ، لأنه ليس شاعرا فنيا ليس غير ، يميل إلى دقة الصنعة الظاهرة أو الخفية ، كما هي الحال في شعر أبي تمام والبحترى ، أو يقصد إلى عرض صور من هزل الحياة في أسلوب فني بليغ كما في أكثر شعر أبي نواس ، أو يعمد إلى سلاسة القول بعبارات شعرية جميلة كأنها كلام منشور ، كما في شعر ابن الرومي ، أو غير ذلك من الأغراض الكثيرة لصناعة الشعر . وإنما أراد من شعره أن يكون صورة لنفسه التي امتلأت بالتهكم على الناس والحياة ، كما امتلأت بالحكم والعبر التي كانت له من تجاربه وقراءته شعر الفلاسفة ، وأن يكون تعبيرا عما في نفسه من عزلة وإباء وغر بقمومه ، وتمدح بالفضيلة والمكارم .

هذه هي الصفات العامة لشعره التي لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده . وأكثر شعره في المدح والفخر والثناء والشكوى . وقد أجاد في كل ذلك إجادة تشهد له بكثرة الاطلاع وسعة الخيال ، والوقوف على معاني الشعر وأساليبه المعروفة . وأكثر المعاني ذبوعا في شعره ما يدل على التأمل في الحياة وخفاياها والناس وأخلاقهم . ويظهر في نواحي شعره كثير من ميول الخواص والأشراف وتلك الأنفة التي تظهر بحجة وخيلاء . وقد جره التعمق في طرق هذه المعاني إلى الابتعاد عن الخيال الصّرف ، والمعاني الشعرية الخالصة . لذلك كان أكثر شعره وخيره في الشكوى والثناء ، حتى لقد تغلبه أحيانا هذه المعاني الجدية المثلثة بها نفسه فلا يكاد يحيد عنها في مدح أو عتاب .

فهو يعني بالمعنى قبل عنايته باللفظ والصنعة . ولذلك كان شعره كثير المعاني ، رصينا ، واسع الخيال . يبت في قصائده كثيرا من الآراء الفاسفية التي تشبه ما في شعر المتنبي . وكثير من تلك الآراء تشبه أن تكون محاكاة له . إذ يظهر عليه أنه



قرا شعره وأعجب به وعمل على محاكاته ، كما في قصيدته التي يمدح بها الوزير  
سأبور بن أردشير :

لَا تَصْحَبِ الدَّهْرَ إِلَّا غَيْرَ مُتَعَوِّدٍ      فَالْهَمْ يَطْرُدُهُ قَرَعُ الظَّنَائِبِ (١)  
وَأَقْدِفْ بِنَفْسِكَ فِي شَعْوَاءِ خَائِبَةٍ      كَالسَّيْلِ يَعْصِفُ بِالصَّوَانِ وَاللُّوبِ (٢)  
إِنْ حَنَّتِ النَّيْبُ (٣) شَوْقًا وَهَى وَافِقَةٍ      فَإِنَّ عَزَمِي مُشْتَاقٌ إِلَى النَّيْبِ

ولكنه مع ذكر هذه الحكم والنظر في الزمان وأحوال الناس ونقد الاجتماع ،  
كثيرا ما كان يعنى بأحواله الخاصة والميل إلى التمدح بصفاته فيقول :

لِي مُهْجَةٌ لَا أَرَى لَهَا عِوَضًا      غَيْرَ بُلُوغِ الْعُلَا ، وَلَا تَمَنَّا  
أَكْرَطَرَنِي فَلَا أَرَى أَحَدًا      إِلَّا مَغِيظًا عَلَى مُضْطَغِنَا  
يُنْبِضُ لِي مِنْ لِسَانِهِ أَبَدًا      نِصَالٌ ذَمٌّ يَمَزُقُ الْجَمَنَّا (٤)  
مَا ضَرَرْنَا أَنْتَا بِلَا جِدَةٍ      وَالْبَيْتُ وَالرُّكْنُ وَالْمَقَامُ لَنَا

وكثيرا ما يردد في شعره مثل هذه المعاني ويجاهر بعلو شأنه ويسرف في ذم  
الدنيا ناقما منها فيقول :

وَخَلَاتُكَ الدُّنْيَا خَلَاتُكَ مُؤَمِّسٍ      لِلدَّعْجِ آوَنَةٌ وَلِلْإِعْطَاءِ  
طَوْرًا تُبَادِلُكَ الصَّفَاءَ وَتَارَةً      تَأْتَاكَ تُشْكِرُهَا مِنَ الْبَغْضَاءِ

(١) جمع ظنوب : وهو حرف عظم الساق من الأمام يقال قرع ظنايب الأمر أى سهلة .

(٢) اللوب جمع اوبة : المجارة السود .

(٣) جمع ناب : الناقة المستنة .

(٤) جمع جنة : وهى كل ما وقع من سلاح .



وهو في هذا أشبه بالمتنبى في كبره وخيلائه . وتجده أيضا في أكثر شعره  
منقبض الصدر، مبتئس النفس، تضيق به الدنيا فيندب أيامه الماضية، ويعلل  
النفس أحيانا فيقول :

وما كُلُّ أَيَّامِ الْمَشِيبِ مَرِيرَةٌ      وَلَا كُلُّ أَيَّامِ الشَّبَابِ عَذَابٌ  
أَوْمَلُ مَا لَا يَبْلُغُ الْعُمُرَ بَعْضُهُ      كَانَ الَّذِي بَعْدَ الْمَشِيبِ شَبَابٌ  
إِذَا شِئْتُ قَلَدْتُ<sup>(١)</sup> الزَّمَانَ وَصَاحَتُ      لِحَاطِي أُمُورًا كُلُّهَا عَجَابٌ

وقوله :

فَإِنَّ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِمَاعَ ظِلَامَتِي      إِذَا نَظَرْتُ أَيَّامَهُ فِي الْمَظَالِمِ  
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الدَّهْرَ يَخْفِضُ أَهْلَهُ      إِذَا سَكَتَتْ فِيهِمْ نَفُوسُ الضَّرَاجِمِ  
سَاصِيرٌ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنِّي      مَلَكْتُ بِهِ دَفْعَ الْخَطُوبِ الْهَوَاجِمِ

وَيَمْزِجُ الْحِكْمَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ شِعْرِهِ فِي أَسْلُوبٍ سَهْلٍ رَشِيقٍ يَمْتَّازُ بِرِقَّتِهِ  
وَسَلَاسَةِ عِبَارَاتِهِ وَقُوَّتِهِ مَعَ أَنَّهَا مِنَ الْحِكْمِ الْمَعْرُوفَةِ ، كَمَا قَالَ يَهْنَى أَبَاهُ بَعِيدَ الْفُطْرَةِ :

وَفِي شِدَّةِ الدَّهْرِ اعْتِبَارٌ لِعَاقِلٍ      وَفِي لَذَّةِ الدُّنْيَا غُرُورٌ لِوَائِقٍ  
وَأَكْثَرُ مِنْ شَاوَرَتِهِ غَيْرُ حَازِمٍ      وَأَكْثَرُ مِنْ صَاحِبَتِ غَيْرِ الْمُوَافِقِ  
إِذَا أَنْتَ فَتَشَّتِ الْقُلُوبَ وَجَدَّتْهَا      قُلُوبَ الْأَعَادِي فِي جُسُومِ الْأَصَادِقِ  
وَعِنْدِي مِنَ الْوَدِّ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ      لِحَاطُ الْمُرَائِي أَوْ كَلَامُ الْمُنَافِقِ  
أَغَالِطُ نَفْسِي بَعْدَ مَرَأَى وَمَسْمَعٍ      وَلَا أَنْظُرُ الدُّنْيَا بِعَيْنِ الْحَقَائِقِ  
وَمَا جَمَعِي الْأَمْوَالَ إِلَّا غَيْمَةً      لِمَنْ عَاشَ بَعْدِي وَاتَّهَمَ لِرَازِقِ

أما رثاؤه فهو من أفضل الشعر وأجمعه للعانى الفلسفية ؛ لأنه ليس من نوع  
الكلام العام الذي يقال لكل إنسان ، ولا من باب تعداد الفضائل ، وإنما هو  
أقرب إلى المواضع منه إلى غير ذلك ، ولكنه في رثائه متشائم يمزجه بما يحول

(١) جعلت في عنق الزمان قلادة أى كان لى فضل على الزمان .



بخاطره من السَّخَطِ على الحياة ، وتنساب إليه المعاني بدون تكلف ، مما يدلُّ على أنه شاعر مفلطور ، وفي رثائه أيضا كثير من الحكم والأمثال والعِظَة . كما قال في رثاء والدته :

|                                                  |                                            |
|--------------------------------------------------|--------------------------------------------|
| أَبَيْكَ لَوْ نَفَعَ الْغَلِيلَ بَكَائِي         | وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ الْمَقَالُ بِدَائِي  |
| وَأَعُوذُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَعَزِّيَا      | لَوْ كَانَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ عَزَائِي |
| طَوْرًا تُكَاثِرُنِي الدَّمُوعُ وَنَارَةً        | أَوَى إِلَى أَكْرَمَتِي (١) وَحَيَائِي     |
| مَا كُنْتُ أَذْخِرُ فِي فِدَاكَ رَغِيبةً         | لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتٌ بِفِدَاءِ      |
| لَوْ كَانَ يَدْفَعُ ذَا الْحِمَامِ بِقُوَّةِ     | لَتَكَدَسَتْ عَصْبُ وَرَاءَ لَوَائِي       |
| قَوْمٌ إِذَا مَرُّوا بِأَغْبَابِ (٢) الثَّرَى    | كَلَّوْا الْعْيُونَ بِأَمْدِ الظُّلَمَاءِ  |
| يَمْسُحُونَ فِي حَلْقِ الدَّرُوعِ كَانِهِمْ      | صَمُّ الْجَلَامِدِ فِي غَدِيرِ الْمَاءِ    |
| قَدْ كُنْتُ أَمَلُّ أَنْ أَكُونَ لَكَ الْفَدَا   | مِمَّا أَلَمَ ، فَكُنْتُ أَنْتَ فِدَائِي   |
| أَبَاؤُكَ الْغُرُّ الَّذِينَ تَفَجَّرَتْ         | بِهِمْ يَنَابِيعُ مِنَ النِّعْمَاءِ        |
| مِنْ نَاصِرٍ لِلْحَقِّ أَوْ دَاعٍ إِلَى          | سَبِيلِ الْهُدَى أَوْ كَاشِفِ الْغَمَاءِ   |
| مِنْ كُلِّ مُسْتَبِقِ الْيَدَيْنِ إِلَى النَّدَى | وَمُسَدِّدِ الْأَقْوَالِ وَالْآرَاءِ       |

وتجده في مدحه كثير المعاني والمبالغة على طريقة المتنبي . وغزله رقيق ليس فيه فحش ولا هُجْر كقوله :

قال لي صاحبي غداة التَّقِينَا      نَتَشَاكِي حَرَّ الْقُلُوبِ الظَّاءِ  
 كُنْتُ خَبَرْتَنِي بِأَنَّكَ فِي الْوَجْدِ عَقِيدِي وَأَنَّ دَاعَكَ دَائِي  
 مَا تَرَى النَّفَرَ وَالتَّحْمَلَ لِلْبَيْنِ      فَمَاذَا انتَظَرْنَا لِلْبِكَاءِ ؟  
 لَمْ يَقْلُهَا حَتَّى انْتَنِيتُ لِمَا بِي      أَتَلَقَّى دَمْعِي بِفَضْلِ رَدَائِي

(١) الأكرمة : فعل الكرم .

(٢) الذب بفتح الغين : الغامض من الأرض .



أسلوبه — نعود فنقول إن الشريف الرضى لم يُعَنَ باللفظ والصناعة مثل عنايته بأن يكون من بين الشعراء المفكرين . ولكنه كان شاعرا مفظورا على قول الشعر الجميل وبلاغة الكلام . يعرف الجيد من الردىء فى ذلك . فكان أسلوبه بليغا بلا تكلف ولا قصْد ، وكان يغلب عليه أحيانا محاكاة بعض الشعراء ، وأكثَر ما كان ذلك لأسلوب المتنبى فى التفكير ونسج الكلام . يظهر ذلك فى كثير من شعره حتى لقد يُحِيلُ إلى من قرأ شعر المتنبى أن الشريف ناقل عنه كما فى قوله :

خُطوبٌ لا يُقاوِمُها البَقَاءُ      وَأَحْوالٌ يَدِبُّ لها الضَّراءُ  
ودهرٌ لا يَصِحُّ به سَقِيمٌ      وَكَيْفَ يَصِحُّ والأَيَّامُ داءُ ؟  
وأُملاكٌ يَرَوْنَ القَتْلَ ظُلْمًا      وفى الأَمْوالِ لو قَنَعُوا فِداءُ

وأحيانا تجده يحاكي البحتري ، وابن الرومى فى السهولة والرفقة ، وعدم التكلف وخفاء الصنعة ، كما فى قصيدته التى مدح بها الطائع لله :

هَمَّةٌ كالسَّماءِ بُعْدًا      وَكَالرَّيْحِ هُبُوبًا فى كُلِّ شَرْقٍ وَغَرْبٍ  
ونَزاعٌ إلى العُلا يَفْطِمُ العِيْسَ — سَ عَنِ الوَرْدِ بَيْنَ ماءٍ وَعُشْبٍ  
رَبُّ بُؤْسٍ غَدًا عَلَى بُنْعَمَى      وَبِعَادٍ أَفْضَى إِلَيَّ بِقُرْبٍ  
وَإِذا قَلَبَ الزَّمانَ لَيْبٌ      أَبْصَرَ الجَدَّ حَرْبَ عَقْلٍ وَب

وتجده أحيانا شاعرا بدويا بذكر العيس والبيد ومرتع الطيى الربيب كقوله :

حَيًّا دُونَ الكَثِيبِ      مَرْتَعِ الطَّيِّ الرِّيبِ  
وَقَفَّةً بِالرَّيْحِ أَقْوَى <sup>(١)</sup>      بَيْنَ أَعْقَادِ <sup>(٢)</sup> الكَثِيبِ

(١) ذهب أودثر .

(٢) الرمل المتراكم المعقود .



أو يقول :

وَحَنَّنَا الْعِيسَ تَوْسِعَنَا حَنِينًا ، وَنُوسِعُهَا بُكَاءَ

ويميل أحيانا إلى ذكر الألفاظ الغريبة في شعره مما يجعل بعض أبياته ثقيلة على السمع .

وقد يميل إلى الصنعة اللفظية والتشبيهات المعروفة كقوله :

أَعَدَّتْ سَوَادَ أَيَامِي بَيَاضًا وَأَيَّامُ الْوَرَى يَبِضُ وَشِيمٌ <sup>(١)</sup>

وجملة القول أن أسلوب الشريف الرضى مزج بين الابتكار والتقليد والسهولة والحزونة، ولكن أكثره فطرى سلس ، وبين الحضرى والبدوى ، والغموض والوضوح ، ولكنه واضح أكثر منه غامضا . ومن شعره فى الحكم قوله :

|                                                            |                                                   |
|------------------------------------------------------------|---------------------------------------------------|
| وَكَمْ صَاحِبٍ كَالْمَرْحِ زَاغَتْ كَعُوبُهُ               | أَبَى بَعْدَ طَوْلِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَقَوَّمَ    |
| تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مَتَبَلِّجًا                   | وَأَدَجَّ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا            |
| وَلَوْ أَنِّي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ                    | أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَا تَمَّا |
| فَلَا بَاسِطًا بِالسُّوءِ إِنِ سَاءَ نِي يَدًا             | وَلَا فَاعِرًا بِالذِّمِّ إِنِ رَاجَى فَمَا       |
| كَعُضُو رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالَى بِفَادِحِ                 | وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ تَلَمَّا       |
| إِذَا أَمَرَ الطَّبُّ <sup>(٢)</sup> اللَّيِّبُ بِقَطْعِهِ | أَقُولُ عَسَى ، ضِنَاءٌ بِهِ ، وَلَعَلَّمَا       |
| صَبَرْتُ عَلَى إِيلَامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ                  | وَمَنْ لَأَمَ مَنْ لَا يَرَعُوى كَانَ الْوَمَا    |
| هِيَ الْكَفِّ مَضَّ تَرْكُهَا بَعْدَ دَائِهَا              | وَإِنْ قُطِعَتْ شَانَتْ ذِرَاعًا وَمَعْصَمَا      |
| أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنْ كُنْتُ عَاضِيًا             | أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمُطِيعِ وَأَكْرَمَا     |
| حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ بَحَّ بِهَا الْقَدَى           | وَلَا تَتَجَلَّى يَوْمًا وَلَا تَبْلُغُ الْعَمَى  |
| دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا دَمَّتْهُ              | وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فَنَنْدَمَا    |
| وَمَنْ لَمْ يُوطَّنْ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَدَى             | تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلَ وَأَعْظَمَا         |

(١) شيم جمع أشيم : وهو ما يخالط بياضه سواد . (٢) الطب : الماهر الحاذق بعمله كالطبيب .



## الشعر في مصر

الشعر في عصر الإخشيد — حينما ضَعَفَ أمرُ الخلافة العباسية ، واستقلتْ إماراتها كانت مصرُ والشامُ في يد محمد بن طُغْج الإخشيد منذ سنة ٣٢٣ هـ من قِبَل أمير المؤمنين الراضي . والشعراء في هذا العصر مغمورون لا نكاد نُحَسُّ منهم من أحدٍ ، وإن كنا نؤكد أن مصر في هذا الوقت لم تَحُلْ من شعراء قد يكونون مجيدين ، ولكنهم لم يَسْعَدُوا بالشهرة وبعْدِ الصَّيت ، أو لم يَتَّصِلْ بِشِعْرِهِمْ بملك مشهور يرتفع برفته ، ويُدْكَرُ في التاريخ بِذِكره . وقد يكون لِقَصْرِ مدَّةِ دولة الإخشيد شأنٌ في هذا ، فإنها لم تتجاوز أربعا وثلاثين سنة . نعم إن المتنبي زار مصر في هذه الفترة ، وامتحح كافورا ولكنه لا يعدُّ شاعرا مصرياً .

ابن طباطبا — وأظهر مَنْ نعرفه من الشعراء في هذا العصر ، أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا . قال ابن خلكان : ” كان نقيبَ الطالبيين بمصر ، وكان من أكابر رؤسائها ، وله شعر مليح في الزهد والغزل وغير ذلك “ .

ومن قوله :

خَلِيَّ إِنِّي لِلثَّرِيَّ الحَاسِدُ      وَإِنِّي عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ لَوَاجِدُ  
أَبْقَى جَمِيعًا شَمْلُهَا وَهِيَ سِتَّةٌ      وَأَفْقَدُ مِنْ أَحَبَّتِهِ وَهُوَ وَاحِدُ !

ومما يَنْسَبُ إليه في طُول الليل :

كَانَ مُجُومَ اللَّيْلِ سَارَتْ نَهَارَهَا      فَوَافَتْ عِشَاءً وَهِيَ أَنْضَاءُ أَسْفَارِ  
وَقَدْ خِيَمَتْ كِي تَسْتَرِيحَ رِكَابُهَا      فَلَا فَلَكَ جَارٍ وَلَا كَوَكَبٍ سَارِ

( توفي بمصر سنة ٣٤٥ هـ ) .



إبراهيم الجيزى — ونعرف من بين الشعراء فى هذا العصر أيضا إبراهيم ابن عبد الله الجيزى اللغوى الأخبارى ، كاتب كافور وداعيته . قال ابن خلكان :  
 "دخل رجل مجلس كافور الإخشيدى ودعا له وقال فى دعائه : أدام الله أيام مولانا بكسر الميم من "أيام" فتحدث جماعة من الحاضرين فى ذلك فقام الجيزى وأنشد مرتجلا :

|                                              |                                                  |
|----------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| لا غرَوانَ لَحَنَ الدَّاعِي لِسَيِّدِنَا     | أَوْ غَصَّ مِنْ دَهْشِ الرِّيقِ أَوْ بَرِّ       |
| فَتِلْكَ هَيْبَتُهُ حَالَتْ جَلالُهَا        | بَيْنَ الْأَدِيبِ وَبَيْنَ الْقَوْلِ بِالْحَصْرِ |
| فَإِنْ يَكُنْ خَفَضَ الْأَيَّامِ مِنْ غَلَطٍ | فِي مَوْضِعِ النَّصَبِ لَاعَنَ قِلَّةِ النَّظَرِ |
| فَقَدْ تَفَاءَلَتْ عَنْ هَذَا لِسَيِّدِنَا   | وَالْقَالَ مَأْثُورَةً عَنْ سَيِّدِ الْبَشَرِ    |
| بَانَ أَيَّامُهُ خَفَضَ بِلَا نَصَبٍ         | وَأَنَّ أَيَّامَهُ صَفَوْهُ بِلَا كَدَرٍ         |

الشعر فى عهد الفاطميين — وفى سنة ٣٥٨ هـ تغلب الفاطميون على مصر فملكوها ومدوا فتوحهم إلى الشام حتى بلغوا دمشق ، وأسسوا مدينة القاهرة ، وجعلوها حاضرة ملكهم . وليس من شأننا هنا أن نبحث فى صحة انتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء ، فقد اختلفت فى ذلك آراء المؤرخين اختلافا كبيرا ، والذى يعيننا الآن أن نعرف أنهم كانوا عربا يفهمون الشعر ويعبدونه وسيلة من وسائل اعتزازهم وتأيد ملكهم ونشر مذهبهم ، وإن فى مقابلة محمد بن هانئ جيش جوهر القائد وهو زاحف لفتح مصر رمزا خفيا ، واتفقا عجيبا ، يدل على أن هذه الدولة تقوم فى دعوتها السياسية والدينية على الشعر ، كما تقوم على السيف والرمح وعد القتال .

وكان الخلفاء الفاطميون ، وبخاصة أولهم المعز لدين الله ، ينافسون بغداد فى كل شئ من أسباب العلم والأدب والحضارة ، وكان النضار يسيل من أيديهم



كرما وجودا ، وكانت مصر في أكثر أيامهم فياضة بالخير ، وكانت لهم عادات ومواسم يكثر فيها الإحسان ويعم ، وقد كثرت في أيامهم الأعياد التي كانت مجالا فسيحا للشعر ، ويكفيك أن تطالع على ما كتبه المقرئ في أيام هذه الدولة ومنشأتها وثروتها ، التي كانت تفيض على الأهلين فيضا ، لتعرف ما كانت عليه مصر في معظم أيامهم من البهجة والجمال واليسر والرخاء ، ولتستطيع بعد هذا أن تستبطن حال الشعر في أيامهم ، وما كان من كثرة الشعراء والتفافهم حولهم ، وتسابقهم إلى الإحسان في مديحهم ، ثم ما ينشأ عن ذلك من ارتفاع شأن الشعر ورواج سوقه ، فقد اتصل بهم كثير من الشعراء بين شيعة وسنيين .

أشهر الشعراء — وكان تميم بن المعز لدين الله شاعرا مجيدا ، وسنخصص به كلاما . ومن أشهر من اتصل بالمعز من الشعراء أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعمق . قال صاحب اليتيمة : ”هو نادرة الزمان ، وجملة الإحسان ، ومن تصرف بالشعر الجزل ، في أنواع الجدد والهزل ، وهو بالشام كابن حجاج بالعراق“ .

قال السيوطي : ”دخل مصر ، ومدح المعز وأولاده والوزير ابن كلثوم ومات سنة ٣٩٩ هـ“ .

ومن مجونه :

لَوْ بِرَجُلِي مَا بَرَأَيْتُ      لَمْ أَتِ إِلَّا بِنَجْدٍ  
خَفَّةٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِي      لَا أَرَانِي اللَّهُ فَقْدِي

ومن ذكرياته لمصر قوله :

لِيَالِي النَّيْلِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَتَفْتُ      وَرُقُ الْحِمَامِ عَلَى دَوْحٍ وَأَغْصَانِ  
أَصْبُو إِلَى هَفَوَاتِ فَيْكِ لِي سَلَفْتُ      قَطَعْتُهُنَّ وَعَيْنُ الدَّهْرِ تَرَعَانِي  
مَعَ سَادَةٍ تُجِبُّ غَيْرَ غَطَارِفَةٍ      فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ مِنْ ذُهْلِ ابْنِ شَيْبَانَ



ومن كبراء الشعراء في هذا العصر أبو الحسين عليّ البغدادي الشاعر المماجن توفي سنة ٤١٢ هـ. ومنهم محمد بن القاسم وكان شاعر الحاكم بأمر الله ، وهو صاحب البيت المشهور :

مَا زُلْزِلَتْ مِصْرٌ مِنْ سُوءٍ يَرَادُ بِهَا      لَكِنَّهَا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ طَرَبًا

وهناك شعراء كثيرون جدا لا يتسع المجال لاستقصائهم ، وكافيك أن تعلم كثرة الشعراء وجود الفاطميين في صدر هذا العصر مما ذكره ابن خلكان ، وهو أنه غداة وفاة الوزير يعقوب بن كلثوم زار الشعراء قبره فرثاه مائة شاعر وأجيز كل منهم .

الصالح بن رزيك — وكان يُجيد الشعر في أخريات هذه الدولة الصالح طلائع بن رزيك ، كان وزير الدولة في أيام الفائز والعاقد مستبدا بشؤونها ، توفي سنة ٥٥٦ هـ .

وله في كتاب الروضتين لأبي شامة قصائد جيدة النسيج ، كان يرسل بها إلى أسامة ابن منقذ لتحريض نور الدين محمود بن زنكي على غزو الصليبيين ، منها قصيدة أولها :  
أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ تَمِضُ الْعَزَائِمُ      وَتَنْضَى لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ

قال العماد الأصمباني في ترجمته : ” وَنَفَقَ فِي زَمَانِهِ النُّظْمُ وَالنَّثْرُ ، وَقَرَّبَ الْفُضَّلَاءَ ، وَاتَّخَذَهُمْ جُلَسَاءَ ، وَرَحَلَ إِلَيْهِ ذَوُ الرِّجَاءِ ، وَلَهُ قَصَائِدُ كَثِيرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ أَنْفَذَهَا إِلَى الشَّامِ يَذْكُرُ فِيهَا قِيَامَهُ بِنَصْرِ الْإِسْلَامِ . وَمَا يُصَدِّقُ أَحَدٌ أَنَّ ذَلِكَ شَعْرُهُ بِلُجُودِهِ ، وَإِحْكَامُ مَعَانِي حِكْمَتِهِ ، فَيَقَالُ إِنَّ الْمُهَذَّبَ بْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ يَنْظُمُ لَهُ ، وَالْجَلِيسَ بْنَ الْحَبَّابِ كَانَ يُعِينُهُ ، وَلَهُ دِيْوَانٌ كَبِيرٌ وَإِحْسَانٌ كَثِيرٌ . وَلَمَّا جَلَسَ فِي دَسْتِ الْوِزَارَةِ نَظَّمَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ بِدِيهَةِ :

انْظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ      قَدْ حَلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرُ  
وَلَكَمْ تَجَنَّرَ آمِنًا      وَسَطَ الصُّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ  
ذَهَبُوا فَلَا وَاللَّهِ مَا      يَبْقَى الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ  
وَلَمْثَلِ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ



وعجيب من العباد أن يحمد الصالح شعره لا لشيء إلا أنه جيد محكم ، وهل  
مقام الوزارة وعلو المكانة ينافي القدرة الشعرية والسبق في ميدان البيان ؟

المهذب بن الزبير — ومن شعراء هذه الفترة المهذب بن الزبير ، قال  
في الروضتين :

”لم يكن في زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، فما جاء في إحدى قصائده  
في مدح الصالح بن رزيك :

ولقد بعثت إلى الفرنج كتاباً      كالأسد حين تصول في خفان  
ليسوا الدروع ولم نحل من قبلهم      أن البحار تحل في غدران

وله قصيدة كتب بها إلى الداعي باليمن يستعطفه ، لما قبض على أخيه  
الرشيد فأطلقه :

يأربع أين ترى الأحبة يمموا      هل انجدوا من بعدنا أو أنهموا ؟  
نزلوا من العين السوداء وإن ناوا      ومن الفؤاد مكان ما أنا أكم  
رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم      وجد على مر الزمان محم  
وتعوضت بالأنس روجي وحشة      لا أوحش الله المنازل منكم  
لا تبعثوا لي في النسيم تحية      إني أغار من النسيم عليكم  
إني امرؤ قد بعث حظي راضياً      من هذه الدنيا يحظى منكم  
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا      منكم وزهدت إلا فيكم

( توفي سنة ٥٦١ هـ )

الجليس بن الحباب — ومنهم الجليس بن الحباب ، قال العباد : ”جليس  
صاحب مصر ، فضله مشهور ، وشعره مأثور ، وكان أوحده عصره في مصر نظماً  
ونثراً ، وترسلًا وشعراً ، مات سنة ٥٦١ هـ “ .



وله يشكو طيبا :

وَأَصْلُ بَلَّتِي مَنْ قَدْ غَزَانِي      مِنْ السَّقَمِ الْمَلْحِ بَعْسَكَيْنِ  
طَيْبٌ طَبَهُ كَغُرَابٍ بَيْنَ      يَفْرِقُ بَيْنَ عَافِيٍّ وَبَيْنِي  
أَتَى الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ      فَرَدَّ لَهَا الشَّبَابَ بِنَسْخَتَيْنِ  
وَدَبَّرَهَا بِتَذْيِيرٍ لَطِيفٍ      حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حَنِينِ  
وَكُنْتُ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ      فَصِيرَهَا بِحَدَقٍ نَوْبَتَيْنِ  
وكان الجليس كبير الأنف ، فأولع ابن الصياد بهجائه والتقليد على أنفه ، وله في ذلك أكثر من ألف مقطوعة .

ومن أشهر شعراء هذا العهد عمارة النمنى ، وهو وإن مات في عهد الأيوبيين ، قال أكثر شعره وأروع في عصر الفاطميين ، ولم يعيش في دولة الأيوبيين طويلا ، وسنخصص به كلاما فيما بعد .

اهتمام الفاطميين بالشعر والشعراء — وما يدل على عناية الخلفاء بالشعر واحترافهم بالشعراء ، ما حكاه المقرئى عند كلامه على المنظرة التي كانت تُطْلَى على بركة الحبش التي شيدها الخليفة الأمر قال :

” في هذه المنظرة طاقات وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كُتِبَ عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر رَفٌّ لطيف مُذَهَّبٌ . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رَفٍّ صُرَّةٌ مَحْتُومَةٌ فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعرٍ ويأخذ صُرَّتَهُ بيده “ .

وقد كان للشعراء بجانب هذه الصلوات والجوائز في هذه الدولة مراتب ، وكان الشعراء يتقدمون بالمدايح في كل موسم أو عيد ، وما كان أكثر أعيادهم ومواسمهم ، فينالون من مواهب الخلفاء القدر الكثير .



حكى المقرئى عند الكلام على فتح الخليج ، بعد أن وصف الاحتفال باليوم  
وصفا دقيقا ، أنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحبُ الباب لحضور الشعراء  
للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم .  
فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مُستَخدم  
يقال له النائب . ففى بعض السنين تقدم شاعر يقال له ابن جبر ، وأنشد قصيدة  
مطلعها :

فُتِحَ الْخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّايَةُ الْبَيْضَاءُ  
فَصَفَتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفُّ الْإِمَامِ فَعَرَفَهَا الْإِعْطَاءُ

فانتقد الناس عليه فى قوله ” فسال منه الماء ” وقالوا أى شئ يخرج من  
البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير وأنشد :

مَا زَالَ هَذَا السَّدُّ يَنْظُرُ فَتَحَهُ إِذَنْ خَلِيفَةُ الْبُنَوَالِ الْمُرْسَلِ  
حَتَّى إِذَا بَرَزَ الْإِمَامُ بِوَجْهِهِ وَسَطَا عَلَيْهِ كُلُّ حَامِلٍ مِعْوِلِ

فانتقدوا عليه فى البيت الثانى ، وقالوا : ” أَهْلَكَ وَجْهَ الْإِمَامِ بِسَطَوَاتِ الْمَاعُولِ  
عليه ” مع أنه قصد فتح السد بالمعاول ، ولكنّه شؤم طالعه خلط بين الضمائر .

ثم تقدم شاعر يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وقال قصيدة منها :

لَمِنْ اجْتِمَاعِ الْخَلْقِ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أُمِّ لَكَ يَا بَنَ بْنْتَ مُحَمَّدٍ  
أَمْ لاجْتِمَاعِكَا مَعَا فِي مَوْطِنٍ وَاقِفَتَا فِيهِ لِأَصْدَقِ مَوْعِدِ

فأمر له على الفور بخمسين دينارا وخلع عليه وزيد فى جاريه .



نستطيع أن نأخذ من هذه الحادثة أمورا :

أولا — أن الشعراء المتصلين بالقصر كانوا مرتين على حسب منازلهم في الإجادة والإحسان .

ثانيا — أن النقد الصحيح كان قويا في هذه الدولة .

ثالثا — أن الشعراء كانوا يتنافسون في القول ليصلوا إلى منازل فوق منازلهم .

رابعا — أن الشعراء كانت لهم مرتباتٌ جارية عليهم غير ما كان يوهب لهم من الصلات .

خامسا — أن الشعر المصري في هذا العهد كان دون الشعر الشامي متزلة وقوة ، لأن الأبيات التي عُرِضَتْ علينا هنا ، وقد قالمها الشعراء المقربون ، وقد قَبِلَتْ في أكبر المواقف وأعظمها حفلا ، ليست من الشعر الجيد الرصين ، والحق أن شعر الشام في هذا العهد ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في موضع آخر ، كان أسَلَسَ أسلوبا وأنصَعَ ديباجةً وأبعدَ مدًى في المعاني والأخيلة .

تميم بن المعز — هو أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، كان من أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه العزيز ، وكان شاعرا مجيدا . قال ابن فضل الله العمري : " تشبه بابن المعتز وتشبهت بذيله ، وهو إن لم يزاحمه لم يقع دون مطاره " (توفي سنة ٣٦٨ هـ) .

وقد كان كبير النفس بعيد غايات الآمال ، ويظهر أنه كان يحنُّ إلى الخلافة أحيانا فيجدُ لذلك في نفسه حَسَرَاتٍ يَنُمُّ عليها شعره كقوله :

|                                            |                                              |
|--------------------------------------------|----------------------------------------------|
| يَادْهَرُ مَا أَفْسَاكَ مِنْ مُتَلَوِّينَ  | فِي حَالَتِكَ وَمَا أَقْلَكَ مِنْ مُنْصِفَا  |
| أَتَرَوْحُ لِلنَّكْسِ الْجَهُولِ مَمْهَدًا | وَعَلَى اللَّيْلِ الْحُرِّ سَيْفًا مُرْهَفَا |
| مَا قَامَ خَيْرُكَ يَازَمَانُ بِشَرِّهِ    | أَوَّلَى بِنَا مَا قَلَّ مِنْكَ وَمَا كُنَى  |



وقوله :

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَمْلِكُ الْأَمْرَ غَيْرُهُ  
لَيْنٌ كَانَ كَيْثَانُ الْمَصَائِبِ مَوْلِيًّا  
وَبِى كُلِّ مَا تَشْكُو الْعُيُونُ أَقْلَهُ  
وَمَنْ هُوَ بِالسِّرِّ الْمَكْتُمِ أَعْلَمُ  
لِإِعْلَانِهَا عِنْدِي أَشَدُّ وَأَلَمُ  
وَإِنْ كُنْتُ مِنْهُ دَائِمًا أَتْبَسَمُ

وقد كانت له أخلاق الملوك ، فهو جليد صبور مخاطر ، يستهين بالمصاعب ،  
قوى العزيمة ، لايهاب الموت ، كريم سامى الهمة :

وَأِنِّى لَأَلْقَى كُلَّ خَطْبٍ بِمُهْجَةٍ  
وَأَسْتَصِحِبُ الْأَهْوَالَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ  
فَمَا الْحُرُّ إِلَّا مَنْ تَدَّرَعَ عَزْمَةً  
وَمَا لِي أَخَافُ الْحَادِثَاتِ كَأَنِّى  
خَلِيلٌ مَا فِى أَكْأَسِ الرَّاحِ رَاحَتِى  
وَلَكِنِّى لِلدَّجِ أُرْتَاحُ وَالْعَمَلِ  
وَمَنْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَسْفَيْهِ وَهَمَّتِ  
يَهُونُ عَلَيْهَا مِنْهُ مَا يَتَصَعَّبُ  
وَيَمْزِجُ لِي السَّمَاءُ الزَّعَافُ فَاشْرَبُ  
وَلَمْ يَكُ إِلَّا بِالْقَنَاءِ يَنْتَكِبُ  
جَهْلُ بَانَ الْمَوْتِ مَا مِنْهُ مَهْرَبُ  
وَلَا فِى الْمَشَانِي لَدَتْنِ حِينَ تَضْرِبُ  
وَلِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ أَصْبُو وَأَطْرَبُ  
يَرْوَحُ لَهُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ مَرَكَبُ

ومن نخره أيضا :

أَلْقَى الْكَمَى فَلَا أَخَافُ لِقَاءَهُ  
وَأَكْرُفِى صَدْرَ الْخَمِيسِ مُعَانِقًا  
وَيَزِيدُنِي كَرَّ الْخُطُوبِ تَعْظُمًا  
وَعَلِمْتُ أَخْلَاقَ الزَّمَانِ فَلَمْ أَضِقْ  
وَكَمَا يَمْلَأُ الدَّهْرُ مِنْ إِعْطَائِهِ  
وَكَمَا يَكُرُّ لِمَعْشَرٍ بِسَعَادَةٍ  
فَإِذَا رَمَاكَ شِدَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا  
وَيَقْلُ إِقْدَامِي شَبَابَ الْحَدَثَانِ  
لِلْمَوْتِ حِينَ يَفِرُّ كُلُّ جَبَانِ  
وَتَسَلُطُ الْأَيَّامِ عِزَّ مَكَانِ  
ذَرَعًا بِأَيَّامِي وَغَدِرَ زَمَانِي  
فَكَذَا مَلَائَتُهُ مِنَ الْحِرْمَانِ  
فَكَذَا يَكُرُّ لِمَعْشَرٍ بِهَوَانِ  
فَلَسَوْفَ يَأْتِي بَعْدَهَا بَلِيَانِ



ومن أوصافه التي يتشبه فيها بابن المعتز قوله :

أَمَّا تَرَى الرَّعْدَ بَكَى فَاشْتَكَى      وَالْبَرْقَ قَدْ أَوْمَضَ فَاسْتَضَحَكَ  
فَاشْرَبَ عَلَى غَيْمٍ كَصَبْغِ الدُّجَى      أَصْحَكَ وَجْهَ الْأَرْضِ لَمَّا بَكَى  
وَانْظُرْ لِمَاءَ النِّيلِ فِي مَدَّةٍ      كَأَنَّهُ صُنْدِلٌ أَوْ مُسْكَا

ومن بدائع غزله قوله :

وَمَا أُمُّ خَشْفٍ ظَلَّ يَوْمًا وَلِيلَةً      بَبْلَقَةً بِيَدَاءِ ظَمَانٍ صَادِيَا  
تَهِيمٌ فَلَا تَدْرِي إِلَى أَيْنَ تَنْتَهِي      مُوَهَّجَةٌ حَيْرَى تَجُوبُ الْفَيَافِيَا  
أَضْرِبُهَا حُرَّ الْمَجِيرِ فَلَمْ تَجِدْ      لُغْلُغَتِهَا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَافِيَا  
إِذَا بَعْدَتْ عَنْ خَشْفِهَا انْعَطَفَتْ لَهُ      فَالْفَتَّةُ مُلْهُوْفًا مِنَ الْجُوعِ ظَامِيَا  
بِأَوْجَعٍ مِنِّي يَوْمَ شَدُّوا رِحَالَهُمْ      وَنَادَى مُنَادِي الْحَيِّ أَنَّ لَا تَلَاقِيَا

وروى له الثعالبي في يتيمة الدهر خمسة طويلة بدئت بالغزل وانتهت بدح أخيه نزار أولها :

دَمُ الْعُشَّاقِ مَطْلُولٌ      وَدَيْنُ الْحُبِّ مَمْطُولٌ  
وَسَيْفُ الْخَطِّ مَسْلُولٌ      وَمُبْدَى الْحُبِّ مَعْدُولٌ  
وَإِنْ لَمْ يَصْغِ لِلْأَتَمِّ

عمارة اليمنى — شاعر كبير سياسى ، كانت حياته مزيجاً من النعيم والشقاء ، ونهايته المحزنة جديرة بأن تثير العطف والإشفاق . ولد سنة ٥١٥ هـ وكان عربياً فقيهاً أديباً ، وله كتاب ذكر فيه أحواله وأخباره باليمن ثم بمصر ، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يُقرأ عليه فيها مذهب الإمام الشافعى . قال : ” ولى فى الفرائض مُصَنَّفٌ يُقْرَأُ بِالْيَمَنِ وَفِي سَنَةِ ٥٣٩ هـ زَارَنِى وَالِدَى وَخَمْسَةٌ مِنْ إِخْوَتَى بِزَبِيدٍ ، فَأَنشَدْتَهُ شَيْئًا مِنْ شَعْرِى فَاسْتَحْسَنَهُ ، ثُمَّ قَالَ : تَعَلَّمَ وَاللَّهِ إِنْ الْأَدَبَ لِنِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ فَلَا تَكْفُرْهَا بِذَمِّ النَّاسِ ، وَاسْتَحْلَفَنِى أَلَّا أَهْجُوَ مُسْلِمًا بَيْتَ شَعْرٍ ، فَخَلَفْتُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ “ .



وَجِجَ مَعَ أُمِّ فَاتِكِ مَلِكِ زَبِيدٍ ، وَقَدْ حَصَلَ لَهُ وَجَاهَةٌ عِنْدَهَا فَأَثَرَى . وَكَثُرَ مَا لَهُ . ثُمَّ طَرَأَتْ أُمُورٌ اقْتَضَتْ أَنْ هَرَبَ مِنَ الْيَمَنِ . ثُمَّ جِجَ سَنَةَ ٥٤٩ هـ فَطَلَبَ مِنْهُ إِلَى الْحَرَمَيْنِ السِّفَارَةَ عَنْهُ إِلَى الدَّوْلَةِ الْمَصْرِيَّةِ . قَالَ : ” فَقَدِمْتُهَا سَنَةَ ٥٥٠ هـ ، وَالْخَلِيفَةُ يَوْمَئِذٍ الْفَائِزُ ، وَالْوَزِيرُ لَهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ طَلَّاعُ بْنُ رَزَيْكٍ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ لِلْسَّلَامِ عَلَيْهِمَا فِي قَاعَةِ الذَّهَبِ مِنْ قَصْرِ الْخَلِيفَةِ أَنْشَدَتْهُمَا :

الْحَمْدُ لِلْعِيسِ بَعْدَ الْعَزَمِ وَالْهَمَمِ  
حَمْدًا يَقُومُ بِمَا أَوَّلَتْ مِنَ النِّعَمِ“  
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ :

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنَّيَ بَعْدَ زَوْرَتِهِ  
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مَضْرُوبٌ سَرَادِقُهَا  
وَالْإِمَامَةُ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ  
وَالنَّبِيُّ آيَاتٌ تُضِيءُ لَنَا  
مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ  
بَيْنَ النَّقِيزَيْنِ مِنْ عَفْوٍ وَمِنْ نِقَمِ  
تَجْلُو الْبَغِيضَيْنِ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمِ  
عَلَى الْخَفِيِّينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حِكْمِ

وَفِيهَا يَقُولُ :

أَقْسَمْتُ بِالْفَائِزِ الْمَعْصُومِ مُعْتَقِدًا  
لَقَدْ جَمَى الدِّينَ وَالْدُنْيَا وَأَهْلَهُمَا  
فَوْزَ النِّجَاحِ وَأَجَرَ الْبِرِّ فِي الْقَسَمِ  
وَزِيرَهُ الصَّالِحَ الْفَرَّاجَ لِلْغَمِّ

قَالَ عُثْمَانُ : ” وَكَانَ الصَّالِحُ يَسْتَعِيدُهَا مَرَارًا ، وَالْأُسْتَاذُونَ وَالْأُمَرَاءُ وَالْكِبَرَاءُ يَذْهَبُونَ فِي الِاسْتِحْسَانِ كُلِّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ أُفِيضَتْ عَلَى خَلْعٍ مِنْ ثِيَابِ الْخِلَافَةِ مُذْهَبِيَّةً ، وَدَفِعَ إِلَى الصَّالِحِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ ، وَإِذَا بَعْضُ الْأُسْتَاذِينَ قَدْ خَرَجَ لِي مِنْ عِنْدِ السَّيِّدَةِ بِنْتِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ بِخَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَحُمِلَ الْمَالُ مَعِيَ إِلَى مَتْرَى ، وَأُطْلِقْتُ لِي مِنْ دَارِ الضِّيَافَةِ رُسُومٌ لَمْ تُطْلَقْ لِأَحَدٍ قَبْلِي “ .



ولما انتالت عليه الصلّات ، وطاب له بمصر المقام قال :

لياليّ بالفُسطاط من شاطئِ مصرِ      سقى عهدك الماضى عهداً من القطرِ  
ليالٍ هي العمرُ السعيدُ وكلُّ ما      مضى من سواها لا يعدُّ من العمرِ  
أفادتني الأقدارُ فيها موالياً      صفت بهم الأيامُ من كدرِ الغدِ  
تواصوا على ألاّ تردَّ إرادتي      ولو ستمهم نثر الكواكب في حجرِي

وكان من أظهر أخلاق عمارة الوفاء ، فلما قُتِلَ الصالح بن رزيك وجلس  
شاور في دار الذهب ، وقام الشعراء والخطباء ينالون من بني رزيك أبي عمارة أن  
يمسّمهم بهجاء ، فكان مما قاله :

زالت ليالي بني رزيك وانصرفت      والحمد والذم فيها غير منصرف

إلى أن قال :

ولم يكونوا عدواً ذلّ جانبُه      وإنما غرقوا في سيلك العرم  
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى      تعظيم شأنك فاعذُرني ولا تلم  
ولو فتحت في يومٍ بدمهم      لم يرض فضلك إلا أن يسد في  
فشكره شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك .

ولما زالت دولة الفاطميين ، وكان لهم مُخلصاً ولفضليهم ذا كرا ، امتلاء قلبُ  
عمارة حزنًا عليهم ، وحسرة على ماضى أيامهم ، ولكنه اضطر إلى مدح صلاح  
الدين ، فن مدائحُه فيه قوله :

صحت به مصرُ وكانت قبله      تشكو سقاماً لم يُعِن بطيب  
حجّاً لمعجزة أتت في عصره      والدهر ولادٌ لكلّ نجيب  
ردّ الإلهُ به قضية يوسف      نسقاً على ضربٍ من التقريب  
جاءته إخوته ووالده إلى      مصرٍ على التسريح والترتيب

وهو كما ترى شعر ضعيف لم يخرج من القلب .



وما زالت ذكرى الفاطميين تُعاوده ، والأسف عليهم يبتأجه ، حتى نظم قصيدته المشهورة في رثاء دولتهم ، وهي تشرح كثيرا من أحوال الفاطميين وعاداتهم وأيامهم ، وتعدّ من أجود الشعر في رثاء الدول .

قال المقرئى : ” وبسبب هذه القصيدة قُتِلَ عُمارَةُ رحمه الله وتَحَلَّتْ لَهُ الذنوب “ ، وأول هذه القصيدة :

رَمَيْتَ يَادَهُرُ كَفَّ الْمَجْدَ بِالشَّلِيلِ      وَجِيدهَ بَعْدَ حَلِي الْحُسْنِ بِالْعَطَلِ  
ومنها :

هَظْفِي وَهَظْفُ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً      عَلَى بَجِيعَتِنَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ  
قَدِمْتُ مَصْرَ فَأَوْلَتْني خِلَافُهَا      مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرْبَى عَلَى الْأَمَلِ  
وفيها يندد بالفظائع التي أوقعها بهم بنو أيوب :

مَاذَا تَرَى كَانَتْ الْأَفْرَنْجُ فَاعِلَةً      فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ؟  
هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرُ قِسْمَةٍ مَا      مَلَكَتُمْ بَيْنَ حُكْمِ السَّيِّ وَالنَّفْلِ

ومنها في ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دَارُ الضِّيَافَةِ كَانَتْ أَنْسَ وَإِفْدَكُمْ      وَالْيَوْمَ أَوْحَشَ مِنْ رَسْمٍ عَلَى طَلَلِ  
وَفِطْرَةُ الصُّومِ إِنْ أَصَغَتْ مَكَارِمَكُمْ      تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ  
وَكِسْوَةُ النَّاسِ فِي الْفَضْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ      وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ عَنْهُمْ وَبَلِ  
وَمَوْسِمٌ كَانَ فِي كَسْرِ الْخَلِيجِ لَكُمْ      يَأْتِي تَجَلُّكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَلِ  
وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَانِ كَانَ لَكُمْ      فَيَنْ مِنْ وَبَلِ جُودِ لَيْسَ بِالْوَشَلِ  
وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي عِيدِ الْغَدِيرِ بِمَا      يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصْرَيْكُمْ مِنَ الْأَسَلِ  
وَالْخَلِيلُ تَعْرِضُ فِي وَشْيٍ وَفِي شَيْءٍ      مِثْلَ الْعُرَاسِ فِي حَلِي وَفِي حَلِ  
وَلَا حَمَلَتْكُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةِ الْـ      أَطْبَاقٍ إِلَّا عَلَى الْأَعْنَاقِ وَالْعَجَلِ  
وَمَا خَصَصْتُمْ بِرِ أَهْلَ مَلَّتْكُمْ      حَتَّى عَمِمَتْ بِهِ الْأَفْصَى مِنَ الْمِلَلِ  
وَالْجَوَامِعُ مِنْ أَحْبَاسِكُمْ نَعَمْ      لِمَنْ تَصَدَّرَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلِ



وجملة الخبر في سبب قتله ما ذكره العماد ، وكان متعصبا للأيوبيين ، قال ما ملخصه : ” واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة ، يعني الفاطمية ، وتزاوروا فيما بينهم خفية ، وعينوا الخليفة والوزير ، وأحكموا الرأي والتدبير ، وكان عمارة اليمنى عقيدتهم ، وكان الفقيه الواعظ زين الدين على يشاركتهم ، ويضمير لهم الواقعة ، فجاء زين الدين وأطلع صلاح الدين على أمرهم ، وطلب مالا بن كامل داعيتهم من المال والعقار ، فبدل له السلطان كل ما طلبه ، ثم أمر السلطان بإحضار رؤسائهم ، فاعترفوا بجرمهم ، فاستنقى العلماء فأفتوه بقتلهم ، فصلبوا بين القصرين ، وفيهم عمارة اليمنى “ .

ويقال إن عمارة لما مروا به ليُصَلَّبَ عبروا على جهة دار القاضي الفاضل ، فطلب الاجتماع به ، فقبل ليس إليه طريق ، فقال :

عبد الرحيم قد احتجب      إن الخلاص هو العجب

( توفى سنة ٥٦٩ هـ )



## الشعر في الشام

الدولة الحمدانية — لما ضَعُفَت الخلافة العباسية ، كانت الدولة الحمدانية تسيطر على الموصل وحلب وديار بكر ، وكان الحمدانيون عرباً من قبيلة تغلب ، فيهم كثيرٌ من صفات العرب السامية ، فكانوا يفهمون الشعر ، ويُدركون ما فيه من روعة وجمال ، وكان من قبيلتهم في الجاهلية عمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات .

سيف الدولة — وليَ رأس أسرتهم عبد الله بن حمدان الموصل من قبل الخليفة المكتفي ، وَلَقَّبَ الخليفةُ ولده حسنًا بناصر الدولة ، وولده علياً بسيف الدولة ، وبعد سنة ٣٣٣ هـ تَغَلَّبَ سيفُ الدولة على حلب بائتراعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي ، وسيطر على شمال الشام . وقد قضى مدة حكمه ، وكانت ثلاثاً وعشرين سنة ، في طرد الروم من حدود آسيا الصغرى ، ومقاتلة العرب الثائرين الطامعين في مملكته ، وقد ظفر بالروم في وقائع كثيرة ، غنَّى المتنبي فيها بانتصاراته الباهرة . ويظهر ان هذه الجهود التي بذلها في حياته استنفدت قوة الدولة وأموالها ، فأدرك دولته شيءٌ من الضعف في آخريات أيامه ، وأصبح خلفاؤه عاجزين عن المحافظة على إماراتهم الصغيرة من صولات الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب .

والحمدانيون جديرون بعطف التاريخ ، وأن تُشيعهم الأقلام بكلمات الإعجاب والثناء ؛ لأنهم في مدة قصيرة من الزمان أحيوا آداب العرب ، وأخلاق العرب ، التي مُحِيتْ أو كادت تُمَحَى في عصر غلبت فيه العُجْمة ، وسيطر فيه الأعاجم على دول الإسلام ، ذلك العصر الذي يقول فيه المتنبي :

يُكَلِّ أَرْضَ وَطَنُهَا أُمَّمٌ      تَرَعَى بَعْدَ كَانِهَا غَمٌ



وكان لسيف الدولة بجانب الشهرة التي نالها بانتصاراته المتوالية هممة سامية في إحياء العلم والأدب ، ورغبة صادقة في تجديد ما كاد يندثر من آداب العربية وعلومها ، وقد ندهش حقاً إذا نظرنا إلى قصر مدة حكمه ، وضيق موارد دولته ، ثم إلى ما كان في عهده من نهضة كادت تُعيد عهد الرشيد والمأمون ، فقد جمع سبطه أعظم الأدباء ، وكبار الشعراء الذين كان من بينهم المتنبي الذي اتصل بقصره تسع سنين ، وهو أشعر الشعراء ، ثم أبو فراس ابن عمه ذلك الفارس المغوار الذي له كثير من القصائد الحماسية الرائعة ، وروميائه التي قالها في الأسر تُثير الحزن وتبعث الشجون ، ومن شعرائه السري الرفاء أكبر الوصّافين وأبو العباس النامي وأبو الفرج البغّاء وابن نباتة السعدي .

ومن اتصل بدولته أبو الفرج الأصفهاني ، الذي أهدى إليه كتابه الأغاني ، فوصله سيف الدولة بألف دينار ، واعتذر إليه لقلة الصلة وعظيم الهدية .

وكان خطيبُ جيوشه عبد الرحيم بن نباتة الذي كان يُثير حماسة الجند بروائع خطبه عند مصادمة الروم .

وعاش في كنفه فيلسوف الإسلام الأعظم أبو نصر الفارابي ، الذي لم يقبل لزهده أن يتقاضى في اليوم من بيت المال أكثر من أربعة دراهم .

ونزل في ذراه كثير من علماء اللغة والأدب ، أشهرهم ابن خالويه الذي كانت ترحل إليه الطلبة من جميع الأقطار .

وقد بذل سيف الدولة للشعراء المال الكثير ، لأنه كان عربياً جواداً أريحياً يهتر للديح ، فنهض الشعر في عهده نهضة مباركة ، وبلغ القمة .



رَوَى الثعالبي في اليتيمة عن أبي الحسن محمد قال : ”كنت واقفا في السِّبَاطَيْنِ بين يَدَيَّ سيفِ الدولة بجلب ، والشعراء يُنشدونه ، فتقدم إليه أعرابي رَثَّ الهِيئَةُ فاستأذن الجُحَابَ في الإنشاد فأذنوا له ، فأَنشد :

أَنْتَ عَلَيَّ وَهَذِهِ حَلَبُ      قَدْ نَفَدَ الزَادُ وَانْتَهَى الطَّلَبُ  
بِهَذِهِ تَفَخَّرُ الْبِلَادُ وَبِأَلِ      أَمِيرٍ تَزْهَى عَلَى الْوَرَى الْعَرَبُ  
وَعَبْدُكَ الدَّهْرُ قَدْ أَضْمَرَ بِنَا      إِلَيْكَ مِنْ جَوْرِ عَبِيدِكَ الْهَرَبُ

فقال سيف الدولة أحسنت والله أنت ، وأمر له بمائتي دينار .“

قال الثعالبي : ”وحكى ابن لبيب غلام أبي الفرج البَغَاءُ أَنَّ سيفَ الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصَّلات ، في كل دينار منها عشرة مثاقيل ، وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير ، فقال ارتجلا :

نَحْنُ بِجُودِ الْأَمِيرِ فِي حَرَمٍ      نَرْتَعُ بَيْنَ السُّعُودِ وَالنَّعَمِ  
أَبْدَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّنَانِيرِ لَمْ      يَخِرْ قَدِيمًا فِي خَاطِرِ الْكَرَمِ  
قَدْ غَدَّتْ بِاسْمِهِ وَصُورَتِهِ      فِي دَهْرِنَا عُودَةً مِنَ الْعَدَمِ

فزاده عشرة أخرى .

وكان أبو فِرَاسٍ يوماً بين يديه في نَفَرٍ مِنْ نُدَمَائِهِ ؛ فقال لهم سيف الدولة : أَيُّكُمْ يُحْيِيزُ قَوْلِي ؟ وليس له إِلَّا سَيِّدِي . يعنى أبا فِرَاسٍ :

لَكَ جِسْمِي تَعْلَهُ      فَدَمِي لَمْ تُحِلَّهُ ؟

فارتجل أبو فِرَاسٍ وقال :

أَنَا إِنْ كُنْتُ مَالِكًا      فَلَكَ الْأَمْرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضَيْعَةً بِمَنْبِجٍ تُغَلُّ أَلْفَ دِينَارٍ .“

وأخبار جود سيف الدولة وإغداقه على الشعراء ورجال الأدب شائعة مستفيضة.



وَرَوَى التَّارِيخُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ شِعْرًا جَيِّدًا وَتَقْدًّا فِي الْأَدَبِ يَدُلُّ عَلَى ذَوْقِ عَرَبِيٍّ مُسْتَقِيمٍ ، فَمِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ :

رَاقِبَتْنِي الْعَيُونَُ فَيْكَ فَأَشْفَقْ      مَتُّ وَلَمْ أَخُلْ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ  
وَرَأَيْتُ الْعَدُوَّ يُحْسِنُ فِي      إِيَّكَ مُجِدًّا بِأَنْفُسِ الْأَعْلَاقِ  
فَتَمَنَيْتُ أَنْ تَكُونِي بَعِيدًا      وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنَ الْوَدِّ بَاقِ  
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ      وَفِرَاقٍ يَكُونُ خَوْفَ فِرَاقِ

وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ سَنَةَ ٣٠٣ هـ ، وَهِيَ سَنَةُ وَلَادَةِ الْمُتَنَبِّي .

وَمَاتَ بِحَلَبِ سَنَةَ ٣٥٦ هـ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمُلُوكِ أَغْزَى مِنْهُ ، حَتَّى إِنَّهُ جَمَعَ مِنْ نَفِضِ الْغُبَارِ الَّذِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ فِي غَزَوَاتِهِ شَيْئًا ، وَعَمَلَهُ لَيْسَنَةً بِقَدْرِ الْكَيْفِ وَأَوْصَى أَنْ يُوضَعَ خَدُّهُ عَلَيْهَا فِي لَحْدِهِ ، فَأَنْفَذُوا وَصِيَّتَهُ .

وَتَوَلَّى بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَلَدُهُ سَعْدُ الدَّوْلَةِ أَبُو الْمَعَالَى شَرِيفٌ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٣٨١ هـ وَتَوَلَّى بَعْدَهُ وَلَدُهُ أَبُو الْفَضَائِلِ سَعْدٌ ، وَبِمَوْتِهِ انْقَرَضَ مَلِكُ الْحَمْدَانِيِّينَ .

حَكَمَ نُورُ الدِّينِ بْنِ زَنْكِي — وَاسْتَمَرَّ الشَّعْرُ قُوْيًا بِالشَّامِ بَعْدَ زَوَالِ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِيَّةِ وَمَا وَلِيَهَا مِنْ دَوِيَلَاتٍ ، حَتَّى جَاءَ حَكْمُ نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ زَنْكِي ، فَرَأَى الشَّعْرَ الشَّامِيَّ فِي الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ مَجَالًا فَسِيحًا فَصَالَ وَجَالَ .

وَالْحَقُّ أَنَّ الشَّعْرَ فِي الشَّامِ كَانَ كَثِيرًا جَدًّا فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ ، وَكَانَ مُعْظَمُهُ جَيِّدًا . وَقَدْ التَّفَّ الشَّعْرَاءُ — وَهَمَّ كَثِيرُو الْعَدَدِ — حَوْلَ الْغَزَاةِ فِي الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ يُسَاجِلُونَ بِطَوْلَتِهِمْ ، وَيَغْنَوْنَ بِفَتْوحِهِمْ ، فَلَمْ يَتْرَكُوا مَوْقِعَةً إِلَّا دَوَّنُوا حَوَادِثَهَا ، وَلَا انْتَصَرَا إِلَّا أَشَادُوا بِهِ ، وَلَوْ أَرَدْنَا الِاسْتِشْهَادَ هُنَا لَحَالَ بَيْنَنَا ذَلِكَ وَبَيْنَ مَا نَقْصِدُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيْجَازِ .

وَكَانَتْ وَفَاةُ نُورِ الدِّينِ سَنَةَ ٥٦٩ هـ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعْرَاءِ فِي أَيَّامِهِ وَالتَّفَافِهِمْ حَوْلَهُ ، ذَكَرُوا فِي تَرْجُمَتِهِ أَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْإِتِّهَاجِ بِالشَّعْرِ ، مَرْمِيًا بِالْبُخْلِ .



قال يحيى بن محمد الوهراني وقد سُئِلَ عن نور الدين : ” هو سهمٌ للدولة سديد ،  
وركنٌ للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تساعدُه الأفلاك ، وتعزدهُ  
الجيش والأُملاك ، ذير أنه عُرِفَ بالمرعى الوَيْيل ، لابن السبيل ، وبالْحَلِّ  
الجديب ، للشاعر الأديب “ .

وقال فيه أسامة بن مُنقِذ :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا      له فكلُّ عن الخيرات مُنكشٌ  
أيامُه مثل شهر الصومِ طاهرةٌ      من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

وقد رد أبو شامة على مَنْ وصفه بالبخل مستشهداً بأخبار الشعراء من وصفه  
بالجود والكرم ، قال : ” وإنما الشعراء وأكثَرُ الناس كما قال تعالى : ” فَإِنْ أَعْطُوا  
مِنْهَا رِضْوَانًا لَمْ يَعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ “ .

وأشهرُ الشعراء في عصر نور الدين شاعران : هما أبو الحسين أحمد بن منير ،  
ومحمد بن نصر القيسراني ، ماتا في سنة واحدة ، وهى سنة ٥٤٨ هـ ، وقد شبههما  
العماد الأصمهاني لذلك بالفَرزدق وجَرير . قال أبو شامة في الروضتين :

” ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير من الشعراء مَنْ يُحَسِّنُ وصفَ مناقب  
نور الدين ، إلا ابن أسعد الموصلي “ .

ويحسِّن بنا أن نلِمَ قليلاً بهذين الشاعرين .

ابن منير — قال ابن خلكان : له ديوان شعر ، وكان أبوه يُنشد الأشعار ،  
ويُغنى في أسواق طرابلس ، ونشأ أبو الحسين وحفظ القرآن ، وتعلم اللغة والأدب ،  
وقال الشعر ، وقَدِمَ دِمَشْقَ فسكنها ، وكان رافضياً كثير الهجاء خبيث اللسان ،  
ولما اكْثَرَ منه ذلك سَجَنَهُ بودى أتابك طفتكين صاحب دِمَشْقَ مدّة ، وعزَمَ على  
قطع لسانه ، ثم شفعوا فيه فنقاه .



وكانَ بينه وبين القيسراني مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وكانا مُقيمين بجلب ،  
ومتنافسين في صناعتهما ، كما جرت عادة المتماثلين .

ومن قوله :

|                                          |                                              |
|------------------------------------------|----------------------------------------------|
| وإذا الكريم رأى الخمولَ زميله            | في منزل فالحزم أن يترحلا                     |
| كالبدْر لما أن تضاعل جدّ في              | طلب الكمال فخارَه متقللا                     |
| سَفَهَا لحكمك إن رَضِيتَ بِمُشْرِبِ      | رَنَقٍ ورزقُ الله قد مَلَأَ الفَلا           |
| فَارِقُ تُرْقُ كالسيفِ سُلَّ قَبَانِ في  | مَتْنِيهِ ما أَخْفَى القِرَابُ وَأَحْمَلَا   |
| لا تحسبنَ ذهابَ نفسِكَ مَوْتَةً          | ما الموتُ إلا أن تعيشَ مُذَلَّلَا            |
| للفَقْرِ لا للفقرِ هَبْهَا إِيَّما       | مَخْنَاكَ ما أَغْنَاكَ أن تَتَوَسَّلَا       |
| لا تَرْضَ من دنيَاكَ ما أدْنَاكَ مِن     | دَنَسٍ وَكُنْ طَيِّفًا جَلَا ثُمَّ انْجَلَا  |
| وَصِلِ الهَجِيرَ بهَجَرِ قومٍ كُلِّما    | أَمَطَرْتَهُمْ شَهْدًا جَنُوا لَكَ حَنْظَلَا |
| مَنْ غَادِرٍ خَبِثَتْ مَغَارِسُ وَدِهٍ   | فإذا مَحَضَتْ لَهُ الوَفَاءَ تَأَوَّلَا      |
| للهِ علمي بالزَمَانِ وأَهْلِهِ           | ذَنْبُ الفَضِيلَةِ عِنْدَهُمْ أن تَكْمَلَا   |
| طَبِعُوا على لَوْمِ الطَّبَاعِ خَيْرُهُم | إِنْ قُلْتَ قال وَإِنْ سَكَتَ تَقَوَّلَا     |
| أَنَا مَنْ إذا ما الدهرُ قامَ بِخَفْضِهِ | سَامَتِهِ هَمَّتْهُ السَّمَاءُ الْأَعْزَلَا  |
| وَإِيعَ خُطَابَ الخُطْبِ وهو مُجْمَعٌ    | رَاعِ أَكْلَ العَيْسِ من عَدَمِ الكَلَا      |

وكان ابن منير كثيرًا ما يبتغي ابن القيسراني بأنه ما صحب أحدًا إلا  
نكب ، فاتفق أن أتاك عماد الدين زكي صاحب الشام غنًا مغنٍّ وهو يحاصر  
الامعة جهر :

|                                             |                                        |
|---------------------------------------------|----------------------------------------|
| • يَلِ من المعرضِ العُضبانُ إذ نَقَلَ أَلَا | وَإِشَى إِلَيْهِ حَدِيثًا كُلُّهُ زُور |
| سَلَمْتُ فَازُورٌ يَزُوي قَوْسَ حَاجِبِهِ   | كَأَنِّي كَأْسُ نَحْرٍ وهو مُجْمُور    |



فاستحسنها زنكى ، وقال لمن هذه ؟ فقبل لابن منير وهو بحلب ، فكتب  
إلى والى حاب يُسَيِّرُهُ إِلَيْهِ سَرِيعًا ، فَسَيَّرَهُ ، فَلَيْلَةً وَصَلَ ابْنُ مِنْير قَتَلَ أَتَابِكَ  
زنكى ، فلما دخل ابن منير حلب قال له ابن القيسرانى هـ هذه بجميع ما كنت  
تبتكئى به ، وكانت ولادته بطرابلس سنة ٤٧٣ هـ .

ابن القيسرانى — كان من الشعراء المحيدين ، والأدباء المُفَتِّين ، ومن  
معانيه البديعة :

هذا الذى سَلَبَ العُشَّاقُ نَوْمَهُمْ      أَمَا تَرَى عَيْنَهُ مَلَأَى مِنَ الوَسَنِ ؟

وكان كثير الإعجاب بقوله من قصيدة :

وأهوى الذى أهوى له البدرُ ساجداً      أَلَسْتَ تَرَى فى وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ ؟

وقال يهنئ نور الدين بفتح أنطاكية سنة ٥٤٤ هـ :

هذى العزائمُ لا ما تَدْعَى القُضْبُ      وذى المكارمُ لا ما قَالَتِ الكُتُبُ  
وهذه الهممُ اللاتى متى خَطَبْتُ      تَعَتَّرَتْ خَلْفَهَا الأشعارُ والخطبُ

ومنها فى وصف المعركة :

والخيلُ من تحت قتلاها تَفَرُّها      قوائمُ خاننِ الرُكُضِ والخببِ  
والنَّعْجُ فوقَ صِقَالِ البيضِ منعقد      كما استقلَّ دخانُ تحتَه لَهَبُ  
والسيفُ هامَ على هامٍ بمعركة      لا البَيْضُ ذُو ذِمَّةٍ فيها ولا اللَّابِ  
والنَّهْلُ كالوَيْلِ هَطَّالٍ وليس له      سِوَى القَيْسَى وأيدٍ فوقها سَحَبُ



## ترجمة المتنبي

أبو الطيب أحمد بن الحسين ، ولد ونشأ بالكوفة من أسرة فقيرة ، وقد سلك الطريق التي كان يسلكها شباب عصره من ذوى المواهب ، فذهب إلى دمشق وزار مدنا أخرى في الشام ، وقضى حيناً غير قصير في بادية السماوة للتلقّي من الأعراب ، وربما كان هذا سرّ تمكنه من اللغة وإحاطته بأسرارها ، ويَزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية وكثر أتباعه وأشياعه .

سجن المتنبي وما قيل حول ذلك — ونَقَلَ في الصّبح المتنبي عن حيثة المتنبي رواية عن يُدعى مُعَاذ بن إسماعيل ، أن أبا الطيب قدّم عليه بِاللَّادِيَةِ سنة نيفٍ وعشرين وثلاثمائة ، وصارحه بادعاء النبوة ، ثم قالوا إن لؤلؤا وإلى حِمَص قبض عليه وسجنه ، وإنه كتب إليه وهو في السجن قصيدة منها :

فما لك تقبل زورَ الكلام      وقدّر الشهادة قدرُ الشهود  
وكن فارقاً بين دعوى أردتُ      ودعوى فعلتُ بشأو بعيد

وربما كان سجنه لمحض خروجه على الدولة ، لأنها كانت في ضعف شديد ، ولأن المتنبي كان بعيد الآمال كبير المطامع ، وقد وجد الدولة العباسية نهباً مقسماً ، ورأى في سكان البادية سذاجة في الطباع فغذبهم إليه بسحر بيانه وقوة عارضته .

ولو كانت القصيدة التي قالها في السجن في شأن ادعاء النبوة لكان يكفي في نفي هذه الدعوى ما يُقيمه المتنبي نفسه فيها من المنهج على براءته منها ، ويدلّ على أن سبب حبسه هو محض الثورة قولُ اليازجى في تفسير قوله :

وكن فارقاً بين دعوى أردتُ      ودعوى فعلتُ بشأو بعيد

”وذلك لأنهم كانوا قد وشّوا به أنه يريد أن يأخذ البلد“ ويؤيده ما حكاه الثعالبي في اليتيمة قال : ”وبلغ من كبر نفسه وبُعد همته ، أن دعا إلى بيعته قوما



قوما من رائشي نبّله على الحداثة من سنه ، والغضاضة من عوده ، وحين كان يتم له أمر دعوته ، تأدّى خبره إلى والى البلدة ، ورفّع إليه ما همّ به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده .

فالحبس على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية . ثم عاد الثعالبي فقال : ”ويحكى أنه تنبأ في صباه ، وقتن شُرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه“ وحكاية الرواية على هذا النحو تدلّ على ضعفها .

ولعل سبب تلقيبه بالمتنبى ما يقوله تلميذه المتصل به الملمّ بكل أحواله أبو الفتح ابن جيّ ، قال عند الكلام على قول المتنبى :  
أنا في أمة تداركها الله — غريب كصالح في عمود  
إنه بهذا البيت لُقّب بالمتنبى .

ولو ثبت ادعاؤه النبوة لرأينا كثيرا من الشعراء يعيّر بهذه الزلة القاصمة ، على شدة حسدهم إياه ، وتجاوزته الحد في احتقارهم والنيل منهم ، والسمو بنفسه كبراً ورهواً فوق منزلتهم ، وإن شيئا من ذلك لم يثبت ثبوتا صحيحا .

خروجه من السجن واستجدّؤه بالشعر — ولما خرج من السجن هام على وجهه في البلاد يحدّى بشعره ، ويمدح من لاقاه عظم أو حقّر ، حتى إنه مدح على بن المنصور الحاجب بقصيدة من غرر قصائده فأجازه عليها بدينار وسميت القصيدة بالدينارية ، واولها :

بأبي الشمس الجانحات غواربا      اللابسات من الحرير جلاببا

ثم اتصل ببدر بن عمّار وهو أحد ولاة الشام فدّحه بشعر رائع .

اتصاله بسيف الدولة — وما زال يتقلب في جنبات البلاد حتى اتصل بأبي العشائر ، وكان سيف الدولة قدّم أنطاكية سنة ٣٣٧ هـ ، وأبو العشائر بها ، فقدّم المتنبى إليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفّه منزلته من الشعر والأدب . ويقال



إن المتنبي اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه لا يُنشده إلا وهو جالس ،  
ولا يُكَلِّف تَقْيِيلَ الأَرْضِ بين يديه ، فدَخَلَ سيفُ الدولة تحت اشتراطه .  
وانقطع المتنبي إليه لا يمدح أحدا سواه نحو تسع سنين ، وكان جملة ما قاله فيه  
يعادل ثلث شعره ، وهو من عيون قصائده ولُباب مدائحه .

رحيله إلى كافور — وبعد أن هَجَرَ سيفُ الدولة رَحَلَ إلى دمشق ثم  
زَيَّنَ إليه أحدُ أتباع كافور هناك أن يَرَحَلَ إليه فاتجه إلى مصر . والحَقُّ أنه قدم  
إلى كافور يَحْذِبه الطمَعُ في أن ينال من كافور ولاية ، ويصده الكِبَرُ أن يَتَدَلَّى  
إلى مدح الأسود .

ولو تبصرنا لرأينا نازعة الكراهة والحقد على كافور تظهر حتى في كثير من  
مدائحه ، وحَسْبُكَ أن تعلم أن أول قصيدة لاقاه بها كان مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا      وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يُكْرَبَ أَمَانِيَا

وبَدَّلَ المتنبي ماءَ وجهه رخيصة في التزُّف إلى كافور والاحتيال على أن يقدِّمه  
حكما ، وكانت كُلُّ قصيدة من قصائده فيه تنتهي بالشكوى والإلحاح ، ولما رأى  
أبو الطيب أنه لم يظفر من كافور بطائل ، كما جَهِر بذلك في قصيدته البائية ، التي  
امتدحها بها حين يقول :

أَمْوَلَايَ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ      فَإِنِّي أَغْنَى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ ؟

عنزم على الفِرَار ، فَأَعَدَّ لَهُ عُدَّتَهُ ، وهجاء قبل مغادرة مصر بيوم واحد  
بقصيدته المشهورة :

عَيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدَّتْ يَا عَيْدُ      بِنَا مَضَى ، أَمْ لَا مَرِّ فَيْكَ تَجْدِيدُ ؟

وله في هجائه قصائد أخرى من أجود الشعر العربي .



فراره من مصر — قرأ أبو الطيب إلى الكوفة ، ثم رحل إلى بغداد ، وتفرَّع بها عن مدح الوزير المهلبى ، ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك ، فشَقَّ ذلك على المهلبى ، وأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عِرضِهِ ، وتبارَوْا فى هجائه ، وفيهم ابنُ حَجَّاج وابنُ سُرَّكْه ، فلم يُجِبْهم المتنبي ولم يفكرَ فيهم .

ذهابه إلى ابن العميد واتصاله بعضد الدولة — ثم راسله ابن العميد من أَرَجَان ، فسار إليه ومدَّحَه بقصائدٍ عدَّة . ثم اتصل بعَضد الدولة بشيراز ، وقد مرَّ فى أثناء سيره إليه بشعب بَوَّان ، فوصفه بقصيدة من فرائد الشعر وبدائعه ، ثم ودَّعه بقصيدة كافية أكثر فيها من التشاؤم على نفسه ، كأنه كان يحسُّ دُنُوَّ أَجَلِهِ ، وكان الأمر كذلك ، فإنه قتل فى الطريق بعد ارتحاله من شيراز .

خبر مقتله — قال فى الصبح المنبى ، قال الخالديان : ” كتبنا إلى أبى نصر محمد الجبلِّ نُسأله عما صدر لأبى الطيب بعد مفارقتِهِ عضد الدولة ، وكيف كان قتله فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فى أثناءه :

”أما ما سألتكم عنه من خبر مَقْتَل أبى الطيب المتنبي ، فأنا أسوقه لكم وأشرحه شرحاً بيناً ، اعلموا أنَّ مَسِيرَه كان من واسط يوم السبت ثلاثَ عشرةَ ليلة بقيت من رمضان سنة ثلثمائة وأربع وخمسين ، فُقِتِلَ بِضَيْعَةٍ تقرب من دِيرِ العاقول ، ليلتين بقيتا من شهر رمضان ، والذى تَوَلَّى قَتْلَه وقَتَلَ ابنه وغلَّامه رجلٌ من بنى أسد ، يقال له فاتك بن أبى جهل ، وكان من قول فاتك لما قتله :

” قبحاً لهذه اللّحية يا قَدَّاف المحصنات ! “ وذلك أن فاتكا هذا هو خال ضَبَّة ابن يزيد العيني الذى هجاه أبو الطيب فأقدَّع .

وأما شرح الخبر فإن فاتكا هذا بلغه انصراف أبى الطيب من بلاد فارس ويوجههُ إلى العراق ، وعلم أن اجتيازَه بجبل دير العاقول ، فلم يكن ينزل عن



فرسه ، ومعه جماعة من بنى عمه يَرَوْنَ في المتنبي مثل رأيه ، فكانوا لا يزالون يَتَنَسَّمُونَ أخباره من كل صادر ووارد ، وكان كثيرا ما ينزل عندي ، فقلت له يوما وقد جاءني ، وهو يسأل قوما مجتازين عن المتنبي : أراك قد أكرت السؤال عن هذا الرجل فما تريد منه إذا لقيته ؟ فقال ما أريد إلا الجميل وعدله على هجاء ضبة . فقلت هذا لا يليق بأخلاقك ، فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر والله لئن اكتحلْتُ عيني به لأسفكنَّ دمه ! فقلت له كُفَّ — عافاك الله — عن هذا ، وارجع إلى الله ، فإن الرجل شهير الاسم بعيد الصيت ، ولا يحسن منك قتله على شعر قاله . فقال يفعل الله ما يشاء وانصرف . وما مضى بعد هذا إلا أيام قليلة حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والكُتُب الثمينة ، لأنه كان إذا سافر لا يترك في منزله درهما ولا شيئا يساويه ، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحا .

قال أبو نصر فتَلَقَّيْتُهُ وأنزله في داري ، وسألته عن أخباره ، وعن لقي في تلك السفرة . فعزفني من ذلك ما سُررتُ به له ، وأقبل يصف ابن العميد وفضله وكرمه وعلمه ، وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى الأدباء ، فلما أمسينا قلت له : يا أبا الطيب علام أنت تجمع ؟ قال : على أن أتخذ الليل مَرَجًا ، فإن السير فيه أخف علي . قلت : هذا هو الصواب ، رجاء أن يُخَفِّيه الليل ، ولا يُصبح إلا وهو قد قطع بلدا بعيدا . وقلت له : والرأي أن يكون معك من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع الخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد . فَقَطَّبَ وجهه وقال : فما تريد بذلك ؟ قلت : أريد أن تستأنس بهم في الطريق قال : أنا والحزاز في عاتق ، فما بي حاجة إلى مؤنس غيره . قلت الأمر كما تقول ولكن الرأي في الذي أشرتُ به عليك . فقال : تلويحك ينبئ عن تعريض ، وتعريضك ينبئ عن تصريح ، فعزفني جلية الأمر . قلت : إن هذا الجاهل فانتكا الأسدى كان عندي منذ ثلاثة أيام ، وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة وقد تكلم بما يوجب الاحترار والتيقظ ، ومعه جماعة نحو العشرين



من بنى عمه يقولون مثل قوله . فقال غلامه : الصواب يا مولاي ما أشار به نصر .  
 فاغتاظ المتنبي من غلامه غيظا شديدا ، وقال : والله لا أرضى أن يتحدث الناس  
 بأنى سرتُ فى خفارة أحدٍ غير سيني . قال أبو نصر : فقلت يا هذا أنا أوجه قوما  
 من قبلى فى حاجة لى يسيرون بمسيرك وهم فى خفارتك . فقال : والله لا فعلت  
 شيئا من هذا ، ثم قال يا أبا نصر : أبتجؤ الطير تخوفنى ؟ ومن عبید العصا تخاف  
 على ؟ والله لو أن محصرتى هذه ملقاة على شاطئ الفرات ، وبنو أسد معطشون  
 نجس ، وقد نظروا الماء كبطون الحيات ، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده ،  
 معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين . فقلت له : قل إن شاء الله . فقال هى  
 كلمة مقولة لا تدفع مقصيا ، ولا تستجلب آتيا ، ثم ركب فكان آخر العهد به .

ورثاه أبو القاسم مظفر بن على الطليسى بمرثية منها :

ما رأى الناس ثانى المتنبي      أى ثانٍ يرى لبكر الزمان  
 هو فى شعره نبى ولكن      ظهرت معجزاته فى المعاني

ورثاه أبو الفتح عثمان بن جنى بقصيدة أولها :

ض القريض واذوت نضرة الادب وصوحت بمد غارى دوحة الكتب



### منزلته الشعرية

دليل نبوغه الشعري — بقول كثير من الأدباء إن أبا الطيب كان مجدودا في شعره ، فلم يسعد قبله أو بعده شاعر بما سجد به من اهتمام رجال الأدب بكلامه ، واحتفالهم به ، وتناول شعره بالشرح والنقد والتحليل ، حتى وكأنه كان ينظر إليهم حين يقول :

أنا الذي نَظَرَ الأَعْمَى إلى أدبي      وأسمعتُ كلماتي من به صمم  
أنا مُلءُ جُفُونِي عن شوارِدِها      ويسهر القومُ جَراها ويختصم

والحق أن المتنبي لم ينل هذه المنزلة عفوًا ، ولم يفضل الشعراء بخطوة من الجِدِّ ، والتفاني من الحِطِّ ، وإنما نالها لنبوغ شعري نادر ، وعبقريّة عزّت على سواه ، ويكفيك أن تعرف أنه وصل إلى هذه المنزلة في عصر كان يموج بالمجيدّين من الشعراء أمثال السري الرفاء ، وأبي العباس النامي وأبي الفرج البغدادى والأواء الدمشقي وغيرهم .

هجومه على الشعراء — بز هؤلاء جميعا وفهرهم وكان لا يفتأ يتحداهم ويسخر منهم ، ويهزأ بمواهبهم ، فهو يقول لسيف الدولة :

أرى كُلَّ يومٍ تَحْتِ ضُبْنِي شُويعِرٌ      ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ (١)  
لِسَانِي بِنُطْقِ صَامِتٍ عَنْهُ عَاذِلٌ      وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاكِكُ مِنْهُ هَاذِلٌ  
وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ      وَأَغِظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ  
وَمَا إِلَيْهِ طَبِي فِيهِمْ غَيْرَ أَنْتِي      بَغِيضٌ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَاقِلِ

(١) الضبن ما بين الإبط والكشح .



ويقول لسيف الدولة أيضا :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غُرُوا بِدُمِّي      وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَلَا ؟  
وَمَنْ يَكْ ذَا فَمَّ مَرٌّ مَرِيضٌ      يَحْدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

ويقول له :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ      بَلَا وَاصِيفٍ وَالشَّعْرَتَهُ ذِي طَاطِمِهِ (١)

ويقول له أيضا :

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ      قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمِ

ثم هو بعد ذلك لا ينتمى إلى أصل كريم ، ولا يتصل بمجد قديم ، فلولا تلك  
الموهبة النادرة والقوة الشعرية الجبارة ، ما استطاع أن يظفر بتلك المنزلة السامية  
بين الملوك والأمراء غير متنازع ولا مدافع ، على كثرة حساده الأقوياء وأعدائه  
الحاقدين .

حكمه — وقد اشتهر أبو الطيب بالحكمة يُرسلها فتستقر في النفوس مُرتاحة  
إليها ضئيلة بها ، ولو أردنا أن نستوفي حكمه جميعها لطلال حبل الكلام وإكنا نكتفي  
بالقليل منها وهي :

لَا افْتِخَارُ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ      مَدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لَا يَنَامُ  
لَيْسَ عَزَمًا مَا مَرَضَ الْمَرْءُ فِيهِ      لَيْسَ هِمًّا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَّلَامُ (٢)  
وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيُ جَانِيهِ      هُوَ غَدَاءٌ تَضَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ (٣)  
ذَلٌّ مَنْ يَغِيظُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ      رَبٌّ عَيْشٌ أَخَفَّ مِنْهُ الْحِمَامُ  
كُلُّ حِلْمٍ أُنَى بَغَيْرِ اقْتِدَارٍ      حِجَّةٌ لِأَجَى إِلَيْهَا اللَّثَامُ  
مَنْ يَهِنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ      مَا لِحَرْجٍ بِمَيْتٍ إِسْلَامُ

(١) الطاطم : جمع ططم بالكسر وهو الذي في لسانه بحمة .

(٢) التريض : التقصير .

(٣) تضى : تهزل .



ومنها :

لَأُنْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْآنَ  
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ  
فُسِ أَنْتَ الْحِمَامُ مَرُّ الْمَذَاقِ  
وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

ومنها :

مُشِبُّ الذِّى يَبْكِي الشَّبَابَ مُشِيبُهُ  
فَكَيْفَ تَوَقَّيْهِ وَبَانِيَهُ هَادِمُهُ

ومنها :

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا  
تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

ومنها :

وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا  
كَتَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ومنها :

إِذَا اعْتَادَ الْفَتَى خَوْضَ الْمَنَابِيَا  
فَلَيْسَ مَا يَمُرُّ بِهِ الْوَحُولُ

ومنها :

إِنَّ السَّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ  
وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ الْمِخَابِ السَّبْعُ

ومنها :

وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى  
وَلَا الْأَمْنُ إِلَّا مَا رَأَاهُ الْفَتَى أَمْنًا

ومنها :

سَبَقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا  
تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَبَابِهَا  
وَصَبِرَ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ (١)  
وَمُنَعْنَا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ  
وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيلِهَا  
وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى

(١) شعوب : الموت .



ومنها :

وفي تعبٍ من يحسد الشمس نورها  
ويجهد أن يأتي لها بضرب

ومنها :

شرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به  
وشرُّ ما قنصته راحتي قنص  
وشرُّ ما يكسب الإنسان ما يصم  
شبه البزاة سواء فيه والرخم<sup>(١)</sup>

ومنها :

إذا ما لست الدهر مستمتعاً به  
تخرقت والملبوس لم يتخرق

ومنها :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله  
مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقر

ومنها :

كل غادٍ لحاجة يمتنى  
أن يكون الغصنفر الربلا

إجادة المديح — وقد أجاد المتنبي المديح وأكثر منه ، لأنه كان شاعراً  
مجتهداً بشعره ، ومن خير مدائحه قوله في سيف الدولة :

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها  
وأنك منها ؟ ساء ما تتوهم  
إذا نحن سميناك خلنا سؤفنا  
من التيه في أغمارها تبسم

وقوله :

يا مليك الورى المفرق محياً  
فقد الله دولة سيفها أنت حساماً بالمكرمات محلى  
فيه أغنت الموالى بذلاً  
وإذا اهتر للندى كان بحرأ  
ومماتاً فيهم وعزاً وذلاً  
وبه أفنت الأعادى قتلاً  
وإذا اهتر للردى كان نصلاً

(١) الرخم : طائر ضعيف .



وَإِذَا الْأَرْضُ انْظَلَمَتْ كَانَ شَمْسًا      وَإِذَا الْأَرْضُ انْظَلَمَتْ كَانَ شَمْسًا  
وَهُوَ الضَّارِبُ الْكَتَبِيَّةَ وَالطَّعْ      وَهُوَ الضَّارِبُ الْكَتَبِيَّةَ وَالطَّعْ  
أَيُّهَا الْبَاهِرُ الْعُقُولَ فَمَا تَدُ      أَيُّهَا الْبَاهِرُ الْعُقُولَ فَمَا تَدُ  
مَنْ تَعَاطَى تَشَبَهًا بِكَ أَعْيَا      مَنْ تَعَاطَى تَشَبَهًا بِكَ أَعْيَا  
وَإِذَا مَا اشْتَهَى خُلُودَكَ دَاعٍ      وَإِذَا مَا اشْتَهَى خُلُودَكَ دَاعٍ

وصف الوقائع — أما وصف الوقائع الحربية فقد بلغ فيه الذروة ، وقد دفعته حروب سيف الدولة وانتصاراته إلى الإشادة بفتوحه والتغنى بملاحمه ، استمع إليه وهو يصف الجيش :

وَذِي لَحْيٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ      وَذِي لَحْيٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ  
تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ      تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ  
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً      إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً  
وَيَخْتَفِي عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ      وَيَخْتَفِي عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ

ثم إلى قوله يخاطب سيف الدولة :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفُ      وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفُ  
تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّهُمْ هَزِيمَةٌ      تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّهُمْ هَزِيمَةٌ  
تَجَاوَزْتَ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّهْيِ      تَجَاوَزْتَ مَقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّهْيِ  
ضَمَمْتَ جَنَاحَهُمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً      ضَمَمْتَ جَنَاحَهُمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً  
بِضَرْبٍ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ      بِضَرْبٍ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ

(١) اللب : اختلاط الأصوات .

(٢) القشاعم : النسور .

(٣) البيض : جمع بيضة وهي الخوذة من الحديد .

(٤) الهامم : جمع هممة وهي الصوت يردد في الصدر .

(٥) كلمى : جمع كلم وهو الجريح .

(٦) القوادم : عشر ريشات في مقدم كل جناح والخوافى ما تحتها .

(٧) الهامات : الرؤوس . واللبات : أعلى الصدور .



حَقَرَتِ الرَّدِينِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا  
وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا  
نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَدِ كُلِّهِ  
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذَّرَا  
تَظُنُّ فِرَاحُ الْفَتْحِ أَنَّكَ زُرْتَهَا  
إِذَا زَلَقْتَ مَشِيَّتَهَا يَبْطُونَهَا  
أَفَى كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدَّمِشَقِ مُقَدِّمٌ  
أَيِّنْكَ رِيحَ اللَّيْلِ حَتَّى يَذُوقَهُ  
وَحَتَّى كَانَ السَّيْفُ لِلرَّحْ شَاتِمٌ<sup>(١)</sup>  
مِفْتَاحِهِ الْبَيْضُ الْخَفَافُ الصَّوَارِمُ  
كَمَا نَثَرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ<sup>(٢)</sup>  
وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ  
بَأَمَاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ<sup>(٣)</sup>  
كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ<sup>(٤)</sup>  
قَفَاهُ عَلَى الْإِقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَائِمٌ<sup>(٥)</sup>  
وَقَدْ عَرَفَتْ رِيحَ اللَّيْلِ الْبُهَامُ

وصف الحمى — وحينما كان بمصر أصيب بالحمى الأجمية (الملاريا) فأجاد

وصف أعراضها وآلامها خير إجابة ، والقصيدة مؤثرة جدا منها :

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَأَى  
وَمَلَّنِي الْفِرَاشُ وَكَانَ جَنِّي  
قَلِيلٌ عَائِدِي ، سَقَمٌ فَوَادِي ،  
عَلِيلُ الْجِسْمِ مُتَمَتِّعٌ الْقِيَامِ  
وَزَائِرَتِي كَانَ بِهَا حَيَاءٌ  
بَدَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا  
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا  
كَانَ الصُّبْحُ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي  
تَحَبُّ بِي الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي  
يَمْلُ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامِ  
كَثِيرٌ حَاسِدِي ، صَعْبٌ مَرَامِي  
شَدِيدُ السَّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ  
فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ<sup>(٦)</sup>  
فَعَاقَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي<sup>(٧)</sup>  
فَتَوَسَّعَتْهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ  
مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سَبَامِ

(١) الردينيات : الرماح . (٢) الأحيد : جبل . (٣) الفتح : جمع فحاء من العقبان وهي

اللية الخناح ، العتاق : كرام الخيل ، الصلادم : الشداد . (٤) الأراقم : الحيات فيها سواد وبياض .

(٥) الدمستق : القائد من قواد الروم . (٦) يريد بالزائرة الحمى . (٧) المطارف جمع مطرف :

الرداء من الخز . والحشاياء جمع حشية : الفراش المحشو .



أَرَقِبْ وَقَّتْهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ      مِرَاقِبَةً الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ  
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا ، وَالصِّدْقُ شَرٌّ      إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ  
أَبْنَتْ الدَّهْرَ عِنْدِي كُلُّ يَنْتٍ      فَكَيْفَ وَصَلَتْ أَنْتِ مِنَ الزَّحَامِ (١)

الرثاء — وكان أبو الطيب يجيد الرثاء ، لأنه من طبعه متبرم بالحياة ساخط عليها ؛ ولأنه حكيم عرف قيمة الحياة الدنيا وما فيها من زُخْرُفٍ كاذب وآمال ضائعة . ومن جيد رثائه قوله في أخت سيف الدولة :

مَسْرَةً فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرِقُهَا      وَحَسْرَةً فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ (٢)  
إِذَا رَأَى وَرَأَاهَا رَأْسَ لَا يَسِيهِ      رَأَى الْمَقَابِعَ أَعْلَى مِنْهُ فِي الرَّتْبِ (٣)  
وَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَنْثَى لَقَدْ خُلِقْتَ      كَرِيْمَةً غَيْرَ أَنْثَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ  
وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ عَنْصَرُهَا      فَإِنْ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعِنَبِ  
فَلَيْتَ طَالَعَةَ الشَّمْسِينَ غَائِبَةً      وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسِينَ لَمْ تَغِبْ (٤)  
وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي أَبَ النَّهَارُ بِهَا      فِدَاءُ عَيْنٍ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تُؤَبْ  
فَمَا تَقَلَّدَ بِالْيَاقُوتِ مُشْبِهَهَا      وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيدِ الْقَضْبِ

وله قصيدة في رثاء جدته سارت بها الأمثال .

الفخر — وكان كثير الزهو بنفسه دائم الإعجاب بمواهبه فكثير في شعره الفخر كقوله :

تَمَرَسْتُ بِالْأَفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا      تَقُولُ أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ دُعِيَ الدُّعْرُ (٥)  
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَانَ لِي      سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَاوَرُ (٦)

(١) يريد بنت الدهر الحى وبنات الدهر شدا ئده .

(٢) البيض : جمع بيضة وهى الخوذة من حديد واليـلب جمع يلبة وهى جلدة تلبس فى الرأس للوقاية .

(٣) أى إذا رأى اليبـلب رأس لابسـه ورأى أن قناع المرأة أرفع منه وأشرف .

(٤) طالعة الشمسـين : الشمس الحقيقية .

(٥) تمرست : تحككت .

(٦) الآنى : السيل ، والوتر : النار .



الهجاء — وقد أكثر من الهجاء ، وكثيراً ما كان يُقذَعُ فيه ، وقصائد هجائه في كافور مشهورة منها :

إني نزلت بكذابين ضيفهم  
عن القرى وعن الترحال محدود  
جود الرجال من الأيدي وجودهم  
من اللسان فلا كانوا ولا الجود  
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم  
إلا وفي يده من تنهها عود

الغزل — وقد أكثر من الغزل وأجاد في كثير منه ، مع أنه غزل صناعي .

واشتهر بغزله في الأعرايبات ، ونالت شهرة واسعة قصيدته التي يقول في مطلعها :

من الجاذر في زى الأعراب  
حمر الحلى والمطايا والجلايب

ومن أبدع ما قال في الغزل قوله :

ليسن الوشى لا متجملات  
ولكن كى يصن به الجمالا  
وضفرن الغدائر لا لحسن  
ولكن خفن فى الشعر الضلالا

الشكوى — وله شعر كثير في الشكوى والتبرم ، وأنه لم ينل في هذه الدنيا

المنزلة التي تسمو إليها نفسه العالية ، كقوله :

فقل في حاجة لم أقض منها  
ونفيس لا تجيب إلى خسيس  
وقلة ناصر جوزيت عنى  
عدوى كل شيء يك حتى  
فلو أنى حسدت على نفيس  
ولكنى حسدت على حياتى  
على شغفى بها شروى نقيير  
وعين لا تدار على نظير  
بشير منك يا شر الدهور !  
خلت الأكم موعة الصدور  
لجئت به لذي الجدد العثور  
وما خير الحياة بلا سرور ؟



خفاء معانيه — وأغلب شعر المتنبي وأكثره رائع بالغ غاية الإجابة كما رأيت ، ولكنه يُغرم أحيانا بإخفاء معانيه ، ولا يكثر ذلك إلا إذا كان المعنى سخيفا حقيرا ، فليس سبب خفاء بعض معاني المتنبي ابتداءها أو بعد مرماها ، وإنما سببه الإيهام في اللفظ ، والتعمية في صور التركيب ، وإلباس المعنى غير ثوبه وكثرة التقديم والتأخير والحذف كقوله :

أَنْتَى يَكُونُ أَبَا الْبَرَايَا آدَمُ وَأَبُوكَ وَالثَّقَلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ

فانه فصل بين المبتدأ وهو (أبوك) والخبر وهو (محمد) بجملة (الثقلان أنت) فسبب هذا الفصل اختلاط المعنى على السامع وإيهامه ، وليس في البيت معنى بديع سليم من النقد ، فإن معناه كيف يكون آدم أبا الخليفة ، وأبوك محمد وأنت الثقلان ؟ معنى أنك جمعت ما في الخليفة كلها من صنوف الكمال ، فأنت الخليفة ، وأبوك أبو الخليفة ، وفساد المعنى يظهر من أنه مع دعواه أن أباه أبو الخليفة لا بد من الرجوع إلى آدم لا مناص ، وأن يكون آدم أبا الخلائق حتما ، فكأنه لم يعمل بتعقيده وتلوية ألفاظه شيئا . وللمتنبي كثير من أشباه ذلك حتى أكانه كان مولعا بالتعقيد .

ومما أروع به المتنبي المبالغة حتى يصل إلى درجة الاستحالة والسخف أحيانا كقوله :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ؟ أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي ؟  
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ  
مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

وفيه ميل إلى وصف الشيء بصفتين يظهر فيهما شيء من التضاد وليس به كقوله :

أَمِيرٌ أَمِيرٌ عَلَيْهِ النَّدَى جَوَادٌ بَخِيلٌ بَأَلًا يَجُودُ

وقوله :

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا



وقوله :

نَيْطَتْ حَمَائِلُهُ بِعَاتِقِي مُحَرِّبٍ      مَا كَرَّقُطٌ ، وَهَلْ يَكُرُّ مَا انْتَهَى ؟ <sup>(١)</sup>

وقد يذهب في الإغراب مذهب الصوفية في التعبير كقوله :

أَسْفَى عَلَى أَسْفَى الذَى دَهَنَنِي      عَنْ عَالِمِهِ فِيهِ عَلَى خَفَاءٍ  
وَشِكَايَتِي فَقَدْ السَّقَامُ لِأَنَّهُ      قَدْ كَانَ لِمَا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

والحق أن كل معنى خرج به المتنبي مخرج الغرابة في التعبير كان حقيرا ، وكان أبو الطيب أحق الناس باتباع نصيحة نفسه حين يقول :

أَبْلَغُ مَا يُدْرِكُ النَجَاحُ بِهِ الطَّبَّ      عٌ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ

وللشعالي في يتيمة الدهر فصل مسهب في نقد المتنبي ، ذكر فيه كثيرا من محاسنه ومساوئه ، ومن أشد ما أخذه عليه شدة التفاوت في شعره ، وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، ثم التَّعَسُّفُ في اللغة والتراكيب وقُبُحُ المطالع أحيانا .

### أَخْلَاقُهُ

شجاعته — كان أبو الطيب يجمع كثيرا من صفات الرجولة والبطولة ، وكان شجاعا مقداما ، حضر أكثر مواقع سيف الدولة ، وواجه الموت في أسفاره الكثيرة ثابت القلب رابط الجأش :

وَمَهْمَهُ جَمِئُهُ عَلَى قَدَمِي      تَعِجْزُهُ عَنِ الْعَرَامِسِ الدُّلَلُ <sup>(٢)</sup>  
بَصَارِمِي مُرْتَدٍ تَجَبَّرَتِي      مُجْتَرِي بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلُ <sup>(٣)</sup>  
فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ      وَفِي بِلَادٍ مِنْ أَخْتَهَا بَدَلُ

وحسبك أن تعرف مقدار شجاعته مما قصصناه عليك من خبر قتله .

(١) الحرب : الشجاع الشديد في الحرب .

(٢) العرامس : النوق الصلاب .

(٣) المخبرة : المعرفة .



بعده عن الدنيا — وكان بعيدا من دنيا الصفات ، عازفا عن وضع  
الحلال ، مذهبه أنَّ الفضيلة وحدها ، بما فيها من جمال ، كفيلةٌ بِردِّ المرء عن  
المنكرات ، وذلك كما في قوله :

وَتَرَى الْفُتُوَّةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالْأَبُوَّةَ      ةَ فِي كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتُهَا  
هُنَّ الثَّلَاثُ الْمَانِعَاتُ لِذَنِّكَ      فِي خَلْوَتِي لَا الْخَوْفُ مِنْ تَبَعَاتِهَا

جده وقليل من مجونه — وقد كان رجل جد ليس فيه جانب للزح والمجون  
فلم يعهد فيه معاصروه لهوا ولا مجانة ، والذي يقرأ شعره يرى نفسا كبيرة تُطلُّ  
عليه من أبياته ، وطبيعة سليمة قوية تطهرت من مفاسد عصره ، ولا نجد في شعره  
من المزح إلا قليلا ، من ذلك قطعة قالها وهو صبي ، وقد مرَّ برجلين قتلا جرذا ،  
وهما بما فعلا جدَّ معجبين :

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْدُ الْمُسْتَعِيرُ      أَسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيحَ الْعَطَبِ  
رَمَاهُ الْكَانِي وَالْعَامِرِيُّ      وَتَلَّاهُ لِلْوَجْهِ فَعَلَ الْعَرَبُ (١)  
كَلاَّ الرَّجْلَيْنِ أَتَى قَتْلَهُ      فَأَيُّكُمَا غَلَ حُرَّ السَّلَبِ (٢)  
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ      فَإِنَّ بِهِ عَصَّةً فِي الذَّنَبِ

ومما يشبه المزح أن شاعرا أرسل إلى سيف الدولة أبياتا سقيمة زعم أنه لقَّنها  
في المنام ، فقال أبو الطيب :

قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فِي الْأَحْلَامِ      وَأَنْلَنَّاكَ بِدَرَّةٍ فِي الْمَنَامِ (٣)  
وَانْتَبَهْنَا كَمَا انْتَبَهْتَ بِلَا شَيْءٍ      فَيَكُنْ النِّوَالُ قَدْرَ الْكَلَامِ

(١) تلاه : صرعاو . (٢) اتلى : تولى . (٣) البدره : عشرة آلاف درهم .



ومما يلجئك إلى الابتسام قوله يفخر بشعره :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له : الحق

الخالديان يحسدان المتنبي — ولهذا البيت قصّة في كتب الأدب ؛ قيل إن الخالدين قالوا لسيف الدولة : إنك لتُغالي في شعر المتنبي ، فاقترح علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجودَ منها . فدافعها زمانا ، ثم كررا عليه فأعطاهما القصيدة التي أولها :

لعيذك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللشوق ما لم يبق مني وما بقي

فلما أخذها قال أحدهما للآخر : ما هذه من قصائده الطنّانات ، فلم يختارها من دون سائر شعره ؟ ثم عادا ينظران فيها حتى انتهيا إلى هذا البيت ففطنا لمراد سيف الدولة ، ولم يعاوداه ولم يعملّا شيئا ، ولهذا القصيدة نظائر كثيرة في كتب الأدب .

أبو العلاء والشريف المرتضى — ومن نظائر هذه القصيدة فيما يختص بأبي الطيب ما حكّوه من أن الشريف المرتضى كان مولعا بالنيل من المتنبي ، فحضر مجلسه يوما أبو العلاء المعري ، وأخذ الشريف على عادته يحطّ من قدر أبي الطيب ؛ فقال المعري لو لم يكن للتنبي إلا قصيدته التي يقول في أولها :

لكِ يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنتِ وهن منك أوائل

لكفى ذلك في رفع منزلته فوق كل شاعر . فعضب الشريف أشدّ الغضب وأمر أن يسحب برجله من مجلسه ، وكاد يفتك بأبي العلاء ، فدّشّ الحاضرون لشدة غضبه ، وسألوه في ذلك ، فقال : ألا تعرفون ما يقصد ؟ فإن هذه القصيدة ليست من عيون قصائد المتنبي ، ولكنها تشتمل على هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنّي كامل



وهذا ما قصد التعريض به .

صد المتنبي عن مجالس اللهو — وكان يصعد عن مجالس اللهو والشراب  
لا يحضرها إلا قليلا مكرها ، فهو يقول لبدر بن عمار :

لم ترَ مَنْ نادَمتُ إلاَّ كما لا لسوى ودِّك لي ذاكا  
ولا لحبيها ولكنني أصبحت أرجوك وأخشاكا

كان غزله صناعيا — وكان المتنبي كثير الغزل ، ولكن غزله صناعى  
على الرغم من جودته ، وبعضه يغلب عليه المنطق ، وتراحه الفلسفة ، كقوله :

تقولين ما في الناس مثلك عاشقٌ جدي مثل من أحببته تجدي مثلي  
أليس في البيت قياس استثنائي منطق ، صورته أن يقال : كلما وجد  
مثلك في الحسن وجد مثلي في شدة الحب ، لكن مثلك غير موجود فمثلي غير  
موجود .

وقد صرح في بعض المواطن أنه لم يقصد الغزل وإنما يكني به عن غيره  
كقوله :

محب كني بالبيض عن مرهقاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل  
وتراه أحيانا يقول :

ضروب الناس عشاق ضروبا فأعذرهم أشفهم حبيبا  
وماسكني سوى قتل الأعدى فهل من زورة تشفى القلوبا

ثم تراه حينما يسخر من العشق والعاشقين فيقول :

مما أضرب أهل العشق أنهم هؤوا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا  
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن



وحينا يَصِيْقُ دَرْعًا بِتَكْلُفِ الغزل في طليعة كل قصيدة ، ويريد أن يَفَكَّ قيود  
هذه العادة ، فَيَنْعَى على الشعراء تمسكهم بها ويقول :

إذا كان شعراً فالنسيب المُقَدَّم ! أكل فَيَصِيحُ قال شعراً مقيم ؟

إعجابه بنفسه — وكان شديد الإعجاب بنفسه إلى حد الغرور ، معتزاً  
بمواهبه ، واثقاً بنفسه ، يكاد يرتفع بها عن طبقة بنى الإنسان :

أنا في أمة تَدَارَكُها الله غريب كصالح في ثمود

\*  
\* \*

ومُرْهَفٌ سِرْتُ بَيْنَ الجَحْفَلَيْنِ به حتى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الموتِ يَلْتَطِمُ  
الخيْلُ والليلُ والبِداءُ تعرُفُنِي والسيفُ والرحم والقُرطاسُ والقَلَمُ

جراسته على ممدوحيه — ومن العجيب أن المتنبي كان على تَكْسُّبه بالشعر  
عظيم الشَّعْمِ على ممدوحيه ، جريئاً في مخاطبتهم بشعره . وأنت تعرف ما اشترطه على  
سيف الدولة عند اتصاله به ، وَيَرَوِي أهلُ الأدب كثيراً من أخبار تبه وإدلاله  
وجُرأته على سيف الدولة حتى ضاق به دَرْعاً ، وحسبك أن تقرأ قصيدته الميمية التي  
أنشدتها سيف الدولة والتي أولها :

واحرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَمٌّ وَمَنْ يجسُمى وحالي عنده سَقَمٌ

لتعرف مقدار تَجَنَّى المتنبي على سيف الدولة وشدة صِلَفِهِ وغروره . وقد بلغ من  
صِلَفِهِ أحياناً أن يُنْشِدَ القصيدة وهو جالس وممدوحه قائم بين يديه ، كما حصل  
عند ما مدح طاهراً العَلَوِيَّ بالقصيدة التي أولها :

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رُقَادِي فهو لَحْظُ الحبابِ

ولم يظهر شيء من الخضوع والمهانة في شعره إلا عند اتصاله بكافور ، فقد كان  
صريحاً في استجدائه ، ذليلاً في مَلَقِهِ ، استمع إليه حين يقول في استخذاء وَضَعَةٍ :

رَضِيتُ بما تَرْضَى به لى مَحَبَّةً . وَقُدْتُ إليك النفسَ قَوْدَ المُسَامِ

ومثلك مَنْ كان الوسيطَ فؤادُهُ فَكَلَّهْ عَنِي ولم أُنْكَمِ



نخره بشعره — وقد أكثر من الفخر بشعره ، وربما كان ذلك من أسباب  
 حقد الشعراء عليه عند سيف الدولة ، فهو يقول له :

وما الدهرُ إلا من رُواة قصائدِي      إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنْشِداً  
 فسار به مَنْ لا يسيرُ مُشَمِّراً      وغنى به مَنْ لا يغنى مُغرداً  
 أجزئني إذا أنشدت شعراً فإنما      بشعري أذاك المادحون مُردداً  
 ودع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني      أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ويقول له :

وعندي لك الشُّردُ السائرُ      تُ لا يَحْتَصِصَنَّ من الأرض دارا  
 قوافٍ إذا سُرِنَ عن مقولي      وثبَنَ الجبالُ وخُضِنَ البحارُ  
 ولي فيك ما لم يقل قائلٌ      وما لم يسر قارئٌ حيث سارا

ويقول له :

إنَّ هذا الشعرَ في الشعر ملك      سار فهو الشمسُ والديا فلَك

فراره غالباً من الفخر بنسبه — وكان المتنبي ، على ما اشتهر به من وضاعة  
 نسبه ، كثير التفاخر بنفسه وقد يفر أحيانا من ذكر آبائه كقوله :

أنا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أبا البِ      حَيْثُ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ  
 وإنما يذكر الجدود لهم      مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنقَدُوا حِيَلَهُ

وقوله في رثاء جدته :

وإن لم تكوني بنتَ أكرمِ والدي      لكان أباك الضخم كوني لي أمّا



وقد يضطر أحيانا عند الفخر بنفسه إلى الافتخار بقومه كقوله :

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِي      وَبِحَدِّي سَمَوْتُ لَا بِجُدُودِي  
وَبِهِمْ نَخَرُ كُلَّ مَنْ نَطَقَ الضَّأ      دَ وَعَوْدُ الْجَانِي وَعَوْتُ الطَّرِيدِ

سخطه على الحياة وضعف ثقته بالناس — وكان شديد السُّخْطِ على

الحياة ، سَيِّءَ العقيدة في الناس ، قليل الثقة بهم فهو يقول :

وإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ      شَرٌّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنٍ  
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقُ      تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بَيْنَ

ويقول :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا      وَبِالنَّاسِ رَوَى رُحْمَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ

ويقول :

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ      وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثٌّ ضِخَامٌ  
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ      وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

ويقول :

وَرُبَّمَا أَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِيَ      مَنْ لَا يَسَاوِي الْخُبْزَ الَّذِي أَكَلَهُ  
وَيُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ      وَالذُّرُورُ رَغِمَ مَنْ جَهِلَهُ

ويقول :

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تَوَمَّلَ عِنْدَهُ      حَيَاةً وَأَنْ يُسْتَأَقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

ويقول :

خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خَلِي      وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ



ويقول :

أَرَى أَنَا سَاءَ وَمَحْضُولِي عَلَى بَقَرٍ      وَذِكْرُ جُودٍ وَمَحْضُولِي عَلَى الْكَلَمِ

ولم يكن رأيه في الرجال بأحسن من رأيه في النساء فهو يقول :

إِذَا غَدَرْتَ حَسَنَاءُ وَقَتَّ بَعْدَهَا      فَمِنْ عَهْدِهَا أَلَّا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ

المتنبى بعيد المطامع — وكان المتنبى بعيد المطامع واسع مدى الآمال ،  
حتى إنه كان يطمع في الملك ؛ ولم يرحل إلى مصر إلا طمعا في هذه الغاية ،  
ألا تراه يقول :

أَهْمُ بَشِيٍّ وَالْيَالِي كَأَنَّهَا      تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ  
وَحِيدٌ مِنَ الْخِلَائِنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ويقول :

يقولون لي ما أنت في كُلِّ بَلَدَةٍ      وما تبتغي ؟ ما أبتغي جَلًّا أَنْ يُسَمَّى

وفأوه — وَاَلَمْحُ في شعره الوفاء لمن أحسنوا صحبته ، وبذلوا إليه الإحسان ،  
ويظهر ذلك جليا في وفائه لسيف الدولة بعد مفارقتها ، وحينئذ إلى الأيام التي  
قضاها في كنفه ، وَمَنْ تَأَمَّلَ قِصَائِدَهُ في مدح كافور رأى فيها نزوعا إلى سيف الدولة  
مُتَّزِجًا بِالْغَيْظِ مِنْ وَشْوَاهُ بِهِ عِنْدَهُ ، ثم إنه ما زال يُنْفِذُ إِلَيْهِ الْقِصَائِدَ بعد فِارِهِ مِنْ  
الْأَسْوَدِ مَادِحًا أَوْ مُعْزِيًّا ، وفي بعضها :

وما لَاقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ      وَلَا اعْتَصَمْتُ مِنْ رَبِّ نِعْمَايَ رَبِّ

ومن دلائل وفائه رثاؤه فاتكا ، وكان إلى الفيوم ، بعد رحيله عن مصر  
وانقطاع صلته بكل من فيها .



المتنبى يصف أخلاق نفسه — وقد وصف لنا المتنبى أخلاقه في إحدى قصائده فقال :

|                                                |                                             |
|------------------------------------------------|---------------------------------------------|
| أَبْدُو فَيَسْجُدْ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي | فَلَا أُعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانَا      |
| وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي     | إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا   |
| مُحَمَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَنِّي     | أَلْقَى الْكَيِّْ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا |
| لَا أَشْرَبُ إِلَى مَا لَمْ يَفُتْ طَمَعًا     | وَلَا أَبِيتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانَا    |
| وَلَا أَسْرُبُ مَا غَيْرِي الْحَمِيدُ بِهِ     | وَلَوْ حَمَلَتْ إِلَى الدَّهْرِ مَلَأْنَا   |



## ابو العلاء المعرى

هو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التَّنُوخى ، ولد بمَعْرَةَ النعمان سنة ٣٦٣ هـ ، من أسرة لها نصيب غير قليل من العلم والأدب ، فكان أبوه أديبا ينظم الشعر ، وتولَّى جدُّه قضاء المعرة ، وتنمى أمه إلى أسرة كريمة المحتد ، وكانت المعرة في ذلك الحين في ملك الدولة الحمدانية .

ولما بلغ الثالثة من عمره أصيب بالجُدريّ ففقد بصره ، وأخذ أبوه في أول نشأته يلقِّنه النحو واللغة إلى جانب الدروس التي كان يتلقاها من علماء بلدته ، ثم رحل إلى حلب وكانت لا تزال مركزا للعلم والأدب ، وإن تناقصت منزلتها بعد زوال أيام سيف الدولة ، فتجرد هناك لدراسة علوم اللغة والأدب ، والتلمُّؤ من أشعار العرب وأخبارهم ، وكان نادرة عصره في جَوْدَةِ الحفظ والذكر ، ويُروى له في ذلك حكايات شديدة الغرابة لا تخلو من مبالغة وإغراق .

وقد أخذ في قرض الشعر في حياته . ولكنه لم يجعله وسيلة للكسب ، فقد صرَّح في مقدمة ديوانه ”سَقَطَ الزَّئِدُ“ بأنه لم يمدح إنسانا رغبةً في ثوابه . وفي سنة ٣٨٣ هـ عاد إلى المعرة ، وكان كلُّ إيراده إذ ذاك من غَلَّةِ وقف تبلغ ثلاثين دينارا في العام يشاطره فيها خادمه ، فاشتغل بتدريس الشعر واللغة والأدب ، وهى العلوم التي تخصص بها ، وفي هذا الوقت أخذت شهرته في الانتشار والذيع ، فعزم على أن يطلب حظه ببغداد ، فرحل إليها سنة ٣٩٨ هـ ، وهى في ذلك الحين سوق العلوم والآداب ، يعلو فيها شأن الأديب ويشرف ، فكانت هناك مجالس ينشد فيها الشعراء أشعارهم ، ويعرض فيها كلُّ أديب ثمار أفكاره ، وكان للشريف الرضى في ذلك الوقت ببغداد دار كانت مُنتدى الأدياء ، ومصدرا لبدايع فنون الأدب .



قابل أبو العلاء ببغداد عدداً جمّاً من كبار العلماء الذين عرفوا قدره ، ورفعوا ذكره ، وكانت دار السلام حينئذ تموج بالراحين إليها من أنحاء الشرق على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، بين فرس وهنود ويهود ومسيحيين وشيعة وسنية وصوفية ، ويظهر أن أبا العلاء أخذ نفسه بالاطلاع على هذه المذاهب والنحل ، وأنه عنى عنايةً خاصّة بدراسة فلسفة اليونان والهنود ، وقد ظهرت آثار ذلك في أخلاقه وشعره بعد قليل .

وفي سنة ٤٠٠ هـ عاد إلى المعرة ولزم بيته ، وسَمَّى نفسه رهين المحبسين ، ولزم الصوم ، وامتنع عن كل ذى رُوح رفقاً بالحيوان وأخذ ينظم ويؤلف ، ونظم لزومياته في هذه المدة ، وضمّن آراءه الفلسفية في الشرائع والمذاهب والعادات ونظم الحياة ، ولم يطرق شاعراً قبله ولا بعده تلك الأغراض التي قصد إليها أو انتقدها ، وكان متشائماً يُبغض الحياة ويراهم مَقَرَّ الهموم والآلام ، حتى لقد امتنع عن الزواج ويقال إنه أوصى أن يُكْتَبَ على قبره :

هذا جناهُ أبى عَلىّ وما جُنيتُ على أحد

وكان عصبى المزاج كثير الشكوك ، لذلك ظهر التناقض في آراءه .

ومن قوله في اللزوميات :

يكفيكَ أدماً سَلِيطَ ما أَرِيقَ لَهُ دَمٌ ولا مَسَّ رَوْحاً إذ جَرَى أَلَمٌ

وقوله :

تَسْرِجُ كَفِّكَ بَرَعُوّاً ظَفِرَتْ بِهِ أَبْرٌ مِنْ دِرْهِمٍ تُعْطِيهِ مُحْتَاجَا



أما ديوانه ”سَقَطَ الزَّيْدُ“ فإنه يَجْمَعُ قصائده التي قالها قبل الرحلة إلى بغداد وقد جَرى فيه على سَنَنِ الشعراء في موضوعاته وفنونه ، وله فيه شعر جيد ، ومن مختاره قصيدة أولها :

أَعْنِ وَحْدَ الْقِلَاصِ كَشَفَتِ حَالَا ؟      وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبَتِ مَا لَا ؟  
وَدُرًّا خَاتِ أَنْجَمَهُ عَلَيْهِ ؟      فَهَلَّا خَلَّتْ بِه ذُبَالَا  
وَقُلْتَ الشَّمْسُ بِالْبَيْدَاءِ تَبَرُّ      وَمِثْلُكَ مَنْ تَخَيَّلَ ثَمَّ خَالَا  
رَمَاكَ اللَّهُ مِنْ نُوقٍ بَرُوقٍ      مِنْ السَّنَوَاتِ تُشَكِّلُكَ الْإِفَالَا  
فَقَدْ أَكْثَرْتَ نُقْلَتَنَا وَكَانَتْ      صَغَارُ الشُّهُبِ أَسْرَعَهَا انْتِقَالَا

ومن مشهور شعره قصيدته التي أولها :

عَلَّانِي فَإِنَّ بِيضَ الْأَمَانِي      فَنَيْتُ وَالظَّلَامُ لَيْسَ بِنَانِي  
إِنْ تَنَاسَيْتُمَا وَدَادَ أَنَاسٍ      فَادْكُرَانِي فِي بَعْضِ مَنْ تَدْكُرَانِي

وأجاد أبو العلاء الرثاء إجادةً بالغةً الغاية ، ومن أشهر قصائده في ذلك قصيدته التي يَرى بها فقيها حنفيًا ، وهي التي أولها :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي      نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْتَمُ شَادِي  
وَرَرَنِي أَبَاهُ بِقَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ أُولَاهُ :

نَقَمْتُ الرِّضَا حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ الْمُزْنِ      فَلَا جَادَنِي إِلَّا عَبُوسٌ مِنَ الدَّجَنِ

وله مؤلفات في الأدب منها رسالة الغفران ، ومن مؤلفاته كتاب الأيكة والغصون ، وهو كتاب حافل في الأدب وأخبار العرب ، وقد فُقد أصلُ هذا الكتاب ، وشرح أبو العلاء الحماسة ، وله تعليقات على ديوان البحتری سماها عَبَثُ الْوَلِيدِ . توفي بالمعرة سنة ٤٤٩ هـ .



## الشعر في الدولة الأيوبية

كثرة الشعراء — لما ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين ؛ وهو فارس مغوار ؛ مجاهد فاتح ؛ لا ينتهى من غزوة إلا ليأخذ العدة لأخرى في سبيل نصر الإسلام ، ورد غارات الصليبيين ، التف الشعراء بمصر والشام حوله ، وأحاطوا بعرشه ، وما أسهل القول إن وجد الشعر مجالا ! وما أساس قياده إن ثار عن نازعة ووثب عن عقيدة ! وهل هناك أقوى لإثارة الشعر من نازعة الدين ، ولا سيما إذا أحس الضعيف قوة بعد ضعف ، وعزة بعد ذل ، وقد كانت حال المسلمين كذلك ، فهتف الشعراء بنخلصهم وبطلهم ، وتوجوه بتيجان المجد والفخار .

صفات صلاح الدين — وكان صلاح الدين يفهم الشعر ويهتئ له ، عرض عليه العباد الأصهباني مرة أبياتا في وصف المشمس منها :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار في لجين مطرق

فقال تشبيه الورق باللجين غير موافق ، فإن الورق أخضر فغير العباد الشطر الثاني من البيت .

وكان صلاح الدين جوادا سخيا ، اجتمع عنده وفود القدس ولم يكن بخزانته شيء ، فباع قرية وخصص ثمنها بهم ، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم منهم ، لعلمهم أنه متى علم به أنفقه .

القاضي الفاضل عماد الدين الأصهباني — من ذلك نرى أسباب نمو الشعر في عهد صلاح الدين ، فهو مجاهد غاز في سبيل الله ، جواد فيأض اليدين ، يدرك أسرار بلاغة الشعر ؛ وكان وزيره القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهاساني ؛ وهو إمام البلاغة في فني المنظوم والمنثور (توفي سنة ٥٩٦ هـ) . وكان كاتبه ورفيقه



في أسفاره عماد الدين الأصبهاني الكاتب العبقري والشاعر ذا النفس الطويل والعقل  
الفياض . مات سنة ٥٩٧ هـ .

وجرى خلفاء صلاح الدين على سنته وإن لم يبلغوا مبلغه ، فكان للشعر  
والأدب في أيامهم سوق رائجة .

ابن قلاؤس — ومن أشهر شعراء هذه الدولة نصر الله بن قلاؤس  
الإسكندري ، كان شاعرا مجيدا مدح القاضي الفاضل ، ودخل اليمن ومدح  
ياسراً وزيرها ، فأجزل صلته ، وفارقه وقد أثرى ، فركب البحر فانكسر المركب  
به وغرق جميع ما كان معه ، فعاد إليه ومدحه بقصائد منها :

|                    |                        |
|--------------------|------------------------|
| يا راوياً عن ياسر  | خبراً ولم يعرفه خبراً  |
| أقرأ بغرة وجهه     | صحف المني إن كنت تقراً |
| والثم بنان يمينه   | وقل السلام عليك بحرا   |
| وغلظت في تشبيهه    | بالبحر فاللهم غفراً    |
| أو لست نلت بدا غنى | جماً ونلت بذاك فقراً   |
| وعهدت هذا لم يزل   | مداً وذاك يعود جزراً   |

ولد بشعر الإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ وتوفي بعذاب سنة ٥٦٧ هـ .

ابن سناء الملك — ومن مبدعيهم القاضي السعيد بن سناء الملك هبة الله ،  
كان شاعرا محظوظا في الدنيا ، فنانا في بدائعه وأخيلته ، وله ديوان جميعه موشحات  
سماه دار الطراز ، وكان للشعراء في أيامه مجالس ومحافل يتناشدون فيها الأشعار ،  
وكانت له صلة وثيقة بالقاضي الفاضل ، وكانت بينهما رسائل ومطارحات شعرية ،  
ومن ثره في وصف النيل في سنة كان فيها ناقصا :

أما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وانقطعت أصابعه ، وتيمم العمود  
لصلاة الاستسقاء . وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء . توفي بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ .



ومن جيد شعره القصيدة المشهورة التي منها :

سِوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى      وَغَيْرِي يَهْوَى أَنْ يَكُونَ مُحَلَّدًا  
ولكنني لا أَرْهَبُ الدهرَ إن سَطَا      وَلَا أَحْذَرُ الموتَ الزُّوَامَ إِذَا عَدَا  
ولو مَدَّ نَحْوِي حَدِثُ الدهرِ كَفَّهُ      لَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَمْدَّ لَهُ يَدَا

ومن قوله :

فَلَوْ أَبْصَرَ النَّظَامُ جَوْهَرَ تَغْرَاهَا      لَمَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ  
وَمَنْ قَالَ إِنَّ الْخَيْرَانَ قَدْهَا      فَقُولُوا لَهُ : إِيَّاكَ أَنْ يَسْمَعَ الْقَدْ

وهو أول من أجاد الموشحات من المشاركة .

ابن الساعاتي — ومن الشعراء المبرزين على بن رستم المعروف بابن الساعاتي ، له ديوان شعر أجاد فيه كل الإجادة ، وديوان آخر لطيف سماه مقطعات النيل ، ومن قوله :

لِلَّهِ يَوْمٌ فِي سَيُوطٍ وَلَيْلَةٌ      صَرَفَ الزَّمَانَ بِأُخْتِهَا لَا يَغْلُطُ  
بَنَّا وَعُمُرُ اللَّيْلِ فِي غُلُوَائِهِ      وَلَهُ بُنُورُ الْبَدْرِ فَرَعٌ أَشْمُطُ  
وَالطَّلُّ فِي تِلْكَ الْغُصُونِ كَلُؤَائُو      رَطَبٌ يُصَافِيهِ النَّسِيمُ فَيَسْقُطُ  
وَالطَّيْرُ تَقْرَأُ وَالْغَدِيرُ يَحْفَافُهُ      وَالرَّيْحُ تَكْتِيبُ وَالْغَمَامُ يَنْقُطُ

( مات بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ )

ابن ممتي — ثم الأسعد بن ممتي ، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، نظم سيرة السلطان صلاح الدين ، وكتاب كليلة وديمثة . وله في شخص ثقل رآه بدمشق :

حَكَى نَهْرَيْنِ مَا فِي الْأَرِّ      ضِ مَنَ يَحْكِيهِمَا أَبَدَا  
حَكَى فِي خَلْقِهِ ثَوْرًا      وَفِي أَخْلَاقِهِ بَرْدًا



قال العماد : ولقيته في القاهرة مُتَوَلَّى جيش الملك الناصر ، وكان هو وجماعته نصارى فأسلموا في ابتداء الملك الصالح ( مات سنة ٦١٦ ) .

ابن النبيه — وكان في هذا العصر كمال الدين بن النبيه الشاعر المصرى الرقيق ، مدح بنى أيوب ، واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له ، وأقام في نصيبين ( توفي بها سنة ٦١٩ ) .

وله القصيدة الرائعة :

بَاكِرٌ صَبُوحَكَ أَهْنَا الْعَيْشَ بِاِكْرِهِ      فَقَدْ تَرَنَّمَ فَوْقَ الْغُصْنِ طَائِرُهُ  
وَاللَّيْلُ تَجْرِي الدَّرَارَى فِي مَجْرَتِهِ      كَالرَّوْضِ تَطْفُو عَلَى نَهْرٍ أَزَاهِرُهُ  
وَكَوْكَبُ الصُّبْحِ نَجَابٌ عَلَى يَدِهِ      مُحَلَّقٌ تَمَلُّ الدُّنْيَا بِشَاهِرُهُ

ومنها :

خُذْ مِنْ زَمَانِكَ مَا أَعْطَاكَ مُغْتَنِيًّا      وَأَنْتَ نَاهٍ لِهَذَا الدَّهْرِ آمِرُهُ  
فَالْعُمُرُ كَالْكَاكِسِ شَتَحَلَى أَوَانِلُهُ      لَكِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّتْ أَوَاخِرُهُ

ابن مطروح — ثم ابن مطروح جمال الدين أبو الحسن ، من أهل صعيد مصر نشأ بقوص ، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي .

ويصور شعره النقاء والصفاء والرقة المصرية ، كتب إلى البهاء زهير وقد سأل عنه وهو مريض :

أَيَا مَنْ رَاحَ عَنْ حَالِي      يُسَائِلُ مُشْفِقًا حَبِيبَا  
وَمَنْ أَصْحَى أَخَا لِي فِي الْوُدَادِ      وَفِي الْخُنُوفِ أَبَا  
وَحَقِّكَ لَوْ نَظَرْتُ إِلَى كُنْتَ      شَاهِدُ الْعَجَبَا  
جُفُونٌ تَشْتَكِي غَرَقًا      وَقَلْبٌ يَشْتَكِي لَهَبَا



وجسم جالت الأسقا م فيه فراح منتهبا  
تسائل أعين الواشين عني أعين الرقبا  
فتذكر أنها لمحت خيالا في خلال هبا  
فواحربا ، وهل يشفي أديبا قول وحربا ؟  
فبالود الذي أمسى وأصبح بيننا نسب  
إذا أنا مت فاندبني قرب أخا ندبا  
وقل : مات الغريب فأين من يبكي على الغربا ؟  
قضى أسما كما شاء الغرام وما قضى أربا

( توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ )

ومن شعراء هذه الدولة أيضا :

### ( ١ ) عمر بن الفارض

هو عمر بن علي بن المرشد الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ،  
يكنى أبا حفص وأبا القاسم ، ويلقب بشرف الدين ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ،  
وله ديوان شعر جمعه حفيده له يدعى عليا ، دون بصره نبذة من حياة جده ،  
موجزها أنه كان ربعة في الرجال ، وسيما أبيض الوجه مشربا بجمرة ، وأنه كان  
في أحوال نسكه تنتابه غشية يزيد وجهه عندها جمالا وتلاؤوا ، ويتصبب العرق  
من جسمه حتى يبلل الأرض ، وإذا مشى في المدينة تكاثرت الناس حوله لتقيل يديه ،  
ولكنه كان لا يرضى منهم إلا بالمصاحفة . وحكى عمر بن الفارض عن نفسه أنه  
في أول عهده بالتحرد عن الدنيا ، كان يستأذن والده ليذهب إلى ناحية في سفح  
المقطم ، وأنه كان يقيم هناك بعيدا عن الناس ليالي وأياما ، ثم يضطر إلى الرجوع  
إلى المدينة للبقاء مع أبيه حينما ، وكان أبوه في ذلك الحين في منصب شرعي جليل ،  
وكان من أعماله كتابة فروض النساء ، لذلك سمى ابنه بابن الفارض ، فكان  
الوالد يسر عند عودة ابنه إليه ، فلا يكاد يمكث حينما حتى يحن نفسه إلى العودة



إلى الانفراد والخلوة ، وهكذا استمر على ذلك مرارا ، ثم عُرِضَ مَنْصِبُ القضاء على أبيه فَأَبَى ، واستقال من عمله ، واعتزل الناس هو أيضا ، وتفرغ للعبادة في خلوة بالأزهر ، فلما مات أبوه رجع ابن الفارض إلى ما كان عليه من التجرد والبعد عن الناس والتحنُّن والزهد ، وبينما كان في أحد الأيام في المدرسة السيوفية ، قابل أحد الصوفية فنصح له أن يذهب إلى مكة فسافر إليها ، وأقام بها خمس عشرة سنة ، ثم عاد إلى القاهرة فكان موضع إجلال الناس ، يُبالغون في تعظيمه ، ويتنافسون في التقرب إليه ، ثم حج إلى البيت الحرام ثانية ، وهناك قابل شهاب الدين أبا حفص عمر السهروردي ، ثم عاد إلى مصر وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ . ودُفن بالقرافة بسفح المقطم .

وديان شعره مشهور ذائع ، وهو شعري صوفي ، يكثر فيه البديع مع الإفادة والرفقة وطول النفس ، وكان شعرُ ابن الفارض موضعَ عناية الأدباء ، فتناوله كثير من الشُّراح ، وأشهرُ شُراحه الشيخُ حسن البوريّ المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ . وتناول في شرحه ظاهر الألفاظ ، وما يؤخذ منها من المعاني ، وشرحه الشيخ عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ شرحا صوفيا ، وقد اشتهرت تائيته الكبرى التي جمع فيها كثيرا من حقائق طريقة القوم ، وعدد أبياتها واحد وستون وسبعائة بيت ، وأولها :

سَقَتْنِي حِمَاً الْحُبُّ رَاحَةً مُقَلَّتِي      وَكَأْسِي حِمَاً مَنْ عَنِ الْحُسْنِ جَلَّتِ

ومن تائيته الصغرى :

نَعَمْ بِالصَّبَا قَلْبِي صَبَاً لَأَحِقِّي      فَيَا حَبِذَا ذَاكَ الشَّدَا حِينَ هَبَّتِ  
تَذَكَّرْنِي الْعَهْدُ الْقَدِيمَ لِأَنِّي      حَدِيثُهُ عَهْدٍ عَنْ أَهْلِي مُودَّتِي  
فَلِي بَيْنَ هَاتِيكَ الْخِيَامِ ضَيِّنِي      عَلَيَّ يَجْمَعُنِي سَمِيحَةٌ بِشَقِي  
مُحِبَّةٌ بَيْنَ الْأَسِنَّةِ وَالظُّبَا      إِلَيْهَا انْتَهَتْ أَلْبَابُنَا إِذْ تَنَتِ  
تَتِيحُ الْمَنَايَا إِذْ تُتِيحُ لَنَا الْمَنَى      وَذَاكَ رَخِصٌ مَنِيَّتِي بِمَنِيَّتِي  
مَتَى أَوْعَدَتْ أَوَّلَتْ وَإِنْ وَعَدَتْ لَوْتُ      وَإِنْ أَقْسَمْتُ لَا تَبْرِي السَّقْمَ بَرَّتِ



ومنها :

هو الحب إن لم تَقْضِ لم تَقْضِ مَآرِبَا      مِنْ الْوَصْلِ فَاخْتَرِ ذَاكَ أَوْ خَلْ خُلَّتِي  
وَدَعْ عَنْكَ دَعْوَى الْحُبِّ وَاخْتَرِ لَغْوِيهِ      فَوَادَكَ وَادْفَعْ عَنْهُ غَيْكَ بِالْقِي  
وَجَانِبَ جَنَابِ الْوَصْلِ هَيْهَاتَ لَمْ يَكُنْ      وَهَذَا أَنْتَ حَتَّى إِنْ تَكُنْ صَادِقًا مُتِ  
وَقَالُوا : تَلَّافَ مَا بَقِيَ مِنْكَ قُلْتُ : لَا      أَرَانِي إِلَّا لِلتَّلَافِ تَلَفْتُ  
غَرَامِي أَقْمِ صَبْرِي انصَرِّمِ دَمْعِي ائْسَجِمِ      عَدُوِّي انْتَقِمِ دَهْرِي احْتَكِمِ حَاسِدِي اشْمِتِ

ومن غرامياته :

مَالِي سِوَى رُوحِي وَبِأَذْلٍ نَفْسِيهِ      فِي حُبٍّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ  
فَلَنْ رَضِيَتْ بِهَا لَقَدْ أَسْعَفْتَنِي      يَا خِيَةَ الْمَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ  
وَكُلُّ شَعْرَةٍ مِنْ هَذَا الطَّرَازِ رَقَّةٌ وَانْسِجَامًا وَجُنُوحًا إِلَى الْبَدِيعِ وَاتِّحَاءًا مِنْجَى  
التَّصَوُّفِ .

## ( ٢ ) بهاء الدين زهير

هو أبو الفضل زهير بن محمد بن عليّ المهابي ، كان من فضلاء عصره وأجودهم  
نظماً ونثراً وخطاً ، اتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب فولاه ديوان الإنشاء ،  
وقد حافظ على ولائه للصالح في أثناء نكبته ، فلما عاد إلى الملك زاده منه تقرباً  
واتصالاً ، وكان بينه وبين ابن مطروح مودة ومحاورات أدبية ، ويمتاز شعره بالرفقة  
وخفة الروح ، وهو في هاتين نسيجٍ وحده لا يشابهه فيما مشابه ، حتى أصبح شعره  
مضرب المثل في العذوبة والسهولة ، ومثالاً للشعر المصري في أجمل صورته ، وقد  
تناول ديوانه فنون الشعر وأغراضه ، وله مجون لطيف ومزاح مقبول .



ومن قوله الرقيق في الغزل الذي يشبه النثر لولا وزنه وقافيته :

إن شكا القلب هجركم      مهّد الحبّ عذركم  
لو رأيتم محلّكم      من فؤادي لسركم  
قَصّروا مُدَّةَ الحفا      طوّل الله عمركم

وقال وقد تقدّمت به السن :

قالوا كبرت عن الصبا      وقطعت تلك الناحية  
فَدَعَ الصّبا لِرِجاله      واخْلَعَ ثياب العارِية  
وَنَعَمَ كَبُرْتُ وإِنَّمَا      تلكَ الشّائلُ باقية  
وَنَفُوحٌ مِنْ عِطْفَى أَزَّ      نَاسُ الشّبابِ كما هيّة  
وَيَمِيلُ بِي نَحْوَ الصّبا      قلبٌ رقيقٌ الحاشية  
فِيهِ مِنْ الطَّرَبِ القَدِيدِ      - بَقِيَّةٌ فِي الزّاوية

ومن مجونه قوله :

لَكَ يَا صَدِيقَ بَغْلَةٍ      لَيْسَتْ تُسَاوِي نَحْدَلَه  
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيَوُ      نٌ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَه  
وَتُخَالُ مُدْبِرَةً إِذَا      مَا أَقْبَبَتْ مُسْتَعِجَلَه  
مِقْدَارَ خَطْوَتِهَا الطَّوِيلِ      لَهَ حِينَ تُسْرِعُ أَمَلَه  
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَاتَهَا      فَكَاثِمًا هِيَ زَلْزَلَه  
أَشْبَهَتْهَا بِلِ أَشْبَهَتْ      لَكَ كَأَنَّ بَيْنَكَا صَلَه  
تَحْكِي صِفَانِكَ فِي الثَّقَا      لَهَ وَالْمَهَانَةِ وَالْبَلَه



ومن قوله في الرثاء :

يا واحدًا ما كان لي غيره  
بَعْدَكَ وإِقْلَةً أنصاري  
يامنتهى سؤلى ويا مُشْتَكِي  
حُزْنِي ويا حَافِظَ أسراري  
الدارُ من بعدك قد أصبحت  
في وَحْشَةٍ يامُؤْنَسَ الدارِ  
إن كنت قد أَصْبَحْتَ في جَنَّةٍ  
إِنِّي مِنْ فَقْدِكَ في نارِ  
جارِكَ قَلْبِي كَيْفَ أَحْرَقْتَهُ  
والله أَوْصَى الجارَ بالجارِ

ومن قوله في قصيدة يخاطب الملك الصالح :

هذا زَهْرُكَ لا زَهْرُ مُزِينَةٍ  
وإفالك لا هَرَمًا على عِلَانِهِ  
دَعُهُ وَحَوَالِيَاتِهِ ثُمَّ اسْتَمِعْ  
لَزَهْرِ عَصْرِكَ حُسْنَ لِيَلِيَاتِهِ

( توفي سنة ٦٥٦ هـ )



## الكتابة

انتقلت الكتابة العربية في هذا العصر من الاختصار على جزالة اللفظ ووضوح الدلالة والإيجاز وقلة السجع إلى التعمل والمغالة في الصناعة اللفظية ، باستعمال المحسنات البديعية ، من التزام السجع بأنواعه ، والجناس والطباق والتورية ، والتكلف في ذكر المجاز والاستعارة والتشبيه ، وكثرة التضمين ، والاقتراس للأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة . وبثَّ الفُرسُ في الكتابة كثيراً من ألقاب التعظيم والتبجيل ، وأُدخلتْ بعضُ العبارات الفلسفية في كتابة الرسائل كما في كتابة ابن العميد وغيره . وأصبحت الصناعة غرضاً من أغراض الكتاب يمتاز بالبراعة فيها كبارهم ، حتى سَرى ذلك إلى المؤلفات العلمية والأدبية . ثم اطلَّ بعضُ الكُتَّابِ النابغين على شيء من أساليب القِصص الفارسية ، سواء أكان ذلك بالسماع أم بالقراءة ، وأخذوا في محاكاتها . فنشأ من ذلك الرسائل القِصصية المعروفة بالمقامات .

وبلغت الكتابة في هذا العصر شأواً لم تبلغه في أى عصر من عصور اللغة ، من حيث الصناعة اللفظية . وكان في هذا العصر أعلام الكتاب وكبار الأدباء ، كابن العميد والبديع ، والخوارزمي والحريري والصابي ، والعماد الأصبهاني . ولم تعرِف اللغة مثل هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومن عاصرهما .

ولكنَّ الكتاب اقتصروا على كتابة الدواوين والإخوانيات والرسائل الأدبية ، ولم يُعنوا بالموضوعات العامة ، كالقِصص والتوسُّع في أخيلة المقامات وأغراضها . ولا شكَّ في أن استيلاء الأعاجم على الدولة الإسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة إلى العناية بالزُخرف اللفظي والانصراف عن الأسلوب العربي الصافي الذي امتاز به كتاب العصر الأول .



## ابن العميد وطريقته في الشرق

ابن العميد — هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد . وُلِدَ في سنة ٣٠٠ هـ وتُوفِيَ سنة ٣٦٠ هـ . وهو من أصل فارسيّ ومن أسرة معروفة بمدينة ( قُم ) . كان والده مشهوراً بالعلم وحسن التدبير ، فاتصل ببنى بويه وساعدهم على تأسيس دولتهم . وقد تربّى ابن العميد ونشأ على ما كان عليه أبوه فاستوزره ركن الدولة بن بويه ، واشتهر بحسن الرأي والتدبير في دولة بني بويه .

وكان اطلاعُ ابن العميد الواسعُ سبباً في نمو فكره ، وسعة معلوماته وصقل ذوقه في الكتابة ، ومعرفته بفنون الكلام ، والميل إلى تهذيب العبارات ، والاشتغال بإنشاء الرسائل ، حتى برع في الكتابة دون غيرها من الفنون والعلوم ، وكان من أئمة البلاغة في زمانه . وقد كانت العناية بالصناعة اللفظية في عصره تفوق كلَّ شيء . فلما ذاع أمرُ ابن العميد في الكتابة اتّبع الناسُ طريقته وولّعوا بها ، وانتشر أسلوبه في العالم العربيّ ، ولا سيما بلاد العراق وخراسان وما جاورها . وعُرِفَتْ طريقته بطريقة ابن العميد : فسَنَ طريقةً رسمها في كتاباته ، وهي أن تكون مسجّعة قصيرة الفقرات مع شيء من المحسنات البديعية ، وتنميق العبارة واختيار الجمل والألفاظ ، واقتباس الأشعار المشهورة ، والأحاديث الماثورة ، والأمثال السائرة ، والحوادث المعروفة ، والآيات القرآنية .

وقد أعجب الأدباءُ بذلك لولوعهم بالصناعة في تلك الأيام ، حتى قالوا بُدِئَتْ الكتابةُ بعبد الحميد وخُيِّمَتْ بابن العميد ، فاتّبع طريقته أشهرُ الكتاب حتى أصبح إمامَ عصره في ذلك وعُتِبَ بحكاية أسلوبه .

ولا يوصف هذا الأسلوب بالسهولة المطلقة ، ولا بالصنعة ليس غير ؛ بل هو مزيج من هذا وذاك . ولكنّ عناية الكاتب كانت موجهةً إلى الصناعة أكثر منها إلى المعاني .



## القاضي الفاضل وأثر أسلوبه الكتابي في مصر

هو أبو علي عبد الرحيم التَّمِيَّ العَسْقَلَانِي. وُلِدَ بمدينة عَسْقَلَان<sup>(١)</sup> سنة ٥٢٩ هـ ، وتعلَّم على أشهر علماء زمانه ، وأخذ عن أبيه القاضي الأشرف قاضي عَسْقَلَان بهاء الدين طَرَفًا من علوم اللغة والأدب . ثم قَدِمَ إلى مصر في صباه لتعلُّم الكتابة ، وكان ذلك في أواخر دولة الفاطميين ، ونزل بمدينة الإسكندرية ، ولازم قاضيها ابن حديد ، وتعلَّم عليه . ولما برَّع في الكتابة وعُرف فضله ، انتقل إلى القاهرة ، وصار من كُتَّاب الظاهر ، وشاع فضله ، فاتَّخذه صلاحُ الدين الأيوبي وزيراً له عندما استولى على مصر ، ثم كان وزيراً لأولاده يدبر الملك ويسوس أمور الدولة ، ويتنقل بين مصر والشام يتعرف أخبار الأدباء والكتّاب في بلدان المشرق حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ .

أسلوبه في الكتابة — كان أسلوب ابن العميد قد ذاع قبل ذلك في العراق وما جاوره — كما قلنا — وفُتِنَ به الكُتَّاب . وقد وصلت الصناعةُ اللفظيةُ الذروة في فنِّ الكتابة ؛ فوقف القاضي الفاضلُ على صنعة الكتابة ، لدى كبار الكُتَّاب في المشرق والمغرب ، وعَمِلَ على ابتكار طريقة جعل أساسها الصناعة اللفظية ، وأخصَّها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظم والاستعارة وغيرها . وكان الناس يعشقون التلاعب بالألفاظ ، ويرون بلاغة القول في ذلك . فانتشرت طريقة القاضي الفاضل . صرحت كانت مذهباً لكتّابها ، جرى عليه كبارهم ، وأصبحت الكتابة ضرباً من المبالغة في الصناعة ، ويمكن ذلك من نفوس الناس وبقيت هذه الطريقة بمصر إلى زمن قريب جداً ، بل تحطَّت مصر إلى غيرها من البلدان ، كما تحطَّت طريقة ابن العميد بلاد الجزيرة وما حولها إلى غيرها من المدن الإسلامية . وقد كان من جرَّاء ذلك أن شغل الكُتَّاب بالألفاظ والصناعة عن المعاني ؛ فكانت الكتابة أشبه بطلاء لامع يبهرك منظره ولا يروك محبته .

(١) بلدة كانت على ساحل فلسطين وموضعها الآن خرب .



## من رسائل القاضي الفاضل

كتب القاضي الفاضل يعزى الملك العادل في الملك العزيز :

”أدام الله سلطان مولانا العادل ، وبارك في عمره ، وأعلى أمره بأمره ، وأعز نصر الإسلام بنصره ، وفدته الأنفس الكريمة ، وأصغر الله العظام في نعمته العظيمة ، وأحياء الله حياة طيبة يقف هوفها والإسلام في مواقف السلام الجسيمة ، وينقلب عنا بالأموار المسلمة والعواقب السليمة . ولا نقص له رجالا ولا عددا ، ولا أعدمه نفسا ولا ولدا ، ولا قصر له ذيلا ولا يدا ، ولا كدر له خاطرا ولا موردا . ولما قدر الله ما قدر في الملك العزيز ، رحمة الله عليه وتحياته مكررة إليه ، من انقضاء مهله وحضور آجله ، كانت بديهة<sup>(١)</sup> المصائب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة ، فرحم الله ذلك الوجه ونصره ، ثم إلى الجنة يسره .

وإذا محاسن أوجه يليت فعفا الثرى عن وجهه الحسن  
فأعزز على الملوك وعلى الأولياء ، بل على قلب مولانا ، لا سلبه الله ثوب الغزاء ، بسرعة مصرعة ، وانقلابه إلى مرجعه ، ولباسه ثوب البلى قبل أن يبلى ثوب الشباب وزفه إلى التراب ، وسريه مخوف باللدات والأتراب .

وكتب إلى العماد الأصهباني :

”وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة ، إلا أنها بلا سكون ، وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية ، إلا أنى على مثل حد المنون . وكيف يعيش العاقل في الزمان المجنون ؟ ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر . وحاشا ذمة الوعد به أن تحفر . واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس ، والتصوير والتكييف والتصانيف ، التي تصرف فيها البلاغة أحسن التصاريف ، نعمة يتعين شكرها على العلماء ، ويختص بها سادة من الفقهاء“ .

(١) بدء الرجل بغته وفاجاه .



## العماد الاصبهاني

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين ، الملقب بعماد الدين الأصبهاني . نشأ في أصفهان ، ودرس في مدينة بغداد بالمدرسة النظامية <sup>(١)</sup> ، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، فولاه البصرة ثم واسط ، وانتقل إلى مدينة دمشق سنة ٥٦٢ هـ في حكم الملك العادل نور الدين ، وكان معاصراً للقاضي الفاضل ، اتصل بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي ، ثم ولّاه السلطان نور الدين ديوان الإنشاء ، وأحبه صلاح الدين حتى صار من المقرّبين إليه ، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ . وكان أديبا من كبار الكتاب ، اشتهر بالكتابة المسجّعة البليغة . وله مؤلفات في التاريخ والأدب .

بعض رسائله — كتب العماد منشورا عن لسان الملك العادل نور الدين لاتخاذ الحماة وتدريبه على الطيران لنقل الكتب :

”... هي برائد الأنباء ، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيجاء ، وهي فيوج <sup>(٢)</sup> الرسائل المأمونة الإبطاء . والسابقات الموج <sup>(٣)</sup> في الاهتداء ، والحمالات ماطفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار ، في وقتها من أقاصي الأمصار بأكل هداية ، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والمواحي ، والنافذات بنجح المرام إلى المراحي ، وهي تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة ، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بآتم استطاعة ، وقد عم بها نفع المرباطين ، والغزاة والمجاهدين في سبيل الله في إهداء أخبار الكفرة إليهم في أماكنها ، دالة على مكائدها ومكانها ، طائفة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفيا ، وإنها ليمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مهديّة في الأسفار ، أمانة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكر ، صادرة بالأوطار من الأقطار ...“

(١) هي المدرسة التي بناها نظام الملك الطوسي وزير السلطان ملكشاه أواسط القرن الخامس الهجري .

(٢) جمع فوج وهو الجماعة من الناس . والمعروف في كتب اللغة أن الجمع فوج لا فيوج . (٣) المسرعة .



## رثاء العماد للقاضى الفاضل

”... .. وهو المولى القاضى الأجلّ، الفاضل الأسعد، أبوعلّى عبد الرحيم ابن القاضى الأشرف أبى المجد علىّ بن الحسن بن البيّسى، صاحب القرآن، العديم الأقرب، وواحد الزمان، العظيم الشأن؛ ربّ القلم والبيان، واللّسن واللسان، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النقّادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرّزة، والفضل الذى ماسّمع له بمائل فى الأوائل، ممن لو عاش فى زمانه لتعلّق بغبّاره، أو جرى فى مضماره. فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع. يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار. وهو ضابط الملّك بآرائه، ورباط السبل بالائه. إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة ما لو دُونَ لكان لأهل الصناعة خير بضاعة. أين قيس فى مقام حصافته، وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته، وفضله بالإفضال جال، ونجم قبوله فى أفق الإقبال عال، لا منّ فى فعله، ولا مِين فى قوله، ولا خلّف فى وعده، ولا بطء فى رِفده. الصادق الشّيم، السابق بالكرم، ذوالوفاء والمروءة والصفاء والفتوة، والتقىّ والصلاح، والنّدى والسّماح. منشِرُ رُفات العلم، وناشرِ راياته، وجالى غيابات الفضل وتالى آياته. وهو من أولياء الله الذين خُصّوا بكرامته، وأخلصوا لولايته، قد وفّق الله للخير كله، وفَضّل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله. فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة، ومهماته المتفرقة فى العاجلة، لا يفغل عن الآجلة ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته، وحفظ أوراده ووظائفه، وبث أصفاده<sup>(١)</sup> وعوارفه ويختتم كل يوم القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد...“.

(١) جمع صفد : وهو الغطاء ، ومثلها العوارف .



## المقامات (١)

كان من أثر اتصال كُتّاب العربية بالفرس ، وتنقلهم في أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعو شيئا من أقاصيلهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين كان يُحدّث بأوصافهم وأخلاقهم . وكان بعض هؤلاء الكُتّاب يُجيدون اللغة الفارسية وربما كانوا يُعجبون بها وبأساليبها . فأخذوا في محاكاة بعض تلك الأحوال ونقلها إلى اللغة العربية . وقد كان أثر الحياة الفارسية قبل هذا العصر دَخَلَ في لغة العرب ، بما كتبه ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما . فظهر أثر ذلك في الكتابة النثرية ، فلما كان هذا العصر ظهر أسلوبُ المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يَصِفُ فيها الكاتبُ أحد الناس وأخلاقه ، ويذكر بها بعض الحوادث والأماكن بأسلوب مسجع طريف . وكان النثر إلى هذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ولم يكن الأسلوب القصصي قد تَسَرَّبَ بعدُ إلى الكتابة العربية فلما كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جديدا في أساليب النثر العربي (٢) . وسار على أسلوب الهمداني من جاء بعده من الكُتّاب أصحاب المقامات كالحريري وغيره .

(١) المقامة لغة المجلس والجماعة من الناس . ثم أطلقت في عصر بني أمية وصدر الدولة العباسية على ما يحكى في المجالس من القصص والسير وكل ما يكسب السامع علما وأدبا . ثم شاع استعمالها بعد ذلك على ما يقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء . بلغة عربية فصيحة مملوءة بالعمل والصناعة اللفظية حتى صار أسلوبها من نماذج أساليب النثر في الأدب العربي . وقد ذاعت أساليب المقامات بين كتّاب العربية على نحو ما كتب الهمداني والحريري .

(٢) المشهور أن ابن دريد المتوفى سنة ٣٢٠ كتب أربعين حديثا ، صور فيها ما كان يجري في المجالس . ولعله أخذ ذلك من مخالطة الفرس ، إذ كان كاتباً لابن ميمكال وهما على عمالة فارس ، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه . وقد أبدى هذه الأحاديث في معارض عجمية . ثم حاكى الهمداني أحاديث ابن دريد بأسلوب آخر في عبارات سلسلة رقيقة . ولما ذاع أسلوب المقامات بعد الهمداني والحريري حاكها كتّاب الفرس أنفسهم في ذلك .



وُحَسِبَ المقاماتُ من أول بذور النثر القصصيّ في الأدب العربيّ ، لانها ترمى إلى تصوير بعض النفوس والأشخاص بطريق قصصيّ . ولولا انصراف الكتاب إلى الصناعة اللفظية لَخَطَّت المقاماتُ خطوات واسعة في سبيل النثر القصصيّ الذي يَصوِّر حياة النفوس والاجتماع . على أنّ أسلوب المقامات تَمَشَّى في الأدب العربيّ وذاع أثره في بلاد المشرق والمغرب . لَوْلَوْع الناس بالصناعة اللفظية .

مقامات الهمداني (١) — أما مقامات الهمداني فهي حكايات أو قصص قصيرة ، انتزعتها بديع الزمان من الحوادث التي وقعت له أو شاهدّها في أثناء رحلاته الكثيرة في بلاد خراسان وماجاورها . وقد كتبها في نيسابور بعد أن عاش كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصة هناك . ويظهر أنّ التَّسْوُل كان ذائعا وكانت حِيلُ الْمُتَسَوِّلِينَ معروفةً لديه ، وقد عرَفَ بَعْضَهُمْ واتَّصَلَ بِهِ . وكان كثيرٌ من الأدباء إذ ذاك على هذه الحال . فكتب مقاماته يَصِفُ فيها حالة هؤلاء ، وعزاها إلى رَجُلٍ سَمَّاهُ أبا الفتح الإسكندري ، ونَسَبَ رِوَايَتَهَا إلى رَجُلٍ آخرَ سَمَّاهُ عيسى ابن هشام . وقد يكون في حياة أبي الفتح الإسكندري شيء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشيء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يَسْأَلُ بأدبه ، ولأنَّ حياته كانت في جملتها على هذا النحو من الرحلة والسؤال .

وموضوع مقاماته أنّ رَجُلًا سَمَّاهُ أديبا ( هو أبو الفتح الإسكندري ) كان يَجُولُ في البلاد ويتفنَّن في أساليب الاحتيال للحصول على المال . وكلُّ مقاماته التي تُنَفِّسُ على الخمسين لا تخرج عن هذا الغرض . ولكنها تمتاز بركة أسلوبها ، وسلاسة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعاني الطريفة ، والألفاظ اللغوية ، وعدم التكلف الظاهر . حتى لقد يبدو أحيانا أنّ أسلوبها أقرب إلى الكلام الفطريّ منه إلى التعمُّل والصَّنعة . وهي مسجوعة ، ولكن سجعها رقيق سهل ، احتوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

(١) أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني الملقب ببديع الزمان ولد بمدينة همدان أواسط القرن الرابع الهجري ، وحقق علوم اللغة العربية والفارسية . وتقل في كثير من بلاد خراسان وذاع أمره في نيسابور وهناك كتب مقاماته وتوفي سنة ٣٩٨ هـ .



## من مقامات الهمداني

من المقامة الحُلوانية — حدثنا عيسى بن هشام قال: لما قَفَلْتُ من الحج فيمن قَفَل ، ونزلت حُلوان مع مَنْ نزل ، قلتُ لغلّامي : أَجِدْ شَعْرِي طويلاً ، وقد اتَّسَخَ بدني قليلاً ، فاخترلنا حَمَّاماً ندخله ، وحَمَّاماً نستعمله ، وليكن الحَمَّام واسعَ الرُّقعة ، نظيفَ البُقعة ، طيّبَ الهواء ، مُعْتَدِلُ المِاء . وليكن الحَمَّام خفيفَ اليد ، حَدِيدَ المَوْسَى ، نظيفَ الثياب قليلَ الفُضُول . نخرج مَلِيّاً ، وعاد بَطِيّاً . وقال : قد اخترتُه كما رَسَمْتِ ، فأخذنا إلى الحَمَّام السَّمْت : وأتيناه فلم نرقّوامه ، ولكني دخلته ودخل على أَثَرِي رجلٌ وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبیني ، ووضعها على رأسي ، ثم خرج ودخل آخر ، فجعل يدلكني دلکاً يَكْدُ العظام ، ويغمزني غمزاً يَهْدُ الأوصال ، ويصفّر صفيراً يرشُ البزاق . ثم عمد إلى رأسي يغسله ، وإلى المِاء يرسله . وما لبث أن دخل الأولُ خفياً أخدع الثاني بمضمومة قعقعت أنيابه . وقال : يَا لَكَعِ ما لَكَ ولهذا الرأس وهو لي ، ثم عطف الثاني على الأول بمجموعة هتكت حجابها ، وقال : بل هذا الرأس حق وملكي وفي يدي . ثم تلا كما حتى عَيَا ، وتحاك كما لما لَقِيَا . فأتيا صاحبَ الحمام . فقال الأول : أنا صاحب هذا لأنني لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه . وقال الثاني : بل أنا مالكة لأنني دلكت حامله ، وغمزت مفاصله . فقال الحَمَّامُ : ائتوني بصاحب الرأس أسأله ألك هذا الرأس أم لِه . فأتيانِي . وقالَا : لنا عندك شهادة فتجشّم . فقمت وأتيت ، شئت أم أبيت فقال الحَمَّامُ : يارجل لا تنقل غير الصدق ، ولا تشهد بغير الحق . وقل لي هذا الرأس لأيهما ؟ فقلت : يا عافاك الله ، هذا رأسي . قد صحبني في الطريق ، وطاف معي بالبيت العتيق ، وما شككت أنه لي . . . . إلى آخر المقامة .



## مقامات الحريري

وَمَنْ نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِ الْهَمْدَانِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ الْقَاسِمُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَرِيرِيُّ <sup>(١)</sup> . فَقَلَّدَهُ فِي أَسْلُوبِهَا وَنَظْمِهَا ، وَمَوْضُوعَاتِهَا وَصِفَاتِ رَاوِيهَا . فَقَدْ جَعَلَ أَبُو زَيْدٍ السَّرُوحِيُّ الَّذِي عَزَى إِلَيْهِ مَقَامَاتُهُ ، مِثْلَ أَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ : رَجُلًا أَدِيبًا مُحْتَالًا . وَكَأَنَّمَا أَخَذَ أَوْصَافَهُ مِنْ أَوْصَافِ ذَلِكَ الرَّجُلِ . وَكَانَتْ مَوْضُوعَاتُهُ فِي مَقَامَاتِهِ أَشْبَهَ بِمَوْضُوعَاتِ مَقَامَاتِ الْبَدِيعِ ، لِأَنَّ الْحَرِيرِيَّ وَصَفَ أَبُو زَيْدٍ السَّرُوحِيُّ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَالٌ ، يَسْتَعْمَلُ ذِكَاةً وَقُوَّةَ بَيَانِهِ فِي عَطْفِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَاسْتِدْرَارِ أُمُورِهِمْ ، كَمَا وَصَفَهُ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ بَلِيجٌ وَخَطِيبٌ مُفَوِّهٌ ، وَشَخَّاذٌ مُلَحٌّ فِي السُّؤَالِ ، اِمْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِالْاِحْتِيَالِ عَلَى النَّاسِ ، يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَيَرْحَلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لِلسُّؤَالِ وَقَدْ اتَّخَذَ ذَلِكَ حِرْفَةً لَهُ . وَكُلُّ مَقَامَاتِهِ وَصَفٌ لِنَفْسِ هَذَا الرَّجُلِ ، أَوْ صُورَةٍ لِبَعْضِ النَّاسِ ، وَلَا سِيَّمَا الْأَدْبَاءِ مِنْهُمْ ، وَبَيَانٌ لِمَا هُوَ كَامِنٌ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ أَطَاعٍ وَحِيلٍ وَاسْتِعْمَالٍ مَا وَهَبُوا مِنْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ أَطْنَبَ الْحَرِيرِيُّ فِي ذِكْرِ صِفَاتِ أَبِي زَيْدٍ السَّرُوحِيِّ ، كَمَا أَطْنَبَ الْهَمْدَانِيُّ فِي صِفَاتِ أَبِي الْفَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ ، أَمَّا أَسْلُوبُ مَقَامَاتِهِ فَأَظْهَرَ شَيْءٌ فِيهِ تَعَمُّدُ السَّجْعِ وَالصَّنَاعَةُ اللَّفْظِيَّةُ . وَلَكِنَّ التَّكْلُفَ لَا يَظْهَرُ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا ، حَتَّى لَقَدْ يَكُونُ السَّجْعُ حُلِيَّةً لِكَلَامِهِ ، وَسَبَبًا لِحُسْنِ دِيبَاجَتِهِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ كَلَامُهُ غَيْرَ مَقْبُولٍ لِقَلَّةِ مَعَانِيهِ أَوْ تَكَرُّرِهَا .

وَمِنْ مُمَيِّزَاتِ أَسْلُوبِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ أَنَّهَا جَعِمَةُ أَلْفَافٍ لُغَوِيَّةٌ ، وَجَمَلٌ مُخْتَارَةٌ وَأَمْثَالٌ سَائِرَةٌ وَأَشْعَارٌ رَقِيقَةٌ . وَقَدْ وُلِّعَ الْحَرِيرِيُّ بِالصَّنَاعَةِ اللَّفْظِيَّةِ كَكُلِّ كُتَّابٍ

(١) ولد أبو القاسم بن علي الحريري سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة . فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار إماما في ذلك وألف كتباً في اللغة منها درة النواص في أوهام الخواص . فكان شاعرا وأديبا وكاتبا ومؤلفا . ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة . ويحسب الحريري بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتّابهم .



زمانه ، وأكثر من أنواع البديع ، ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دَلَّ على مقدرة نادرة في هذا النوع من الكتابة الفنية .

### من مقامة للحريري يوصي ابنه بالكُدية والشَّحادة

”يا بني ، إني جربتُ حقائق الأمور ، وبلَّوتُ تصاريِف الدهور ، فرأيتُ المرءَ بنسبِهِ لا بنسبِهِ ، والفَحِصَ عن مَكسَبِهِ لا عن حَسَبِهِ . وكنتُ سمعتُ أن المعاشِ إمارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارستُ هذه الأربع ، لأنظر أيُّها أوفى وأُنفع . فما أخذتُ منها معيشة ولا استرغدتُ بها عيشة . أما فرص الولايات ، وخلص الإمارات ، فكأضغات الأحلام ، والفئء المُنْتَسَخ بالظلام ، وناهيك غُصَّة بمِراة الفطام . أما بضائع التجارات ، فعرضة للخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطيارات . وأما اتخاذ الصِّياغ ، والتَصَدِّي للزِّدِراع ، فَسَنَكَّةٌ للأعراض ، وقِيود عائقة عن الارتكاض ، وقَلَمٌ خلا بها عن إذلال ، أو رُزِقَ رُوحَ بال ، وأما حرف أُولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة في جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشيبة الحياة . ولم أرَ ما هو بارد المَغَمِّ ، لذِئ المَطْعَم ، وافي المَكْسَب ، صافي المَشْرَب ، إلا الحِرْفَةُ التي وَضَعَ ساسانُ أساسها ، ونوَّع أجناسها ، وأضرم في الخافِقَيْنَ نارها ، وأوضح لَبني غبراء منارها . فشهدتُ وقائعها مُعلِّما ، واخترتُ سِيماها لى ميسما ، إذ كانت المتَجَرُّ الذي لا يبور ، والمنهل الذي لا يبور ، والمصباح الذي يَعِشُو إليه الجمهور ، أو يستصبح به العُمى والعُور . وكان أصلها أعزَّ قَبيل ، وأسعد جيل ، لا يَرِيقُهُمْ مَسٌّ حَيْف ، ولا يَقلِقُهُمْ بَسْلُ سَيْف ، ولا يَحْشُونُ حِمَّةَ لاسِع ، ولا يَدِينُون لَدانٍ ولا شاسِع ، ولا يرهبون مِمَّنْ برق ورعد ، ولا يحفلون مِمَّنْ قام وقعد . أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم عُشْرُ محجلة . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا . لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا . ولا يمتازون عما تَغْدُو نخامها وتروح بطانا ... الخ “ .



ومن مقامات الحريرى المقامة الإسكندرية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد  
مع امرأته أمام القاضى فيها :

” . . . . . فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عَشِيَّةٍ عَرِيَّةٍ ، وقد أحضر  
مال الصدقات ، لِيَقْضِيَهُ عَلَى ذَوَى الْفَاقَاتِ ، إِذْ دَخَلَ شَيْخٌ عَفْرِيَّةٌ ، تَعْتَلُهُ امْرَأَةٌ  
مُصِيبَةٌ . فَقَالَتْ : أَيْدِ اللَّهِ الْقَاضِي ، وَأَدَامَ بِهِ التَّرَاضِي ؛ إِنِّي امْرَأَةٌ مِنْ أَكْرَمِ جُرُومَةٍ ،  
وَأَطْهَرِ أَرْوَمَةٍ ، وَأَشْرَفِ خُؤُولَةٍ وَعُمُومَةٍ ، مَيَسَمَى الصَّوْنُ ، وَشِمْتِي الْهَوْنُ ، وَخُلَّتِي  
نَعْمَ الْعَوْنُ ، وَيَدِي وَيَيْنِ جَارَاتِي بَوْنٌ . وَكَانَ أَبِي إِذَا خَطَبَنِي بِنَاءُ الْمَجْدِ ، وَأَرَبَابِ  
الْجَدِّ ، سَكَتَهُمْ وَبَكَتَهُمْ ، وَعَافَ وَصَلَهُمْ وَصَلَتَهُمْ ، وَاحْتِجَّ بِأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ تَعَالَى  
بِخَلْفَةٍ ، أَلَا يُصَاحِرُ غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ . فَقَيَّضَ الْقَدْرَ لِنَصَبِي وَوَصَّي ، أَنْ حَضَرَ هَذَا  
الْخُدْعَةَ نَادَى أَبِي ، فَأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ ، أَنَّهُ وَفَّقُ شَرْطِهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ طَالَمَا نَظَّمُ  
دُرَّةً إِلَى دُرَّةٍ ، فَبَاعَهَا بِبَدْرَةٍ . فَاغْتَرَّ أَبِي بِزُخْرَفِ مَحَالِهِ ، وَزَوْجَتِيهِ قَبْلَ اخْتِبَارِ  
حَالِهِ . فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كَيْاسِي ، وَرَحَّلَنِي عَنْ أَنْاسِي ، وَنَقَلَنِي إِلَى كِسْرِهِ ،  
وَحَصَلَنِي تَحْتَ أَسْرِهِ ، وَجَدْتُهُ قَعْدَةً جَثْمَةً ، وَالْفَيْتُهُ صُجْعَةً نُومَةٍ . وَكُنْتُ صَحْبَتَهُ  
بِرِيَاشٍ وَزِيٍّ ، وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ . فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ فِي الْأُسُوقِ الْهَضْمَ ، وَيُتْلِفُ ثَمَنَهُ  
فِي الْخَضْمِ وَالْقَضْمِ . إِلَى أَنْ مَزَّقَ مَالِي بِأَسْرِهِ ، وَأَنْفَقَ مَالِي فِي عُسْرِهِ . . . الخ “ .



## التدوين والتأليف في العصر العباسي الثاني

### في العراق وخراسان ومصر والشام

منذ العصر العباسي الثاني لم تعد الدولة الإسلامية دولةً واحدةً يرجعُ ولاةُ الأقاليم فيها إلى رئيس واحد هو الخليفة بل تعددت الدول واستقلت بشؤونها ؛ إن اعترف بعضها أحياناً بالخليفة العباسي ببغداد فاعترافٌ اسمي ؛ أما الحقيقة فهي أن كل دولة مستقلة بنفسها ، فالدولة البويهية في العراق وفارس وخراسان (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) وخلفتها الدولة السلجوقية . والدولة الفاطمية بمصر (٣٥٧ — ٥٦٧ هـ) وخلفها الأيوبيون . والدولة الحمدانية فيما بين النهرين وحلب (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) وخلفها الفاطميون في الشام ، والدولة السامانية فيما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) إلى كثير من هذه الدول .

وانقسام الدولة هذه الأقسام — إن أضعف الدولة سياسياً في كثير من الأحيان — لم يضعفها علمياً بل كان الأمر عكس ذلك ؛ فقد كانت هذه الدول المختلفة تتبارى في تشجيع العلم وتعد من مظاهر عظم الدولة أن تترين بمشهورى العلماء واستدعائهم من أقاصى البلدان وتشجيعهم بما تغدق عليهم من مال .

فالدولة البويهية في العراق وفارس وخراسان أكثر وزرائها وعمالها من الأدباء المشهورين أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد ، ومن أشهر ملوك بويه عضد الدولة ، ألف له أبو إسحق الصابي كتاب "التاجي" في أخبار بني بويه ، وألف له أبو علي الفارسي كتاب "الإيضاح" في النحو ، وقصده المتنبى ومدحه .

والدولة السامانية في خراسان وتركستان كان من أشهر ملوكها نوح بن منصور وقد أنشأ في بخارى مكتبة كبيرة قصدها ابن سينا الفيلسوف الكبير وانتفع بكتبها كما حدث هو عن نفسه .



والدولة الحمدانية في حلب والموصل كانت مقصدا للأدباء والعلماء ، وأشهر رجالها سيف الدولة بن حمدان اجتمع ببابه من الشعراء والأدباء ما لم يجتمع بباب أحد بعد خلفاء بنى العباس الأولين ، واتصل به المتنبى وقال فيه كثيرا من شعره وصاحبه في حربه وسلمه ، وكذلك أبو فراس الحمداني ، وقصده كثير من العلماء والفلاسفة كابن جني العالم النحوي المشهور والفارابي .

وأنشأ الفاطميون بمصر دور الكتب العامة وعقدوا فيها المناظرات وعنوا بالفقه الشيعي والدعوة إلى مذهبهم ، كما عنوا بعلم الفلك ، ومن مظاهر هذه العناية المرصد الحاكمي الذي أنشأه الحاكم بأمر الله على جبل المقطم .

وخلف الفاطميين في مصر والشام الأيوبيون ، وقد قَصَّصُوا على المذهب الشيعي في مملكتهم وأحيوا مذهب أهل السنة ، ونبغ منهم جماعة من أهل العلم والأدب ، وقرَّبوا العلماء والأدباء .

من أجل هذا سارت النهضة العلمية في تقدمها المطرد ولم تتأثر بالانقسام السياسي ، فكانت الحركة العلمية وإنتاج المؤلفين أكثر مما كان في العصر العباسي الأول من حيث الكم ومن حيث الكيف فقد ، كان أكثر النتاج العلمي في العصر العباسي الأول جمعا ونقلا من اللغات المختلفة فصارت في العصر الثاني هضما وابتكارا وإنتاجا جديدا في كثير من الأحيان ، ونبغ العلماء في كل فن من فقه وحديث وتاريخ وجغرافيا ولغة وفلسفة وغيرها ، وكثرت دور الكتب وقصدها طلاب العلم وزحرت بالكتب من كل فن ، كمكتبة العزيز الفاطمي بالقاهرة ، ودار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ومكتبة سابور بن أردشير في بغداد وهكذا ، ولندكر الآن طرفا من مشهورى المؤلفين في بعض الفنون :

علوم الدين — كانت لعلوم الدين ، على اختلافها ، المكانة الأولى بين العلماء فكثير الاشتغال بها وتدوينها ، وقد وُضِعَ أساس التدوين فيها في العصر



العباسي الأول فَوُضِعَ في التفسير أهمُّ كتابٍ وهو تفسير ابن جرير الطبري . وجاء بعده في العصر الثاني علماء كثيرون عُنُوا بالتفسير من ناحيته : ناحية المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وناحية العناية بما في القرآن من لغة وإعراب وبلاغة وعقائد . ومن أشهر المؤلفين على الطريقة الثانية في هذا العصر الزمخشري ( المتوفى سنة ٥٣٨ ) وهو من علماء خوارزم ، برع في اللغة والأدب والبلاغة وألَّفَ في التفسير " الكشاف " تعرَّض فيه لبيان ما في القرآن الكريم من بلاغة بعبارة ممتعة ، إلا أنه جرى في تفسيره على مذهبه في الاعتزال إذ كان معتزليا .

وفي الحديث كانت الكتب الستة المشهورة قد جُمِعَت فَعَيَّنَ العلماء بعدُ بجمع ما زاد عن هذه الكتب ودراسة أسانيد الحديث وترتيب الأحاديث على حسب الصحة وتراجم المحدثين ، ووضعوا لذلك مصطلحات عدَّة وألَّفوا فيها تأليف كثيرة .

وفي الفقه كانت المذاهب الأساسية — من حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي وغيرها — قد تكوَّنت ، فجاء بعد ذلك أتباع كلِّ مذهب يحررون مذهبه ويطبِّقون قواعده على الفروع وعلى ما يَسْتَجِدُّ من أحداث ، ويجادل أصحاب كلِّ مذهب أصحاب المذاهب الأخرى ويقيمون البراهين الثقيلة والعقلية على صحة مذهبهم وبطلان غيره في مسائل الخلاف ، وقد بلغ الخلاف أشده بين الحنفية والشافعية . وقد اقتسمت الأمصار هذه المذاهب فانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وفارس وبين مسلمي الهند والصين ، وانتشر مذهب الشافعي بمصر ، وانتشر مذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس ، وتبع أحمد بن حنبل بعض أهل الشام والعراق ، وانتشر مذهب الشيعة في مصر والشام في عهد الفاطميين ، وألَّفَ علماء مصر الكتب الكثيرة مطوَّلة ومختصرة في مذاهبهم ، وكثرت المناظرات بين علماء المذاهب المختلفة حتى نشأ من ذلك علم خاص بالخلافات ، وكان لذلك أثر في نمو حركة التشريع وتمحيص الآراء القانونية .



وفي علم الكلام ، وهو علم العقائد ، كانت الفلسفة قد تَسَرَّبت إلى بعض المذاهب الدينية كمذهب المعتزلة . وانقسم المسلمون إلى مذاهب كلامية : من شيعة ومعتزلة وخوارج ومرجئة وأهل السنة . ثم جاء أبو الحسن الأشعري فاعتنق مذهب الاعتزال أولاً ، ثم ناهضه وخرج عليه وناصر أهل السنة وتبعه الكثيرون . وقد توفى سنة ٣٢٤ هـ

وجاء بعده على مذهبه الإمام الغزالي وقد ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ ورحل إلى نيسابور وتعلم بها حتى إذا أتم علمه رحل إلى بغداد وتولّى التدريس بالمدرسة النظامية ، ثم زهد في الدنيا وترك التدريس وانقطع للعبادة وتصوف ، ثم عاد إلى التدريس والتأليف مناصراً للتصوف العلمى حتى مات سنة ٥٠٥ هـ بطوس .

وقد ألّف في فروع مختلفة من العلم : ألّف في الفقه والأصول والمنطق والفلسفة والتوحيد والتصوف ، ومن أشهر كتبه ” إحياء علوم الدين “ جمع فيه بين التصوف والشريعة والأخلاق .

ويعدُّ الغزالي من أكبر العلماء أثراً في الدعوة إلى الدين وترغيب الناس في التصوف ؛ فقد أوتى إلى سعة اطلاعه حرارة إيمان وقوة لسان وكثرة إنتاج فذاعت شهرته ، وعظم أثره .

التدوين في الأدب — من أظهر ما حدث في هذا العصر في كتب الأدب الميل إلى الجانب العلمى وصنع المكتب صبغة فلسفية والعناية بتراجم الشعراء والكتاب ترجمة مفصلة على نحو ما فعل المحدثون في رجال الحديث ، فألفت كتب في نقد الشعر والشعراء والطعن فيهم والانتصار لهم ، كما فعل الأمدى في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري المتوفى سنة ٣٧١ هـ ؛ فقد نقد الشاعرين نقداً محكما وأبان مال الشاعرين من محاسن ومساوئ ، وكما فعل صاحب بن عباد ؛ فقد وضع كتاباً في بيان عيوب المتنبي ، وانتصر للثنى آخرون ؛ فوضع القاضى عبد العزيز الجرجاني كتاباً وقف فيه موقف الحكم بين المتعصبين له والمتعصبين عليه سَمَّاه الوساطة بين المتنبي وخصومه .



ومن أشهر كتب الأدب المؤلفة في هذا العصر : كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ وهو عربي من نسل بني أمية ، ولد بأصفهان وانتقل إلى بغداد، ويُعدُّ كتابه الأغاني أجمع الكتب في تراجم الشعراء والأدباء وأخبار العرب في الجاهلية والإسلام ، وهو في واحد وعشرين جزءا ، وسمَّاه الأغاني لأن المؤلف بناه على مائة صوتٍ كان هرونُ الرشيدُ أمرَ إبراهيم الموصليَّ مغنيَه أن يختارها له ، فهو يذكّر الصوت (الدور) وتوقيعه ويذكر قائله ويترجم له ويستطرد من ذلك إلى غيره من الشعراء والأدباء والمغنين والمغنيات ، وقد زاد أبو الفرج بعض أصوات اختارها هو .

كذلك من أهم الكتب التي ألّفت في تراجم الشعراء : كتاب "يتيمة الدهر" لمؤلفه أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ وقد ترجم فيه لشعراء المائة الرابعة ، ولذلك سمَّاه "يتيمة الدهر" ، في شعراء أهل العصر " وقد رتبته ترتيبا حسنا باعتبار الأقطار؛ فترجم لشعراء الشام ، ولشعراء مصر والمغرب ، ولشعراء الموصل ، ولشعراء البصرة ، ثم العراق ، ثم بغداد ، ثم ذكر محاسن الدولة السامانية وترجم لشعراءها ، ثم لفضلاء خوارزم .

ولم يسلك مسلك الأغاني في استقصاء أخبار الشاعر وحياته ، بل كثيرا ما كان يكتفى ببذرة يسيرة من مقامه في الأدب يتبعها يختار من شعره أو نثره ، وقد تأثر بلغة العصر ؛ فكاد يلتزم في تعبيره السجع وقد ذيل الباخري كتاب اليتيمة فذكر الشعراء الذين لم يدركهم الثعالبي في كتاب له سمَّاه "دمية القصر" طبع حديثا وتبعه الأدباء في الزيادة ، فألف أبو المعالي بعد ذلك تكملة سمَّاه "زينة الدهر" وبعده عماد الدين الأصبهاني ألف "خريدة القصر" .

ويلحق بكتب الأدب كتب القصص ؛ ومن أشهرها "كتاب ألف ليلة وليلة" وهو قصة نقل أساسها في القرن الثالث الهجري ، فقد وصفها المسعودي المتوفى



سنة ٣٤٦ ولكن زادت قصصها وغيّر فيها على توالى العصور كما يدل على ذلك أخبار فيها حدثت في أيام المماليك .

علم اللغة — بدأ علماء اللغة في العصر العباسى الأول يجمعون اللغة مما يسمعون من العرب شفاهاً ، فكانوا يخرجون إلى البادية ليسمعوا من فصحاء الأعراب ، وكان الأعراب أنفسهم يقدون إلى العراق فيأخذ عنهم العلماء ، ولم يكن جمعهم خاضعاً لأى ضرب من ضروب الترتيب ، إذ كان همهم الأول تدوين أكثر ما يستطيع من الألفاظ العربية ، ثم أخذوا يجمعون الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في أوراق سموها كتاباً . كما فعل الأصمعى في كتاب الخيل والإبل والكرم الخ . وفي ذلك العصر أيضاً خطر للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٨٠ أن يجمع الكلمات العربية التى وصلته ويكون منها معجماً ، فرسم لذلك كتاب العين ورتبه على حسب مخارج الحروف ، بدأه بحروف الحلق وختمه بحروف الشفة ، ولكن كان استخراج الكلمة منه شاقاً إذ يذكر الكلمات ومقلوبها وبين المهمل منها والمستعمل ، وجاء بعده ابن دريد المتوفى سنة ١٨٨ فألف كتاب الجمهرة على هذا النمط .

حتى أتى العصر العباسى الثانى فألفت فيه معاجم كثيرة كالتهذيب للأزهري سنة ٣٧٠ والمجمل لابن فارس سنة ٣٩٠ ثم جاء الجوهري المتوفى سنة ٣٩٨ وهو تركى الأصل من فاراب فألف كتابه الصحاح وقد وضعه على منهج جديد فحذف المهمل ورتبه على حسب حروف الهجاء المعروفة وراعى آخر الكلمات بعد تجريدتها من زوائدها ، وجعل آخر الكلمة باباً وأولها فصلاً ، فكلمة غنبل قبل كلمة بيت لأن الأولى من باب الباء والثانية من باب التاء ، وكلمة سغب قبل كلمة قلب لأن الأولى — وإن اتفقت مع الثانية فى الباب — من فصل السين والثانية من فصل القاف ، والسين مقدمة على القاف وهكذا ، واقتصر فيه على الكلمات التى صحت عنده ولذلك سمي كتابه الصحاح . وقد جرى على هذا النمط كثير من المعاجم التى ألفت بعده كالقاموس المحيط للفيروز ابادى ، ولسان العرب لابن منظور .



ومن أشهر كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر المخصص "لابن سيده الأندلسي" المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وقد نحا فيه نحواً آخر إذ جمع كل الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد ، فمثلاً كل الكلمات التي تتعلق بالإبل جمعها ورتبها فصلاً ؛ ففصل في أسنان الإبل ، وفصل في أمراضها وهكذا ، وهو كثير الفائدة وخاصة للذين يعرفون معنى من المعاني أو مسمى من المسميات ولا يعرفون له لفظاً يدل عليه .

كذلك مما ألفت في هذا العصر من كتب اللغة كتاب "الفائق في غريب الحديث" و "أساس البلاغة" وكلاهما للزخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وقد نحا فيهما منحنى خاصاً إذ جعل ترتيبه أوائل الحروف في الكلمة لا أواخرها ، فكلمة بقل قبل قبل كلمة قلب لأن الأولى مبدوءة بالباء والثانية بالقاف ، والباء قبل القاف وهكذا . وقد تبعه في ترتيبه بعض المعاجم التي وضعت بعده ، كالمغرب للطرزي ، والنهاية لابن الأثير ، والمصباح المنير . ويمتاز أساس البلاغة بميزتين : (أولاهما) أنه في كثير من المواد يفرق بين الاستعمال الحقيقي للكلمة والاستعمال المجازي ، فبعد أن يذكر المعاني الحقيقية للكلمة يقول ومن باب المجاز كذا ، (والثانية) أنه في أغلب الأحيان لا يقتصر على ذكر معاني الكلمة مجردة بل يبين استعمالها في جمل وكثيراً ما تكون هذه الجمل بليغة مثقاة ، وقد ساعده على ذلك أنه لم يذكر كل مواد اللغة بل اقتصر على المشهور منها .

التاريخ والمؤرخون — كان انقسام المملكة الإسلامية إلى دول كثيرة سبباً في أن ملوك كل دولة يُعَنِّون بدولتهم ويدعون المؤلفين إلى كتابة تاريخها كما فعل العتبي في تاريخ محمود الغزنوي أمير الدولة الغزنوية ، وكما فعل أبو إسحاق الصابئي في تاريخ الدولة البويهية ، وشهاب الدين المقدسي أبو شامة في كتابه "الروضة" في أخبار الدولتين (الدولة النورية والدولة الأيوبية) .

ومع هذا كان بجانب هؤلاء من عني بكتابة التاريخ العام ، ومن أشهرهم في ذلك العصر :



المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ واسمه علي بن الحسين وسمى المسعودي لأنه من نسل عبد الله بن مسعود ، وقد نشأ في بغداد ورحل إلى كثير من البلدان وكتب في التاريخ كتباً كثيرة ضاع أكثرها ، وزار أرمينية والهند وسرنديب ( سيلان ) وساحل الرينج ( زنبار ) ومدغشقر وركب بحر قزوين وزار الشام وقد تمثل في كثرة ما عانى من أسفار بقول الشاعر :

تَجَمَّ أَقْطَارَ الْبِلَادِ فَتَارَةً      لَدَى شَرْقِهَا الْأَقْصَى وَطَوْرًا إِلَى الْغَرْبِ  
سَرَى الشَّمْسِ لَا تَنْفَكُ تَقْدُفُهَا النَّوَى      إِلَى أَفْقٍ نَاءٍ يُقْصَرُ بِالرَّكْبِ

وجاء مصر ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥ ، ومن أشهر كتبه التي وصلت إلينا كتاب "مروج الذهب" وقد ذكر فيه تاريخ الأمم القديمة ثم تاريخ الإسلام إلى أيام الخليفة العباسي المطيع لله ، وكتاب "التنبيه والإشراف" وقد ذكر في قسمه الأول كلاماً في الأفلاك والنجوم وتأثيرها والأزمنة وفصول السنة والرياح والأرض وشكلها الخ. ثم ذكر بعضاً من تواريخ الأمم القديمة ، ثم تاريخ الإسلام إلى ما قبل وفاته بسنة .

ومن مؤرخي هذا العصر ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ وكان في خدمة بني بويه وألف كتاباً في التاريخ مشهوراً اسمه "تجارب الأمم" وهو تاريخ عام يقع في ستة مجلدات طبع بعضها .

كذلك من كتب التاريخ العام في هذا العصر كتاب الكامل لابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ أرخ فيه الخليفة من مبدئها إلى سنة ٦٢٨ يُعْنَوْنَ بِالسَّنَةِ ويذكر ما حدث فيها في البلدان المختلفة كما فعل الطبري ، وقد استخلص فيه ما كتبه المؤرخون قبله .

وقد اشتهر من مؤرخي المصريين أبو عمر الكندي سنة ٣٥٥ ومن أشهر كتبه المطبوعة أخبار ولاية مصر وقضاتها ، وابن زولاق سنة ٣٨٧ وله كتب في تاريخ مصر



والقضاى سنة ٤٥٤ وقد ألف فى خطط مصر وتاريخها وقد اعتمد عليه المقرئى فى خطه .

كما عني كثير من المؤرخين بوضع الكتب فى تراجم الرجال ومن أشهرهم : الخطيب البغدادى سنة ٦٣٣ ألف كتابا مطولا جمع فيه تراجم مشهورى بغداد وهو فى أربعة عشر مجلدا طبع حديثا فى مصر .

الجغرافيا — عني الجغرافيون فى هذا العصر بالرحلات فساحوا فى أواسط آسيا وإفريقية وعبروا البحار واهتدوا إلى كثير من الجزائر وزادوا فى معارف من قبلهم من الأمم عن البلدان والأصقاع ورسموا المصورت (الخرائط) ووضعوا عليها الأماكن وراعوا فى كثير من الأحيان الأبعاد بين الأماكن وآلفوا فى ذلك المؤلفات الكثيرة ما بين خاص ببعض الأصقاع وعام للسكرة الأرضية . وأشهر جغرافى هذا العصر :

الاصطخرى : وهو أبو إسحاق الفارسى وقد ألف كتاب الأقاليم ، وكتاب مسالك الممالك ، وقد ذكر فيهما الممالك المعروفة فى عصره وحدودها وبحارها وأنهارها وعني فيها بالملكة الإسلامية ، وامتاز أولها بما وضع فيه من الصور وكلاهما مطبوع .

وجاء بعده المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ وهو شامى الأصل وقد رحل إلى السند والهند والأندلس ووصف ما رأى ، وكتبه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " جمع فيه خلاصة رحلته عشرين سنة فى المملكة الإسلامية وقد ذكر فيه أنه أوضح كتابه بالصور الملونة .

ثم الشريف الإدريسى الصقلى وقد ألف لروجر الثانى ملك صقلية كتابه فى الجغرافيا المسمى "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" سنة ٥٤٨ وقد نشر فى أوربا بعض قطع منه .



ومن أشهر الرحالين في ذلك العصر ابن جبير ؛ وقد رحل في أواخر القرن السادس ثلاث رحلات زار في أولها مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ، ووصف فيها ما رأى من الآثار وحال أهلها الاجتماعية ، وقد طبعت رحلته هذه مرارا .

ومن خير المؤلفين في الجغرافيا ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ وهو رومي الأصل ، وقد أسر صغيرا واسترق وبيع لتاجر ببغداد فعلمه سيده وأرسله في متاجره ، ولما تحرر اشتغل بحرفة الوراقة فكان يجمع الكتب ويبيعها ، ومهد له ذلك سبيل الاطلاع على كثير من الكتب فأضاف إلى معارفه العملية بالتجارة معارفه النظرية بالقراءة وألف في الجغرافيا كتابا من أشهر الكتب وأحسنها تنسيقا هو ” معجم البلدان ” رتبته على حسب حروف المعجم فيذكر اسم البلدة ويضبطه ويصفها ويذكر ما عرف عنها وأشهر من نبغ منها .

وقد رحل إلى مصر في آخر القرن السادس عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ ووضع كتابا في وصف مصر سماه ” الإفادة والاعتبار ” بما في مصر من الآثار ، ضمنه معلومات كثيرة هامة عن مصر وحالتها الاجتماعية ووصف آثارها .

الفلسفة — بعد أن عني علماء العصر العباسي الأول بنقل الكتب الرياضية والطبيعية والفلسفية عن الأمم الأخرى وبخاصة اليونان . تقدم الباحثون خطوة أخرى في العصر العباسي الثاني إذ هضموا ما ترجم لهم ودرسوه دراسة عميقة ، واستخدموه في حياتهم العملية كالمهندسة والطب وما إليهما ، وزادوا على ما نقل إليهم بالشرح والتعليق أحيانا وابتكار بعض النظريات أحيانا أخرى . وكان من مظاهر الفلسفة في هذا العصر مزج آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما بآراء الإسلام ، والجد في التوفيق بينهما .

ومن أشهر من عني بالفلسفة في هذا العصر جمعية إخوان الصفا ، وقد تكونت بالبصرة في أواسط القرن الرابع الهجري . وتكتم أعضاؤها أسماءهم خوفا من الاتهام



بالزندقة ، وألّفوا خمسين رسالة في مختلف فروع الفلسفة ، النظرية والعملية ، مزجوا فيها الفلسفة بالدين وقد وصلت إلينا هذه الرسائل وهي خير ما يمثل الفلسفة الإسلامية في ذلك العصر .

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ وهو من أصل تركي وقد عني بفلسفة أرسطو عناية تامة ، وألف في فروع الفلسفة كتباً عدة وقد رحل في بعض أيامه إلى حلب واتصل بسيف الدولة الحمداني فعرف قدره وأجرى عليه الرزق . ويسمى الفارابي "المعلم الثاني" كما يسمى أرسطو "المعلم الأول" وقد مهد لمن أتى بعده من فلاسفة المسلمين طريق الفلسفة بتأليفه الكثيرة الجيدة الواضحة .

وأتى بعده ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وقد ولد ببخارى وعنى من صغره بالعلوم الدينية والفلسفية وأخذ في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره وتنقل في البلاد وانتفع بمكاتها وعلمائها وقد فاق الفارابي في بحثه المنظم وسعة اطلاعه وابتكاره ؛ ومن أشهر كتبه التي خلفها لنا "الشفاء" في الطبيعة والإلهيات وغيرها ، وكتاب "القانون" وهو دائرة معارف طيبة عظيمة القيمة وعليه كانت تستند الدراسات الطبية في الشرق وأوربا في القرون الوسطى .

ومن أشهر الفلاسفة في هذا العصر الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وقد عني بالفلسفة وعلم الكلام ؛ وقد ألف تفسيره الكبير ؛ وشرح فيه كثيراً من النظريات الفلسفية ، وله مؤلفات كثيرة في العقائد وأصول الدين ، وكان متقدماً في كثير من فروع العلم ؛ فهو فيلسوف ومفسر وفقهاء وطبيب وفلكي ومؤرخ وله في كل ذلك تأليف .

\*

\* \*

وعلى الجملة كان هذا العصر أزهى العصور الإسلامية من الناحية العلمية لم يدرك شأوه عصر آخر من عصور المسلمين ؛ لما كان فيه من نوابغ العلماء وما أنتجوه من مؤلفات وما ابتكروه من نظريات .



## وصف بلاد الأندلس

تقع شبه جزيرة إيبيريا في الجنوب الغربي من قارة أوروبا ، والجزء الجنوبي منها هو بلاد الأندلس التي يرونها نهر الوادي الكبير ، وتمتد مقاطعة الأندلس إلى الشمال من هذا الوادي وإلى الجنوب والشرق منه حتى بحر الروم تجاه بلاد المغرب الأقصى ، حيث يفصلها عن قارة إفريقية بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق . والعرب يسمون هذه البلاد جزيرة الأندلس ، لما شاهدوه من إحاطة الماء بأكثر جهاتها عند ما عبروا إليها من برّ العدوّة .

وتشمل بلاد الأندلس وغيرها مما وقع تحت حكم العرب وأطلقوا عليه اسم الأندلس قسما من الهضبة العظيمة التي يتكون منها الجزء الأكبر من بلاد أسبانيا . وأجزاء هذه الهضبة ينفصل بعضها عن بعض بحيث يعتبر كل واد مستقلا عن الآخر ، وتجرى فيها أنهار كثيرة ، يصب بعضها غربا في المحيط الاطلنطي ، كنهر الوادي الكبير <sup>(١)</sup> وكنهر تاجه <sup>(٢)</sup> ، وبعضها يصبّ شرقا في بحر الروم مثل نهر ابره <sup>(٣)</sup> .

وجوه هذه البلاد معتدل في جملته ، وفي أكثر جهاتها ، كما أن تربتها خصبة ليس بها جهات قفر ، ولا صحارى ، بل أكثرها حقول ورياض باسمّة ، وأنهار جارية ، وجبال شامخة ، ومراع واسعة . فهي هضبة خضراء تتخللها الأنهار ،

(١) تمتد به الجبال شمالا وجنوبا ووديانه كثيرة البساتين الأنيقة والرياض النظرة وعليه تقع مدينة قرطبة التي كانت من أشهر مدن الأندلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن وبها أزهت علوم العرب وآدابهم واشتهرت بمبانيها العظيمة وبمساجدها التي من أشهرها مسجد قرطبة الكبير وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلاسفة .

(٢) الواقعة عليه مدينة طليطلة التي كانت من أشهر قواعد بلاد الأندلس .

(٣) الواقعة عليه مدينة سرقسطة وكانت من البلاد الصناعية زمن العرب وكان بها المتنزعات الجميلة والقصور العظيمة وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهورهم .



وتجوى فيها المياه . فكانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها ، مما يأخذ بالألباب ، ويسبح في روعته الخيال ، ويبعث على تذوق الجمال ومجارات الطبيعة في بهائها ونضرتها .

وقد امتازت هذه البلاد بين الأفطار التي فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة ، وثمار يانعة ، وأنهار جارية ، وجبال خضر ، وطيور مغردة ، وأبنية شاهقة ، وقصور جميلة ، ووجوه نضرة ، ونسيم عليل . فلك كل ذلك من نفس العربى ورقق من شعوره ، وهذب من خياله ، وصقل من ذوقه ، وزاد في جمال شعره وفنون الكتابة لديه . وميزه بذلك من أهل المشرق ، وجعل للأندلسيين صبغة خاصة في الأدب العربى ، وفتح أمامهم بابا واسعا من الخيال .

وقد سكن هذه البلاد أُمم مختلفة قبل دخول العرب : فترها أول بفر التاريخ قبائل من جبال البرانس ، ونزلها من الشمال الشرقى من بلاد الغال قبائل السلت والبسك والجلالة ، سكن بعضهم الشواطئ واستقر بعضهم وسط البلاد ونزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية . ثم نزلها القينيقيون وأهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون . ثم استولى الرومان عليها أوائل القرن الثالث الميلادى ( ٢٠١ م ) وسموها هسبانيا أو إسبانيا . ثم أغار على الرومان قبائل القندال ، وأخرجوهم من هناك ، وأسَّسوا على نهر الوادى الكبير مملكة سموها باسمهم "القندال" ومنها جاءت كلمة "قندلس" التى نطق بها العرب "أندلس" ، وأطلقوها على هذه البلاد . وبعد هؤلاء ملكها القوط ، ثم دخلها العرب وملكوها فى أواخر القرن الأول الهجرى . فسكان هذه البلاد خليط من أُمم مختلفة وقبائل متعددة .



## الفتح الإسلامى وأثره فى تكوين شعب جديد

كان العرب يتطلعون إلى امتلاك بلاد الأندلس منذ خلافة معاوية ابن أبى سفيان إلى أن ولى عقبة بن نافع بلاد البربر (شمالى إفريقيا) ، وأسس مدينة القيروان ، وأخذ يتوغل فى الفتح حتى وصل إلى بحر الظلمات ، وبقي العرب يقاتلون البربر بعد موت عقبة إلى ولاية موسى بن نصير على إفريقية من قبل الوليد ابن عبد الملك الأموى . ففى سنة ٩١ هـ أرسل موسى مولاة طارق بن زياد لفتح بلاد الأندلس ، وفى سنة ٩٢ هـ سار طارق بجيش من البربر والعرب ، واحترق بحر الزقاق ونزل على صحرة هناك سميت بعد ذلك بجبل طارق . وما زال بالقوط حتى هزمهم وقتل ما حكمهم لزريق (رؤفريك) . ومنذ ذلك الحين دانت البلاد للعرب ، واستولوا عليها شيئاً فشيئاً . وما زالوا يتقدمون فى فتوحهم حتى اخترقوا جبال البرانس من الشرق إلى بلاد الغال (فرنسا الجنوبية) ، ووصلوا إلى مدينة بردو ونهر الرون .

ولما استقرت قدم المسلمين هناك ، نزح إليها العرب من كل قبيلة ، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التى فتحها العرب ، واتصل كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين : من قوط وغيرهم وتصادقوا وتحابوا وتزاوجوا ، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود ، واندج بعضهم فى بعض بالمصاهرة وغيرها ، وكونوا شعباً واحداً ، وتشاركوا فى إدارة البلاد ، فقد وكل العرب إلى هؤلاء السكان كثيراً من الأعمال ، حتى شعروا بثقة حكامهم بهم . وأحبوهم وتحلقوا بأخلاقهم ، واخذوا عنهم كثيراً من عاداتهم ، وانصبغوا بالصبغة العربية ، كما تحلقوا قبل ذلك بالأخلاق الرومانية ، وانصبغوا بالصبغة اللاتينية . كذلك أخذ العرب عنهم بعض عاداتهم وجاروهم فى كثير من أحوالهم الاجتماعية ، ولسوا خشونة البدو ، وفطنوا بهذه البلاد



وما فيها من خيرات وجمال ، فلانت طباعهم ، ورقت عواطفهم ، فنشأ جيل جديد يجرى في عروقه الدم العربى ، ويتصف بصفات العرب : من غيرة وكرامة ، وصفاء فى القريحة ، واكتسب صفات الجنس الآرى : من دقة الإدراك ، وسعة الخيال ، وقوة الفكر والتمحيص ، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقيا صرفا ولا غربيا بحتا ، وامتاز فى كثير من صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين .

وقد تداول حكم هذه البلاد بعد الفتح نحو عشرين أميرا من العرب ، امتد حكمهم زهاء أربعين عاما ( ٩٧ — ١٣٨ هـ ) توغلوا فى أثنائها فى البلاد ومدّوا سلطانهم بها ، وهم يحكمون باسم الخلفاء الأمويين . ولما تمكّن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى من دخول الأندلس والاستيلاء عليها سنة ١٣٨ هـ ، واستتب له الأمر سنة ١٤١ هـ استولى على قرطبة وأسس بها دولة بنى أمية التى بقى الأمر بيدها نحو ٢٨٤ سنة ، وكانت أعظم دول العرب هناك ، وعصرها أزهى عصور الحضارة الإسلامية بالأندلس . وقد حكم طوال هذه المدة من بنى أمية تسعة عشر خليفة ، وبلغت الدولة ذروة مجدها فى عصر عبد الرحمن الثالث ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ ) .

وبعد أن زالت دولة بنى أمية ، انقسمت البلاد إلى إمارات يحكمها حكام كانوا يُسمّون بملوك الطوائف ، كان كلٌّ منهم مستقلا فى جهته : كابن عبّاد فى إشبيلية وابن الأَفطس فى بطليوس ، وذى النون فى طليطلة وابن هود بسرقسطة . وفى هذه المدة كانت البلاد فى اضطراب شديد . فظهرت دولة المرابطين من برابرة الشمال فى إفريقية ، وقبضوا على أزمّة الأمور هناك سنة ٤٨٤ هـ ، وكانوا غلاة متعصبين جامدين ، غير حازمين ، فعمّت البلاد الفوضى ، فملكها الموحدون ،



الذين جاءوا من إفريقية أيضا أوائل القرن السادس (سنة ٥٥٥ هـ) ، وأرادوا أن يعيدوا مجد عرب بنى أمية ، ولكنهم ما لبثوا أن خرج عليهم بعض الأمراء حتى قذفوا بهم إلى بلادهم ، وكان في مقدمة الثائرين ابن هود وابن الأحمر ، فملك ابن هود شرق الأندلس ، وكانت قاعدة ابن الأحمر غرناطة . واضطربت الحال في هذه المدة أيضا بين بنى هود وبنى الأحمر ، حتى تغلب بنو الأحمر وامتد حكمهم ٢٥٠ سنة ، وملكوا غرناطة ، وكان عصرهم عصرا زاهرا في الفنون والأدب ، وهم الذين بنوا قصر الحمراء الشهير الذي لا تزال آثاره ماثلة إلى اليوم . وفي أواخر القرن السابع الهجرى تغلب الإسيانيون على العرب وأخرجوهم من البلاد فانتهى حكم العرب هناك في نحو سنة ٨٩٧ هـ .



## ميل الأندلسيين إلى محاكاة المشاركة في العلوم والآداب

وتغلب الحياة العقلية العربية على الحياة العقلية للسكان الأصليين

عند ما استقر الأمر لبني أمية في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجرى سنة ١٤١ هـ كان العباسيون قد اتصلوا بالسريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علوم الإغريق في بلاد الجزيرة فيما بين النهرين ، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادى ، فاستعان بهم الخلفاء في نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية ، كما استعانوا بالفرس أيضا . وكانت مدينتا البصرة والكوفة مقراً لعلماء اللغة والأدب ، ومكة والمدينة مهبط علماء الدين ومأوى علوم الشريعة الإسلامية ، وصارت بغداد مركزاً للعلوم الكونية . فكان الشرق منذ أوائل القرن الثاني الهجرى مورد العلوم ومنبع الثقافة . فلم ير الأمويون بداً من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عند ما أرادوا نشر العلم في الأندلس ، فافتقروا آثار المشرقين ، وأخذوا عن أمتهم كل شئ ، فساد مذهب الإمام مالك هناك ، وكان من زعمائه يحيى بن يحيى بن كثير الليثى الذى رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك . توفى بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

وكان أبو على القالى البغدادى إمام الأدب هناك ، وفد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ وأخذ عنه جلة العلماء ، ومنهم أبو بكر محمد الزبيدى صاحب "مختصر العين" . وقد وكل عبد الرحمن الناصر إلى القالى تأديب ابنه وتعليمه . ورحل كثير من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق وأعجبوا بما كان هناك من علم وأدب . وقد ولع الخلفاء والأمراء بحجارة أهل المشرق في علومهم ومدينتهم : فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسيين ، وأفسح صدره



للعلماء والأدباء ، فكانوا يفدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم ، وكان الحكم مشغوفاً بالعلوم ، وهو الذى بعث إلى أبى الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه "الأغانى" قبل أن يخرج به ببغداد . وقد ذاعت ثقافة العرب بلاد الأندلس وانتشرت لغتهم ، وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين ، والكتاب البلغاء الذين يحسبون فى مقدمة شعراء العرب وكتابهم . وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصة من السكان أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هى لغة البلاد وثقافة الخاصة من السكان ، حتى تسربت إلى السكائن . وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوفا من الحياة الفلسفية إذ لم يعن العرب هناك بالاشتغال بالفلسفة إلا فى نحو القرن الخامس الهجرى .



## الشعر

مضى عصر الأمراء وشطر من عصر بنى أمية دون أن يكون للادب أثر معروف ، لأن العصر الأول كان عصر فتح واضطراب ، لم تكن فيه حكومة منظمة تساعد على ذلك . وكانت حكومة بنى أمية تعمل بادی الأمر على تأييد الملك . فلما أخذ خلفاؤهم يعملون على نشر العلوم والآداب ، وكان الشعر أظهر مميزات العرب العقلية ، صاروا يقرّبون إليهم الشعراء ويجزلون لهم العطايا ، محاكاة لخلفاء بنى العباس في بغداد . وكان كثير منهم يميل إلى الشعر وقرضه ، فنفقت سوق الأدب وارتفعت منزلة الشعر والشعراء . وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الشعراء ، منهم محمد بن هاني ، وابن درّاج القسطلی ، وأحمد بن شهيد ، وغيرهم . وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب . ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيّون ، وابن خفاجة ، وابن سهل ، وعبد الجليل بن وهبون ، والوزير ابن عمار ، ومَلِكِ قرطبة وإشبيلية المعتمد بن عباد . وظهر في دولة بنى الأحمر لسانُ الدين بن الخطيب وغيره من كبار الشعراء . وبقى الشعر زاهيا إلى خروج العرب من هذه البلاد . وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهورا ، لأنه مظهر الثقافة العربية ، ومرآة حياة العرب العقلية والاجتماعية ، يتغنى به العربي حيثما نزل وأينما ارتحل ، فيذكر فيه ما يمر بخاطرهِ من حب وبغض ، ويرسم فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها ، وما يلهم من خيال . فكان لجمال بلاد الأندلس أثر في نفسه . ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه ، وعزته القومية وذكريات بلاده وأهله ما فتئت تلازمه : فكان عقله يمثل حياتين ، حياة البدو وحياة الحضر ، وكان شعره أثرا لذلك . فظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة وجزالة البداوة ورقة الخيال ، والافتنان في الجسد والهزل والمجون ، ووصف النفوس والأهواء . وقد أمتاز الشعراء بأنهم برعوا في الوصف



بجميع أنواعه براعة لا تُجَارَى ، لتأثير الحضارة وجمال الطبيعة في نفوسهم وانغماسهم في الترف . فوصفوا كل شيء وقع عليه نظرهم وجال بخاطرهم ، وكان ذلك من مميزات الشعر في الأندلس ومن أظهر خصائصه .

أما أغراض الشعر وأنواعه ، فهي الأنواع والأغراض التي عُرِفَتْ في بلاد المشرق : من المدح والهجاء والحماسة والنسيب والحكم والمواظ والوصف والرياء الخ . وكان من بين الشعراء كثير من العلماء والحكماء والكتاب ، بل كان كلُّ شاعر كاتباً وكلُّ كاتب شاعراً . فنظموا قواعد العلوم والفنون ، وحوادث التاريخ ، وتكلموا في شعرهم على الزهد والتقوى ومدحوا الرسول ، ونظم الفلاسفة بعض آرائهم . ولكنَّ شعراء الأندلس على الرغم مما كان لهم من سعة الخيال وقوة الابتكار في المعاني الجزئية ، والتشبهات البديعة ، والصناعة اللطيفة ، من تقيق في العبارة كالمجاز والاستعارة ، لم يزدوا شيئاً جديداً في أنواع الشعر العربي وأغراضه ، ولم يخرجوا عما كان معروفاً عند شعراء المشاركة . ذلك لأن ثقافتهم الأدبية كانت عربية خالصة . فلم يَطَّلِعُوا على شيء من آداب الأمم الأخرى ، ولم يعرفوا من آداب اليونان والرومان شيئاً يوجههم إلى غير ما عرفوه من أساليب الشعر العربي القديم ، لأنهم لم يُعْنَوْا بذلك . فلم يكن لديهم شيء من الشعر القصصي أو التمثيلي ، بل بالغوا في محاكاة أهل المشرق وانصرفوا عن الابتكار في الأنواع إلى الافتنان في الصناعة . لأن الشعر هناك كان في معظمه من دواعي التسلية والمجون فلم يأبه للتفكير والنظر في الحياة . لذلك لا تكاد تجد منهم شاعراً عاج الفلاسفة في شعره ، أو حاول الكلام على الأخلاق والصفات النفسية ، أو النظر في الكون نظرة مفكر ناقد ، كما نرى ذلك لدى بعض شعراء أهل المشرق كالمثنبي وأبي العلاء وغيرهما . بل كان ولوعهم بالصناعة اللفظية والافتنان في ضروب التعبير يفوق كل شيء . أما من حيث الأخيالة ، فقد آتوا بالعَجَب العُجَاب في ذلك من تشبيهات بديعة ، وأوصاف



جميلة ، وضروب من الخيال امتلاً بها شعرهم ، ولا سيما أنواع الوصف والمجون  
ووصف المباني والحدائق ومجالس الشرب كما قال بعضهم يصف العاصرية التي بناها  
المنصور بن أبي عامر :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالشعبان  
والطير تخطب سُكْرًا على ذُرَا الأغصان  
والقُضْبُ تَلْتَفُّ سُكْرًا بمائس القُضبان (١)  
والروضُ يَفْتَرُّ زَهْوًا (٢) عن مَبْسِمِ الأخوان  
والترجسُ الغضُّ يَرْنُو لَوْجَنَةِ النعمان (٣)

ومن تشبيهاتهم الغريبة قول بعضهم في ساق زنجي :

وَزَنْجِيٌّ أَتَى بِقَضِيبِ نُورٍ وقد زُفْتُ لَنَا بِنْتُ الْكُروم (٤)  
فَقَالَ فَنِي مِنَ الْفَتَيَانِ صَفْهُ فَقُلْتُ : اللَّيْلُ أَقْبَلَ بِالنَّجُومِ

وقال ابن برد في طلوع الصباح :

وَكَانَ اللَّيْلُ حِينَ آوَى ذَاهِبًا وَالصَّبْحُ قَدْ لَاحَا  
كَلَهُ (٥) سَوْدَاءُ أَحْرَقَهَا عَامِلٌ أَسْرَجَ مَصْبَاحَا

ومما قالوا في ملاقاتة الأحبة :

بِفَاءَتِ كَيْمَشِي سَنَى (٦) الصُّبْحُ فِي الدُّجَى وَطَوَّرًا كَمَا مَرَّ النَّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ  
فَعَطَّرَتِ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشَعَّرَتْ بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرَفُ (٧) يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ

(١) القُضبان المائلة . (٢) يسم عجباً . (٣) النعمان ، أو شقائق النعمان ، نبات أحمر الزهر .

(٤) بنت الكروم الخمر . (٥) الكلة السرة الرقيق يخاط كالبيت يتوق به البهوض . (٦) ضوء الصبح .

(٧) العرف الرائحة . وكثر استعماله في الرائحة الطيبة .



أما أساليب الشعر في الأندلس من حيث نظم القصيد ، فكانت جارية على ما هو معروف في بلاد المشرق من بدء المدح بالغزل أو الوصف ، وترادف المعاني وتتابع الأخيصة واستقلال كل بيت بمعناه . وأما من جهة الألفاظ والعبارات فكانت تدل على ذوق سليم في الاختيار ، وسلاسة في لين الكلام ، وجزالة اللفظ ، إذ كانوا كثيرا ما يختارون أحسن الألفاظ وقعا في السمع ، وأدعاهها إلى تصوير الجمال ، وإيقاظ النفوس ، وإثارة العواطف ، مما يناسب الموضوعات التي كانوا يذكرونها في شعرهم . وقد أمعنوا في الصناعة اللفظية إمعانا ، فلم يكدهم كلامهم يخلو من تشبيه أو استعارة ، أو كناية ، وكثيرا ما يأتون بالغريب أو العجيب في ذلك .

**الموشح والزجل** — كانت الحياة الاجتماعية هناك في كثير من نواحيها حياة ترف ومجون ، فتغلبت على نفوس الشعراء ، وقادتهم إلى مجارة الناس في أذواقهم وكانت الأغاني قد انتشرت في المجالس والمجامع ، واحتاج الناس إلى التغني بالأشعار الرقيقة ، والأوزان القصيرة ، والقوافي المختلفة ، حتى يكون ذلك أوقع في النفس وألذ للسمع ، وأدعى إلى التطرف ، فابتدعوا في أوزان الشعر وقوافيه ما لم يكن عند أهل المشرق ، وخرجوا عن الأوزان المعروفة والقوافي المسأوفة ، وابتكروا أنواع الموشحات التي لا يلتزم فيها قافية واحدة ولا وزن واحد ، وانتشر هذا النوع في بلاد الأندلس ، وخرج منها إلى بلاد المشرق ، ونظم على منواله كبار الشعراء وولع الناس بذلك حتى الحكماء والفقهاء في المواعظ والحكم ، ومنهم التقي المعروف محيي الدين بن عربي . وأول من اخترع اسم الموشحات مقدم بن معافر الفريري ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ونوع أوزانها وأدوارها وأخذ عنه أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعاني التي تدور على السنة العامة ، فينظمها ليتغنى الناس بها ، حتى قربت لهجاتها من اللهجات العامية ، وأصبحت خليطا من



اللغة الفصحى وكلام العامة ، وصار الناس ينفخونها غير متبعين قواعد اللغة وأصولها . فتعددت لهجاتها ، وتولّد من ذلك فن الزجل : وهو نوع من الشعر العامي المتوغل كثيرا في لهجات العامة وأغانيهم . وقد ذاع أمر الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ بها ، واشتمل على أنواع من الشعر ، أكثرها الغزل والوصف وكثيرا ما يكون الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح ، لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة ، وعدم احتياجه إلى التكلف في الصناعة ، واختيار الألفاظ ، وأول من ابتكر الزجل أبو بكر محمد بن قزمان القرطبي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ . ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامي سميت بأسماء مختلفة . هذا ومن أشهر الموشحات موشحة ابن سهل الاشبيل الاسرائيلي وأولها :

|                                                 |                                             |
|-------------------------------------------------|---------------------------------------------|
| هل درى ظي الحمى أن قد حمى                       | قَلْبَ صَبَّ حَلَّةَ عَنْ مَكْنَسٍ (١)      |
| فهو في حرٍّ وخَفَقٍ مَثَلَا                     | لَعِبْتُ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ         |
| يابدورا أَشْرَقَتْ يَوْمَ النَّوَى              | غُرْرًا تَسْلُكُ بِي نَهْجَ الْغُرْرِ (٢)   |
| ما لِنَفْسِي فِي الْهَوَى ذَنْبٌ سِوَى          | مَنْكُمُ الْحُسْنُ وَمِنْ عَيْنِي النَّظَرُ |
| أَجْتَنِي (٣) اللَّذَاتِ مَكْلُومَ الْجَوَى (٤) | والتَذَاذِي مِنْ حَبِيبِي بِالْفِكَرِ       |
| كَلِمَا أَشْكُوهُ وَجِدِي بَسْمَا               | كَالرَّبَا بِالْعَارِضِ الْمُنْبَجِسِ (٥)   |
| إِذَا يُقِيمُ الْقَطْرُ فِيهَا مَاتَمَا         | وَهِيَ مِنْ بَهْجَتِهَا فِي عَرَسِ          |
| إلى آخر ما قال .                                |                                             |

(١) المكنس : بيت الوحش من الظباء والبقر تسكن فيه من الحر .

(٢) الغرر : الخطر والعرض للهلاك .

(٣) اجتني الثمر وجناه بمعنى واحد .

(٤) الجوى : الحرقلة وشدة الوجد .

(٥) الربا : جمع روبة المرتفع من الأرض والعارض المنبجس السحاب المتفجر المطر .



وقد جاره في ذلك لسان الدين بن الخطيب في موشحته الشهيرة التي . طلعها :  
جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى <sup>(١)</sup> يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلِيسِ  
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلَاسَةَ الْمُخْتَلِسِ

وللاعمى الطليطلي موشحة جميلة يقول فيها :  
ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانٍ <sup>(٢)</sup> سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ  
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهِ صَدْرِي

(١) سال .

(٢) اللؤلؤ . والواحدة جمانة .



## ابن خفاجة

مولده ونشأته — وُلد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ ببلدة سُقُر ، وتُوفى بها سنة ٥٣٣ هـ ، فعاش في أواخر عصر بني أمية زمن ملوك الطوائف وإبان دولة المرابطين . وهذه العصور أزهى عصور الأندلس : فيها قامت دولة الأدب والشعر ، وغصّت مجالسُ الأمراء بالشعراء . فكانت بيوتهم أسواقا للعلماء ، وأندية للأدباء ، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء . وتبع هذا الترف الميل إلى اللهو والمجون وأنواع السرور ، وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء . فكان الشعر ضرباً من التفكه ، وملهاة للأمراء ، وزينة العقول ، وحلية العلماء . وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان في النفس حبّ الجمال وسعة الخيال ، وقد كان لابن خفاجة حظٌّ وافر في مناجاة الطبيعة وجمالها . لأن بلدته التي عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء .

شعره وأثر الطبيعة في نفسه وصفاته العامة — انقطع ابن خفاجة للنظر في جمال الطبيعة . فكان كثير التأمل في المشاهدات ، وكانت نظراته تقود عقله ، وترسم له طرق التفكير وأنواع الخيال . فكانت كلُّ معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل في جمال الألوان وتناسق الأشياء فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات . وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير . وكان لا يحب إلا الجمال ، ولم يميز من الأشياء التي يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية . فكان دائماً فرحاً مسروراً ، لا تكاد تجده يصف منظرًا محزوناً ، أو شيئاً قبيحاً ، أو يصف نفساً منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها . فشعره صورة لحياته النفسية الملوّنة بالسرور والإعجاب بالجمال . وكانت نفسه مطمئنة هادئة ، ميالة إلى اللهو والمجون ، فكان شعره أيضاً به هذا الاطمئنان النفسي والهدوء الفكري ، والمجانة الخلقية ، فلا ترى في كلامه



شيئا يدل على الشك أو الحيرة ، أو الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة ، أو ما يدل على تفكيره في الحياة وأهوالها ، والناس وأخلاقهم ، والوجود وما فيه من خير وشر ، ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة ، أو رأى يدل على كد فهمه . ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدل على نفسه وشعوره الخفى ، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة . وليس ذلك لأنه لم يشعر بشيء ، أو لأن نفسه خالية مما يعلق بالنفوس عادة ، كالحب والبغض ، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها . ولكنه لم يكن يعنى بذلك ، لأن هذا يدعو إلى الهموم والأكدار ، ولم يكن هو يميل إلى ذلك ، لأنه كان يريد أن يعيش في نوع من الأحلام اللذيذة . لذلك كان أثر هذه الحياة عظيما في نفسه ، فولدت فيها كثيرا من المعاني الشعرية ، واندفع إلى تصويرها وإلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك ، شأن جميع الشعراء المبدعين ، الذين تتسرب نفوسهم في خفايا الجمال وأسراره . فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله واقتنائه ، يتبع روائحه . فإذا امتلأت به نفسه ، أخذ في وصفها ورسمها . وكان يتبع مظاهر جمال الطبيعة ، ويخرج إلى البساتين ليسمع خرير الماء ، ولينعم بمشاهدة جريانه ، ويصف ذلك في شعره ، ويحارى الشعراء أحيانا في أوصافهم .

أنواع شعره ومعانيه وصناعاته — يشتمل شعرا بن خفاجة على المدح ، والعتاب والثناء والشكوى والوصف والمداعبات . ولكن أجود شعره في الوصف . فإن الخيال هو كل شيء في شعره ولكنه خيال يدعو إلى حب الجمال ورقة الشعور ، ويهذب الذوق ويملاء القلب بهجة وسرورا ، لأن ابن خفاجة مصور ماهر ، ووصاف مبدع للشاهدات وأكثر معانيه مأخوذة من مشاهداته . وقد امتلأت نفسه بذلك حتى في المدح والثناء . فتجده إذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب ، وأن الصباح ضحك فكشف عن ثناياه البيض ، وأن ممدوحه وضاح المحيا ، وأنتك تسم (١) بصفحتيه بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد

(١) شام البرق نظر إليه .



ويقول :

وقد ضحك الصباح يُجتلاه وراء الليل عن تغر شنيب (١)  
اشيم به سنا برق يان يحفزني إلى المرعى الخصب

فإذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملى عنها ذكرياته ، ويتغنى بها وبأوصافها كما قال يذكر أيام شبابه . وقد نيف على الستين :

فأذكرنا ليلة باللوى وعهداً لعصر الصبا أطرباً  
وماء بوادي الغضى سأسلاً ومربعاً بالجمي معشياً  
وما كان أعطر تلك الصبا وأندي معاطف تلك الربا  
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللمي (٢) مشرباً

فإذا رثي لا يغيب عنه الوصف حتى في موقف البكاء ، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل وبما في نفسه من المعاني التي ملكت منه كل شيء ، فيقول :

في كل نادٍ منك روض ثناء وبكل خدّ فيك جدول ماء  
ولكل شئخ هزة الغصن الندي غب البكاء (٣) ورنة المكاء (٤)

وهو في ذلك يُشبه الدموع السائلة على الحدود يجداول الماء . ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم هزة الغصن الذي غمرته السماء بالماء . ويشبه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قبرة تصفر وتنوح .

(١) ذى أسنان بيض .

(٢) اللمي : سمره في باطن الشفة .

(٣) غب البكاء بعد البكاء .

(٤) طائر أبيض اللون له صفير حسن .



وإذا أقسم أقسم بالتفات الروض عن زُرْقَةِ النهر ، وإشراق حِيدِ الغُصْنِ في حِلْيَةِ  
الزهر ، ويقول وهو سائر في جَوْفِ الليل :

وَحُصْتُ ظِلَامَ اللَّيْلِ لَيْسُودَ حُجْمِهِ وَدُسْتُ عَرِينَ<sup>(١)</sup> اللَّيْلِ يَنْظُرُ عَنْ جَمْرِ  
أَوْ يَقُولُ : ” وَالصَّبْحُ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ نَهَارٍ “ .

ويذكر المعاني الغريبة المستملحة ، فيشبه أوراق الشجر بالعدارى والنضارة  
بالضحك ، واهتزاز الغُصُونِ في مَهَبِّ الرِّيحِ بِمُغَازَلَةِ الذَّسِيمِ لها ، وأن الرِّيحَ يَلْتَمُّ خَدَّهَا  
النجل . وهو القائل هذه الأبيات الشهيرة يصف نهرا :

|                                               |                                                      |
|-----------------------------------------------|------------------------------------------------------|
| لَهُ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ               | أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحُسْنَاءِ             |
| مُتَعَطِّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ       | وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرُ سَمَاءِ <sup>(٢)</sup> |
| قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قَرَصًا مَفْرَغًا     | مِنْ فِضَّةٍ فِي بَرْدَةِ خَضْرَاءِ                  |
| وَعَدَّتْ تَحْفُّ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا  | هَدَبٌ يَحْفُّ بِمُقْلَةٍ زُرْقَاءِ                  |
| وَالرِّيحُ تَعْبِثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى | ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَحْيَيْهِ الْمَاءِ          |

ولقد يصف السرى في ظُلْمَةِ الليل الحالك المنبعثة في كل ركن من أركان  
الفضاء ، وما يوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة ، وما يلاقيه السائر من حيوان  
مفترس ، فيخيل إلى القارئ أنه في جوف الفلاة يلفقه الليل بمخاطره . أو كأنه أمام  
لوح مصور يرى فيه تلك المعاني مصورة بالألوان البديعة ، إذ يقول :

ومفازة<sup>(٣)</sup> لَا تَجَمُّ فِي ظُلُمَائِهَا يَسْرِى وَلَا فَلَكَ بِهَا دَوَّارٌ  
تَتَلَهَّبُ الشَّعْرَى<sup>(٤)</sup> بِهَا وَكَأَنَّهَا فِي كَفِّ زَنْجِيٍّ الدُّبَجَى دِينَارٌ

(١) العرين : بيت الأسد .

(٢) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء .

(٣) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .

(٤) كوكب يظهر في شدة الحر .



قد لَفَنِي فِيهَا الظَّلَامُ وَطَافَ بِي      ذَنْبٌ يُلِمْ مَعَ الدَّجَى زَوَارِ  
وَاللَّيْلُ يَقْصُرُ خَطْوُهُ وَلَرْبَمَا      طَالَتْ لَيْلَى الرُّكْبِ وَهِيَ قِصَارِ  
قَدْ شَابَ مِنْ طَرَفِ الْمَجَرَّةِ مَفْرُقٌ      فِيهِ وَمِنْ خَطِّ الْهَلَالِ عِذَارُ

أَوْ يَقُولُ :

وَلَيْلٍ كَمَا مَدَّ الْغُرَابُ جَنَاحَهُ      وَسَالَ عَلَى وَجْهِ السَّجَلِ مِدَادُ  
كَأَنِّي وَأَحْشَاءُ الْفَلَاةِ تُجَنِّي      سَرِيرَةُ حُبٍّ وَالظَّلَامُ فُؤَادُ

أُسْلُوبُهُ — يتبين مما سبقناه أسلوب ابن خفاجة من حيث قوة الخيال وسعته ، وحضور ذهنه في ذلك ، وسلاسة العبارة ، وسهولتها مع ميله أحيانا إلى الألفاظ الغريبة ، وإلى المعاني الخفية ، وإلى شيء من التكلف والتعمل في ذكر أنواع البديع . بل قد يتقلب عليه ذلك ، فتمتلي بذلك عباراته ، وأكثر وصفه في الليل وسواده ، والصبح وبياضه ، والرياض والبساتين ، والأزهار والأشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ، ولونها الفضيّ وأشعة الشمس عليها ، والنسيم وسريانه ، وغير ذلك من مثل هذه المعاني . وقد خالف أكثر الشعراء في نظم القصيد من حيث البدء بالغزل والنسيب . إذ أكثر قصائده مبدوء بالوصف ، وأولا استسلامه إلى الصناعة لهُدً من الشعراء المفطورين . ولكنه يامعانه في تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف في معانيه وألفاظه ، حتى لا تكاد تجد شيئا من كلامه إلا استعارة أو مجازا أو تشبيها . وقد يدعو ذلك أحيانا إلى استغلاق المعنى على القارئ . ولكن شعره في جملته يعتبر معجما لألفاظ مختارة ، وعبارات جميلة ، وتشبيهات بديعة ، ومعرضا يجد فيه القارئ خير أنواع المجاز ، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية المختارة ، ومعانيه تشبه أسلوبه لأنها لا تعدو أن تكون تشبيهات أو استعارات .

ولابن خفاجة قطع نثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمداني ، من حيث اتباع السجع والتعمل ، والقصيد إلى ذكر أنواع البيان والبديع ، وكأن نثره شعر منشور .



## ابن هاني

حياته ونشأته — هو محمد بن هاني الأندلسي الأزدي . كان أبوه هاني شاعرا أدبيا من قرية المَهْدِيَّة بإفريقية ، فهاجر طلبا للرزق إلى بلاد الأندلس ، ونزل بإشبيلية . وهناك وَلِدَ له ابنه محمد سنة ٣٢٦ هـ ونشأ وتربى بها . فوريث عن أبيه الميل إلى الشعر . ومازال يعالج هذه الصناعة حتى صار شاعرا ، واشتهر بين الشعراء ، فاتصل بحاكم إشبيلية ولازمه ، ثم عُرِفَ بأنه من أصحاب الآراء والعقائد الدينية المقوتة وأهل الفلسفة ، واتهم في دينه وساءت المقالة في حق الحاكم بسببه ، فطلب إليه مغادرة المدينة حتى ينسى الناس أمره . فغادر إشبيلية ، ورحل إلى بلاد المغرب وكانت سنة ٣٦ عاما ، فأكرموا هناك وفادته ، واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله الفاطمي . ثم عرفه المعز فقرَّبه إليه وأحبه ، وطلب إليه أن يلازمه وأن يكون شاعره . ولما سافر المعز إلى مصر خرج معه ابن هاني مُشِيعًا . ثم استأذنه في الرجوع إلى المغرب لأخذ عياله واللقاء به فرجع ثم رحل إلى مصر فترى في طريقه ببرقة وسكر في دار أحد أصحابه فغربدوا عليه وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٣٦٢ هـ فلما بلغ المعز أمره حزن عليه حزنا شديدا وقال : كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يَقْدِرْ لنا ذلك .

شعره — أكثر شعر ابن هاني في المدح ، لأن ذلك كان الغرض الأول من شعره . وقد مدح المعز لدين الله الفاطمي ، فكان شاعره وشاعر دولته . ومدح غيره من الأمراء . وله قصائد في الرثاء والهجاء والوصف ، ولكنها أقل شعره شهرة وذيوغا . غير أن هذه القصائد الطويلة في مدح الأمراء اشتملت على جميع أغراض الشعر من مدح وهجاء وحماسة ونسيب ووصف . جاء كل ذلك منبثا في أثناء كلامه



فليس هو مداحا ليس غير وإنما هو شاعر طرق جميع أنواع الشعر وأجاد فيها وأكثر هذه الأغراض الغزل والوصف والمدح .

أما الغزل فقد جاء فيه بأرق المعاني وأخفها على النفس . وهو وإن كرر ما ذكر في شعر غيره من المعاني المعروفة ، كمواقف الوداع وهول الجفاء والفراق والشكوى والرجاء والأرق والبكاء ، وبؤس الحب في بعده عن حبيبته ، وذكر طيف الخيال وتشبيه من أحب بالمها والطباء والغصون ، وأثر الحافظهم وفتكتها ، إلى مثل هذه المعاني المعروفة ، يمتاز بحسن صوغ تلك المعاني ونظمها في أسلوب خلاب وعبارات بليغة ، كلها أو جلها من باب الاستعارة المستملحة والتشبيه البديع ، مما جعل لهذه المعاني صبغة خاصة كأنها جديدة في نوعها . وكان إذا وصف بحث عن المعاني التي تساعد على تصوير ما يريد من الأخيـلة . فكان لا يعمد إلى وصف حقيقة من الحقائق حتى يـلتجئ إلى الخيال . فإذا وصف الجيش سائرا إثر الأمير قال إنه سد الأفق حتى أخفى الشمس ، وملأ سواده الجو فجبجـب النور ، وأصبح كأنه لجة لا يقدر على خوضها أحد ، أو أنه إذا سرى فكان الجبال تسير معه أو تسجد له ، إلى نحو هذا .

وإذا مدح الأمراء مدحهم بالشجاعة ، ووصف جيوشهم وقوة شـكمتهم ، وما لهم من صولة في ميادين الحرب ، ثم وصفهم بالكرم والسخاء مع كثير من المبالغة لأنه لم يكن يتوخى الحقائق في كلامه ، إذ كان يقصد إلى رفع شأن ممدوحه أيا كان يجعله أفضل الناس . فكان ذلك يدفعه إلى أن يصف الرجل بما ليس فيه ، وكأنه جمع صفات الكمال وحده ، ويجعله كل شيء في الوجود . فيقول :

هو عِلَّةُ الدنيا ومن خَلَقَتْ له وَلِئَلَّ ما كانت الأشياء  
لَيْسَتْ سِواءَ الله ما تَرَوْنَهَا لَكِنَّ أرضاً تحتويه سِماء  
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء



وهذه المبالغات من عيوب شعره . على أن مدائحهم مملوءة بكثير من المعاني الجميلة الممتعة . وتمتاز بطولها وسعة خيال الشاعر . وهو في كثير من نواحي شعره موضع الإعجاب ومظهر البلاغة ، حتى عدّ من الشعراء المبتكرين ، وعُرف بالتصرف في المعاني .

ومن قوله في الغزل :

قُنْ فِي مَأْتَمٍّ عَلَى الْعُشَّاقِ وَلَيْسَنَ السَّوَادَ فِي الْأَحْدَاقِ  
وَبَكَيْنَ الدَّمَاءِ بِالْعَنَمِ <sup>(١)</sup> الرُّطْبِ الْمُقَنَّى <sup>(٢)</sup> وَبِالْخُدُودِ الرِّقَاقِ  
وَمَنْحَنَ الْفِرَاقِ رِقَّةً شَكُّوا هُنَّ حَتَّى عَشِيقْتُ يَوْمَ الْفِرَاقِ

ومن قوله في مدح المعتز :

فَإِذَا بَعَثْتَ الْجَيْشَ فَهُوَ مَيِّتَةٌ وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّأْيَ فَهُوَ قَضَاءُ

ويقول :

قَدْ طَيَّبَ الْأَفْوَاهَ طِيبُ ثَنَائِهِ مِنْ أَجْلِ ذَا تَجَدَّ الثَّغُورَ عَذَابَا  
لَيْسَ الصَّبَاحُ بِهِ صَبَاحًا مُسْفِرًا وَسَقَتْ شِمَائِلُهُ السَّحَابَ سَحَابَا  
قَدْ بَاتَ صَوْبُ الْمَزْنِ يَسْتَرِقُّ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ فَرَأَيْتُ مِنْهُ عَجَابَا

ومن قوله في الحد والعبرة :

إِنَّا فِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولٌ فِي أَعْمَارِنَا قِصَرُ  
لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتْ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ  
أَيُّ الْحَيَاةِ أَلَدَّ عِشْتَهَا مِنْ بَعْدِ عِلْمِي أَنِّي بَشَرُ  
خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسِنَا لَمَّا تَكَلَّمْ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

(١) شجر له مرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب . والواحدة عنمة . (٢) المقنى شديد الحمرة .



أما أسلوبه فيُحَسَّب أحيانا من الأساليب السهلة ، لأنه شاعر متفَنّ . ولكنه كثيراً ما يتعمّد الصنعة ، فيأتى بالطباق أو الجناس أو الاستعارة الغريبة ، ويستعين بصناعته على إبراز معانيه وتجميلها ، إذ أكثر معانيه معروف في أشعار غيره . فهو يميل إلى نوع من الغرابة والتكلف في الصنعة ، حتى حَسِبَهُ بَعْضُ النقاد من بين الشعراء الذين يبهرون القراء بقعقة ألفاظهم .

ومن مدحه المبذوء بالغزل قوله :

قد مررنا على مغانيك <sup>(١)</sup> تلكِ  
عارضتنا المها الخرائد <sup>(٢)</sup> أسرا  
لا يُرْعَ لَهَا بِذَلِكَ سِرْبُ  
فخفين مرجع كخني  
فاتتد تسكب الدموع كسكي  
لا أرى كابن جعفر بن عليّ  
فأينا فيها مشابه منك  
بأبجاعتها فلم نسلّ عنك  
فلقد أشبهتكَ إن لم تكُنْ  
وتسكّ مردّد كتشكي  
ثم لا تسفك الدماء كسفكي  
ملكاً لا بساء جلاله ملك

ومن مدائحه :

وما الجود شيئاً كان قبلك سابقاً  
بل الجود شيء في زمانك حادث

إلى أن قال :

عَبِثْتُ زماناً بالليالي وصرفها  
لئن كان عتق النفس للنفس قاتلاً  
وإن كان عمر المرء مثل سماحه  
إذا نحن جئناه اقتسمنا نواله  
وإن حراماً أن نُؤمِّلَ غيره  
فها هي بي لو تعلمون عواييت  
فأني على حفي وبكني باحث  
فإن أمير الزاب للأرض وارث  
كما اقتسمت في الأقربين الموارث  
كما حرمت في العالمين الخبايث

(١) المغنى : المنزل .

(٢) المها : مفردها مهاة وهي البقرة الوحشية ، والخرائد : جمع خريدة وهي الفتاة الطويلة السكوت من الحياء .



ومن رثائه قوله :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيسًا فَاسْتَرَدَّ      رُبَّمَا جَادَ بِنَحِيلِ فُحْسِدِ  
كَلِمًا أَعْطَى فَوْقَ حَاجَةٍ      يَدٍ شَيْئًا تَلَقَّاهُ يَدِ  
كَاذِبٍ جَاءَ جَهَامًا <sup>(١)</sup> زَبْرَجًا <sup>(٢)</sup>      بَعْدَ مَا أَوْمَضَ بَرْقُ وَرَعَدِ  
خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَانًا دَائِمًا      تُعْرِفُ الْبَاسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدِ  
فَإِذَا مَا كَدَّرَ الْعِيشَ نَمًا      وَإِذَا مَا طَيَّبَ الزَّادَ نَفْدِ  
فَلَقَدْ أَذْكَرَ مَنْ كَانَ سَهَا      وَلَقَدْ نَبَّهَ مَنْ كَانَ رَقْدِ  
أَبْدًا يَعْجُمُ مِنْ نَبْعَةٍ <sup>(٣)</sup>      وَقَنَاءَةً لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَوْدِ <sup>(٤)</sup>

(١) الجهام : السحاب لأماء فيه .

(٢) الزبرج : السحاب الرقيق .

(٣) عجم العود عضه ليعلم صلابته من رخاوته . والنبعة القوس .

(٤) الأود الاعوجاج .



## ابن سهل

ولد إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي سنة ٦٠٩ هـ ، وتوفي غريقاً مع حاكم مدينة سبّنة سنة ٦٤٩ هـ . وكان يهودياً ثم أسلم ، سكن آباؤه الأندلس منذ زمن بعيد ، ثم صاروا من ذوى الجاه والشأن . وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتباً لصاحب سبّنة ، وتعلم اللغة والأدب على أشهر علماء زمانه ، ومنهم أبو على الشّلوّين ، وُلد بإشبيلية سنة ٥٦٢ هـ وتوفي بها سنة ٦٤٥ هـ وهو من أكبر علماء النحو واللغة ثم أخذ في معالجة الشعر حتى برع فيه ، فسموه شاعر إشبيلية ووَشَّاحها وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائده .

وقد عاش ابن سهل في أواخر أيام العرب في الأندلس ، أيام بنى هود والمرابطين والدولة آخذة في الزوال ، ولكن العلوم والآداب كانت في أزهى عصورها ، وكانت مدن الأندلس غاصّة بأهل العلم والأدب ، والتَّرف قد دبّ في كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية ، وتمكنت الأهواء من النفوس . وهذه البيئة أصلح ما تكون لشاعر مثل ابن سهل ، لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجناً امتلأت نفسه بمعاني الغزل .

شعره ومعانيه وأسلوبه — يشتمل شعر ابن سهل على الغزل والرثاء والمدح والوصف وله أبيات في التهاني وأبيات في الزهد ، ولكن أكثر شعره في الغزل . ولقد حام حول كل ما قيل في ذلك ، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بنفسه وأملاه عليه خياله ، أو مما عُرف في شعر غيره وجادت به أخيلة الشعراء في ذلك



إلا ذكره في شعره ، وكساه لفظاً من عنده ، ونظمه في كلامه حتى لقد يجد العاشق في شعره كل معنى يدب في نفسه ، أو شعور يحسه ، أو صورة لمن يحبه .

أما معانيه فأكثرها مأخوذ من كلام غيره . وهي أجمع للأوصاف الظاهرة منها للعانى النفسية ، كتشبيهه حبيبته بالغزال ، أو بالغصن النضير ، وعيونه بالسيوف ، واحمرار خدوده بالجمر وقوله إن الحب علمه السهد ، وجعله يآلف السقام كما قال :

أهواه حتى العين تآلف سهدها      فيه وتطرب بالسقام جوارحي

ويقول :

وعذب بالي نعم الله بالله      وأسهدني لا ذاق طعم التسم

ويرق في كلامه فيخيل إليك أنه يتكلم بقلبه وأن ملاقة حبيبته هي كل أمنية له ، ويلتمس له ذنبا كي يجد وسيلة لعتابه .

فيقول :

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| تدنيك زور الأمانى | منى وتناى طلابا   |
| كأننى حين أبغى    | رضاك أبغى الشبا   |
| وأشهى منك ذنباً   | أبغى عليه العتابا |
| حتى إذا كان ذنب   | فتحت للعدر بابا   |
| ظمئت منك لوعد     | فكان وري السرابا  |
| لا خاب سؤلك أمّا  | سؤلى لديك نخابا   |



ولقد يُعْن في الخيال فتغلبه الألوانُ بيهاها ، وتَمَلُّ نفسه المناظر الجميلة . كقول  
في وصف الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه      لا شك لو نُ مودّع لفراق  
والشمس تنظر نحوه مصفرةً      قد نَحَمَّشْتُ<sup>(١)</sup> خدا من الإشفاق  
لاقت بجمرتها الخليج فألفاً      نَحَجَلَ الصَّبَا ومدامع العشاق  
سقطت أوان غروبها محمرةً      كالنمر حَرَّت من أنامل ساقِ

ومن بكائه في شعره قوله :

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من      دمعى وأنشَق رِيًّا ذَكَرَكَ العطر  
حتى أخيل أنى شارب تَمِلُّ      بينَ الرياض وبين الكأس والوتر

ومن معانيه وأخيلته قوله :

بجده لفؤادى نِسْبَةً عَجَبٌ      كلاهما أبدا يدعى مِنَ النظر

أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتنع ، ولا يؤخذ عليه إلا بعض عبارات  
ذهب فيها مذهب التكلف في الاستعارات وصورها ، مما يكاد بذلك بعض كبار  
الشعراء كقولهم في الرثاء :

لئن سَوَدَ الافاق يوم حَمَامِهِ      لقد بَيَضَتْ صُحُفَ الحِساب فضائله

(١) نَحَمَّشَ الوجه : خدشه ولطمه .



وهكذا تجده يمزج السهولة بالتصنع . ولكنه بعد كل هذا شاعر مفطور على  
 سلاسة الأسلوب ورقة الألفاظ ، كما تجد ذلك في موشحته الشهيرة التي تعتبر من  
 أجمل الموشحات . وربما أغرب في الخيال ، كما شبه ابتسام حبيبه له وهو ييكنى  
 بالروض المذّور تمطره السماء ، وكأنّ القطر بكاء في مأمّ وكأنّ الروض في جماله عرس  
 جمع أنواع السرور إذ يقول في موشحته :

|                             |                          |
|-----------------------------|--------------------------|
| كلما أشكوه وجدى بسما        | كالرُّبا بالعارض المنبجس |
| إذ يُقيم القطرُ فيها مأتماً | وهي من بهجتها في عرس     |



## ابن زيدون

كان ابن زيدون شاعرا وناثرا معا . وله خصائص في الشعر كما له خصائص في النثر . ولكنه شاعرا أعظم منه ناثرا ، لتصرفه في فنون الشعر وامتيازته في كثير من نواحيه .

وقد نشأت بينه وبين ولادة بنت المُسْتَكْنَى مَوَدَّةً كانت منبععا من منابع شعره ، ووسيلة من وسائل إلهاماته الفنية . وهي التي وَلَدَتْ في نفسه هذا النوع من البؤس والاضطراب اللذين يُشَاهِدَان في كثير من نواحي نظمته ونثره ، كما أن الحوادث التي نزلت به كانت سببا فيما حَلَّ به من الشقاء ، فساعدته على الكتابة والشعر في العُتْب والذَم والاستعطاف والهجاء . وأملت عليه رسالتيه الحدية والهزلية الفريديتين في أسلوبيهما .

أما شعره فلم يكن ضربا من التقليد والمحاكاة ، بل كان ناشئا من نمو ملكة الشعر في نفسه ، ومن رغبته في التعبير عن كل ما يشعر به ، وعملا له صلة بحياته الخاصة . ولم تلبث الحوادث التي نزلت به ، والأيام التي قضها في السجن أن هاجت من نفسه ، وولدت فيها تلك المعاني التي ذكرها . فكان شعره صحيفة من حياته النفسية ، وصورة لما كان يحول بها من آلام وأحزان وحب وغرام . وكثيرا ما تنقرا شعره فترى فكره المضطرب ، ونفسه الوثابة الحائرة ، وتكاد تلمس كبره وخيلاءه وسخطه على أعدائه ، وتجلده وصبره وهو يشكو ويئن من بلواه . كما في قصيدته التي يقول فيها :

ما عَلَى ظَنِّي بِأَسْ      يجرح الدهر ويأسو (١)

ربما أشرف بالمرء      على الآمال يأس

(١) راجع القصيدة في كتاب المنتخب .



وكثيرا ما كان يفخر بفضله ، ويربأ بنفسه عن أن يكون العُوبة في يد  
الحوادث ، ويرى أن سبب تعسه حقد أعدائه عليه ، لما اتصف به من فضل وعلم .  
وكثير من شعره في هذا المعنى كقوله :

لا يُهِنُّ الشامتَ المرتاحَ خاطرهُ      أنى مُعْنَى <sup>(١)</sup> الأمانى ضائعُ الخطرِ <sup>(٢)</sup>  
هل الرياحُ بِنَجْمِ الأرضِ عاصفةٌ      أم الكسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ  
إن طال في السجنِ إيداعى فلا عجبٌ      قد يودَعُ الجفنَ حدَّ الصارمِ <sup>(٣)</sup> الذِّكْرُ  
قد كنتُ أحسبني والنجمَ في قرْنِ <sup>(٤)</sup>      ففيمَ أصبحتُ منحطاً إلى العفرِ <sup>(٥)</sup>

ويمدح فيمزجُ مدحه بالاستعطاف والعُتب ، وكثير من قصائده في استعطاف  
ابن جهور وهو في السجن صورة من صور البؤس الذى فتق من لسانه ، وأثار في  
نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة ، التى هبت عليه فملاته هما وغما . إذ يقول  
وكأنك تسمع أنينه ،

ألم يَأْنِ أن يَبْكِيَ الغامُ على مِثْلِي      ويطلب ثأرى البرقِ مُنْصَلِتَ النِّصْلِ  
وهَلَا أَقامتْ أنْجُمُ الليلِ مآتما      لتندبَ فى الآفاقِ ماضاعِ من نُبْلِ  
ولو أنْصَفْتَنِي وهى أَشْكالُ هَمَّتِي      لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الدَّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّي  
ولو أنْنى أَسطِيعُ أنْ أرْضِيَ العِدا      شَرِبْتُ بِبَعْضِ الحِلْمِ حظاً من الجَهْلِ

أما غزله فكثير ، وكله يدل على سعة خياله وإخلاصه في حبه ، وبث  
عواطفه وما يجول في نفسه ، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :

يا لَيْتَ شِعْرى وَعِندِي      فى الحبِّ ما ليسَ عِندَكَ  
هل طالَ لَيْلُكَ بَعْدِي      كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكَ

(١) متعب بأمانيه . (٢) الخطر قدر الرجل ومزله . (٣) الصارم القاطع . وسيف ذكر  
ذوماء وبريق . (٤) أى فى منزلة واحدة . (٥) التراب .



سَلَى حَيَاتِي أَهْبَهَا      فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ  
الدَّهْرُ عَبْدِي لَمَّا      أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

وقوله :

مَتَى أَبْشُرُكَ مَا بِي      يَارَاحَتِي وَعَذَابِي  
مَتَى يَنْوُبُ لِسَانِي      فِي شَرْحِهِ عَنِ عِتَابِي  
يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَزِّي      وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي  
الشَّمْسُ أَنْتِ تَوَارَتْ      عَنْ نَاضِرِي بِالْحِجَابِ  
مَا الْبَدْرُ شَفَّ سَنَاهُ      عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ  
إِلَّا كَوَجْهِكَ لَمَّا      أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

وقد ذكر ما كان عليه في مدينة الزهراء فخرت الذكرى من نفسه ، فكتب إلى ولّاده يقول :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا      وَاللَّيْسَ بِمِثْلِ اعْتِلَالٍ فِي أَصَائِلِهِ  
وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفَضَى مُبْتَسِمٌ      وَيَوْمُ كَأَيَّامٍ لِدَاثِ لَنَا انْصَرَمَتْ  
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ      كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقَى  
وَرَدَّ تَأَلَّقَ فِي ضَاغِي مَنَابِتُهُ      سَرَى يَنَافِهُ نَيْلُوفَرَ عَيْقُ  
كُلِّ يَهِيْجُ لَنَا ذِكْرِي تُسَوِّفُنَا      وَالْأَفْقُ طَلَقَ وَوَجْهُ الْأَرْضِ قَدَرَاقَا  
كَأَنَّمَا رَقَّ لِي فَاغْتَلَّ إِشْفَاقَا      كَمَا حَلَلَتْ عَنِ اللَّبَاتِ (١) أَطْوَاقَا  
يَتَنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا      جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا  
بَكَتْ لِمَا بِي بِغَالِ الدَّمْعِ رَقْرَقَا      فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَا فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقَا  
وَسَنَانُ نَبَةٍ مِنْهُ الصَّبِيحُ أَحْدَاقَا (٢)      إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ إِنْ ضَاقَا

(١) اللبة : بوزن الحبة المنحر .

(٢) النيلوفر : نوع من النبات ينبت في الماء الراكد له ساق ملساء تطول بحسب عمق الماء .

وله زهر ذورائحة طيبة . والوسن النعاس .



## النثر

النثر في القرن الأول الهجري — كان النثر في هذا القرن مقصورا على الخطابة الدينية وغيرها ، والمراسلات السياسية بين الخلفاء والأمراء ، أو بين بني أمية والخارجين عليهم . وكانت العصية بين العرب على أشد ما تكون في إثارة الخواطر وإيقاظ الفتن القديمة بين الأمويين والخارجين عليهم . وكانت العقول لم تهذب بعدُ بشيء من العلوم ، فلم يكن للنثر الإنشائي هناك كُتّاب معروفون بالكتابة الأدبية والفنية والتأليف في الفنون ، كما عُرِف كثيرٌ من الشعراء الذين ولدتهم الضغائنُ والمنازعاتُ السياسية . بل اقتصرَت الكتابة والخطابة على الخلفاء وعمّالهم ، يكتبون إليهم ويخطبون في عمالاتهم كما كان يفعل أعداؤهم في الجهات التي انتشر بها نفوذهم . فكانت دائرة الكتابة ضيقة محصورة ، وموضوعاتها محدودة.

الكتابة في الأندلس — وعلى هذه الحال دخل العرب الأندلس . فلما استولوا عليها ، لم يكن من همّ الأمراء غير توطيد ملكهم ، ونشر دعوتهم ، وبث روح المسالمة في جندهم . وقد شغلوا جميعا بالفتح والحروب ، وكانت لغتهم من أقوى عُدَدِ الدِّفاع لديهم ، ومن أشدّ وسائل بثّ الحماسة في النفوس . فسَلَّوا ألسنتهم في ميدان الخطابة بين الجند ، وأرهفوا أقلامهم في نشر دعوتهم وتأييد ملكهم وإذاعة دينهم . وثارَت الفتن بينهم ، فأمعنوا في المكتاتبات والخطب السياسية على نحو ما كانوا يكتبون ويخطبون في بلاد المشرق . وبقيت الحال على هذا زهاء قرن ، منذ أواخر القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني . فكانت الخطب والمراسلات في عصر الأمراء وفي النصف الأول من عصر بني أمية في الأندلس هي أنواع النثر وأغراضه ولم يكن هناك مجال للكتابة الأدبية الخالصة ، كالرسائل الطويلة المنمقة ! بل كانت



الكتابة كلها مما تدعو إليه الحالة . وقد ظهر في العصر الأول جماعة من الكتاب منهم أمية بن يزيد ، كاتب الأمير يوسف الفهري ، وأبو عثمان عبد الله ، والأمير عبد الرحمن الداخل وغيره من الأمراء ، ولكن كل كتاباتهم كانت من الرسائل القصيرة .

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل يعتب على سيده :

” مَا كَانَ جَزَائِي فِي قِطْعِ الْبَحْرِ وَجُوبِ الْقَفْرِ ، وَالْإِقْدَامِ عَلَى تَشْتِيتِ نِظَامِ مَمْلَكَةٍ وَإِقَامَةِ أُخْرَى ، غَيْرَ الْهَجْرِ الَّذِي أَهَانَنِي فِي عَيُونِ أَكْفَائِي ، وَأَشْمَتَ بِي أَعْدَائِي ، وَأَضْعَفَ أَمْرِي وَنَهَى عِنْدَ مَنْ يُلُودُ بِي ، وَبَتَرَ مَطَامِعَ مَنْ كَانَ يَكْرَهُنِي وَيَحْفُو بِي عَلَى الطَّمَعِ وَالرَّجَاءِ ، وَأُظِنُّ أَعْدَاءَنَا بَنِي الْعَبَّاسِ لَوْ حَصَلَتْ بِأَيْدِيهِمْ مَا بَاغُوا بِي أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ “ .

فلما وقف عبد الرحمن على رُفْعَتِهِ اشْتَدَّ غِيْظُهُ عَلَيْهِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا :

” وَقَعْتُ عَلَى رُفْعَتِكَ الْمُنْبِثَةِ عَنْ جِهْلِكَ ، وَسُوءِ خَطْلِكَ ، وَدَنَاءَةِ أَدَبِكَ ، وَلِئِمَّ مَعْتَقْدُكَ . وَالْعَجَبُ أَنَّكَ مَتَى أَرَدْتَ أَنْ تَبْنِيَ لِنَفْسِكَ عِنْدَنَا مَتَانًا <sup>(١)</sup> أَتَيْتَ بِمَا يَهْدِمُ كُلَّ مَتَاتٍ مَشِيدٍ . فَمَا تَمَنَّيَ بِهِ مِمَّا قَدْ أَجْجَرَ الْأَسْمَاعَ تَكَرَّارَهُ ، وَفَدَحَتْ فِي النُّفُوسِ إِعَادَتَهُ ، اسْتَخَرْنَا اللَّهَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى أَنْ أَمَرْنَا بِاسْتِئْصَالِ مَالِكَ ، وَزِدْنَا فِي هَجْرِكَ وَإِبْعَادِكَ ، وَهَضْمًا <sup>(٢)</sup> جَنَاحِ إِدْلَالِكَ . فَعَلَّ ذَلِكَ يَقْمَعُ مِنْكَ وَيَرْدَعُكَ ، حَتَّى يَبْلُغَ بِكَ مَا نَزِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَتَحْنُ أَوْلَى بِتَأْدِيَتِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، إِذْ شَرُّكَ مَكْتُوبٌ فِي مِثَالِنَا ، وَخَيْرُكَ مَعْدُودٌ فِي مَنَاقِبِنَا “ .

ومنذ القرن الثالث الهجري كثر الوافدون من بلاد المشرق إلى بلاد الأندلس من علماء وأدباء ، وأخذ خلفاء بني أمية يُعَنِّونَ بِنُشْرِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ، وَيُنَافِسُونَ

(١) مقاما وقرابة .

(٢) هاضه : كسره وفتته . والمراد هنا أضعنا مالك من تيه وإعجاب .



أهل بغداد في الحصول على أنفس الكتب واقتناء ما تُرجم وأُلف في مختلف العلوم وعني أدباؤهم بحكاية أدباء الشرق واتباع طرقهم ، ثم دبّ الترف في النفوس والعقول كما دبّ في الاجتماع ، وتمشّى هناك نوع جديد من التفكير ، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية ، وتهذبت الأفكار ، ونضجت العقول بما نُقل من علوم وفنون ، وانتشرت مظاهر الحضارة في المجالس والمجامع . فامتلاّت نفوس الكتاب بهذه الموضوعات التي وسّعت من أخيبتهم وهذّبت من إدراكهم ، وأكسبتهم صبغة فنية بما كان من أبهة الملك ، ووصف المباني الضخمة والقصور الفخمة ، ومظاهر الترف ومجالس الخلفاء والأمراء . فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملكة الكتابة فنشأ عن ذلك النثر الإنشائي الفني ، واشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية فكتب الكتاب رسائل في المراسلات والأوصاف والسياسة ، والمناظرات الخيالية ، والمناقشات العلمية ، والقِصص الاجتماعية والخيالية ، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحكم والأمثال ، والرسائل الفكاهية وكتبوا على ألسنة البلدان والحيوان وكتبوا في الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الله ، وفي شعائر الحج ، كما كتبوا في الزهد والتصوّف ، وكما كتبوا في المحبون فبرعوا في النثر كما برعوا في أساليب النظم .

فمن كتب في الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون ومن كتب في القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد . ومن كتب في المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر كما كتب أبو بحر صفوان بن إدريس في المناظرة بين بلدان الأندلس وكتب ابن طيّل في القصص الفلسفية . ومن أطال في الرسائل واشتهر فيها لسان الدين بن الخطيب فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر سواء بسواء بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها التي من أشهرها القصص الخيالية :

الأسلوب — أما أساليب النثر فكانت في أول الأمر خالية من التكلف والصنعة ، أشبه بما كان يكتب في دولة بني أمية فكانت حماسية بليغة ، وعربية خالصة . وكان الكتاب من أمراء ووزراء أعرابا ، لم تتطرق العجمة إلى ألسنتهم ،



ولم يختلطوا بهدٌ بغيرهم ، ولم يتقلوا شيئا عن الأمم الأخرى ، ولم يتأثروا بلغة أهل البلاد التي نزلوا بها بل حملوهم على أن يتعلموا لغة العرب ويتثقفوا بالثقافة العربية . فكات الكتابة في موضوعاتها وأساليبها متينة جزلة ، بعيدة عن التعمل والمبالغة ، وعن ألفاظ التفتيح والتبجيل وعبارات الملتق ، قليلة السجع إلا ما جاء عفوا .

ولما ذاع أمر الصناعة في المشرق زمن ابن العميد والبديع ومن على طريقتهما وانتشر السجع والتعمل في الكتابة ، وكان الأندلسيون يحاكون أهل المشرق في كل شيء ، ذاعت الصناعة في الكتابة ، وامتلاّت بأنواع البديع ، وطغى السجع على كل أنواعها ، من رسائل وقصص جدية وهزلية ، وكتب علمية وأدبية وتاريخية ، وبالغ في ذلك أهل الأندلس وأمعنوا في ضروب الخيال ، وجاءوا بكل غريب في ذلك . فكان في نثرهم الكلام المسجوع ، الذي يكاد يكون من السهل الممتنع ، مع دقة في اللفظ وجزالة في المعنى ، ومزج الحقيقة بالخيال . كما في أسلوب الذخيرة لابن بسام حيث يقول في ترجمة ابن شهيد :

” كان أبو عامر شيخ قوطبة وقتها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهىها . يتبوع آياتها ، ومادة حياتها ومبنى أسمائها ومسمياتها . نادرة الفلك الدوار ، وأحجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجع الحمام ، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما انتسق الدر على النحور ، ونثرٌ كما خُطَّ المسك والكافور “ .

وكانوا أحيانا يتكفون في كتاباتهم وكأنها شعر مصنوع لا تسميغُه النفس ولا يتحمّله الذوق ، كما في بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب . وقد يلتزم بعضهم السجع المتكفّف ، وكأنه مفطور على ذلك ، فيمزجه بأساليبه العلمية . وكتابات التاريخية ، كما في كتب الفتح بن خافان . وبقي الأمر على هذا إلى أواخر أيام العرب هناك .



وقد امتلأت الرسائل الأدبية بالحكم والأمثال المقتبسة ، والأشعار والأمثال السائرة ، والخيال الشعري ، وكثرة الوصف والتشبيهات والاستعارات وضروب الإطناب . كما في رسائل ابن زيدون ولسان الدين وابن شهيد وغيرهم .

وجملة القول إن الكتابة النثرية في الأندلس اشتملت على كثير من الأنواع وامتازت بسعة الخيال وضروب الافتنان ، والصناعة اللفظية ، ولا سيما السجع بجميع أنواعه ، حتى أصبح الإنسان لا يكاد يجد كتابا غير مسجوع ، ولا كاتباً لم تكن ملكة السجع راسخة في نفسه .

الخطابة — دخل العرب الأندلس وهم أحوج الناس إلى تأييد أمرهم ، وتثبيت قدمهم والدفاع عن دينهم ، وبث الشجاعة في نفوس جندهم . فدعت هذه الحال إلى الاشتغال بالخطابة . وكان الأمراء والخلفاء أصحاب فصاحة وبيان ، تفد عليهم الوفود يخطبون في حضرتهم ، فيجيبونهم بمثل خطبهم ، فزاد ذلك من شأن الخطابة وذاع أمرها في مجالس الأمراء والخلفاء الذين كانوا يرفعون من قدر الخطابة والخطباء ، ويكرمون من اشتهر منهم بالتفوق فيها . وأصبح لقب الخطيب من ألقاب التبجيل والتعظيم كلقب الفقيه والشاعر . فكان ذلك من دواعي الإقبال على الخطابة والتبوغ فيها . وبقيت الخطابة مظهرا من مظاهر الأدب وفنون الكلام المنشور إلى قبيل نحروج العرب من الأندلس .

وكان الغرض منها بادئ الأمر بث الشجاعة وتأييد العصبية في القبائل ، وأول كلام من هذا النوع خطبة طارق بن زياد فاتح بلاد الأندلس . وهى من نماذج خطب العصر الأول في موضوعها وأسلوبها .

وقد بقيت الخطابة على هذا النحو زمن الأمراء وفي شطر من خلافة بنى أمية . فكانت عباراتها سهلة بعيدة عن الصنعة ، خالية من السجع المتكلف .



ولما انتشر العلم في بلاد الأندلس ، وتعلق الناس بأهدابه ، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات في مجالس الخلفاء وغيرها مدة بنى أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة ، وتغيرت أساليبها ، وتطرفت إليها الصناعة ، وامتلاّت بالسجع على أثر انتشار ذلك في الكتابة الثرية . وبقيت على هذه الحال إلى أيام ملوك البربر . ثم انطفأت شعلة الحماسة في النفوس ، ونحمت قوة التفكير على أثر تعصب البرابرة وجهلهم . فانحطت منزلة الخطابة ، واقتصر فيها على الوعظ في المساجد .

وقد كان هناك جماعة من مشهورى الخطباء مثل الوليد بن عبد الرحمن بن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموى ، وعبد الله الفخّار زمن المرابطين ، وغيرهم من الأمراء . ومن أشهر الخطباء المعروفين القاضى أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطى فقيه قرطبة وقاضيا ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ . وقد كان في حضرة عبد الرحمن الناصر بقصر قرطبة عند الاحتفاء بقدم رسول ملك الروم ، فطلب من بعض كبار العلماء الذين كانوا حاضرين ذلك المجلس أن يخطبوا ، فأُتيحَ عليهم لهيئة الموقف ، فوقف منذر بن سعيد ، وألقى خطبة أعجّب بها الخليفة ، ودلت على براعته وحضور ذهنه وقوة عارضته وارتجاله .

ولكن شأن الخطابة لم يصل إلى ما كان عليه في بلاد المشرق ، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثل زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، أو الخليفة المنصور ، ممن كان يُحسب كلامهم من الكلام الجيد والمنثور البليغ .



من خطبة منذر بن سعيد البلوطي في حضرة عبد الرحمن الناصر عند ما وصل إليه رسول ملك الروم :

”... وإني أذكركم بأيام الله عنكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التي لمت شعنكم ، وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقوأكم ، ومستذللين فنصركم ، ولأه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أئشدكم بالله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدأ على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم “ .



## ابن زيدون

مولده ، نشأته — أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي القرطبي الشهير بابن زيدون ، أحد شعراء الأندلس وكتابها المشهورين ووزرائها الأدباء المعروفين بفنون الكتابة والشعر ، الذين تربعوا في مناصب الملك وتقلبوا في مراتب الدراسة . ولد بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ هـ ونشأ بها ، وكان أبوه من كبار قضاتها وأدبائها وعلمائها . فنشأ ابنه ميالا إلى تحصيل العلوم ، وتفرغ للدرس والبحث ، وأخذ العلم عن علماء قرطبة وأشهر رجال الأدب بها ، وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار ، والسير ، والحكم والأمثال ، ومسائل اللغة ومباحثها . وكانت قرطبة غاصة بالعلماء والأدباء ، وهى فى أوج عزها ، وقد جعلها بنو جهور حاضرة العلم والفنون . فامتلاّت المجمع هناك بالأدباء والشعراء ، وأنواع اللهو والطرب ومظاهر الترف . وكان لابن زيدون أدب جم ، وفضل مشهور ، فصار علما من أعلام قرطبة ، وبزادباء زمانه ، وذاع أمره .

وكان من سدادِ الرأى وحسن التدبير ، وقوة العزيمة ومعرفة دخائل الأمور ، بحيث عُرِف عنه ذلك . فلم يكن متقطعا للأدب فحسب ، بل كان يشتغل بالمسائل العامة ، ويحسب من رجال السياسة . فقد خاض غمار الثورة التى قلبت دولة بنى أمية ، وكان من أشياع أبى الحزم جهور بن محمد الذى آل إليه ملك قرطبة ، فعمل على تأييد ملكه ، وخدم بعده أبا الوليد محمد بن جهور ، فقربه إليه وعلت منزلته لديه ، وجعله وزيره وسفيره بينه وبين الأمراء من ملوك الطوائف وغيرهم ، وفوض إليه أمر الملك ، فأصبح صاحب مشورته وقد أظهر ابن زيدون من الحنكة والدهاء ما رفع منزلته عند ابن جهور ، حتى اختص به



وكان يرجع إليه في كل أمر من أمور الملك والسياسة . ففسده منافسوه ، ووشوا به لدى ابن جهور ، وخوفوه عاقبة أمره ، وما زالوا به حتى أمر بسجنه . فبقى سجيناً زمناً طويلاً استعطف فيه ابن جهور بما يُلين الحديد فلم يَفْزَ بعفوه . ففَرَّ من السجن واختفى بقرطبة إلى أن شفع له الوليد بن جهور لدى أبيه محمد .

ولكن ابن زيدون لم يأمن بنى جهور على نفسه فهاجر إلى إشبيلية واتصل بالمعتمد بن عباد ، وصار وزيراً له ، وبقي هناك إلى أن مات سنة ٤٤١ هـ .

نثر ابن زيدون — كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية ، فقد شب على القراءة والدرس ، وحفظ كثيراً من مسائل الأدب ، وكان متقداً للذاكرة فامتلاّت نفسه بالمعاني التي قرأها ، وأسماء الناس الذين عرفهم في قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التي جرت مجرى الأمثال . ثم كانت زعامة الأدب في المشرق ، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته في الكتابة ، وكان أسلوبهم طريفاً ، فتسرب إلى بلاد الأندلس ، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذين بالغوا في اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر الممتور ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيراً لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بحب التأنق ، بل دفعته إليها الحوادث . وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد ، فكان من كتاب الدواوين ، واشتهر في الكتابة الفنية الأدبية برسائليه الحديّة والهلزية : كتب الأولى وهو في السجن يستعطف فيها ابن جهور . وكتب الثانية عن لسان ولّاده بنت المستكفي للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صلتها به ، فاشتهر في عالم الكتابة بهاتين الرسالتين . وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسائل النادرة ، في الأدب العربي . وأظهر ميزاتهما أمران : (الأول) ما تدلان عليه من نفس كاتبهما وأخلاقه وشيخه . (والثاني) كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال ، والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين ، من الحكماء والأدباء والعلماء . كل ذلك جاء مبثوثاً في أثناء كلامه .



رسالته الجدية ، معانيها وأسلوبها — أما رسالته الجدّية فقد جمع فيها كل ما يمكن أن يقال في الاستعطاف والمدح ، بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم . وأول شيء يسترعى النظر في أسلوبها أن ألفاظها وجملها تكاد تكون كلها مُقتبسة من كلام غير الكاتب ، من آثار أدبية وأمثال سائرة وأبيات من الشعر . وهذا وإن لم يشهد له بقوة الابتكار ، دليل على قدرته في تأليف الكلام ونظمه ، وبراعته في صناعة الكتابة ، وإطلاعه الواسع .

وقد جمع في هذه الرسالة بين التناسق في المعاني والألفاظ والتأليف والجمع . فبينما تجده يرقّ في الاستعطاف إلى أن يستصغر نفسه ، ويجمع من المعاني والألفاظ ما يناسب ذلك ، تجده انسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه . فهي رسالة بديعة في نظمها وأسلوبها ، كثيرة الفائدة لما اشتملت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال ، جامعة لكثير من المعاني كالممدح والاعتذار ، والاستعطاف والفخر ، والامتنان وذم الزمان ، ولوم الأعداء والحقده عليهم والصبر والتجلد . كل ذلك بعبارات أكثرها بليغ سائغ يدل على طول باع الكاتب في الأدب واللغة والتاريخ .

ولكنها ليست على طريقة واحدة من الترام السجع أو الترسل ؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وبغير مناسبة ربما يهوّش على القارئ ويصرفه عن الغرض من تأتيتها ، ويحمله على التفكير في البحث عن معاني الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التي أشار إليها الكاتب .

رسالته الهزلية — أما رسالته الهزلية التي كتبها لابن عبدوس على لسان ولادة يتهم به ويذمه ، فهي من هذا النوع أيضا من حيث الأسلوب كذكر الأمثال



السائرة وأسماء الرجال والحوادث . فكما دلّ في رسالته الجديّة على باع طويل في الاستعطاف والمدح ، دل في رسالته الهزلية على أنه عارف بأساليب الهجاء ، سباق في هذا الميدان أيضا . فقد أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاعا شديدا ، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من التصرف في أساليب الكلام . إذ على الرغم مما في هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماء الرجال والأمثال ، والحوادث والأبيات الشعرية ، والإطناب في كثير من المعاني ، لا يكاد يشعر القارئ لها بشيء من الملل والابتدال ، على أنها لا تخلو من العيوب ؛ فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلا ، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثثرة ولغوا . وجاء بعبارات تدل على غلظة طبعه وشدة حقه وحبه للانتقام ، وعلى قدرته على التهكم والافتنان في أساليبه .

قطعة من رسالة بن زيدون الجديّة — ” يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدأى به ، وامتدأى منه ، ومن أبقاء الله ماضى حد العزم ، وإرى زبد الأمل ، ثابت عهد النعمة ، إن سلبتني أعزك الله لباس نعمائك ، وعطّلتني من حلّ إيناسك ، وأظمأتني إلى برود<sup>(١)</sup> إسعافك ، ونقضت بي كنف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحسّ الجمد باستنادى إليك ، فلا غرو قد يغصّ الماء شاربّه ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتّى الحذر من مأمنه ، وتكون منيّة الممتنى في أمنيّته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمرّ على النقي وتهون غير شماتة الأعداء

(١) يقال ماء برود أى ساقط لذيد . شبه إسعافه وعونه له بالماء البارد .



وإني لأتجلد ، وأرى للشامتين أنى لَرَيْبِ الدهر لا أتضعضع ، فأقول : هل أنا إلا يدُ أدامها سوارها ، وجبين عَضَّ به إكليله ، ومَشْرِفِي (١) الصَّخْرَةَ بالأرض صاقله ، وسَمَّهْرِي (٢) عَرْضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفَهُ ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فَقَسَا لِيَزْدَجُرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا      فليَقْسُ أحياناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة (٣) غَمْرَةٌ ثُمَّ تَجَلَّى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تَقْشَعُ . ولن يَرِيْنِي من سيدى أن أبطأ سَيِّئُهُ (٤) ، أو تأخر غير ضنين غَنَاؤُهُ ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحاب مشيا أحفائها وأنفع الحيا (٥) ما صادف جدياً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً . . . . .

وأعود فأقول ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذى لم يَسْتَغْرِقْهُ تطوُّلك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ . . . . .

ولَعَمْرُكَ إِنْ صَرِجَ الرَّأْيُ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغْتَنِ الشَّمْسُ وَنَبَا بِي الْمَنْزِلَ ، وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ . . . . . غير أن الوطن محبوب والمنشأ مألوف ، والليب يحن إلى وطنه ، حنين النجيب (٦) إلى عطنه (٧) ، والكريم لا يحنو أرضاً فيها قوايلهُ ، ولا ينسى بلدة فيها مرضعه . هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك ، ومنافستي بلحظة من قربك . . . . . الخ .

(١) السيف .

(٢) الرمح الصلب المعتدل .

(٣) النبوة : الجفوة .

(٤) المزايا به هنا العطاء والمال .

(٥) المطر .

(٦) النجيب الكريم الأصل .

(٧) العطن والمعطن : مبرك الإبل .



### ابن شهيد

حياته وأخلاقه — أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك . . . الشهير بابن شهيد ، شاعر ظريف وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها . ولد سنة ٣٨٢ هجرية ، ومات بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

عاش ابن شهيد في دولة بني عامر ، وتربى في نعمهم ، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء ، أفاض ملوكها عليه المال الكثير لمساكنته لديهم ومكانة أسرته . فقد كان أبوه متصلا بالمنصور بن أبي عامر ، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك : كريما متلافا ، وكان ظريفا خفيف الروح ، فكه المجلس ، به ميل إلى النكتة والدعابة ، محبا للهزل والمجون ، خليعا كأهل عصره من الأدباء ، سريع البديهة ، حاضر الذهن سديد الرأي ، عارفا بفنون الأدب ، كاتباً بارعا ، يغلب الظرف على أخلاقه ، فرحا مسرورا كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء والأمراء . لذلك كان محبا للحياة ونعيمها ، كما يظهر ذلك من نظمته ونثره .

شعره ونثره — لابن شهيد شعر رشيق في المدح والوصف والتشبيه ، وقصائد طويلة كثيرة المعاني ، تدل على سعة خياله ، وأكثر شعره خال من أثر التفكير ، لا يكاد يجد القارئ فيه صبغة جدية . لأنه كان هازلا أكثر منه رجل جد . وأكثر شعره في الوصف والغزل .

أما أسلوبه ، فتغلب عليه سلاسة العبارة ، ليس به كثير من الغموض والخفاء ، يجذب القارئ بأخيلته ومعانيه المستظرفة ، ولا متراج هذه المعاني بنفس الشاعر كان يعبر عنها بلا تكلف . هذا إلى سهولة الموضوعات ، وما تقتضيه من



رقة ودعابة ، لأنها موضوعات لهو . وأكثر طهوه ظريف مقبول ، لا تكاد تجد فيه خُشاً أو هُجراً .

أما نثره فهو نثر ممتاز في موضوعاته وأساليبه ومعانيه ، فقد كتب موضوعات شائقة طريفة ، نادرة في النثر العربي ، ككتابات القصصية الخيالية ، التي يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية ، فقالوا عنه : ” إنه في تنسيق الهزل والنادرة الحارة أفدر منه على غير ذلك “ . ويظهر من هذه الموضوعات أنه ولى بقاء بقراءة القصص ، واطلع على ما كتبه أهل الشرق في ذلك ، وجارى بعضهم في أساليبه ، كما في رسالته المسماة ” بالتوايح والزوايح “ وكرسالاته في الحلماء وغيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان . وهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة في نوعها ، فريدة في أسلوبها ، فإنها تدل على ميل خاص إلى الكتابة القصصية ، وبراعة في التصرف في المعاني وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء الأدباء . وما كان معروفا لديهم في النقد الأدبي ، على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيراً .

رسالة التوايح والزوايح <sup>(١)</sup> وموضوعها — رسالة التوايح والزوايح أطول رسائل ابن شهيد . وهى أشبه برسالة الغفران لأبي العلاء المعرى . ويظهر أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبي العلاء وعمل على محاكاتها . أما موضوعها ، فتمتد تخيل فيه أن له شيطانا ككل الشعراء ، اتصل به وعرفه وسار به إلى العالم الآخر ، وأركبه فرسا وطاف به على الشعراء الأقدمين وهم في حياتهم الآخرة ، فصار يُشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم . وقد تخيل لكل شاعر شيطانا وجهة ينزل بها ، ومنزلا يقيم به . فوصف هذه المنازل وصفا شعريا دقيقا ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى في أثناء وصفهم ومقابلاتهم على كثير من نقد شعرهم نقدا بيانيا مبنيا على ما يعطيه

(١) الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن . وقد سمي رسالته التوايح والزوايح لأن فيها لكل شاعر شيطانا .



اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة ، على حسب ما هو معروف في أساليب النقد الأدبي عند العرب . ووازن بين أشعارهم ، وذكر في أثناء ذلك كثيراً من شعره الرقيق ، وشيئاً من أشعار هؤلاء الشعراء . فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية .

أما أسلوبها فأسلوب مسيجوع ، به كثير من محاكاة ماشاع من أسلوب المقامات ، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة ، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية ، مما يحتاج إلى شرح وبيان ... ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية . وقد برع ابن شهيد في هذا النوع .

قطعة من رسالة التوابع والزوابع — ” وكان لي أوائل صَبُوتِي هَوًى  
اشتد له كَلْفِي ، ثم لحقني بعضُ مَلَلٍ في أثناء ذلك الميل . فاتفق أن مات من كنت  
أهواه مدة ذلك الملل ، فجزعت وأخذت في رثائه فقلت :

تولى الحِمَامُ<sup>(١)</sup> يظبي الخُذور      وفاز الرّدى بالغزال الغرير<sup>(٢)</sup>

إلى أن انتهيتُ إلى الاعتذار من الملل الذي كان ، فقلت :

وكنْتُ مَلَّتُكَ لا عن قِلِّي<sup>(٣)</sup>      ولا عن فساد ثَوِي<sup>(٤)</sup> في الضمير

فأرتجَ<sup>(٥)</sup> على القول . فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدْهم<sup>(٦)</sup> كأنما  
بقل وجهه<sup>(٧)</sup> ؛ قد اتكأ على رُحمه وصاح بي : أعجزاً يافقي الإنس ؟ فقلت لا  
وأبيك . للكلام أحياناً ؛ وهذا شأن الإنسان . فقال قل بعده :

كَمِثْلَ مَلَالِ الْفَتَى لِلنَّعِيمِ      إذا دام فيه وحال السرور

(١) الموت . (٢) المخدوع أو الطائش . (٣) القلي البغض . (٤) أفام واستقر .

(٥) أغلق . (٦) أسود . (٧) يريد نبت عذاره .



فَأَثْبَتَ إِجَازَتَهُ <sup>(١)</sup> . وَقُلْتُ أَبَى مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ مُمَيْرٍ ، مَنْ أَشْبَحَ الْجَن .  
تَصَوَّرْتُ رَغْبَةً فِي اصْطِفَائِكَ . قُلْتُ أَهْلًا بِكَ أَيُّهَا الْوَجْهُ الْوَضَّاحُ ، صَادَفَتْ قَلْبًا  
إِلَيْكَ مَقْلُوبًا <sup>(٢)</sup> ، وَهُوَ نَحْوَكَ مَحْبُوبًا . وَتَحَادَّثْنَا ، وَتَذَاكُرْتُ مَعَهُ أَخْبَارَ الْخَطْبَاءِ  
وَالشَّعْرَاءِ ، وَمَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ مِنَ التَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ . وَقُلْتُ لَهُ : هَلْ حِيلَةٌ فِي لِقَاءِ  
مَنْ نَفَقَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : حَتَّى أَسْتَأْذِنَ شَيْخَنَا ، وَطَارَعَ عَنِّي ، ثُمَّ انْصَرَفَ . وَقَدْ أَدْنَى  
لَهُ : فَقَالَ : جُلْ عَلَى مَتْنٍ <sup>(٣)</sup> الْأَدْهَمَ ، فَسَرْنَا عَلَيْهِ ، وَسَارَ بِنَا كَالطَّيْرِ يَحْتَابُ <sup>(٤)</sup>  
الْجَوَّ نَالِجًا ، وَيَقْطَعُ الدَّوَّ <sup>(٥)</sup> . فَالْدَّوَّ . حَتَّى لَمَسَتْ أَرْضًا لَا كَأَرْضِنَا . وَشَارَفْتُ  
جَوًّا لَا يَكُونَا : إِلَى أَنْ قَابَلَ صَاحِبَ امْرَأَةِ الْقَيْسِ ، وَجَرْتُ بَيْنَهُمَا مُطَارَحَةً  
شَرْيَةً فَقَالَ :

”ثُمَّ قَالَ لِي زُهَيْرٌ : مَنْ تَرِيدُ بَعْدَهُ ؟ قُلْتُ صَاحِبَ أَبِي نُوَّاسٍ قَالَ هُوَ يَدِيرُ  
حَنَّا <sup>(٦)</sup> ... وَسَرْنَا حَتَّى اتَّهَمْنَا إِلَى أَصْلِ دَيْرِ حَنَّا ، فَضَرَبَ زُهَيْرُ الْأَدْهَمَ . فَسَارَ بِنَا  
فِي فَنَيْتِهِ <sup>(٧)</sup> ، فَفَتَحَ سَمْعِي قَرْعُ النَّوَاقِيسِ فَقُلْتُ : فَصُحَّتْ <sup>(٨)</sup> عَنْ مَنْزِلِ أَبِي نُوَّاسٍ  
وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ... وَسَرْنَا نَجْتَابُ أَدْيَارًا وَكَأَنَّسَ وَحَانَاتٍ ، إِلَى دَيْرٍ عَظِيمٍ تَعْبَقُ رَوَاحُهُ  
وَأَصُوكَ نَوَاحِيهِ <sup>(٩)</sup> . فَوَقَفَ زُهَيْرُ بِيَابِهِ وَصَاحَ : سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ دَيْرِ حَنَّا . فَقُلْتُ  
أَوْصِرْنَا بِذَاتِ الْأَكْبَرِاحِ <sup>(١٠)</sup> ؟ قَالَ نَعَمْ . وَأَرْقَلْتُ <sup>(١١)</sup> نَحُونَا الرَّهَابِينَ ، مُشْدُودَةً  
الزَّنَانِيرَ <sup>(١٢)</sup> ، قَدْ قَبِضْتُ عَلَى الْعَكَازِ ، مُبِضَّةَ الْحَوَاجِبِ وَاللَّحَى ... مُكْثِرِينَ  
لِلتَّسْلِيحِ ، عَلَيْهِمْ هَدَى الْمَسِيحُ . فَقَالُوا أَهْلًا بِكَ يَا زُهَيْرُ أَبَى عَامِرٍ مِنْ زَائِرٍ وَصَاحِبٍ .  
مَا بَغَيْتُكَ ؟ قَالَ حَسَنُ الدَّنَانِ <sup>(١٣)</sup> قَالُوا : إِنَّهُ لَفِي شَرِّكَ الْخَمْرَةِ . مِنْذُ أَيَّامٍ عَشْرَةٍ ،

(١) كَتَبْتُ مَا قَالَهُ . (٢) يَرِيدُ : مُنْصَرَفًا إِلَيْكَ . (٣) الْمَتْنُ : الظُّهْرُ . (٤) يَقْطَعُ .  
(٥) الْفَلَاةُ . (٦) كَانَ بَظَاهِرِ الدَّكُوفَةِ بِيُوتِ صَفَارِ تَسْكُنُهَا الرِّهَابَانُ بِالْقَرْبِ مِنْهَا دِيرَانُ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا  
دِيرَ عَبْدِ وَلَا تَحْدِيرُ حَنَّا وَهُوَ مَوْضِعٌ كَثِيرُ الْبَسَاتِينِ وَالرِّيَاضِ . (٧) الْقَتَّةُ أَعْلَى الْجَبَلِ . (٨) يَرِيدُ أَنْ  
مَا بِهِ يَفْصَحُ وَيَدُلُّ عَلَى مَنْزِلِ أَبِي نُوَّاسٍ . (٩) صَاكٌ بِهِ الزَّعْفَرَانُ صَوَاكًا لَصَقَ بِهِ . وَالْمَرَادُ هُنَا تَفْوُجُ  
وَتَنْتَشِرُ . وَالنَّوَاغِ مِنْ نَفْحِ الطَّيْلِ انْتَشَرَتْ رَائِحَتُهُ . (١٠) هِيَ بِيُوتُ تَسْكُنُهَا الرِّهَابَانُ بِهَا دِيرُ  
عَبْدِ وَحَنَّا . (١١) أَمْرَعْتُ . (١٢) الزَّنَانِيرُ جَمْعُ زَنَارٍ بَضْمُ الزَّيْ وَهُوَ مَا يَشُدُّ عَلَى الْوَسْطِ .  
(١٣) بَرِيدُ أَبِي نُوَّاسٍ .



وما نراكما مُتَّفَعَيْنِ بِهِ . فقال : وعلى ذلك ؟ ونزلنا وقاد بنا إلى بيت قد اصْطَفَتْ  
 دنانهُ (١) وعكفت غِرْلانُهُ ، وفي دَيْرِ حنا شيخ طويل الوجه والسبلة (٢) قد افترش  
 أضغاث (٣) زهر ، وانكأ على زِقِّ (٤) من نمر ... فصاح به زهير : حيّاك الله  
 أبا الإحسان . بخاوب جوابا لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير افرع أذنيه  
 بإحدى نحرَيَاتِكَ ، فإنه ربما تنبّه لبعض ذلك فصاحتُ أشدُّ :

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ أَدْرَتْ بَدِيرَهُ      نَمَرَ الصَّبَا مُزِجَتْ بِصَفْوِ نَمُورِهِ

ومنها :

وَالَى عَلَى بَطْرِفِهِ وَبَكَفِّهِ      فَأَمَالَ مِنْ رَأْسِي لِعَبِّ كَبِيرِهِ  
 وَتَرَنَمَ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ      فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ

فصاح من حَبَائِلِ نَسْوَتِهِ ، وقال أَشْجَعِي ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء  
 قَرَاخًا فشرب منه وغسل وجهه ... الخ .

(١) جمع دن وهو وعاء الخمر . (٢) الشارب . (٣) جمع ضفث قبضة حشيش يختلط فيه الرطب  
 باليابس . ومنها أضغاث أحلام ، وهى الأحلام المختلطة الملتبسة . (٤) الزق : وعاء من جلد يستعمل للحمل  
 الماء والخمر .



## لسان الدين بن الخطيب

لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السَّلماني الغرناطي الأندلسي من رجال العلم والأدب في الأندلس وأشهر من عُرف في أواخر عصور العرب هناك بالأدب والفقه والفلسفة والطب وعلوم اللغة ، وشب بين العلماء ، وأخذ من كل علم طَرَفًا ، وبرع في كثير منها وألّف فيها ، فكان عالماً وفقياً ، وشاعراً وأديباً ، ومُتطببياً وكاتباً .

وقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر ، وهو السلطان أبو المجاج يوسف ، فجعله كاتبه ، وسَلَّم إليه الوزارة وأمر الدولة . ولما قُتل أبو المجاج ، خلفه ابنه محمد ، فأبقاه لديه كما كان عند أبيه . وأرسله إلى ملوك إفريقية يستنجد بهم على أعدائه ، وكان الاضطراب سائداً في ذلك الوقت ، وكثر الخارجون على السُّلطان ، ففسد لسان الدين كثيراً من معاصريه ، وسَعَوْا في الإيقاع به ، وحدثت حوادث دعتة للخروج من بلاد الأندلس والالتجاء إلى بلاد المغرب على أثر حقد الناس عليه ، واتهامه بالكفر والخروج على أصول الدين ، ثم قُبِض عليه في مدينة فاس وسُجِن وقُتل في سجنه ، ثم نُيِّس قبره وأُحرقت جُثته .

نثر ابن الخطيب وموضوعاته وخصائصه وأسلوبه — لقد ساعد ابن الخطيب اطلاعُه الواسعُ في اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتباً من كبار الكتاب ، فألّف في كثير من أنواع العلوم والآداب ، وكتب كثيراً من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية ، وكتب في التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها ، ورسائله طائفة بمعلوماته في الأدب والتاريخ والعلوم .



وكانت عنايته في كتابته الأدبية ، وخصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية إذ كان يُعنى باللفظ عناية عظيمة ، ويقصد إلى التعميق وتعمُّل السجع ، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء ، وعبارات التبجيل والتعظيم ، ولقد يطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الملل وتدلل على التكلف .

وقد كان أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيث تعمُّل السجع ، وزاد عليه ميله إلى الإطناب ، فكثيرا ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجماله كثيرة ، فكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإطالة والإطناب .

ويختلف أسلوبه العلمي عن أسلوبه الأدبي : فهو في أسلوبه العلمي لا يلتزم طريقة السجع ، بل يسرد العبارات سرِّداً ، وأحيانا يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية ، وتغلب عليه الصبغة الأدبية في كتبه العلمية ، فهو من أكر الكتاب وأوسعهم علما وأكثرهم تأليفا ، وله شعر يُحسب في الطبقة الثالثة بين الشعراء ، لأن أكثره أشبه بشعر الفقهاء منه بشعر الأدباء .

قطعة من نثر بن الخطيب — كتب ردا على خطاب : ” أهلا بخُفَّة القادم ، وريحانة المنادم ، وذكرِ الهوى المتقادم ، لا يُصغِر الله مسرك ، فما أسراك ، لقد جُبت إلى من همومي ليلا ، وجرت رجلا وخيلا ، ووقيت عن صاع الوفاء كيلا ، وظننت بي الأسف على ما فات ، فأعملت الالتفات ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللة السوداء من عددي ، ما أفلت من أشراكي المنصوبة لأمثالك ، حول المياه ، وبين المسالك ... .. وحيا الله ندبا إلى زيارتي نذك ، وبآدابه الحكيمة أدبك .

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهي شيمة بوركك من شيمة ... .. الخ “ .



ومما كتبه لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي :

”سيدى الذى هو فَصْلُ جِنْسِهِ ، وَمَنْزِيَّةُ يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ . فإن افتخر الدين من أهلك ببدره ، افتخر منك بِشِمْسِهِ . رَحَلَتْ عَنِ الْمُنْشَأِ وَالْفَرَارَةِ<sup>(١)</sup> ، ومحل الصبوة<sup>(٢)</sup> والغرارة<sup>(٣)</sup> فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة ، كتعلقها بتلك الذات التى لَطَفَتْ لَطَافَةَ الرَّاحِ . واشتملت بالمجد الصُّرَاحِ . شفقة أن يصيبها مَعَرَّةٌ . والله تعالى يقيها ، ويحفظها ويُنْقِئُهَا . إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل . والضدُّ عن ضِدِّهِ منحرف بالطبع ومائل .

فلما تعرفت خلاص سيدى من ذلك الوطن . وإلقاءه وراء القُرْضَةِ بالعطن<sup>(٤)</sup> ، لم تبقى لى تَعَلُّة<sup>(٥)</sup> ، ولا أَرْضَتْنِى<sup>(٦)</sup> له عِلَّةٌ ، ولا أَتَى جَمْعِى من قلة . فكتبت أهنى نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطولى<sup>(٧)</sup> . فالحمد لله الذى جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأئس بعد مماته . سبحانه لا مبدل لكلماته . وإياه أسأل أن يجعل العصمة حَظَّ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أن يصيبه . . . وأما حالى فكما علمتم : ملازمٌ كُنَّ<sup>(٨)</sup> ومهبطٌ تجربة وسِنٌ . أَرْجَى<sup>(٩)</sup> الأيام ، وأروم بعد التفرقة الالتئام . خالى اليد ، ملىء القلب والخلد<sup>(١٠)</sup> بفضل الواحد الصِّمد . عاملٌ على الرَّحْلةِ المجازية التى أختارها لكم ولنفسى ، وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى .

(١) يريد المكان الذى نشأ واستقر به . (٢) نشوة الشباب . (٣) يريد بالغرارة اللهو واللعب .

(٤) يريد موطنه . (٥) التعللة : ما يتعلق به . (٦) أحرصه الحزن أو المرض : أفسد بدنه .

(٧) يريد بنعمته العظيمة . (٨) الكن : البيت . (٩) أزجاء وزجاء : ساقه ودفعه برفق .

(١٠) الخلد : البال والقلب .



وقال لسان الدين بن الخطيب في ترجمة بعض مشايخه :

صَدُرُ<sup>(١)</sup> الصَّدُورِ الْجِلَّةِ<sup>(٢)</sup> ، وَعَلَّمَ أَعْلَامَ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَشَيْخُ الْكُتَابَةِ وَبَانِيهَا ،  
وَهَاصِرُ أَفْنَانِ<sup>(٣)</sup> البدائع وجانيها . اعْتَمَدَتْهُ الرِّيَاسَةُ فَنَاءَ بِهَا<sup>(٤)</sup> عَلَى حَبْلِ ذِرَاعِهِ ،  
وَاسْتَعَانَتْ بِهِ السِّيَاسَةُ فِدَارَتْ أَفْلَاكُهَا عَلَى قُطْبٍ مِنْ شَبَابَةِ يَرَاعِهِ<sup>(٥)</sup> ، فَتَفِيئاً<sup>(٦)</sup>  
لِلْعَنَايَةِ ظِلَا ظَلِيلَا ، وَتَعَاقَبَتِ الدُّوَلُ فَلَمْ تَرْبَهُ بِدِيلَا . . . لَا تَمْرُذَا كَرَةً فِي فَنٍ ، إِلَّا  
وَلَهُ فِيهِ التَّبَرُّيزُ ، وَلَا تَعْرِضُ جَوَاهِرُ الْكَلَامِ عَلَى مَحَاكِّ الْأَفْهَامِ إِلَّا وَكَلَامُهُ  
الْإِيرِيزُ<sup>(٧)</sup> . حَتَّى أَصْبَحَ الدَّهْرُ رَاوِيَا لِإِحْسَانِهِ ، وَنَاطِقَا بِلِسَانِهِ . وَغَرَّبَ ذَكَرَهُ  
وَشَرَّقَ ، وَأَشْأَمَ وَأَعْرَقَ ، وَتَجَاوَزَ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ وَالْخَلِيجَ الْأَزْرَقَ<sup>(٨)</sup> .

إِلَى نَفْسٍ هَذَّبَتْ الْآدَابَ شَمَائِلَهَا ، وَجَادَتِ الرِّيَاضَةَ تَحْمَائِلَهَا<sup>(٩)</sup> ، وَمُرَاقِبَةً لِرَبِّهِ  
وَاسْتِنْشَاقَ لِرُوحِ اللَّهِ مِنْ مَهَبَةٍ ، وَدِينَ لَا يُعْجِمُ عَوْدُهُ<sup>(١٠)</sup> ، وَلَا تُخَفُّ عَوْدُهُ . وَكُلُّ  
مَظْهَرٍ عَلَيْنَا مَعَشَرٍ بَنِيهِ مِنْ شَارَةٍ تُجَلِّي بِهَا الْعَيْنَ ، أَوْ إِشَارَةٍ كَمَا سُبُكِ الْجَيْنِ<sup>(١١)</sup> .  
فَهِيَ إِلَيْهِ مَنْسُوبَةٌ ، وَفِي حُسْنَاتِهِ مُحْسُوبَةٌ ، فَإِنَّمَا هِيَ أَنْفُسٌ رَاضِيَةٌ<sup>(١٢)</sup> بِآدَابِهِ ،  
وَأَعْلَقَهَا بِأَهْدَابِهِ ، وَهَذَّبَ طِبَاعَهَا ، كَالشَّمْسِ تُلْقَى عَلَى النُّجُومِ شُعَاعَهَا ، وَالصُّوَرِ  
الْجَمِيلَةِ تَتْرَكَ فِي الْأَجْسَامِ الصَّقِيلَةِ انْطِبَاعَهَا . وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي إِمَامِ الْأُمَمَةِ ،  
وَنُورِ الدِّيَابِجِ<sup>(١٣)</sup> الْمُدْهِمَّةِ ، وَالْمَثَلِ السَّائِرِ فِي بَعْدِ الصَّيْتِ وَعِلْوِ الْهَمَةِ .

(١) الصدر : مقدم كل شيء . يريد أنه أول المقدمين . (٢) يقال قوم جلة أى سادة .

(٣) هصر الغصن : عطفة وجذبه . والأفنان مفردة فتن : وهو الغصن المستقيم . (٤) نهض بها .

(٥) الشبابة : حد كل شيء . والمراد باليراع القلم . (٦) استظل وتبع ظلال الشجر .

(٧) الذهب الخالص . (٨) يريد أن ذكره طبق الآفاق .

(٩) جمع نخيلة : وهى الشجر الكثيف الملتف .

(١٠) عجم العود : غصه ليعلم صلابته من رخاوته . يريد أنه شديد الإيمان .

(١١) الفضة . (١٢) ذلها . (١٣) الدبابج : الظلمات .



وقال من مقامة له تُسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناسة :

”مكناسة مدينة أصيلة ، وشعب للحاسن وفضيلة . فضلها الله تعالى ورعاها ،  
وأخرج منها ماءها ومرعاها . بختابها سريع <sup>(١)</sup> وخيرها سريع ، اعتدل فيها  
الزمان وأنسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها  
الاختزان ، ولطفت فيها الأواني والكيان <sup>(٢)</sup> . ودنا من الحضرة <sup>(٣)</sup> جوارها ،  
فكثر قصادها من الوزراء وزوارها . وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبته <sup>(٤)</sup> الأبهة  
والمقاصير والأبهاء “ .

---

(١) مخصب .

(٢) جمع كوز وهو كالإبريق ولكنه أصغر منه .

(٣) المراد بها مدينة فاس كرسى الخلافة . وكان أهل المغرب يعبرون بالحضرة عن المدينة التي

يقيم بها الخليفة .

(٤) المدينة العظيمة ويراد بها هنا مدينة مكناسة .



## عبد الملك بن أبي الخصال

عبد الملك بن أبي الخصال الغافقي كاتب من كتاب الأندلس البغاء وأدباها  
الكبار. سكن قُوطبة ، ثم اتصل بولاية لمتونة بمراكش وفاس وكان كاتباً لهم . وقد  
اشتهر برسائله التي كانت من نماذج الكتابة في ذلك الوقت . تُوفى في سنة ٥٣٩ هـ .

كتب إلى بعض أصدقائه :

”الحذرُ أعزُّكَ اللهُ يُؤْتِي من الثقة ، والحبيبُ يُؤَدِّي من المِقة<sup>(١)</sup> . وقد كنتُ  
أرضى من ودك وهو الصحيحُ بلهجة ، وأفتنحُ من ثنائك وهو المسكُ بنَفحة .  
فما زلتَ تعرِّضني للامتحان ، وتطالبني بالبرهان ، وتأخذني بالبيان ، وأنا بنفسى  
اعلم ، وعلى مقدارى أحوط وأحزم ، والمعيدى يسمع به لا أن يرى<sup>(٢)</sup> ...“ .

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته :

”مثلك ثبت الله فؤادك ، وخفف عن كاهل المكارم ما أوهى بك وآدك<sup>(٣)</sup>  
يَلْقَى دهره غير مكثرث ، ويُنازله بصبر غير منتكث<sup>(٤)</sup> . ويسم عند قطوبه ،  
ويقل<sup>(٥)</sup> شبابة خطوبه . فما هي إلا غمرة<sup>(٦)</sup> ثم تتجلى ، وخطرة يليها من الصنع  
الجميل ما يلي . لا جرم أن الحر حيث كان حرّاً ، وأن الدرّ برغم من جهله در . وهل  
كنت إلا حساماً انتضاه<sup>(٧)</sup> قدر أمضاه ، وساعداً ارتضاه ، فإن أعظمه فقد قضى  
ما عليه ، وإن جرّده فذلك إليه“ .

(١) المقة : المحبة .

(٢) يشير إلى المثل المشهور : ”تسمع بالمعيدى خير من أن تراه“ .

(٣) آده الأمر أودا وأودا بلغ منه المجهود . والأودى الدواهى .

(٤) مقبوض .

(٥) فل السيف : ثلّه . وفل القوم : هزمهم ، يريد أنه يتغلب على الخطوب .

(٦) الغمرة : الشدة .

(٧) انتضى السيف : استله من غمده .



الثقافة العامة — أخذت بلاد الأندلس تتأهب للنهوض في العلوم والفنون منذ ملك البلاد بنو أمية ، وعنى الخلفاء بنشر العلوم ونقلها . ففي زمن عبد الرحمن الناصر نفقت العلوم والآداب ، ونُقِلَ منها ما كان عند العباسيين ، وكان الحكيم المستنصر ابنه مشغوفا بالعلوم عني بالكتب وجمعها . فكان يبعث إلى الأقطار في شرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يكن في بلد آخر . كذلك كان أكثر الأمراء .

فكان لأهل الأندلس في جميع العلوم والفنون المؤلفات العظيمة . وقد اختص بعضهم بالأدب وعلوم اللغة ، وعنى بعضهم بعلوم الدين : كالفقه والحديث والأصول والتفسير . واشتهر بعضهم بالعلوم العقلية والكونية : كإطرب والرياضيات . ومنذ أواخر القرن الرابع عني الناس بالاشتغال بالفلسفة ، بعد أن زال ما كان هناك من التعصب الذي أذاعه بعض الفقهاء والأمراء ، كالمصور بن أبي عامر وملوك البربر ، حتى حملوا على المشتغلين بهذه العلوم وسمّوهم بالزنادقة ، مجازاة لعامة الناس واكتسابا لعطفهم ، ولكن بعد أن هدأت هذه العاصفة ، ظهر هناك جماعة من الفلاسفة كابن ماجة وابن رشد وغيرهما .

الأدب وعلوم اللغة — أما الأدب واللغة فكان هناك كثير من اللغويين والأدباء . ومن أشهر أدبائهم إسماعيل بن القاسم الملقب بأبي عليّ القفالى صاحب كتاب الأمانى <sup>(١)</sup> وهذا الكتاب من أمهات كتب الأدب في اللغة العربية ،

(١) ولد ونشأ في ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم في بغداد . ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ فخل به عبد الرحمن الناصر وجعله مؤدب ابنه الحكم وعمله . واشتهر أمر القفالى في الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدباء زمانه . واشتغل بالتدريس في مسجد قرطبة وهناك أمل على تلاميذه كتاب الأمانى المشهور .



لجمعه كثيرا مما يحتاج إليه الأديب من الأشعار والأخبار، والفوائد اللغوية، وذكر كثير من الشعراء، وهو من الكتب التي تحسب من نماذج التأليف في الأدب العربي، ومن صور الحياة الأدبية إذ ذاك.

ومن كبار أدباء الأندلس — أحمد بن محمد بن عبد ربه. ولد سنة ٢٤٦هـ وتوفي بقرطبة سنة ٣٢٨هـ. وهو صاحب كتاب "العقد الفريد" الذي يحسب من أمتع كتب الأدب وأجلها فائدة وأوسعها مادة. جرى مؤلفه في تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه: فقسمه إلى عقود وجواهر، تكلم في كل باب منها على موضوع خاص. فجاء وفيها في الأدب العربي وتاريخ العرب وأحوالهم، جامعا لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة، وكثير من المسائل الأدبية محتويا على جملة من الحكايات والنوادر والملح، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر. وأكثر الكتاب مختار من كلام الكتاب والمؤلفين من أهل المشرق، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب.

ومن الأدباء — الفتح محمد بن عبد الله بن خاقان الإشبيلي. ولد سنة ٤٨٠هـ وتوفي سنة ٥٢٩هـ. ونشأ ببلاد الأندلس ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها. وكتب لبني تاشفين، وألف كتابيه "قلائد العقيان" و"مطمح الانفس" وهما من أشهر ما كتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم.

ومن علماء اللغة المشهورين — الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ في مدينة دانية من بلاد الأندلس. ألف كتابين من أشهر كتب اللغة ومعجماتها: وهما "المحكم" و"المختص" وكتاب المخصص من الكتب النادرة في اللغة العربية: لأنه مرتب على حسب الموضوعات، يذكر الشيء وأوصافه كلها وأجزائه، ويستوعب الألفاظ والمفردات الدالة على ذلك. ويقع في سبعة عشر مجلدا. وأما المحكم فهو معجم كبير في اللغة.



ومن علماء العربية — عمر بن محمد الملقب بأبي علي الشَّلوين كان إماماً في اللغة العربية ، عالماً بفنونها ، ومن كبار علماء النحو ، تخرج عليه كثير من علماء زمانه . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ وتوفي بها سنة ٦٤٥ هـ .

أما عناية أهل الأندلس بالعلوم الشرعية : كال تفسير والحديث والفقه والاصول والتوحيد ، فقد كانت تفوق كل عناية ، حتى لقد كانت ثقافتهم الدينية أظهر مميزاتهم ، ولم يكن عالم أو فيلسوف إلا درس الدين وألف فيه . وكثيراً ما كانوا يرحلون إلى بلاد المشرق ليأخذوا عن علمائه ويرووا عن فطاحله . كما فعل يحيى ابن يحيى بن كثير الليثي ، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراويها ومحدثها ؛ ارتحل إلى المشرق ، وسمع من الإمام مالك الموطأ ورواه عنه . حتى كان المشاركة يرجعون إلى روايته ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ . وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك في الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن النخعي ، وكان أميناً في دينه معظماً لدى الأمراء لترفعه عن القضاء . توفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ .

ومن فقهاء الأندلس المعروفين — عبد الملك بن حبيب السَّامِيُّ القُرْطُبِيُّ ، ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ . كان فقيه عصره ، سكن قرطبة وزار مصر ، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك عالماً بالتاريخ والأدب . ألف كتباً كثيرة منها ” طبقات الفقهاء ، وطبقات المُحدثين ، وتفسير موطأ مالك والواضحة “ وغيرها .



ومن المفسرين — أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القُرطبي ، كان من الحفاظ والمحدثين وُلد سنة ٢٣١ هـ وتوفي سنة ٢٧٦ هـ وكان من أكبر أئمة الحديث في الأندلس . روى عن ألف وثلاثمائة راوٍ .

ومن علماء التفسير والحديث المعروفين في الأندلس — القاضي أبو محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطي وُلد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ ، ومن أشهر كتبه ” الوجيز في تفسير الكتاب العزيز “ وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها .

ومن أشهر علماء الشريعة — القاضي عياض ، كان إمام الحديث في وقته ولد بمدينة سبته سنة ٤٧٦ هـ وولى القضاء بها ، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ، ومن كتبه الشهيرة ” كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى “ و ” طبقات الحاكيمين “ و ” مشارق الأنوار في غريب الحديث “ وغيرها .

الفلسفة والطب — أما علماء العرب في الفلسفة والطب والنجوم والرياضة فكثيرون . ذاع أمرهم في جميع الأصقاع وانتشرت مذاهبهم في أوروبا وغيرها ؛ فقد اشتغل المسلمون في الأندلس بالفلسفة كما اشتغلوا بغيرها من العلوم اللغوية والشرعية . ولكن ذلك لم يكن إلا بعد القرن الثالث الهجرى أى بعد أن هدأت ثورة الفقهاء وغيرهم من علماء الدين . على أن السخط على المشتغلين بالفلسفة بقى إلى العصور الأخيرة فكان هذا من أسباب تأخر اشتغال العلماء بهذا العلم ، ومع هذا فقد عنى المسلمون ثمة بالاطلاع على فلسفة اليونان عناية عظيمة .



## ابن رشد

ومن أشهر علماء الفلسفة من العرب أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ . درس ابن رشد العلوم الشرعية والطب في قرطبة وذهب إلى مراکش واتصل بأحد ملوك الموحدين وهو أبو يعقوب يوسف ، وصار من أتباعه ، كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن الطفيل ، الذي أشار عليه بشرح فلسفة أرسططاليس . ثم انتقل إلى الأندلس فتولى القضاء بإشبيلية وقرطبة في الثالث الأخير من القرن السادس الهجري . وفي نحو سنة ٥٧٨ هـ رجع إلى مراکش وحصل أن غضب عليه يوسف المنصور على أثر ما أذاعه عنه الفقهاء من المروق عن الدين لاشتغاله بالفلسفة ثم عفا عنه المنصور ورجع إلى الأندلس وتوفي سنة ٥٩٥ هـ .

وقد خلف ابن رشد عدة مؤلفات في الفلسفة والطب والنجوم فليخص كتب أرسططاليس وشرحها وذاع أمره في شرح الفلسفة اليونانية فكان لابن رشد الفضل الأكبر في ذلك لما كان له من البراعة ودقة الفهم كما اعترف بفضله معاصروه ؛ ولكن ذلك أثار عليه حقد الفقهاء وبعض الأمراء .

وألّف ابن رشد في علوم الشريعة والمنطق والنجوم . ويقولون إنه أول من تنبه للسفَع على وجه الشمس وتكلم عنها . وقد درس كتبه أهل أوروبا ومنها عرفوا كتب اليونان التي كانت مجهولة لهم .



### ابن حزم

ومن الفلاسفة المعروفين أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، أصل جده الأعلى من بلاد فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلس . ولد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحدِيث والفقه ، حتى صار من كبار العلماء في ذلك . وألف في علم الحدِيث والفقه والأصول ومراتب العلوم ، وكتب مباحث في أصول الأديان وما كان من التبدِيل والتغيير في بعضها . وألف رسائل في الطب والأدب . فكان عالما وأديبا وفقهيا وشاعرا متفنا في العلوم جميعها ، عاملا بعلمه حتى قالوا إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسِير والأخبار . وكانت بينه وبين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشنيع به ، حتى نفرت منه القلوب وأجمع فقهاء زمانه على تضليله ، فأقصته الحُكام عن بلاده حتى تُوفي سنة ٤٥٦ هـ .

ومن أشهر كتبه كتاب ” الفِصَل في المِلَل والنِحَل ” تكلم فيه على مذاهب الفلاسفة ومعتقداتهم وفَصَل الكلام على الفرق الإسلامية . وهذا الكتاب من أجل ما كُتب في هذه الموضوعات .

### ابن باجة

ومن الفلاسفة ابن باجة السرقسطي ، المعروف بابن الصائغ تُوفي بمدينة فاس من بلاد المغرب الأقصى سنة ٥٣٣ هـ وقد كان أيضا طبيبا ، مولعا بالموسيقى ومن واضعي الألحان فيها .

### ابن الطفيل

ومنهم أبو بكر بن الطفيل . كان من أعلم أهل زمانه في علوم الفلسفة وهو من أساتذة ابن رشد . وقد اشتهر بقصته الفاسفية الخيالية المسماة ” حَيّ بن يقظان ” تُوفي سنة ٥٨١ هـ .



## الرحلة من المشرق إلى المغرب

منذ فتح العرب بلاد الأندلس وجزائر البحر المتوسط وملكوا بلاد المغرب وهم يفدون زرافات ووحدا نا إلى هذه البلاد، للنجعة وطلب الرزق . لما ذاع من أمر بلاد الأندلس وما فيها من ترف وسعة ، فجاءها من كل فج كثير من الناس فامتلاّت بالوافدين إليها . ولما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الشهيرة تنافس بغداد في العلوم والفنون ، واقتناء الكتب واستهواء العلماء للمكث بها ، جاء إليها كثير من العلماء ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية في مجارة خلفاء بني العباس في الإفاضة على العلماء والأدباء بالعطايا ، وقدهم في ذلك ملوك الطوائف بعدهم ، وكان يقد إليها جلة علماء المشرق ، كالعالم اللغوي الشهير أبي عليّ القالي صاحب كتاب الأملی ، وقد تلقاه الحَكَم بن الناصر بأمر أبيه وأنزله منزلة رفيعة . وكان لزياب المغنى الذى جاء من بغداد أثر عظيم في إصلاح صناعة الغناء وبث بعض العادات التى كانت شائعة في مجتمعات بغداد . وغير هؤلاء كثير يُعدّون بالمئات من الوافدين إلى بلاد المغرب والأندلس . فكانت الصلة العلمية لا تنقطع بين البلدين . وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة أهلا بالراحلين من العلماء والأدباء ، فقد كانت قرطبة مركز العلوم في بلاد المغرب يقد إليها الطلاب من كل مكان ، ويرحل إليها الأدباء والشعراء . كما رحل إليها من جزيرة صقلية عبد الجبار بن حمّيس الشاعر المعروف ، والتحق بحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف . كذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيى بن يحيى الليثى والتقى بالإمام مالك بن انس وأخذ عنه مذهبه ونشره في بلاد الأندلس ، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعي .



فكانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وُطِّدت الصلات العلمية بين البلدين ونشرت هنا وهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم ما يعد مفخرة لجيل هذه الأيام .

أثر الأندلس في نقل الحضارة الشرقية إلى أوروبا — نقل العرب إلى بلاد الأندلس كثيرا من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية ، وأنشؤوا معاهد العلم في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومُرسية ، وغيرها من البلدان ، فانبعث من هذه العواصم ضوء العلوم في سماء أوروبا ، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة ، ودخل كثير من ألفاظها في اللغة الإسبانية ، وهجر الإسبانيون اللغة اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها . وصار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب ، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه ، كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيسة إلى لغة العرب . وقد قال بعض المؤرخين الإسبانين : ” إن من أدب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . وإنه لا شك في أن الإسبانين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفة اليونانية “ .

وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربي في لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا ، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا وأثرت في الشعر الغنائي وفي المقطوعات الشعرية المقفاة التي هي أشبه بالشعر العربي ومعانيه . ومن العرب اقتبس أهل أوروبا بعض أنواع الشعر ونقلوا عنهم حكم الفرس وأمثالهم .

وظهرت حضارة العرب في العلوم والآداب حين كانت أوروبا أواخر القرن الحادى عشر في جهالة ، فلم تتنسم ريح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين ، الذين بثوا بذور الحضارة هناك . ففي نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ أحد القساوسة في طليطلة معهدا لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى



اللغة اللاتينية . فكان لهذه الكتب التي ترجمت أثر عظيم في إيجاد حياة علمية جديدة . وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة كمؤلفات الرازى وابن رُشد وابن سينا ، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية . فترجمت كتب أرشميدس وأفلاطون وأرسططاليس وغيرهم ممن نقل العرب كتبهم إلى لغتهم . وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين في تاريخ الطب أكثر من ثلثمائة كتاب عربى ترجم إلى اللغة اللاتينية ، وقال : ” ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوربا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب . فبفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التى ضاع أصلها اليونانى ، فأوربا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر “ .

وقد بقي أهل أوربا لا يعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثانى عشر فكان جِلَّة العلماء هناك تلاميذ العرب أو ناقلين كتبهم . وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رُشد وابن سينا ، كما شهد بذلك الفيلسوف رينان . وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوربا . واتخذتها أساسا للدراسة والتعليم مدة ستة قرون . بل بقيت بعض كتب العرب الطبية تدرس إلى زمن قريب فى بعض جامعات أوربا . وكانت كتب ابن سينا تدرس فى جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر . وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس فى جامعات فرنسا لا سيما كتب ابن رُشد إلى أوائل القرن الثالث عشر . كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة فى بلاد إيطاليا . فوجود العرب فى أوربا نشر فيها كثيرا من العلوم والآداب التى كانت مهملة فى كل بلد آخر من هذه القارة حتى



في القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهد علمي إلا في بلدان الشرق الإسلامية وفي إسبانيا العربية من بلاد المغرب . ففي هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والآداب وإليها كان يفد طلاب العلوم من كل مكان . وفي هذه المعاهد تعلم "جُوبُرت" الذي كان بابا للديانة المسيحية سنة ٩٩٩ ميلادية وعُرف باسم سلفستر الثاني وأعجِب بعلوم العرب حتى اتَّهم بالمروق من الدين عند ما أراد أن ينشر في أوروبا ما أخذه عن العرب .

فبفضل العرب قامت أوروبا من سُباتها وبدأت نهضتها العلمية .



## اللغة العربية وآدابها

### بالمغرب وجزائر البحر

تشمل ممالك المغرب البلاد التي بين برقة والمحيط الاطلانتي من شمال إفريقيا وهي : ( ١ ) المغرب الأدنى أو إفريقية ( بلاد طرابلس وتونس ) ، ( ٢ ) المغرب الأوسط ( بلاد الجزائر ) ، ( ٣ ) المغرب الأقصى ( مراکش ) . وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر لعجمتهم . وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم ، ويزعم كثير من نسابيهم أنهم كلهم أو بعضهم من سلالئ عربية حميرية ومضرية وليس بصحيح .

وأم البربر صنفون كثيرة لهم لغات لا تخص ، وهم أهل بدو في معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعاً تاماً لشدة شجاعتهم وعصبيتهم ، ولم يلاق المسلمون في تاريخهم للبلاد التي افتحوها ما لا قوه في هذه البلاد ، فقد أسلموا وارتدوا اثنتي عشرة مرة وغدروا في كل مرة منها بالعرب وفتحوا بهم إلى أن دانوا للإسلام زمن ولاية موسى بن نصير ثم أزمان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى والأغلبة بإفريقية ، ولما أسلموا اتخذوا الإسلام سيفاً بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك باسم الشيعة مرة والأباضية أخرى والسنية حيناً ، ويفسسون لبعض بيوتاتهم أو بيوتات الأشراف العلويين ، بينهم ذولا بربرية أو عربية في حمايتهم ، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن بالمغرب ، وخاصة البلاد المنيعه منه . غير أن هذه اللغة لم تكن لغة قراءة وكتابة وعلم وأدب بل كانت اللغة العربية في جميع أطوارهم هي اللغة الرسمية في السياسة والعلم والأدب .

وتولاهم أولاً ولاة العرب زمن الأموية ثم دولة الأدارسة مستقلة بالمغرب الأقصى والأغلبة من قبل العباسيين بإفريقية ثم دولة الفاطميين وولاة بني أمية



بالأندلس ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين فبنى مرين بالمغرب الأقصى والأوسط ، ومن الصنهاجيين بإفريقية . ونشأ من هذه الدول دول صغيرة بإفريقية والمغرب الأوسط حتى ولى الأشراف السعديون ثم السجلماسيون بالمغرب الأقصى واستولى الترك العثمانيون على المغرب الأوسط والأدنى فمن ذلك ترى أن العصر الأول ، وهو عصر الولاة لبنى أمية فى دولتهم والأغالبة من قبل بنى العباس ، كان للعرب فيه النفوذ الأعلى ؛ فارتقت اللغة وآدابها وعلومها زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم من الصنهاجيين ارتقاء لم يحظ العرب بعده بمثله . وكانت مدينة القيروان هى كعبة علوم الدين واللغة والأدب ، ونبغ فيها من العلماء والكتّاب والشعراء فريق كادوا يلحقون فحول المشرق خطابة وكتابة وشعرا وعلماء .

ثم أدخل الفواطم بمصر كثيرا من العرب الضاريين بشرق مصر من بنى هلال وسليم وجشم ورياح وغيرهم بلاد المغرب تأديبا للصنهاجيين الخارجين عليهم ، فانتشروا فى المغرب كله وكانوا بداءة جهلة فخرّبوا كثيرا من مدنه ونشروا فيه اللسان العربى البدوى بلا علم ولا أدب مُدَوّن .

وبقى العلم والأدب يخبذان تارة وينتعثان أخرى زمن دول البربر حتى استولى الترك ثم الفرنسيون على المغرب الأدنى والأوسط فاضمحلا بهما وبقي منهما ذمء بالمغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة جديدة متأثرا بالنهضة العامة فى مصر والشرق .

وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب فى هذه الأطوار رجالا من الأندلسيين أو المشرقيين استوطنوا المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بإفريقية زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم ، ويضيق بنا المقام عن تفصيل أحوال اللغة والأدب والعلم بالمغرب . وإنما نذكر بوجه الإجمال النبذ الآتية مثلا لحالة الشعر والأدب فيه .



## الكتابة

كانت الكتابة زمن الولاة مقصورة على الأمراء والعلماء حتى تخرج في الفصاحة الموالي من البربر فشاركوهم فيها . ولما رشح سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة في المغربين الأوسط والأدنى أصبحت الكتابة صناعة اقتدى الكتاب فيها بكتاب الأندلس غربا وبكتاب المشرق شرقا ففشا فيها السجع والتأنق في المجاز والاستعارة . وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيوش وأمراء الأساطيل .

ومن أشهر كتاب عصر الصنهاجيين علي بن أبي الرجال . وابن رشيق . وابن شرف . وابن القزاز .

ولما قامت دولة المرابطين جدّوا في استدعاء الكثير من أعيان كتاب الأندلس حتى اجتمع في بلادهم من العُدوة الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف بالأندلس .

وأشهرهم أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال . وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون . فنشروا طريقة الأندلسيين في الكتابة وتخرج عليهم كثيرون نبغ منهم في دولة الموحدين ابن عياش . وابن محشوة . وابن الميمون .

ثم اضمحل أمر الكتابة بالتدريج حتى أصبحت مجرد سجع قليل البلاغة متكلف التقفية . وهاك فصلا من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله إبراهيم أحد خلفاء الموحدين إلى بعض نوابه وقد تقض العهد على بعض المهادين من النصاري . قال بعد الديباجة : ” وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصاري والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى ، ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلا



ونخوة تعقب هو انا وذلا . وقد أخطأتم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه : ( أحدها )  
أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد . ( الثاني ) عصيان الأمر  
العزیز وفيه التغریر بالمهيج ، وترك السعة للخرج . ( الثالث ) انكم تثيرون على أنفسكم  
من شر عدوكم ، قصمه الله ، شررا يستعزض ما يعدم فيه المتصبر فليتكم إذ تحلitem  
بالعصيان ، ورضيتم الغدر المحرم في سائر الأديان ، ثبتتم للعدو إذ دهمكم ، ولقيتموه  
بالجانب القوى حين زحمتكم . فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله وقوته فأدوا من  
أسرتم إلى مأمنه وردوا ما اتهمتم إلى مسرحه ، ولا تمسكوا من الأسارى بشعة ، ولا  
من الماشية ببوبة ، ومن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم ،  
وخالف هذا الحكم ، أنفذنا عليه الواجب وحكنا فيه المهند الغاضب . فلتسرع من  
نومة الغفلة إفاقتكم ، ولا تعرضوا من الشر ما تعجز عنه طاقتكم : ونحن متعرفون  
ما يكون منكم من تأن أو بدار ، ومقابلون لكم بما يصدر عنكم من إقرار وإنكار .  
وهو يرشدكم بمنه والسلام عليكم ورحمة الله .



## الشعر

ينزل الشعر العربي مع العرب أينما نزلت ولكنه لا يصير صناعة عديدة يتوافر عليها أناس يتكسبون بها إلا حيثما تكثر جمهرة العرب بتأثر ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغاً أشده في ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامي، حتى إذا توطدت للعلويين الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى وللاغالبة التميميين دولة بإفريقية من قبل العباسيين جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فيهم العلماء والأدباء والشعراء والنحاة فغرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابتة طلبت العلم من معادنه ورحلت إلى المشرق فنمت تلك الغراس وأيعت ثمارها أزمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلافها من الصنهاجيين ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمتونة والموحدين من المصامدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتاب والشعراء من مراکش وفاس وتونس فكانت منهم في المغرب صورة أندلسية في كل العلوم والآداب والشعر.

ولكن الشعر لم يصل في جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التي سما إليها في الأندلس وإن نبغ فيه في بعض العصور من لا يقل عن الأندلسيين بلاغة قول، وبداعة تصور، وروعة وصف، كعليّ الإيادي والحصرى وابن رشيق القيرواني وابن شرف القيرواني وابن حمديس الصقلي وغيرهم.

وقد حاكى شعراء المغرب الأندلسيين في التوشيح والزجل وراج بينهم بعيد اكتساح بدو المشرق من رياح وجشم وهلال وسليم لإفريقية، ضرب من الشعر العامي على شكل القصائد العربية الفصيحة من الأوزان والتزام قافية واحدة في القصيدة، وربما أتوا بمربعات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب وتسمى هذه القصائد في المغرب بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي الراوية الشهير وأكثر ما تكون من بحر الطويل ويأتي الشاعر فيها أولاً على ذكر اسمه ثم يتبعه بالنسيب أو بالدخول على الغرض.



## ابن رشيق

له شعر أشبه بشعر العلماء والفقهاء منه بشعر الشعراء البلغاء المتفنيين ولكنه من نوع الشعر المعروف في زمانه ، بعضه في المدح وبعضه في الحكم ونقد أخلاق الإنسان وبعضه في الفكاهة . وهو في جملته سهل الأسلوب به شيء من الصناعات اللفظية التي ذاعت في زمانه .

فمن قوله في النصيحة :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| من يصحب الناس مطوياً على دحل | لا يصحبوه ، فخلوا كل تدخيل   |
| لا تستطيخوا على ضعفى بقوتكم  | إن البعوضة قد تعدو على الفيل |
| وجانبوا المنح إن الجدي يتبعه | ورب موجعة في إثر تقييل       |

ومن قوله في المداعبة واغزل :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| ولما بدا لى أنها لا تحبنى    | وأن هواها ليس عنى بمنجلى   |
| تميت أن تهوى سوى لعلها       | تذوق صبايات الهوى فترق لى  |
| فما كان إلا عن قليل وأشغفت   | بحب غزال أدعج الطرف أخل    |
| وعذبتها حتى أذاب فؤادها      | وذوقها طعم الهوى والتذلل   |
| فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت | حياء وقالت : كل عائب ابتلى |

ومن قوله في العتاب :

|                               |                                |
|-------------------------------|--------------------------------|
| وقد كنت لا آتى إليك مُحَاتلاً | لديك ولا أثنى عليك تصنعاً      |
| ولكن رأيت المدح فيك فريضةً    | على إذا كان المديح تطوعاً      |
| فقممت بما لم يخف عنك مكانه    | من القول حتى ضاق مما توسعاً    |
| ولو غيرك الموسوم عندى بريية   | لأعطيت منها مدعى القول ما ادعى |



فلا تَتَخَالَجَكَ الظُّنُونُ فَإِنَّهَا  
 فَوَ اللَّهُ مَا طَوَّلْتُ بِاللَّوْمِ فِيكُمْ  
 وَلَا مَلْتُ عَنْكُمْ بِالْوَدَادِ وَلَا انْطَوْتُ  
 بِلِي رُبَّمَا أَكْرَمْتُ نَفْسِي فَلَمْ تَهِنْ  
 وَلَمْ أَرْضَ بِالْحِظِّ الزَّهِيدِ وَلَمْ أَكُنْ  
 فَبَايَنْتَ لَا أَنْ الْمَوَدَّةَ بَايَنْتَ  
 أَلَوْذُ بِأَكْتَانِ الرِّجَاءِ وَأَتَّقِي  
 مَاثِمٌ ، وَاتْرَكَ فِي الصَّنْعِ مَوْضِعًا  
 لِسَانًا وَلَا عَرَّضْتَ لِلذَّمِّ مَسْمَعًا  
 حِبَالِي وَلَا وَلِيَّ ثَنَائِي مَوَدَّعًا  
 وَأَجَلَلْتُهَا عَنْ أَنْ تَذَلَّ وَتَخَضَعَا  
 ثَقِيلًا عَلَى الْإِخْوَانِ كُلًّا مُدْفَعًا  
 وَقَاطَعْتَ لَا أَنْ الْوَفَاءَ تَقْطَعَا  
 شِمَاتِ الْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا

وقال :

أَحِبُّ أَخِي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ  
 وَلِي فِي وَجْهِهِ تَقْطِيبٌ رَاضٍ  
 وَرَبُّ تَقْطُيبٍ مِنْ غَيْرِ بَغْضٍ  
 وَمَلَّ عَلَى مَسَامِعِهِ كَلَامِي  
 كَمَا قَطَبْتُ فِي وَجْهِهِ الْمَدَامِ  
 وَبَغْضٍ كَامِنٍ تَحْتَ ابْتِسَامِ



## ابن حمديس الصقلي

مولده ونشأته — ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأندلسي الصَّقْلِيّ بجزيرة صقلية سنة ٤٤٧ هـ. وبقى هناك إلى سنة ٤٧١ هـ ، ثم هاجر إلى بلاد الأندلس ونزل بمدينة إشبيلية ، وعاش بها في حاشية المعتمد بن عباد ، وهاجر معه إلى بلاد المغرب ، وتوفي سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة . فكانت أيامه في صقلية أيام شدة ، استولى فيها النورمنديون على البلاد إثر اضطراب بين ولاة العرب هناك . وقد خرجت الجزيرة من يدهم سنة ٤٤٤ هـ . وكانت هناك حروب فتى فيها المسلمون وعاشوا في أشد أوقات الأهوال ، ودارت عليهم الدائرة لفساد أمرهم ، فأخذوا يفرون إلى بلاد المغرب وإلى الأندلس ، وهم يشاهدون في صقلية مجدهم ينهار وعزهم يزول . ففارق البلاد كثير من العلماء والأدباء ، وسار جماعة إلى المعز حاكم إفريقية مستصرخين ، وجماعة إلى الأندلس .

شعره وخصائصه — كانت الحياة التي شاهدها وعاش فيها ابن حمديس غير حياة غيره من الشعراء لأن هذا الاتصال الذي كان بين الأمم المختلفة من سكان صقلية لم يحصل في بلد إسلامي . وكانت الحوادث الاجتماعية والسياسة والحياة العقلية التي وقف عليها ابن حمديس وشاهدها سببا في تهذيب خياله وفكره حتى جعلت له صبغة خاصة في شعره . فكان بعيد الغور في تفكيره وخياله ، كثير التأمل في الحياة ومظاهرها ، تملأ نفسه ذكريات أيامه الماضية وحبه لبلاده والأهوال التي مرت به ومر بها . وقد ظهر ذلك في شعره . فتجده أحيانا باكيا متألما ، وحيثا فرحا مسرورا ، ولكن قرارة نفسه كانت مملوءة بأنواع الآلام من حوادث الأيام . فشعره مرآة لحياته النفسية ومشاهداته وآرائه . أما أسلوبه ففيه الصبغة الفنية الشخصية التي تميز الشاعر المتفنن من غيره ، فهو فضلا عن رفته وسلامته اللفظية ، وصناعته الخفية ، يكاد يكون شعره من الشعر المطبوع الذي



يصل إلى النفس بدون حجاب ، ويجذب الأفتدة إليه . وهو على ما به من الصناعة واحتوائه كثيرا من أنواع المحسنات اللفظية ، لاتكاد تلمح فيه ذلك . فهو في جملة أسلوب سلس رقيق ، ليس به تعقيد ولا خفاء في المعنى . وأكثر استعاراته مستملح دقيق .

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل ومجون ورناء وشكوى ودعابة وعبرة وغير ذلك . ومن المعاني التي مرت بخاطره كثيرا وأكثر من ذكرها في شعره حنينه إلى وطنه ، وذكر أيامه الأولى في جزيرة صقلية . حيث يبكي فيها صباه ، وتملى عليه ذكرياته الماضية ، كثيرا من الآلام ، وأحيانا تذكره ما كان هناك من سرور يمرح في بحبوحته ، وكثيرا ما تجده يبكي وطنه لما حلّ به من المصائب ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب . كقوله :

|                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| ذكرت صقلية والأسى      | يهيج للنفس تذكارها     |
| ومنزلةً للتصابي خلّت   | وكان بنو الظرف عمّارها |
| فإن كنتُ أخرجتُ من جنة | فإني أحدث أخبارها      |
| ولولا ملوحة ماء البكاء | حسبت دموعي أنهارها     |

وقوله :

|                            |                                 |
|----------------------------|---------------------------------|
| ولو أنّ أرضي حرّة لأيتها   | بعزم يعد السير ضربة لازب        |
| ولكن أرضي كيف لي بفكائها   | من الأسر في أيدي العلوج الغواصب |
| أمثلها في خاطري كلّ ساعة   | وأرى لها قطر الدموع السواكب     |
| أحنّ حنين النيب للوطن الذي | مغاني غوانيّه إليه جواذب        |
| ومن يك أبقي قلبه رسم منزل  | تمنى له بالجسم أوبة آتب         |



وله في الوصف بدائع فقد وصف دارا ( بناها المنصور ) فقال :

وإذا نظرتَ إلى غرائب سقفه      أبصرتَ روضا في السماء نضيرا  
وضعتُ به صنّاعه أعلامها      فأرتك كُلَّ طريدة تصويرا

ثم ذكر بها بركة عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه . وتفنن فذكر  
أسودا على حافتها تقذف بالماء أيضا فقال :

وضراغم سكنت عرين رياسة      تركت خرير الماء فيه زئيرا  
فكأنما غشي النضار جسومها      وأذابَ في أفواهها البلورا  
أسد كأن سكونها متحرك      في النفس لو وجدتُ هناك مُثيرا  
وتذكرت فتكاتُها فكأنما      أقعت على أدبارها لتشورا  
وتخالها والشمس تجلولونها      نارا وألسنها اللواحس نورا

ومن قوله في الوعظ :

غرّتك دنياك التي      لها سراب يخدعك  
يضررك الحرص بها      والزهد فيها ينفعك  
لا تأمنن منية      إن عصاها تفرّعك  
مغربك القبر الذي      يكون منه مطلعك  
وللحساب موقف      أهـواله تُروّعك  
يراك ذو العرش الذي      ناديته ويسمعك  
فمق به ولا يكن      لغيره تضرعك



## الثقافة العلمية بالمغرب وجزائر البحر

العلوم الدينية — كان المسلمون في أول أمرهم بالمغرب لا يُعَنُونَ إلا بعلوم القرآن والحديث والفقه ؛ فأخذوا فِقْهَهُمْ عن صاحب مالك ابن قاسم المصرى ، وأولهم أسدُ بن الفرات مفتى الجماعة بالقيروان زمن الأغالبة ؛ وتلميذه سُحْنُونُ الذى نَقَلَ مَدُونَةَ الفقه التى رواها ابن قاسم عن مالك ، وخلصها ابن أبى زيد القيروانى وعندهم انتشر مذهب مالك فى المغرب إلى وقتنا هذا إلا فى فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والفاطميين وفقه الخروج .

وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعالمين على إبادة فقه الشيعة وغيرهم المعز بن باديس عند ما خلع طاعة خلفاء مصر من الفاطميين .

أما علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل . وكان لهم فيه حفاظ ثقات ؛ إلا أن بُعد الشقة عليهم جعل أكثرهم لا يرحلون فى طلبه إلا إذا خرجوا للحج . ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التى صَحَّتْ عند المشاركة ككتب السنة الستة المشهورة . واشتهر عندهم من بينها صحيحُ مُسْلِمٍ ، وفضلوهُ على صحيح البخارى ، وشرحه كثير منهم ، ومن أشهر شروحه شرح المازرى الصقلى .

وتعصب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أى مطاردة .

أما علم الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث فى الجدلّيات المستمدة من غير الكتاب والسنة ؛ إلا أن الفواطم أدخلوا معهم فى المغرب عقائدهم فى الدين ممزوجة بالفلسفة ؛ فاشتغل بها فى زمنهم بعض أهل أفريقيا وبعض من دخل فى طاعتهم من دولة الادارسة . ولما تقلوا حاضرة ملكهم إلى القاهرة نُسخَ مذهب الشيعة فى المغرب أو كاد ؛ ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلا



ريثا ظهر مهديّ الموحدين ابن تومرث ناقلا مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالي ، وجعل علم التوحيد غايته من دعوته ؛ وألّف فيه كتباً . وجاء خلفاؤه من بني عبد المؤمن فحفلوا به وشجعوا المؤلفين فيه والمستغنين بعلوم الأوائل .

علوم الأدب والعربية — كانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيرا عن عنايتهم بعلوم الدين ، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين ولم يكن لهم في النحو رواية عن الأعراب ولا مذهب خاص كما صار للأندلسيين فيه .

ولكن اهتمام المعز بن باديس بالأدب وأهله أنبت في القيروان نابتة من أئمة النحو ؛ والأدب واللغة كالإمام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع في اللغة ، ويعتبر من أمّهات كتبها رتبته على حروف المعجم وتوفي سنة ٤١٢ هـ وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أدباء القيروان ، والعلامة في كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاشعي القيرواني صاحب التصانيف الممتعة في اللغة والأدب والحديث والتفسير مات ببغداد سنة ٤٧٩ هـ ، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصقلية عليّ بن القطاع الصقلي صاحب كتاب الأسماء وكتاب الأفعال وغيرهما من المؤلفات الضخام تُوفي بالقاهرة سنة ٥١٤ هـ وعثمان بن عليّ السرقوسي الصقلي المقرئ النحوي اللغوي وغيرهما .



## العلوم الفلسفية

دخلت علوم الأوائل المغرب زمن الفواطم ، نقلوها مع عقائدهم المزوجة : مسائلها ووافق ذلك زمن المستنصر الأموى . وهو أيضا جاب إلى قرطبة جمهرة الكتب التى عرفت فى زمنه من علوم الإسلام والأوائل ؛ إلا أن العامة والفقهاء فى زمنه وبعده اضطهدوا من يشتغل بعلوم الفلاسفة القدماء ولكنها أمنت شر المضطهدين عند بعض ملوك الطوائف بالأندلس فنفع فيها كثيرون . ولما آل ملك الأندلس والمغرب إلى المرابطين بالغوا فى اضطهاد من يشتغل بها ما عدا الرياضة والطب والميقات ، إلى أن جاءت دولة الموحدين ؛ فأدخل إمامهم المهديّ ابن تومرت مذهب الأشاعرة من المتكلمين ؛ ولا جرم أن علم الكلام يمتزج بكثير من مسائل الفلسفة ، بل إن المنطق ، وهو آلة النظر فيه من علوم الفلسفة فاهتم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من خلفائهم بجمع كتب الفلسفة على أنواعها ، واستقدم إليه كل من سمع به بالأندلس ، بجاءه المتفلسفون والمتكلمون والأطباء والفلكيون من كل صقع ، وكان مقدّمهم عنده ابن الطفيل صاحب رسالة حى ابن يقظان .

ولخص له ابن رشد كتب أرسططا ليس بعبارة فصيحة كانت أساسا لنشر مذهب خاص له بالمغرب وعنه أخذ علماء غربي أوروبا .

ثم صارت هذه العلوم فى المغرب تنتعش مرة وتجمد أخرى إلى وقتنا هذا .

ومن علماء المغاربة الذين برزوا فى هذه العلوم ، وخاصة الفلك والجغرافية ، الشريف الإدريسي الذى ألف لرجار الترماندى ملك صقلية كتابا فى الفلك والجغرافية ورسم له الأرض فى صور جغرافى اتخذه من الفضة فكان أصح من رسم بطليموس



## العصر التركي إلى بدء النهضة الحديثة

### ( ١ ) عصر المماليك

سقوط بغداد — كان سقوط بغداد في سنة ٦٥٦ هـ كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهية ، وقضت على عهد مجيد كان نخر المسلمين ومرجع زهوهم .

وقصة سقوط بغداد مؤلمة جدا ، وهي مفصلة في الجزء الأول من كتاب المنتخب فارجع إليه .

سقطت حاضرة الإسلام في سنة ٦٥٦ ، حتى إذا كانت سنة ٦٥٩ هـ قدم مصر أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسي ، وخرج السلطان بيبرس للقائه ، ومعه القاضي والوزير والعلماء والأعيان والشهود ، ودخل من باب النصر ، وبعد أيام جلس السلطان والخليفة في حفل من القضاة والأمراء ، وأثبت القاضي نسب الخليفة فبايعه شيخ الإسلام ثم السلطان ثم غيرهما من كبار الدولة ، ولقب بالمستنصر وكتبت بيعته الى الآفاق .

وبعد أشهر طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد ، وبينما هو في الطريق نرح عليه عسكر التتار فلا يُدرى أقتل أم هرب ، وكان ممن حضر هذه الموقعة أبو العباس ابن الخليفة المسترشد بالله ، فقدم القاهرة فتلقاه السلطان وأظهر السرور به ، ثم أثبت نسبه وبايعه وبايعه الناس ، ولقب بالحاكم بأمر الله ،



ثم أسكنه السلطان عنده في القلعة ؛ وما زال بنو العباس يتوارثون الخلافة بمصر حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ .

التجاء الآداب العربية إلى مصر — تطلع العلماء في جميع أقطار العالم الإسلامي إلى مهرب يلتجئون إليه ؛ بعد أن تحكّم التتار في حاضرة الإسلام ودار السلام ، وهدموا مدينتها وعقّوا على آثار مجدها ، وقصّوا على مظاهرها حضارتها ، وأعملوا السيف في أهلها أياما ، وقذفوا في نهر دجلة بالكتب وهي خير ما أنتجته قرائح المسلمين . رأى العلماء ورجال الدين كلّ ذلك ، ورأوا أن الديار نبت بهم فالتسوا مكانا يطيب لهم فيه المقام . وتزدهى فيه العربية وتحقق راية الإسلام . فإلى أين يذهبون بعد أن ملك التتار ما بين صحراء المغول إلى ما وراء البحر الأسود وسواحل بحر الروم ؟ أيذهبون إلى بلاد العرب وهي وان كانت مهد العربية تقلص ظلها عنها منذ حين ودالت فيها دولة العلم والأدب ؟ أيذهبون إلى إفريقية على بعد شقتها وقرب مصر إليهم ؟ أيذهبون إلى الأندلس وقد تغلب عليها الإسبانويون ولم يبق فيها إلا رُقعة صغيرة حول غرناطة توشك أن تسقط في أيدي المسيحيين ؟ إلى أين يذهبون ؟

تطلع العلماء شرقا وغربا فلم يجدوا غير مصر خصوصا بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقر الإسلام ، فرحلوا إليها من جميع الأقطار . فكنت ترى القاهرة ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية تموج بهم موجا ، وكنت ترى بينهم العراقيّ والشاميّ والفارسيّ والأندلسيّ والإفريقيّ والمجزيّ ، وقد وطأ لهم السلاطين أكافهم ، وأنزلوهم مُتَرَلًا مباركا وأغدقوا عليهم الصلوات والإحسان ، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم ، فوجدوا حرما آمنا ، ومكانا يُنبت العز ، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرن .



القاهرة مركز الثقافة العربية — أصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا ، وكانت في ذلك الحين كما وصفها القلقشندي في شيء من الزهو فقال : ” ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصا بعد خراب القسطنطينية وانتقال أهلها إليها ، حتى صارت إلى ما هي عليه في زماننا من القصور العالية ، والدور الضخمة ، والأسواق الممتدة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار ، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار “ .

ولو سلمت مصر في هذا العصر من نوبات الظلم وفداحة المكوس ، والمجاعات والطواعين والاضطرابات ، التي كانت تقع بين طوائف الممالك وبينهم وبين العرب لكتب القلم للأدب تاريخا غير هذا ، وبلغت العلوم والآداب منزلة أعلى وأرفع . وعلى الرغم من هذا فإن مصر نهضت نهضة علمية مباركة في هذه الأيام ، وأهم أسباب هذه النهضة غير العلماء وحرصهم على إعادة مجد الإسلام ، الذي بعثته أيدي التتار ، ثم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلم وأهله .

عطف السلاطين على رجال العلم والدين — والحق أن سلاطين مصر كان لهم ميل إلى العلم والعلماء ، وكان في أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله ، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الإسلامية وأن دولتهم صارت ملجأ الإسلام ومبأة أهله ؟ ألم يروا ما أصاب الدول قبلهم بسبب الانغماس في اللهو والصدوف عن أوامر الدين ؟ ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعمل به وتعظيم أهله مما يقرّبهم إلى قلوب الرعية ، ويفقر لهم ما تصادفه منهم أحيانا من أمواج الطغيان . فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخبارا تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم . قال في حسن المحاضرة : ” وكان الظاهر بيبرس منقما تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ : ” ما استقر ملكي إلا الآن “ .



وحضر الظاهر في محاكمة في برلين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز ؛ فقام الناس سوى القاضى ؛ فإنه أشار إليه ألا يقوم ، وقام هو وغيره بين يدى القاضى وتداعيا .

وترجم الحافظ بن حجر في معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال : ” أين مثله ؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معه أجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فكانت لا تفارقه سفرا ولا حضرا “ .

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب ، فامتلات خزائن الكتب في عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام ، كما سنقصه عليك بعد حين . وكان من بر السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء ، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت في كنفهم آمنة هائلة .

وأيدى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق وبيارستانات . وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشئ الكثير .

وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة ؛ وبني المماليك نحو خمس وأربعين ؛ ومن هذه المدارس ما كان مختصا بالصوفية ، وكانت المدارس في هذا العهد تروج بالطلاب يفدون إليها من جميع أقطار الإسلام للارتشاف من مناهل العلم ؛ وكانت تفاض عليهم الهبات وضروب الإحسان من الأوقاف المحبوسة على العلم وأهله ؛ ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر ، فكان يصرف لهم الطعام والكسأ وتهباً لهم المساكن ليعيشوا هائنين لا يشغلهم شغل عن طلب العلم والتجرد له .

موازنة بين هجرتين — لذلك هاجر العلماء والطلاب إلى القاهرة من كل حدب وصوب ، كما تفر الطيور أزجها الصيادون إلى حيث الأمن والسلامة ، وإلى



حيث لا تسمع إلا تحرير الأنهار وحفيف الأشجار . وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإسلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه من بعض الوجوه هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا . فإن السلطان محمد الفاتح حينما فتح القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هـ فرّ منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا ، وهناك أحيوا دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ونشروا ثقافة جديدة . وبعد المؤرخون هذه الهجرة مبدأ لنهضة إحياء العلوم بأوروبا ، ويجعلونها الحدّ الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة الأثر بلا ريب ، فإنها دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها ، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها ، وفتحت الأعين المغلقة إلى ما في الكون من عجائب مكنونة ، كان يغطيها ظلام الجهل الدامس ، وجعلت كل إنسان يحسّ أن له إرادة وفيه قدرة ، وأن له الحق في الاستقلال بفكره ، والاعتزاز برأيه ، فنشأ انقلاب عظيم في العادات والأخلاق والأديان ونظام الدول والجماعات وقد كان هذا الانقلاب أساسا للمدنية الحديثة التي تعيش أوروبا اليوم في ظلها .

أما هجرة العلماء والطلاب إلى مصر فلم تُحدث أثرا في النظم الاجتماعية والسياسية لأنها أخذت اتجاها علميا محضاً ، ولأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت في الأذهان بعد ، وربما كان حكم المماليك في ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم ، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود ، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الاجتماعي لوجدت في آراء ابن خلدون في مقدمته مجالاً للعمل وحافزا إلى النهوض ، فإن فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الاجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغناء ، ولكننا لا نجد في هذا العصر أثرا لتعاليم ابن خلدون ، التي بقيت دفينية في صفحاتها حتى أُثِّرت في أوائل عصر نهضتنا ، فكانت ركنا شديدا من أركان الثقافة العصرية .



ولما هجر العلماء والطلاب أوطانهم وجدوا أبواب المعاهد والمدارس مفتحة للقائهم .

المدارس — وأشهر المدارس التي أسست في هذا العهد :

( ١ ) المدرسة الظاهرية — شرع في بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ وتمت سنة ٦٦٢ هـ وكان بها دروس للفقهاء الشافعي والحنفي والقراءات .

( ٢ ) المدرسة المنصورية — أنشأها هي والبيارستان الملك المنصور قلاوون فلما تمّ دخل عليه الشرف البوصيري ومدحه بقصيدة أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانا      لتصحيح الأديان والأبدانا

وربّت في هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة ، ودروس تفسير ، ودرس حديث ، ودرس طب .

( ٣ ) المدرسة الناصرية — ابتدأها العادل كتبغا ، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ ورتب بها دروسا للمذاهب الأربعة .

( ٤ ) مدرسة السلطان حسن — شرع في بنائها سنة ٧٥٨ هـ قال المقرئ :

” لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر  
قلبها وحسن هندامها ، وضخامة شكلها : أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين  
لا تبطل يوما واحدا . وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة “ .

( ٥ ) المدرسة الظاهرية — تم بناؤها سنة ٧٨٨ هـ ، وكانت تحمل أعمدها

الضخمة على عجالات . فقال أحد الشعراء :

الظاهر الملك السلطان همته      كادت لرفعها تسمو على زحل

وبعض خدامه طوعا لخدمته      يدعو الجبال فتأتيه على عجل



عين السلطان بها علاء الدين السيرامى مدرسا لفقهِ الحنفية وشيخا للصوفية ،  
وقد بالغ في تعظيمه حتى فرش سجاده بيده ، وكان بها أيضا دروس في الفقه  
الشافعى والحنبلى والحديث والتفسير والقراءات .

( ٦ ) المدرسة المؤيدية — تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وبلغت النفقة عليها  
أربعين ألف دينار . وكان الناظر على عمارتها بهاء الدين بن البرجى . واتفق بعد  
بنائها بسنة أن مالت المئذنة التى كانت على البرج الشمالى لباب زويلة ، فقال  
تقى الدين بن حجة :

على البرج من بابى زويلة أنشئت منارة بيت الله للعمل المنجى  
فأخنى بها البرج اللعين أملهأ ألا صرّحوا يا قوم باللعن للبرج (ى)  
وقال الحافظ بن حجر وفيه توربة بهجاء قاضى القضاة بدر الدين العيني المتوفى  
سنة ٨٥٥ هـ .

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهو وبالزین  
تقول ، وقد مالت عن القصد : أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين (ى)  
فقال العيني :

منارة كعروس الحسن إذ جلّيت وهدمها بقضاء الله والقدر  
قالو : أصيبت بعين . قلت : ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة المجر  
وقد أنشأ المماليك بجانب هذه المدارس الكثيرة بيمارستانات عدة ، لعلاج  
المرضى ودراسة الطب .

خزائن الكتب — وكان بكثير من المدارس خزائن كتب حافلة بالكتب  
الثمينة النادرة النافعة فى شتى العلوم والفنون . فكان بالمدرسة الفاضلية فى صدر هذه



الدولة خزانة بها نحو مائة ألف مجلد ، وكان بالمدرسة الصاحبية البهائية خزانة كتب جلييلة ، وحتت المدرسة الظاهرية التي أسسها بيبرس خزانة كتب كانت تشتمل على كثير من أمهات الكتب في سائر العلوم ، وعمل بالمدرسة المحمودية التي أنشئت سنة ٧٩٧ هـ خزانة كتب ، قال المقرئ في شأنها : ” ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلهما ، وهى باقية إلى اليوم ، لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن “ .

وكان بمدرسة الأمير جمال الدين التي أنشئت سنة ٨١٠ هـ ، خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة ، والكتب النفيسة .

نرجس  
٢٠٥



## لمحة في تاريخ الأزهر منذ نشأته وأثره في اللغة والأدب

إنشأؤه — لما تمّ للفاطميين فتح مصر أسسوا القاهرة المعزّية سنة ٣٥٨ هـ لتكون حاضرة ملكهم ، وأنشئوا بها الجامع الأزهر ليكون مدرسة يدرس فيها مذهبهم الشيعي . وقد ابتدأ قائدهم جوهر في بناء هذا الجامع في يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٠ هـ ، وأتم بناءه في سنتين تقريبا ، وكان أول جمعة أقيمت به في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ .

تسميته — والسبب في تسميته بالأزهر على أرجح الأقوال أن الفاطميين سمّوه بهذا الاسم إشارة إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التي بنيت دعوتهم على الانتساب إليها .

عمارته وإصلاحه — ثم إن الحاكم بأمر الله جدّده ووقف عليه وعلى سواه من معاهد الدين رباعا في سنة ٤٠٠ هـ ، وتناوله بالتعمير والتجديد في أيام الدولة الفاطمية أيضا المستنصر والحافظ لدين الله .

وفي أيام الظاهر بيبرس جدده عز الدين أيّدمر الحليّ فتمت عمارته في سنة ٦٦٥ هـ .

وفي سنة ٧٠٢ هـ انهدم هذا الجامع بزلزال شديد حصل بمصر في تلك السنة ، فتولى عمارته الأمير سلار أحد أمراء دولة المماليك ، وفي سنة ٧٦١ هـ كان للا مير سعد الدين الجامدار أثر صالح في تجديد بنائه وإصلاحه والإغداق على طلاب العلم فيه .

وفي سنة ١١٦٧ هـ زاد في سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريبا الامير عبد الرحمن كئخددا ، وما زال الملوك يتولونه بالعمارة والإصلاح والتجديد إلى يومنا هذا



وصفه — ويشتمل هذا الجامع على محل مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنًا ، ومقصورته تنقسم قسمين : المقصورة الأصلية الكبيرة التي هي من إنشاء القائد جوهر وبها القبلة القديمة ، والمقصورة الجديدة التي أنشأها الأمير عبد الرحمن كتنخدا وأرضها مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وهذا الجامع لا يشتمل على شيء من الزخرف ، وإنما عظمته في كبره واتساعه وما اتصل به من تاريخ مجيد .

عهود الدراسة به وأثره في اللغة والأدب — وأول ما درس بالأزهر الفقه على مذهب الشيعة ، ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية أن تلك العلوم كانت تدرس في الأزهر في زمانهم ، وبق مذهب الشيعة يدرس في الأزهر ويُقضى به في مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وقامت بعدها الدولة الأيوبية فأبطلت مذهب الشيعة من ديار مصر ومنعت الدراسة وخطبة الجمعة من الجامع الأزهر ، وقصرت الخطبة على الجامع الحاكمي لأنه كان أوسع من الأزهر وقتئذ ، وعُطِّلت الدراسة في الأزهر نحو مائة سنة ولم تعد إليه إلا في أيام السلاطون الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ .

وازدهر الأزهر في عصر المماليك ازدهارا وحج إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها لانتقطاع طلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين ، ولما كان يفاض عليهم من الخير الوفير والرعاية وصنوف الإحسان . فقد كان لكل طائفة رواق خاص بها ، ينزل به الطلبة طاعمين كاسين . فأمم التركية والمغربي وايماني والهندي والأفغاني وتجردوا إلى الدرس وطاب لهم المقام ، حتى إذا أقاموا ما أقاموا ، انقلبوا إلى أهلهم متمكنين في دينهم ، راسخين في علوم العربية وآدابها ، فذشروا



العلم بين أبناء بلادهم ، ورفعوا راية الدين في أوطانهم ، ومجددوا مصر واسم مصر التي كانت تعدّ بحق مصدر النور والعرفان في هذه العصور .

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ خبت نار العلم وطوى بساطه وذوى نبتة لما أصاب مصر حينئذ من ضرب الإرهاق والخسف ، ولم يبق في هذا العصر المظلم إلا بصيص يشع من الأزهر ، ولولاه لانتقطعت صلتنا بالعلم وأهله ، واللغة وآدابها ، ولذهبت البقية الباقية من هذا المجد المؤئل والتراث الكريم .

وقد كان الأزهر في هذه العصور القائمة فوق رسالته التي يؤديها للدين واللغة والأدب ، ملجأ المظلومين ومثابة المتكوبين ، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام ، وفداحة الأحكام ، فأخذوا بناصرهم ، وكشفوا الضر عنهم .

ذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفي من أمراء المالك ظلموا أهل قرية بالشرقية بقاء أهلها صارخين مستغيثين بعلماء الأزهر ، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخ الأزهر وذهبوا إلى إبراهيم بك حاكم مصر وقتئذ ، وطلبوا منه رفع الظلم عن أهل هذه القرية ، فأسرع إلى إجابة طلبهم ، وكف أيدي الأمراء وأتباعهم عن أموال الناس ، وكتب القاضي حجة بذلك .

وحينما اعترم المصلح الكبير محمد علي باشا إنهاض مصر ورفع منزلتها بين الممالك ، لم ير خيرا من أن يتخير من بين طلاب الأزهر من يدرسون العلوم الحديثة في مصر ثم في أوروبا ، فعادوا وكانوا طلائع النهضة الحديثة في العلوم والآداب .

ومن هنا ترى أن الأزهر كان حلقة الاتصال بين القديم والحديث ، وأن له الأثر الواضح في نهضتنا المباركة .

ولما أنشأ الخديو إسماعيل باشا مدرسة دار العلوم التي نهضت باللغة العربية نهضتها الحاضرة أمدها الأزهر بطلابه .



والحق أن عناية الأسرة العلوية بالأزهر بلغت الغاية فقصد تنافس أسراء هذا البيت الكريم وأميراته في إسداء البر للعلم وأهله ، فحبسوا عليه الأوقاف الواسعة ، وكان موضع عنايتهم وإحسانهم . ولحضرة صاحب الجلالة الملك ” فؤاد الأول “ الفضل العميم في إنهاض الأزهر في العهد الحديث ، بما أفاض عليه من جميل رعايته ، وواسع بره ، حتى أعاد إليه مجده القديم ، وحتى أصبح قبلة لجميع طلاب الدين واللغة والآداب والعلوم في جميع بلاد الإسلام .

### الشعر

سلك الشعر السبيل التي اختطها الشعراء لأنفسهم في آخريات العصر العباسي الثاني من الميل إلى الصناعة اللفظية ، ووربما أفرط شعراء هذا العصر إفراطا في تحلية الشعر بأنواع البديع ، والتلاعب بالألفاظ في مهارة ولباقة ، حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر في هذا العصر شعر الألفاظ والزينة . ويظهر أن لنضوب القرائح في هذا العصر من الأفكار والمعاني والقدرة على التوليد ، وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنًا كبيرا في ضيق مدى الشعر وجذبه وخلوه من الابتكار .

وإن بقاء الشعر في هذا العصر حافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت ، مما يستوقف نظر طالب الأدب ، فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر ، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ ، الذي كان ينظم الشعر ويلحنه ، ثم السلطان الغوري ، وقليل منهم جدا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال في العصر العباسي . ولم يكن هذا العهد عهد الصلوات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدرّ والجواهر . فلم يجد الشعراء في الشعر مرققا ، فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة في الدواوين والصناعات ، فكان منهم الجزا والجمامي والكحّال



والدهان . ألم يهيم ابن نباته وهو إمام الشعراء في عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتصبا الكفاف ، فلم يجده إلا مجهدا مكدودا .

ثم إن أسباب اللهو وفراغ البال التي تدفع أحيانا بلابل الشعر إلى التفريد قد سكنت في هذا العصر ، الذي كان في جملة عصر جدّ وصرامة واضطراب .

فإذا أجاد الشعراء فإنهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فنا رفيعا حنت إليه نفوسهم ، ومالت قلوبهم ، فقال كثير منهم لا لئال ولا للكسب ، ولكن لأنّ الفن تملكهم وأخذ بزمام نفوسهم ، فلا بدّ لهم من القول ، ولا بدّ لهم من الإجادة . وإنما تزدهى الفنون إذا صدرت عن نازعة صادقة مصدرها حب الفن ، لا حب الشهرة ولا حب المال .

التنافس في الشعر بين مصر والشام — وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجادة في هذا العصر ما كان من التنافس الشديد بين شعراء مصر والشام . فما كان يبتدع شاعرنا شاردة أو يجيد قصيدة حتى يتناولها الشعراء هناك بالنقد أو المعارضة أو السرقة ، حكوا أن ابن نباتة كان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل ، وأن ابن نباتة لذلك ألف رسالة جمع فيها ما قاله فأخذه منه الصلاح ، وسمّاها خبز الشعير لأنه ما كول مذموم ، واستهل خطبة الرسالة بقوله : ”رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيلي مؤمنا“ .

وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام .

تغلب الصناعة اللفظية — أشرنا آنفا إلى ولوع الشعراء في هذا العصر بأنواع البديع وافتنانهم في الصناعة اللفظية ، فإنهم لم يتركوا نوعا إلا أبرزوه في أشعارهم ، غير أن هذه النزعة لم تفسد الشعر إفسادها النثر ، لأنّ تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد في البديع وتفاقم خطره .



البديعيات — وقد نبتت البديعيات في هذا العصر ، وهي قصائد من بحر البسيط في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، يشتمل كل بيت منها على نوع بديعي ، وقد يشير الشاعر في البيت إلى اسم النوع . وأول بديعية كانت لصفي الدين الحلبي وجاءت بعدها بديعيات لعز الدين الموصلی ، وابن حجة الجموي ، وعائشة الباعونية .

ومنشأ هذه البديعيات بركة البوصيري ، فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفوقه بإظهار قدرتهم في البديع ، ولكنهم في الحق لم يوفقوا إلى الإجادة بفخات هذه البديعيات صوراً مشوهة من التكلف الممقوت والنسج السخيف .

التورية — وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعوا فيها إبداعاً حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته ، فتفاخروا بالإجادة فيها ، وبأهوا باختصاص عصرهم بأحكامها ، قال ابن حجة الجموي :

”لأن هذا النوع وهو التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب“ ثم قال في موطن آخر : ”ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها ، ومن جوا بها الذوق السليم لما أداروا كئوسها“ .

ومن أشهر شعراء التورية بمصر في هذا العهد سراج الدين الوراق المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وله فيمن اسمه عرفات :

أطنبوا في عرفات وغدوا يتعاطون له حسن الصفات  
ثم قالوا لي : هل وافقتنا ؟ قلت : عندي وقفة في عرفات

ونصير الدين الحماي المتوفى سنة ٧١٢ هـ قال :

جودوا لنسجع بالمديح على علامك سرمداً  
فالطير أحسن ما تُغرَّ رد عند ما يقع الندى



وناصر الدين بن النقيب ومن قوله :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوى فاني آكل العيش بالجن

وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماه فردّ عليه ابن نباتة :

فديتك من ملك يكاتب عبده بأحرفه الاتقى حكمتها الكواكب  
ملككت بهارقي وأخلني الأسى فهأنذا عبد رقيق مكاتب

والقيراطى وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدى :

يا صلاح العلا صفاء ودادى لا يرى عن أبى الصلاح بديلا  
فدع العتب إننى لست ممن لا يراعون فى الأنام خليلا

ومن أشهر شعراء التورية فى الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ هـ .

قال :

ونهر بحب الروض أصبح مغرما يروح ويفدموها بوصالها  
إذا بعدت عنه شكا بخبره جفأها وأسى قانعاً بخيالها

وبدر الدين الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ قال :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة بالواديين فنبهت أشواق  
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق  
قامت تطارحنى الغرام جهالة من دون صحبى بالحنى ورفاق  
أتى تبارينى جووى وصباية وكأبة وأسى وفيض ماق  
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تملى من الأوراق

وصلاح الدين الصفدى قال :

لما زها زهر الربيع بروضه وغدا له فضل ينير لديه  
قام الحمام له خطيباً بالهنا وجرى الغدير نحر بين يديه



وابن الوردى قال :

ناعورة مذعورة      ولهانة وحائرة  
الماء فوق كتفها      وهى عليه دائرة

التضمين — ومما أغرم به شعراء هذا العصر التضمين ، وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئاً من شعر غيره ، وكانت لهم براعة فائقة فى تغيير المراد من الشعر المأخوذ ، مع حسن السبك ، ودقة الصناعة ، وقد صارحنا بحير الدين بن تميم ، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر ، بشدة نزوعه إلى التضمين فقال :

أطلع كل ديوان أراه      ولم أزر عن التضمين طيرى  
أضمن كل بيت فيه معنى      فشعرى نصفه من شعر غيرى

وقد تجاوزوا الحد فى ذلك حتى وصلوا إلى شئ من السخف ؛ فضمن جمال الدين بن نباتة أعجاز ملحمة الإعراب ، وهى متن فى النحو ، ومن ذلك قوله فيها فى المديح :

إن قال قولاً بين الغرائب      ”وقام قس فى عكاظ خاطباً“  
وإن سخا أتى على ذى العدد      ”واليكىل والوزن ومذروع اليد“

وتبارى صلاح الدين الصفدى وجمال الدين ابن نباتة فى تضمين أعجاز معلقة امرئ القيس ، فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتباً :

أفى كل يوم منك عتبٌ يسوءنى      ”بكلهمود صخر حطه السيل من عل“

وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد ، فأجابه جمال الدين متهمكاً بطويلة أولها :

فطمّت ولأئى ثم أقبلت عاتبا      ”أفاطم مهلا بعض هذا التدلل“

كثرة المقطوعات — وقد كثر الميل إلى المقطوعات القصيرة فى هذا العصر ، لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبراز لطيفة بديعية ، أو نكتة مخترعة ، أو تورية رائعة ، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات .



وكان في الشعراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتبون بإرسال قطع قصيرة تتناول أغراضهم . والمطلع على ديوان ابن نباتة المصري ، وهو خير من يمثل هذا العصر يرى فيه كثيرا من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا .

الفكاهة في الشعر المصري — وأكبر مظهر في الشعر المصري ظهور الروح المصرية الخفيفة ، وجمال النكتة ، وحسن التأني لها ، كقول أبي الحسين الجزار يصف داره المهتمة :

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| ودار خرابٍ بها قد نزلتُ  | ولكن نزلتُ إلى السابعة  |
| فلا فرق ما بين أنى أكون  | بها أو أكون على القارعة |
| ساورها هَفَواتُ النسيم   | فتصغى بلا أذن سامعة     |
| وأخشى بها أن أقيم الصلاة | فتسجد حيطانها الراكمة   |
| إذا ما قرأتُ إذا زلزلت   | خشيت بأن تقرأ الواقعة   |

ولهم كثير من هذا النوع الذي تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

الوصف في الشعر الشامي — أما الشعر الشامي فقد استمر في هذا العصر محافظا على ما اختص به من جمال الوصف ، وبخاصة وصف الطبيعة ، لما لبلاد الشام من جمال المنظر ، وكثرة الجبال ، والحدائق والمنازه ، والتلوج والأمطار ، وقد سقنا إليك طرفا منه .

ومن أجل صفات الشعر في هذا العصر الرقة تراها ماثلة في شعر الشباب الظريف ، ثم في شعر ابن نباتة ، ثم في كثير من قصائد صفي الدين الحلي وغير هؤلاء ، وفي كتاب المنتخب أمثلة كثيرة لذلك .

أغراض الشعر — وقد قيل الشعر في هذا العصر كثيرا في الغزل والوصف والمجون ، ثم في المديح والرتاء والشكوى ، وقال الشعراء في الطرد محاكاة للعصر



العباسى ، وكثر نظم الأغاز والأسئلة الفقهية واللغوية ، كما كثر الشعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ونظم العلوم والفنون .

كثرة المتعرضين لقرضه — ومن كوارث الشعر فى هذا العصر أن تصدى له كثير من غير أهله فقال الشعر وتبيح به كل من يستطيع إقامة وزنه من غير أن يرزق الفطرة الشعرية ، ومما يؤسف له أن التاريخ حفظ لنا كثيرا من هذا الشعر الغث فيما ألفت من الكتب فى هذا العصر كتاريخ ابن إياس وغيره .

وربما كان هذا الشعر السقيم من الأسباب التى دفعت بعض الأدباء إلى الحكم بسقوط الشعر فى هذا العصر وتقهقره وإسفافه .

الأوزان المولدة — وقد شاعت الأوزان المولدة فى هذا العصر ، كالموشح والدوبيت والزجل ، الذى مالت إليه آذان آل قلاوون وآل برقوق ، وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم . وأشهر الزجالين الشيخ خلف الغبارى ، وكان قيم الزجل بمصر ، وأحمد بن عثمان الأمشاطى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ . وكان قيم الزجل بالشام . وتجد أمثلة كثيرة للأوزان المولدة بكتب فوات الوفيات للكتبى وتاريخ ابن إياس .



## ترجمة ابن نباتة المصري

طلب صلاح الدين الصفدى فى مستهل شعبان سنة ٧٢٩ هـ من جمال الدين ابن نباتة أن يجيزه برواية مصنفاته وآثاره الأدبية ، وهى عادة جرى عليها العلماء قديما واشتد بها تمسكهم فى هذا العصر ، وقد نشأت فى أول أمرها من العناية برواية الحديث الشريف ، والاهتمام باتصال سنده ، ثم جاوزت ذلك إلى ماسواه من صنوف العلوم والفنون .

وقد كتب ابن نباتة إلى الصلاح كتابا مسجوعا مطولا على نمط ما كان يكتب فى ذلك العهد جاء فيه :

مولده ونسبه — ” فأما مولدى فبمصر المحروسة فى ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة بمنزلنا بزقاق القناديل “ .

ثم جاء فيما يختص بنسبه فى نهاية الكتاب :

” قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على ابن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة “ .

وقد كان زقاق القناديل الذى وُلد فى أحد بيوته ابن نباتة مقام أشرف الناس وأعيانهم ، كما يؤخذ من المقرئى ، فهو إذا نشأ فى بيت نعمة وشب فى أسرة هائلة تتمتع بشئ من نعيم الحياة ، ولقد عاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى الأيام الأولى من حياته التى قضاه فى شباب وهو و فراغ ، استمع لما يقول :

واها لأيامى التى سلفت ما بين ذاك النعيم والمرح

لا يُتزل الدهر من يدى قدحا كأننى صورة على قدح



وكان أبوه من أشياخ الحديث بدمشق ، ترجم حياته صلاح الدين الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات فقال ما ملخصه :

”شمس الدين بن نباتة والد الشاعر ابن نباتة ، ساكن خير قليل الكلام ، يُنفق كل ما يحصل له على أحفاده أولاد ولده جمال الدين ، وُلد بمصر سنة ٦٦٦ هـ ، وله سكن بالظاهرية بدمشق ، أجازني بخطه في سنة ٧٣٠ هـ ، وتولّى دار الحديث النورية ، وتوفي سنة ٧٥٠ هـ “ .

ويتصل نسب شاعرنا بابن نباتة عبد الرحيم الخطيب المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، وقد كان مقدّما في علوم الأدب ، يقال إن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها ، وكان خطيب حلب ، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحث عليه .

البيئة التي نشأ فيها — فأنت ترى أنه نشأ في بيت علم وأدب ، وأن أسرته تتحلّى بالطراف والتليد منهما ، وأنه كان صادقا حين قال :

ورثت اللفظ عن سافى وأكرم      بال نباتة الغر السراة  
فلا تحب للفظي حين يحلو      فهذا القطر من ذاك النبات  
وحين قال :

لى حين أنسب أسرة عربية      كادت تعدّ الشهب من أحلافي

وحين قال في ختام قصيدة يمدح بها علاء الدين بن فضل الله :

خذها منظمة الأسلاك معجزة      بالجوهر الفرد فيها كل نظام  
مصرية من بيوت الفضل ما عرفت      فيها بنسبة جزار وحمامي

يريد أنه من بيت عريق ، وأنه لم يكن محدثا في الأدب كأبي الحسن الجزار ، ونصير الدين الحمami .



ولليئة العالمية أثرها في النشأة الأولى ، ولا سيما إذا صحبتها الفطرة السليمة ،  
وصادفت نفسا قوية الاستعداد .

شبَّ ابن نباتة ونما في هذا الجوّ العلمى الأدبى ، ونشأ بين أترابه ولِداته  
غلاما مُنَعَمًا ، حتى إذا أتم دراسته الأولى ، سما إلى الدراسة العالية ، فدرس  
الحديث وعلوم الدين واللغة والأدب ، وقد ذكر لنا في الإجازة التى كتبها للصّلاح  
الصّفديّ أسماء شيوخه في مصر وغيرها .

حال مصر في أيامه الأولى — ولد ابن نباتة في عهد الملك المنصور قلاوون ،  
وكان في السابعة من عمره عند تولية السلطان الناصر محمد أول مرة ، لأنه تولى  
الحكم ثلاث مرات ، ومات في عهد السلطان الأشرف شعبان . والذى يعيننا  
الآن أن نبين أن طفولة ابن نباتة وشبابه كانا في عصر كثير الفتن والزلازل ،  
انقسم فيه الأمراء بعضهم على بعض ، وكان لكل أمير فريق يناصره وينافح  
دونه ، وتفشت الدسائس بين كبار الممالك ، وكثرت مصادرة أموال رجال  
الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم ، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس  
محرّفة مبالغًا فيها ، وكانت العامة تثب على الفريق المغلوب للنهب والسلب ،  
وربما اغتصمت الفرصة وجرتها الفوضى إلى الاندفاع في سبيلها فدّهمت الآمين  
في بيوتهم .

ولعل القى محمد بن نباتة في ذلك الحين كان يسمع أخبار هذه الأحوال  
فيرتعد فرقا ، ولعله كان ينصت إلى خادمه العجوز ، وهى تصف له أحوال  
المسجونين بخزانة شميل ، وما يصيبهم من ألوان العذاب .

كان العصر كثير الحوادث حقا ، فاضطراب في داخل البلاد ، وخوف  
من هجوم التتار ، فمراجعة في مصر اضطرب فيها الناس إلى أكل ما يؤنّف من  
أكله من صنوف الحيوان ، ونحن نعلم أن ابن نباتة كان عصبي المزاج قوى الخيال



أثر البيئة في نفسه - فليس بعجيب أن تؤثر هذه الأحوال في نفسه تأثيرا شديدا ، وأن تقوى فيه غريزة الخوف وحب السلامة ، ويظهر أن هذه الأخلاق لازمت شاعرنا طول حياته ، فإننا لا نرى في شعره ما يدل على قوة نفس ، أو اعتزاز برأى ، أو تقدا لعمل من الأعمال ، أو هجاء لعظيم أو حقير . لا يظهر في شعر ابن نباتة شيء من هذا ، لأن في هذا مخاطرة ، وفيه ما تصوّره له نفسه العصبية من أوحش العواقب ، حتى إنه إذا عاتب كان عتابه هينا يسيرا لين الملمس ، هو إلى المديح الصرف أقرب منه إلى العتاب كقوله :

|                                |                            |
|--------------------------------|----------------------------|
| لئن ضاع مثلي عند مثلك إننى     | لعمر المعالى عند غيرك أضيع |
| متى تتجع الشكوى إذا أنا لم أجد | لديك اعتناء غير أنك تسمع   |
| وما كان صعبا لو مننت بلفظة     | تردّها عن الخطوب وتردع     |
| وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل    | وللبرّ فيه والصنيعة موضع   |
| ومغترب عن قومه ودياره          | أساعده والله يعطى ويمنع    |

وإذا جرؤ قوى عزيمته وقال :

ولى خصوم ولست الآن شاكيهم  
لكنهم فى غدٍ يدرون أين سُكُّوا

يريد أنه سيشكّوهم إلى الله تعالى بوم الحساب .

وقد وصف نفسه في هذه الناحية فقال :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| ما كان فى العشرين يهفومِ طقى | أىكون فى الخمسين فعل هاف   |
| شيم من الآلف الزكى ورثتها    | لا فى الصبا عيب على ولا فى |

أى ولا فى الشيخوخة .

شعره لا يمثل الحياة فى عصره - فلاستكانة والاستسلام ظاهران فى شعر ابن نباتة ، وربما غلب هذان الخلقان على شعراء عصره قليلا أو كثيرا ، وربما رأينا لابن الوردى والصفدى وإبراهيم المعمار أبياتا غير قليلة تصوّر الحياة



وتدون الحوادث ، ولكنا لا نجد شيئا من ذلك لابن نباتة ، فهو لا يعطينا صورة للحياة في أيامه ، لأنه شاعر مقلد جرى على سَنَنِ الأقدمين في الغزل والمديح ، وترك الدنيا حوله تصيح وتصخب ، وعواصف الحوادث تثور وتزأر ، من غير أن يجود عليها بكلمة ، وكل ما كان يهتم به إنما هو نفسه وأسرته ، فهو في هذه الحالة يمثل العطف والحنان في أرفع منازلها ، والدنيا في نظره في تلك الأسرة الصغيرة التي يعولها ، فإذا مسها الضربكى واشتكى . وسنطيل البحث في هذا الموضوع عند الكلام على أخلاقه .

معاصروه — نشأ ابن نباتة في أزهى أيام الأدب في عهد المماليك ، فقد عاصر كثيرا من رجال اللغة والأدب ، مثل جمال الدين بن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١ هـ ، وابن منظور (سنة ٧١١ هـ) ، وابن سيد الناس (سنة ٧٣٤ هـ) ، وغيرهم . وعاصر من الشعراء كثيرا ، منهم نصير الدين الحامى (سنة ٧١٢ هـ) ، وشمس الدين محمد بن العفيف (سنة ٧١٥ هـ) ، وعلاء الدين الوداعى (سنة ٧١٦ هـ) ، وشهاب الدين ابن أبي حجلة المغربي (سنة ٧٧٦ هـ) ، وزين الدين بن الوردى (سنة ٧٥٣ هـ) . وصلاح الدين الصفدى (سنة ٧٦٤ هـ) . وابن اللبانة (سنة ٧٥٢ هـ) . والقيراطى (سنة ٧٨١ هـ) . وابن دانيال الموصلى (سنة ٧١٠ هـ) . وصفى الدين الحلي (سنة ٧٥٠ هـ) .

وخالف كثيرا من كبار الكتاب مثل محيي الدين بن فضل الله العمري (سنة ٧٤١ هـ) ، وولده شهاب الدين (سنة ٧٥٥ هـ) ، وأخيه علاء الدين ، وشهاب الدين محمود الحلبي (سنة ٧٥٥ هـ) .

بيئته العلمية والأدبية — أما الفقهاء والمحدثون في أول عهد ابن نباتة بالعلم والتعليم فكانوا كثيرين .

من كل ذلك زى أن استعداده السليم في أول نشأته وجد غذاء علميا يسد حاجته ، وأن الحياة الأدبية التي كانت تحيط به تركت في نفسه آثارا ظهرت ثمارها



فيما بعد ، وأنه استطاع في حديثه أن ينتهب قسطا وافرا من الأدب والعلم ، وأن يَتَلَّأَّ من كل ماتقع عليه عينه أو تسمعه أذنه ، وكأنى به وهو لا يزال طفلا يتنقل بين حلقات الأدب ، ويُنْصِت إلى مُطارحة الشعراء ، فقد أخبرنا فيما كتب به إلى الصلاح الصفدى أنه يبع سراج الدين الوراق وهو ينشد لنفسه :

واجملى وصحائفى مسودة وصحائف الأبرار فى إشراق  
وتوقفى لمونج لى قائل أكذا تكون صحائف الوراق

وهذا غريب جدا ، لأننا نعلم أن الوراق مات سنة ٦٩٥ هـ وأن ابن نباتة ولد سنة ٦٨٦ هـ ، وإذا مات الوراق وابن نباتة فى التاسعة ، فمتى سمعه ياترى يُنشد هذين البيتين ؟ إذا انتهينا إلى آخر فرض ممكن نقول إنه سمعه وهو ابن تسع سنين وإنه فهم البيتين ووعاهما وحفظهما ، وأدرك ما فيهما من تورية . وهذا يدل على شغفه بالأدب فى عهد طفولته ، وعلى ميله الفطرى المطبوع على حب الشعر والتلذذ به ، وعلى مقدار ما أودعه الله من ذكاء ومواهب فنية قوية منذ نعومة أظفاره ، ومن هذا نستطيع أن نقول إن ابن نباتة أخذ يخالط الأدباء ويساجلهم ، وهو فى نشأة العمر وغضارة الصِّبا ، وإنه أفاد من ذلك كثيرا ، ولعل شغفه باللغة والأدب والشعر لفته عن التوسع فى العلوم الدينية وغيرها .

فأسرة ابن نباتة وشيوع العلم والتعليم فى طور شبابه ساعدا على أن ينميا ما كان فيه من نبوغ وأن يظهرها ما منحه الله من عبقرية .



## صفاته وحياته

تطامن نفسه — عرفنا أن من أظهر صفاته الاستكانة والاستسلام ، وأنه لم يُخلق جريئاً ، وهذه النفس الضعيفة هي التي حرمته أن ينال نصيبه الذي يستحق في الدنيا ، فلم نعرف أنه زاحم سواه بالمناكب ، مع ما فيه من مواهب كانت تُسوّغ له البروز والرياسة ، فقد كان ابن نباتة كما وصف نفسه :

قَلَّ عَوْنِي عَلَى الزَّمَانِ فَأَصْبَحْتُ صَبُورًا عَلَى مُرَادِ الزَّمَانِ  
حَاسِبَ اللَّفْظِ وَالرَّيَاحِ عَنِ النَّاسِ فَلَا مِنْ يَدِي وَلَا مِنْ أَسَانِي

بؤسه وهجرته إلى الشام — ويظهر أنه في أول حياته كان في شيء من اليسر فأُسرف وبذّر ، وأسام سرح اللهو ، ومشى مع المُجَّان فضيَّع ما في يديه ، وأصبح في حاجة إلى الاستجداء بشعره .

ومن الغريب أن ابن نباتة النابغة العبقريّ تنبو به مصر ، ويضيق به العيش فيها ، وهي تُنبت الذهب ، وتفيض بالخير ، فتراه يهجرها في طلب الرزق سنة ٧١٥ كثير العيال مضطرب الأحوال كما يقول :

مُقَلَّبًا بِيَدِ الْأَيَّامِ مُضْطَرِبًا كَأَنَّمَا اسْتَقْسَمْتُ مِنِّي بِأَزْلَامِ

التحاqqه بديوان الرسائل — فيلتحق مرة بالملك المؤيد صاحب حماة إسماعيل ابن عليّ المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فينال عنده شيئاً من الحظوة ، ويصبح شاعره الأثير عنده ، وقد رتب لابن نباتة كلّ سنة ستمائة درهم ، يرسلها إليه بدمشق . ثم يتصل بابن الفضل ، ثم بالمنصور بن الأفضل ، ثم يُعينه شهاب الدين بن فضل الله بديوان الإنشاء بدمشق ، كما نخبرنا بذلك ابن نباتة في قصيدة يمدح بها علاء الدين أخاه :

بَلَّغْتَنِي يَا بْنَ فَضْلِ اللَّهِ مُطَلَّبًا لَمْ أَرْجُهُ مِنْ بَنِي الدُّنْيَا وَلَمْ أَخْلِ  
نَلْتُ الْعِلَاءَ وَكَبْتُ الْحَاسِدِينَ عَلَى يَدَيْ عَتَائِكَ لِاحْتِلَالِي وَلَا حِيلِي



وقد سَمَوْتُ لِدِيانِ الرِّسَالِ فِي طَى ادَّكَارِكَ لَا كُتِبِي وَلَا رُسُلِي  
مَدَى أَخُوكَ إِلَى مَرْقَاهُ أَوْصَلَنِي وَلَوْ تَرَقَّى إِلَيْهِ النَّسْرُ لَمْ يَصِلْ

زهوه بشعره — وكان ابن نباتة على تواضعه واستسلامه مُحسباً جمال شعره  
خفراً به تياها ، فلا تكاد تخلوله قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال  
بها ، خذ ما يقوله في آخر قصيدة :

مَنْ مُبْلَغُ الْعَرَبِ عَنْ شِعْرِي وَدَوْلَتِهِ أَنْ ابْنَ عِبَادٍ بَاقٍ وَابْنَ زِيدُونَا  
حَبَّرَتْهَا فِيهِ زَهْرَاءُ الْمَعَاطِفِ مِنْ أَعْلَى وَأَنْفَسَ مَا يُهْدَى الْمُجِيدُونَا  
إِذَا رَأَيْتَ قَوَافِيهَا وَطَلَعَتْهُ فَقَدْ رَأَتْ مُقْلَتَاكَ الْبَحْرَ وَالنُّونَا  
كَأَنَّ اللَّفَاطِظَ فِي سَمْعِ حُسَدَاهَا كَوَاكِبُ الرَّجْمِ يُحْرِقَنَّ الشَّيَاطِينَا

وفي قوله : ” فقد رأَتْ مُقْلَتَاكَ الْبَحْرَ وَالنُّونَ “ توريةٌ تتمرّج بمراعاة النظر  
امتزاجاً رائعاً بديعاً .

فزعهُ مِنَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ — ومن صفاته أنه كان كثير الشكوى من  
الكبر ، شديد التألم من الشيب ، فهو في أكثر شعره يندب شبابه ، ويبيكي  
ماضى قوته ، ويفزع مهولاً من الشيب والهَرَم ، وهذا من آثار المزاج العصبي ،  
الذى تحكّم فيه ، وملك عليه نفسه ، وهو مرة يعلل لاشتعال شبابه بكثرة  
الهموم فيقول :

مَنْ يَحَارِبُ حَوَادِثَ الدَّهْرِ يَخْفَى لَوْ أَنَّ فَوْدِيهِ فِي غُبَارِ الْحُرُوبِ  
مَنْ يَعْمُ فِي بَحَارِ هَمٍّ يَظْهَرُ زَبَدٌ فَوْقَ فَرْعِهِ الْغَرِيبِ  
أَيُّ فَرْعٍ جَوْنٍ عَلَى عَنَتِ الْأَيِّ سَامٌ يَبْقَى وَأَيُّ غَصْنٍ رَطِيبٍ !  
لَوْ هَمِّي مَاءٌ مَعْطَفَى مِنَ اللَّيْلِ نِ لَأَفْتَنَتْهُ مَهْجَتِي بِلَهْيِ



وهو مرة يذكر أن الشيب كان سببا في ارعوائه وتجافيه عن اللهو فيقول :  
 فقدتُ الهوى لما فقدتُ شبيبتي وَأَوْجَعُ مَفْقُودِ هَوَى وشبابُ  
 وكان يَصِيدُ الظبيَ فَاحْمُ لَمَقِي وَأَغْرَبُ ما صَادَ الظباءَ غَرَابُ  
 ولو كنتُ من أهل المداجاة في الهوى لكان بدمعي للشيب خضابُ

ثم هو مرة ثالثة يؤاخي بين الشيب وفقره فيقول :

مَشِيبٌ، وإِقْتَارُهُ هو الشيبُ ثانياً ألا هكذا يأتي الشقاء المَكْرَرُ

ونراه في هَرَمِهِ وبُؤْسِهِ وتكاثر الهموم عليه يفزع إلى الزهد يَتَلَمَّسُ فيه راحة  
 لنفسه يُطْفِئُ بها غليلَ صدره وَيَرْجِعُ إلى الله فِراراً من ويلات الدنيا وأوجالها ،  
 وقد يكون صريحاً أحياناً فيقول :

مَنْعَتَنِي الدُّنْيَا حَتَّى قَتَرْتُ وَلَكِنْ تَزْهَدُ الْمَغْلُوبُ  
 وَوَهَتْ قُوَّتِي فَأَعْرَضْتُ كَرَهَا عَنْ لِقَاءِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ

وهو يتذكر في شيخوخته أيامَ لهوه السابقة فيشعر بالندم والتفريط فيصيح :  
 وإني لمن زاد في النَّيِّ سَعْيُهُ وَطَوَّلَ حَتَّى آنَ مِنْهُ مَتَابُ  
 إلهي في حُسن الرجا لي مذهبٌ وَقَدْ آنَ لِلرَّاجِي إِلَيْكَ ذَهَابُ

شعره في الزهد — وله قصيدة في الزهد يصف فيها ألمه من الحياة وما لاقاه  
 من بؤس وهموم وتجاهل لقدره نحا فيها مَنَحَى المعرَى منها :

عَفْتُ الإِقَامَةَ فِي الدُّنْيَا لَوِ انْشَرَحْتُ حَالِي فَكَيْفَ وَمَا حَظِي سِوَى التَّنَكُّدِ  
 ومنها :

لا عارَ في أدبي إن لم ينل رُتَباً وإِنَّمَا العارُ في دَهْرِي وفي بلدي  
 هذا كلامي وذا حظي فيا عَجَباً مِنِّي لثَرْوَةِ لَفْظٍ وَافْتِقَارِ يَدِ



ومنها :

أما الهموم فبحر خضت زاحره أما ترى فوق رأسى فائض الزبد  
وعشت بين بنى الأيام منفردا ورب منفعه في عيش منفرد  
ومنها :

أصبحت لا أجتوى عيش الخمول ولا إلى المراتب أرمى طرف مجتهد  
جسمي إلى جدتي مهواه من كسب فكيف يعجبني مهوى من صعد

والقصيدة مؤثرة جدا ، فهي شكاية رجل خابت آماله ، ورأى نبوغه لا ينال قسطه من الإيجار ، ومواهبة لا تدرك عليه غير الاستجداء وإراقة ماء المحيا . وهو في هذا الباب كثير الشكوى موصول الأئين .

بئسه وكثرة عياله — ويظهر أن ابن نباتة كان شديد البؤس كثير العيال ويظهر أن مرتبه كان ضئيلا ، وأنه كثيرا ما كان يتأخر صرفه أشهر .

فهو يقول :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب أفضى فيه بالأنكاد وقي  
من الأولاد خمس حول أم فوآحرباه من خمس وست !  
ويقول لعلاء الدين بن فضل الله :

على أن عندي كاس شكوى أديرها على السمع ممزوجا بمدمعي الغمر  
يكسر حالي بالجفاء وطالما تعودت من نكبات عاطفة الجبر  
ويدفعني عن قوت يومى معشر وأنت عليهم نافذ النهى والأمر

ثم نراه يستجدي من علاء الدين دارا يسكنها :

لى قصة والسؤال سكتى بيت ويحتاج للعبارة  
سكنت دارا لصاحب لى وقصده يستعيد داره



ونراه يقول أحيانا :

تركتُ المالَ والجِاهَ لأهلِ القَدْرِ والقدره  
فحَسبي من حَمِي كَسْرٍ وحَسبي من غنى كِسْرِهِ

ويقول :

لقد أصبحتُ في حالٍ يرقُّ لمثلها الحجرُ  
مشيبٌ وانتِ تاريدٌ فلا عينٌ ولا أثرُ

وقد انتهت به الحال إلى أن يطلب خبزا من أحد الأمراء :

جِئْتُ إلى بابِ الأميرِ وظلَّهُ وفارقتُ ذُلِّي إذ وصلتُ إلى العِزِّ  
وأصبحتُ من جُنْدِ المحامِدِ والغنى ولا بُدَّ للجندى من طلبِ الخبزِ

ويقول وقد صرف له ممدوحه معلومه بعد أن تأخر :

وعَجَلَ معلومى وما كنتُ واصلا إلى رُبْعِهِ والشهرُ للشهرِ رابعُ  
وأصلح منى ظاهرا ثم باطنا فلا أنا عُرِيان ولا أنا جائعُ

ومن أطرف ما نختاره له هنا ما كتب به إلى أحد الأمراء :

يا سائلي بِدِمَشْقَ عن أحوالى قف واستمع عن سيرة البَطالِ  
ودع استماعَ تَغَزُّلى وتَعَشُّقى ماذا زمانُ العشق والأغزالِ  
طولَ النهارِ لبابِ ذا من بابِ ذا أسعى أعمُرُ أبىكَ سعى ظلالِ  
وإذا تغيّرَ مُرردٌ وقصدتُ لى صحبا وجدتُ الصَّحْبَ مثلَ الآلِ (١)  
أترى الزمانَ يُعَيِّنُى بولايَةٍ أحمى بها وجهى من التَّسألِ  
زحلَّ يقارِنُ حاجتى وقد انحنى ظهري من الهمِّ انحناءَ الدَّالِ

(١) الآل : المراب وهما تورية .



ندبه حظ الأديب — وكثيرا ما ندب ابن نباتة حظَّ الأديب في أيامه ،  
 وأنه لا يُؤبَّه له ، ولا يُقدَّر نبوغه ، ولا يثاب على فنه ، وقد كان الأمر كذلك  
 في عهد المماليك ، فإنهم وجهوا جلَّ عنايتهم إلى تشجيع العلم والتأليف ، ولم يتجهوا  
 إلى الشعر إلا قليلا ، لذلك كان الشعر وحده لا يقوم بحياة صاحبه . استمع لما  
 يقوله ابن نباتة في وصف تلك الحال :

فكفني من وضوح حالي أني      في زماني هذا من الأدباء  
 ضاع فيه لفظي الجهير وفضلي      ضيعة السيف في يد شلاء

ولما يقوله في مكان آخر :

أسفى على الشعراء إنهم على      حال تُشير شماتة الأعداء  
 خاضوا بحور الشعر إلا أنها      مما تريق وجوههم من ماء

ولما يقوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر مجدا :

وقالوا فلان رَمَّ بالشعر عيشه      فياليت أنى ميت لست أشعر  
 تصرَّم أقصى العمر أدعوك للمني      وأرقبُ آفاق الرجاء وأنظر  
 وأصبر والأيام تقتلني أسى      فها أنا في الدنيا قتيل مُصبر  
 أرى دون حظي مسلكا متوعرا      إذا ما جرت فيه المني تتعثر  
 ويحتر دمعى حين تصفر وجعتي      فألبسُ ثوبَ الهَمِّ وهو مُشبر  
 ولا ذنب لي عند الزمان كما ترى      سوى كَلِمِ كالروض تهبى وتبر

حينئذ إلى مصر — وقد قاسى ابن نباتة في غربته شدائد وآلاما . فكان  
 لذلك دائم الحنين إلى مصر كثير الشوق إلى معاهدها ، وقد كان يترك أحيانا



أسرته بالشام أو بمصر ويعيش وحده ، فيشتدُّ هيامه ، ويزيد عتبه على الأيام .  
وما أرقه وأوفاه حين يحنُّ إلى مصر فيقول :

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| بأبي الحدودُ العارياتُ من البكا | (اللابساتُ من الحريرِ جلابيا)  |
| النابتاتُ بأرضِ مصرَ أزاهرا     | والزاهراتُ بأرضِ مصرَ كواكبا   |
| أها لمصرَ وأرضِ مصرَ وكيف لي    | بديارِ مصرَ مراتعا وملاعبا     |
| حيثُ الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا  | في الأقربينَ مشاربا وأصحابا    |
| والدهرُ سلمٌ كيفما حاولته       | لا مثلَ دهري في دِمَشقِ محاربا |

وحين يقول :

|                                   |                                    |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| ياسارى البرقِ في آفاقِ مصرَ لقد   | أذكرتني من زمانِ النيلِ ما عذبا    |
| حدّثَ عن البحرِ أو عيني ولا حرجَ  | وانقلَّ عن النارِ أو قلبي ولا كذبا |
| واندبَ على الهرمِ الغربى لى عمرًا | فبذا هرمَ فارقتَه وصبا             |

وحين يقول :

|                           |                        |
|---------------------------|------------------------|
| أمصرُ سقنتك غواذى السرورِ | وجادك من أفقها صيبُ    |
| ذكرتُ زمانك حيثُ الوصالُ  | وحيثُ الصبا طيبٌ طيبُ  |
| وبيضُ الوجوه به تُجتلى    | وسودُ الشعور به تُسحبُ |

وحينما سمَّ العيشَ بالشام ، ولاقى ما لاقاه ، رحل إلى مصر وأقام بها

وقال :

|                               |                                 |
|-------------------------------|---------------------------------|
| وربَّ شائمةٍ عزمي ومُرَّ تحلى | إلى حِمىِ مصرَ أشكو جفوةَ الشام |
| قالت وراءك أطفالٌ فقلتُ لها   | نعم ونعمى ابنِ فضل الله قدامى   |



العطف على أسرته — ومن أظهر صفات ابن نباتة العطف على أسرته وأهله ومن يتصل به ، فهو أب رحيم شفيق ، وزوج مخلص كريم ماتت زوجته فرثاها بما يُثير الأشتجانَ وخلط الرثاء بالغزل . فقال :

ثَوْتُ فِي مَهَاوِي التُّرْبِ كالتُّرْبِ خَالِصَا      خَفَقْتُ أَنَّ التُّرْبَ بَعْضُ الْمَعَادِينِ  
فَوَاللهِ مَا أَدْرَى لِحَسَنِ خَلَائِقٍ      تَسِيحُ دُمُوعِي أُمَ لَخَلْقٍ مُحَاسِنِ

ومنها :

وَكُنْتُ أَخَافُ الْبَيْنَ قَبْلَكَ وَالنَّوَى      فَأَصْبَحْتُ لَا أَسَى عَلَى إِثْرِ بَائِنِ  
كَأَنَّكَ بَادَرْتَ الرَّحِيلَ تَخَوُّفًا      عَلَىَّ مِنَ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ فَاتِنِ  
فَدَيْتُكَ مِنْ لِي مِنْ سَنَاكَ بَلَمَحَةٍ      وَيَنْزِلُ بِي مِنْ بَعْدِهَا كُلُّ كَائِنِ  
أَأْنَسَى قَوَامَا أَتَقَفُ الْحَسَنُ رَحْمَةً      فَمَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ يُعَدُّ لَطَاعِنِ  
وَوَجَّهَهَا حَكِي عَنْ حَسَنِهِ كُلِّ مُقَمِّرٍ      وَلَحَظَا رَوَى عَنْ طَرَفِهِ كُلِّ شَادِنِ

وماتت له جارية فرثاها وخلط الحزن بالغزل أيضا فقال :

أَقِمَا فَرُوضَ الْحَزَنِ فَالْوَقْتُ وَقْتُهَا      لَشَمْسٍ ضُحًى عِنْدَ الزَّوَالِ فَقَدْتُهَا  
وَلَا تَبْخَلَا عَنِي بِإِنْفَاقٍ أَدْمَعٍ      مَلُونَةٍ أَكْوَى بِهَا إِنْ كُنْتُهَا  
لِغَائِبَةٍ عَنِي وَفِي الْقَلْبِ شَخْصُهَا      كَأَنِّي مِنْ عَيْنِي لِقَلْبِي نَقَلْتُهَا

ومات له ولد فرثاه بقصيدة طويلة تفتت القلوب وتُدَمِّي الأَكْبَادَ ، عارض فيها التَّهَامِيَّ أَوَّلَهَا :

اللَّهُ جَارُكَ إِنْ دَمَعِي جَارِي      يَا مُوحِشَ الْأَوْطَانِ وَالْأَوْطَارِ

ولقد بلغ من شدة محبته لبنيه أن مات له ولد عقيب ولادته فلم ييخل عليه برثاء يقول فيه :

وَمَا قَلْبِي إِذَا حَجَرَ فَيَسْلُو      هَلَا لَا قَبْلَ مَا اكْتَمَلَ الطَّلُوعَا



وكان ابن نباتة مروّع القلب دائما بموت أولاده . قال الصفدى : ” إنه لم يعيش له ولد ، فدفن فيما أظن ستة عشر ولدا ، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو سنا أو سبعا يتوفاه الله “ .

عودته إلى مصر — ترك ابن نباتة الشام وأقام بمصر بعد أن شاخ وهيرم وتجاوز السبعين ، وذلك حينما دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر حوالى سنة ٧٥٧ هـ . ومن سوء حظّ ابن نباتة أن مات السلطان حسن بعد سنة فأصبح مرتبه يُعطى بغير نظام .

واستمر بمصر حتى مات سنة ٧٦٨ هـ .

### شعره

مواهبه الشعرية فطرية وكسبية — يرى كثير أن ابن نباتة أشعر شعراء عصره ، وحامل لواء الفن الجديد بمصر والشام . والحق أنه بلغ الغاية فى إجادة التورية حتى أصبح العلم الفرد فيها ، وساعده على إتقان فنه الشعرى استعداد فطرى سليم ، وذوق مصرى دقيق ، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها ، وانصباب على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه ، وتمثّل فى معناه ولفظه ، وقد عرفنا كيف نشأ فى أكاف الأدب من طليعة صباه ، وكيف أفاد من شعراء عصره حتى إذا حدّق أدبهم ووعاه بذّهم جميعا فيه ، وجرى مغبرا إلى الغاية . ثم إنه لم يكتفِ بالفطرة الشعرية كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزّار ، ونصير الدين الجمّاحى ، وابن دانيال الكحال وغيرهم . فان القارئ لشعره يرى فيه شاعرا متقفا اطلع على دواوين الشعراء ، وأحاط كثيرا بكتب الأدب وأخبار العرب ، وألمّ بجملة صالحة من العلوم . وربما كان لكثرة انتقال ابن نباتة فى بلاد الشام أثر فى اتساع مدّى فكره الشعرى وربما كان



ليؤسسه وفقره شأن في تزويد فنه معاني وأخيلة مبرته عن سواه ، وربما كان للوراثه يد في نبوغه وعبقريته ، فقد عرفت أن نسبه ينتهي إلى عبد الرحيم ابن نباتة ، وهو من أعظم أدباء عصره .

تبريزه في الصناعة اللفظية — وقد أجمع أهل الأدب في عصر المماليك على تقديم ابن نباتة وعده أمير الأدباء في الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية . قال ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ في خزانة الأدب عند الكلام في التورية :

” فإنه ( ابن نباتة ) وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصره ، فقد تقدم عليهم ببيدعه وغريبه بياننا وسجرا ، وتفقه في الطريقة الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدي من حواصلها نظما ونثرا ، وكم سألته عالم في سلوك هذه الطريقة فقال لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، وإن قيل إن الفاضل تذهب بهذا المذهب ، فذهبي — وأنا أستغفر الله — أنه ( ابن نباتة ) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتادب ، فإن هذه الطريقة ما أمها ناظم ولا ناثر في الأيام الأموية ، ولا ابنسمت ثغورها في الخلافة العباسية ، ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغربية وأظهر منها الزيادة المستفادة ، واعتادها بقاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة ، ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غربتها ، وشرف بأصل شجرته النباتية نسبها ، وأسكن في أبياته من بديع النظم كل قرينة صالحة ، وأمسست سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحة “ .

ومن لطائفه في التورية قوله وفيه تضمين :

وضعت سلاح الصبر عنه فإله يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله !  
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتي فليتيق الله سائله

والأمثلة من مبتدعاته في هذا الباب كثيرة جدا .



الاستخدام — ومما برع فيه ابن نباتة الاستخدام كقوله :

إذا لم تُفَضْ عيني العقيقَ فلا رأتُ      منازلَه بالقُربِ تبهى وتبهر  
وإن لم تواصل عادةَ السَّفحِ مُهَجَّتِي      فلا عادها عيشٌ بمغنائه أخضر

فقد استعمل العقيق استعمالاً مجازياً قَصَدَ به الدمع ، ثم أعاد عليه الضمير  
بمعنى المكان المعروف ، واستعمل السفح بمعنى الصَّبِّ والإسالة وأعاد عليه الضمير  
بمعنى المكان .

ولوعه بالتضمين — وكان ابن نباتة مؤلِّعاً بالتضمين ، لا تكاد تخلو  
قصيدة له منه ، وربما أخذ البيت أو البيتين فضمنهما قصيدته ، وأبدع ما يظهر  
من براعته أنه يُحوِّلُ المعنى الأصليَّ إلى معنى آخر ، وينقله من القصد الذي قيل  
فيه إلى غيره في دقة وسبك ، وربما نقل متناً في علم النحو إلى الغزل أو المديح .  
وقد استشهدنا لشيء من ذلك في مقالة الشعر .

وهذا النوع يدل على سعة اطلاع في الأدب ، واتساع في مدى الإلمام  
بالشعر ، وحسن الحيلة والتأني ، ولذلك برع فيه ابن نباتة وأكثر منه ، فمن  
تضميناته :

أَتَانِي عَلَى الْبَانِيَايِ مَشْدَا      فَيَا لَكَ مِنْ شِعْرِ ثَقِيلٍ مَطْوِلٍ  
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدِيرٍ مَعَا      بِكَلَامٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عِلٍّ (ي)

ومنها :

يَا تَالِيَ الْقَوْلِ كُتُبًا فِي لَوَاحِظِهِ      ”السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ“

ومنها :

وَطَابَتْ بِكَ الْأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ حِلُّهَا      (وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيْبٌ)

ويظهر أنه كان شديد الشغف بقراءة ديوان المتنبي حتى إنه ليقبَس منه  
في كثير من شعره .



حسن التعليل — ومما حلا فيه ذوق ابن نباتة حسن التعليل ؛ وأغلبه في بيان علل خيالية لتسمية الأشياء كقوله في المدح :

وما سُمِّيَ الغَيْثُ اهْتُونُ سَحَابَةٍ      سوى أَنه من نَجْمَةٍ يَتَسَحَّبُ

وقوله :

وإذا الفتى قَطَعَ السنينَ عديدة      شابَ الحياةَ فظَلَّ يُدْعَى شَائِباً

وقوله :

شكراً لأَقلامك اللاتي جرتْ لمدى      في الفضل أبقى لباغى شأوه التعبا  
حَلَّتْ وَأَطْرَبَتِ الْمُصْنَعِي وَحُزَّتْ بِهَا      فَضَلَ السَّبَّاقِ فَسَمَّاهَا الْوَرَى قَصَباً

وفي البيت الأخير مهارة حقاً ، فهو يعلل تسمية الأقلام بالقصب لثلاثة أسباب ، لأنها حُلوة وقصب السكر حلو ، ولأنها مُطَرِّبة والقصبُ المُنْتَقَبُ مُطَرَّب ولأنه يسبق بها أقرانه فهي قصب السبق .

ومن لطائفه في هذا الباب :

تَجَاسَرَ عَوْدُ اللَّهِوِ يُشَبِّه صَوْتَهَا      فَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَصْبَحَ الْعَوْدُ يُضْرَبُ

مراعاة النظير — ومما شُغِفَ به ابن نباتة مراعاة النظير . ومن إحسانه فيه قوله :

وَكُنْتُ أَخَا سَعْدَى فَأَصْبَحْتُ عَمَّهَا      فَهِيَاتِ لِي جَدٌّ بِتَقْيِيلِ خَالِهَا

وأكثر من استعمال هذا النوع في مصطلحات العلوم كالنحو . والعروض والحديث ونحو ذلك كقوله :

بِلَوَاحِظٍ يَرْفَعُنْ جَفَنًا كَاسِرًا      فَيُثَرِّنْ فِي الْأَحْشَاءِ هَمًّا نَاصِباً



وقوله :

وَأَفْرِ الْمَكْرَمَاتِ مُنْسَرِحُ اللَّفِّ      بِطَوِيلُ الثَّنَا مَدِيدُ الثَّوَابِ

وقوله :

وَيُرَوِّى أَحَادِيثَ الثَّنَاءِ صَحِيحَةً      عَطَاءٌ لَنَا مِنْ رَاحَتِكَ وَجَابِرٌ

ومن لطائفه فى هذا النوع قوله :

يَا مُنْعِشِى حَيْثُ شَخْصِى فِى دِمَشْقَ وَفِى      تَفْلِيسَ مَالِى وَدَمَعَ الْعَيْنِ فِى حَلَبِ

تأكيد المدح بما يشبه الذم — وأكثر جدا من تأكيد المدح بما يشبه الذم حتى لتكاد تجد ذلك فى كل قصيدة كقوله :

لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ سِوَى أَنْ إِحْسَانَ      نَ يَدِيهِ يَسْتَعْبِدُ الْأَحْرَارَ

لعبه بالحروف — ومما فتن به التعبير عن المعنى بحذف حرف من كلمة أو بتغييره كقوله :

أَهْ لِشَرْخِ شَبَابٍ كَانَ لِي وَمَضَى      وَاعْتَضْتُ شَرَحًا وَلَكِنْ مَالَهُ خَاءٌ

وقوله :

وَزِيرَ الثَّقَى هَلْ أَنْتَ فِى الْعَشْرِ عَاطِفٌ      عَلَى فَاقَتِى بَيْنَ الْوَرَى وَخَضَعِى  
وَمَا الْعَشْرُ إِلَّا الْعُسْرُ فِى كُلِّ حَالَةٍ      وَلَكِنِّى نَقَطْتُهُ بِدُمُوعِى

يريد بالعشر عاشر المحرم وهو يوم يوسع الناس فيه على عيالهم .

تصرفه فى اسمه — وقد افتن كثيرا فى التصرف فى اسمه ، وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتى وذلك كقوله يخاطب ممدوحه :

وَحَسْبِى أَنْ أَدْعَى نَبَاتِى غَرْسِهِ      فَلَا طَرَسَ إِلَّا وَهُوَ بِالْحَمْدِ مُعْشَبٌ



وقوله وقد أهدى إلى صديق سُكَّرًا :

جَدَتْ وَأَحْمَتْنِي بِمَا قَدْ      سَمِعْتُ مِنْ لَفْظِكَ الْمَوَاتِي  
فَاقْبَلْهُ - ذَا سَكَّرُ بِيَاضٍ      إِنَّ عَجَزَ السُّكَّرِ النَّبَاتِي

ميله إلى الاكتفاء — ونراه في شعره يميل أحيانا إلى الاكتفاء ، مرة  
بحذف جملة ومرة بحذف حرف كقوله :

فَأَقْطَفُ مِنْ أَوْرَاقِهِ الْأَدَبَ الَّذِي      وَأَسْمَعُ مِنْ أَلْفَاظِهِ اللَّغَةَ الَّتِي  
وقوله :

عَدْتُ كُلَّ عَامٍ لِي إِلَيْهِ وَفَادَةً      فَيَا حَبِذَا مِنْ أَجْلِ لُقْيَاهُ كُلِّ عَامٍ (م)

تخلصاته — ولا بد من نباتة تخلصات حسنة أكثرها مؤسس على التشبيه  
كقوله :

لَا يَقْرُبُ الصَّبْرُ قَلْبِي أَوْ يَفَارِقَهُ      كَأَنَّهُ الْمَالُ فِي كَفِّ ابْنِ أَيُّوبَ

وقوله :

جَادَتْ جَفُونِي بِحُمْرِ الدَّمْعِ لَهُ      جُودَ الْمُؤِيدِ لِلْعَافِينَ بِالذَّهَبِ

### أسلوبه ومعانيه

اهتمامه بالألفاظ — اتجه ابن نباتة كما أسلفنا إلى الصناعة والزخرف ، وهي  
الزراعة التي تحكمت في شعراء عصره ، فانصرف بجماله إلى الألفاظ يقلبها على وجوهها  
علّه يظفر منها بجناس أو بتورية أو بمقابلة أو بلغز أو بأية طريفة من الطرائف



يسبق بها معاصريه ، أو يبرزها سابقيه . وقد أسلفنا من الأمثلة والشواهد على ذلك ما فيه غناء . والمطلع على ديوانه يدهش لتحكم هذا الشغف في نفسه ، حتى لقد أخذ من الألفاظ والحروف مادة للتشبيه كقوله :

لَا مَ الْعِذَارَ أَطَالَتْ فِيكَ تَسْهِيْدِي      كَأَنَّهَا لَغَرَامِي لَا مَ تَوْكِيدِ

وقوله في خِلْعَةٍ :

وَرَحْتُ أَخْطِرُ فِي أَلْفَاهَا أَلْفًا      وَكُنْتُ مِنْ دَخَلٍ فِي هَيْئَةِ الدَّالِ  
وَأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ :

يُعْنَى بِذَا دُونَ هَذَا مَعَ تَمَآثُلِهِ      وَقَسَّ عَلَى مَا تَرَاهُ السَّيْنُ وَالشَّيْنَا

قلة ابتكار المعاني وتكرارها — لهذا لم يتجه ابن نباتة لابتكار المعاني ، أو ابتداع الأخيلاء الرائعة ، واكتفى بمعاني من قبله وأخيلتهم ، فكان الابتكار أو ما يشبهه قليلا في ديوانه ، وكثيرا ما تراه يكرر معانيه ، وهذا إفلاس أدبي دفع إليه تعجُّله في صوغ القصائد ، وكثرة ما كلف نفسه من القول للاستجداء وطلب العطاء كقوله :

عَدَّلُوهُ عَلَى النَّوَالِ فَاغْرَوْا      فَتَدَاهِ نَصَبٌ عَلَى الْإِغْرَاءِ  
فإنه كرر هذا المعنى مرات عدة .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها .

التعابير السَّوقِيَّة — وقد يقع أحيانا في المعاني البلدية ، والتعابير السَّوقِيَّة كقوله :

وَكَا بَدْتُ فِي الْمَثْنَى مِنَ الْعُرْبِ مُشْتَكِي      كَمَا قِيلَ لَمْ تُلْبَسْ عَلَيْهِ ثِيَابُ



وقول :

وكم ذى كتابٍ فى الورى وكتيبة      فدا داخلا من موته تحت مكتوب

وقوله لمن طلق زوجته واسمها دنيا :

ظلمت دنياك وطلقتها      فرحت لا دنيا ولا آخره

معانيه الجيدة — على أنك مع هذا تجد فى تضاعيف ديوانه كثيرا من

المعاني والأخيلة السرية كقوله فى وصف طيف الخيال :

زور عفيف على عين الشحى مشى      فياله صالحا يمشى على الماء  
ثم انتهت وذات الحال ساكنة      لم تدّر سهدى ولم تشعر بإغفائى

وقوله :

حلفت إنك أذكى من حوى قلما      ينش البديع وأنحى من نحا أدبا  
أليّة لو أتاها الفجر ما نسبّت      له البريّة فى ذيل الدجى كذا

ومن الجيد قوله :

فهبت فى الظلام إلى مدام      كأن شعاعها قبس يلوح  
وحيتنا بصافية شمول      كما يترقّق الدمع السفوح  
كأنّا قد سلبنا الديك عينًا      فقام من الكرى فزعا يصيح

وكقوله :

وحى العواصم رأيه ولطالما      قعد الحسام وقامت الآراء



تَشْبِيهَاتُهُ — ومن جيد تشبيهاته قوله :

أَجَاوِرُ مَنْ أَهْوَى وَلَا وَصَلَ بَيْنَنَا كَأَنِّي وَمَنْ أَهْوَاهُ تَغَرَّ مُفْلَجٌ  
وَمَا يَسْتَحْسِنُ مِنْهُ مَا نَظَرَ فِيهِ إِلَى أَكْذُوبَةٍ أَبِي حَيَّةِ النَّمِيرِيِّ ، الَّذِي ادَّعَى  
أَنَّهُ رَمَى ظِييَا بَسْمِهِمْ فَمَا زَالَ الظُّيُ يُحِيدُ وَالسَّهْمُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى أَصَابَهُ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :  
وَبَدِيعُ الْجَمَالِ لَمْ يَرِ طَرْفِي مِثْلَ أَعْطَافِهِ وَلَا طَرْفُ غَيْرِي  
كَلَّمَا حَدَّثْتُ عَنْ هَوَاهُ أَنَا نِي سَهْمُ الْحَاظِ كَسَهْمِ النَّمِيرِيِّ  
وَلَا بِنِ بِنَاتِهِ جَمَلَةٌ صَالِحَةٌ مِنَ الْمَعَانِي الْجَيِّدَةِ لَا يَتَسَعُ الْجَمَالُ لاسْتِقْصَائِهَا .

عيوب شعره — ولعناية ابن نباتة بالنكتة والتورية والبديع عاقمة لم يبلغ  
أسلوبه في جمهرة شعره منزلة الجودة ، لأن أنواع البديع تحتاج عادة إلى ترشيح  
وتمهيد ، وهذا التمهيد كان يُفَرِّغُهُ الشاعِرُ فِي أَيْ قَالَبٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ قُبْحَ أَوْ حَسَنَ ،  
لأنه يريد الوصول إلى البديع بأي ثمن . انظر إلى قوله :

قَسَمًا بِسُورَةِ عَارِضِيكَ فَإِنَّهَا كَالنَّيْلِ عِنْدَ بَصَائِرِ الشَّعْرَاءِ

فإنه لأجل التسليمح باسمي السورتين جاء بتعبير ضعيف جدا هو ( سورة  
عارضيك ) ، وهل للعارضين سورة ؟ وما هي ؟ ثم زَلَّ زَلَّةً أُخْرَى فَقَالَ عِنْدَ بَصَائِرِ  
الشَّعْرَاءِ ، وَهُوَ يَرِيدُ أَبْصَارَ الشَّعْرَاءِ إِذْ لَا مَعْنَى لِلْبَصَائِرِ هُنَا .

هذا مثال واحد أردنا أن نبين به ما يجره الولوع بالبديع من الجنائية على  
الأسلوب والإسفاف المخزى ، مع أن ابن نباتة كان أكثر من غيره توفيقا في صناعة  
البديع ، ولكنه لم يسلم في كثير من محاولاته من الزلل .

الإكثار من الضرورات الشعرية — ومن عيوب ابن نباتة الإكثار من  
الانتفاع بالضرورات الشعرية كقصر الممدود وتسهيل المهموز وصرف مالا ينصرف  
فمن أمثلة قصر الممدود قوله :

وَنَدَى يُنْجِلُ السَّحَابَ يَمْشِي مِنْ وَرَاءِ جُودِهِ عَلَى اسْتِحْيَاءِ



الحشو — ومن عيوبه الحشو وهو كثير في شعره ويكون بالقسم كقوله :  
أوحشه الغيث الذي قد نأى وجاءه والله في وقته

أو بزيادة كلمة أو تركيب كقوله :

رئيس على التحقيق قالت صفاته لنقاده ذا ما يخالط ذا ما  
ففي الشطر الأول حشو (على التحقيق) ، والجناس في الشطر الثاني سقيم .

الهفوات اللغوية — ومن عيوب شعره التهاون في تعدية الأفعال كقوله :

طَرَقَتْ على تلك النفوس طوارقُ وطَرَتْ على تلك الجسوم طواري  
فإن طرق يتعدى بنفسه ، وطرت أصلها طرأت سَهَلَتْ الهمزة وعومل الفعل  
معاملة المعتل بالألف ، وهذا ضعف أيضا .

وكقوله :

لقد أحيا ندى كفيفك حالي كذاك الغيث يُحيي للنبات  
فَعَدَى الفعل ”يحيي“ باللام .

وقوله :

إليك مدير الكأس عني إني رأيتُ دموعَ الخوف تنقعُ للصدى  
والفعل نَقَعَ متعد بنفسه .

ومن أخطائه اللغوية قوله :

الناصرُ اسمًا وألقابًا وافيعةً فانظر لنصرٍ على عطفه مُشْتَمَلٌ  
يريد وأفعالا والشطر الثاني ركيك .



وقوله :

وشأندُ المُلِكِ مشغولٌ بأربعة من العطا والسُّطا والعلم والعمل  
وقد أكثر هو والحِلِّيُّ من استعمال كلمة "السُّطا" هذه ولا نعزف لها وجهها.

وقوله :

يَا مَنْ لَهُ تُعْرَبُ الافاق عن سير عُظْمَى وتَنطِقُ أرضٌ وهى نَحْسَاءُ  
فإن اسم التفضيل لا يطابق موصوفه فى التأنيث إلا إذا عُرِفَ بِأَلْ أو أَضِيفَ  
إلى معرفة .

وقوله :

قَاضِ القَضَاةِ المُلْبِىِّ تَاجُ السَّرَاةِ الأَلْبِىِّ

وهو يقصد الألباء جمع لبيب . وقوله :

لَهْفَى لجوهرة خَفَتْ فَكَاثِمَا حَجَبَتْهَا مِنْ أَدْمُعَى يَحَارُ  
واللغة العالية أن يقول خَفَيْتُ . وقد أكثر من استعمال كلمة العائلة بمعنى  
الأسرة . فمن ذلك قوله :

وما أبالى إذا استكثرتُ عائلةً فقد كَفَى هَمَّ إصباحى وإمسائى  
ونرى أنَّ هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى قبل ذلك بنحو قرنين .



## فنون شعره

أكثر شعره في المديح والرثاء ، لأنه شاعر مُسْتَجِدٌ ، يعيش من سنّ قلمه .  
وأكثر مدائحه في النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم في الملك المؤيد صاحب حماة  
وأبنائه ، وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء ، ومدح  
الملك الناصر والسلطان حسنا ، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة والمحترمين ،  
وليس له في الهجاء إلا أبيات قليلة هي إلى الدعاية أقرب منها إلى الهجاء ، ولكن  
لسانه لم يعف عن هجر الكلام حتى في القصائد التي يمدح بها الكبراء ، وهذا إن  
دلّ على شيء فإنما يدلّ على تدهور الآداب العامة في ذلك العصر .

غزله — وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمه صناعيّ نحت يجعله طابعة  
لقصائده ، ويستعمل في أكثره ضمير المذكر كما هي عادة شعراء عصره ومن  
قبلهم .

وأحسن ما قاله في الغزل قوله من قصيدة في مدح الرسول :

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلَا نَسْمَةٌ تَخْطُرُ      وَلَمَعَةُ بَرْقٍ بِالْغَضَا تَتَسَعَّرُ  
وَذَكَرُ جَبِينِ الْبَابِلِيَّةِ إِذْ بَدَأَ      هَلَالُ الدُّجَى وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يَذْكَرُ  
سَقَا اللَّهُ أَكْنَافَ الْغَضَا سَائِلَ الْحَيَا      وَإِنْ كُنْتُ أَسْقَى أَدْمَعًا تَتَحَدَّرُ

نحمرياته — وله كلام كثير في النحريات وقد كان في هذا الباب مقلدا قليل  
الابتكار ، ومما أحسن فيه من ذلك قوله :

عَوَّضَ بِكَأْسِكَ مَا أَتَلَفْتَ مِنْ نَشِيبِ      فَالْكَأْسُ مِنْ فَضْةٍ وَالرَّاحُ مِنْ ذَهَبِ  
وَاخْطُبْ إِلَى الشَّرْبِ أُمَّ الدَّهْرِ إِنْ نُسِبَتْ      أُخْتُ الْمَسْرَةِ وَاللَّهْوِ ابْنَةُ الْعَنْبِ  
غَرَاءُ حَالِيَةِ الْأَعْطَافِ تَخْطُرُ فِي      ثَوْبٍ مِنَ النُّورِ أَوْ عِقْدٍ مِنَ الْحَبِيبِ



بقية فنون شعره — وله شعر كثير في الحنين إلى الصبا ووصف ويلات  
الهرم والشيب ، كما كان يكثر من وصف القلم عند ما يمدح الكتاب والأدباء ، وفي  
ديوانه كثير من التهانى ، وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التي جمع فيها بين التهنئة  
والتعزية ، وقد سارت بها الركبان ، وترددت أصدائها في كل مكان . وأولها :

هنا محاذك العزاء المقدما      فما عبس المحزون حتى تبسم

وله قصيدة في الطرد سماها " مصايد الشوارد " وهى من بحر الرجز ، فى مائة  
وسبعة وستين بيتا ، حاكى فيها شعراء العصر العباسى ممن طرّقوا هذا الفن ،  
كأبى نواس وابن المعتز . وقد وفق ابن نباتة فى هذه القصيدة وأظهر فيها براعة  
فى التشبيه مجودة ، ونما يُختار من هذه القصيدة قوله :

حتى نزلنا بمكانٍ مُونِقٍ      إخوانَ صديقٍ أحذقوا بالملقِ  
فيالهِ فى الحسن من محلٍّ      مرادُ جدٍّ ومراد هزلٍ  
للطير فى مياهه مواقعُ      كأنها من فوقه فواقعُ  
حتى طوى الأفق رداءَ الورسِ      والتقم المغربُ قرصَ الشمسِ

وله بجانب ذلك ألفاز ، ومقطعات كثيرة ، منها الثنائيات والثلاثيات  
والرباعيات والخماسيات ، وأغلب هذه المقطعات كان يقولها لإبراز نوع بديعى ،  
أو يرسل بها إلى ممدوحيه فى طلب حاجة .

ولابن نباتة قليل من الموشحات ومطلع أحدها :

لهفى على غادةٍ إذا سَفَرَتْ      غارتُ وجوهُ الشموسِ واستترتُ  
لها من السُّمرِ قامةٌ خَطَرْتُ      كم قتلْتُ عاشقاَ وكَم أَسَرْتُ  
إذا دعتُ للنهوضِ مِيلَها عِظفا      كأنَّ سحرَ الجفونِ حملَها ضَعفا



## الموازنة بينه وبين شعراء عصره

سبق أن قلنا إن ابن نباتة يعد بحق زعيم شعراء مصر في عصره ، وإن معاصريه سلكوا مسلكه ، واتبعوا مذهبه ، واتخذوه قائدا وإماما ، فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله .

وأقرب من يشبه ابن نباتة من شعراء مصر برهان الدين القيروطي ، ويتشبه به من شعراء الشام صلاح الدين الصفدي ، وكان كثير الإغارة على شعره كما سبقت الإشارة إليه .

أما صفي الدين الحلي فكانت له نزعة في الشعر تخالف نزعة ابن نباتة ، وكان أقل منه احتفالا بالبديع ، وكانت ديباجته أقرب إلى الديباجة العربية السليمة ، وكانت بينه وبين ابن نباتة صلة وثيقة تبادل فيها القريض ، وتقارضا المديح والثناء . وجملة القول أن شعر الحلي أميل إلى الجزالة ، وشعر ابن نباتة أميل إلى الرقة والإبداع .

سرقاته — وقد أخبرنا ابن حجة الجموي أن ابن نباتة كان يُغيّر على بدائع علاء الدين الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ هـ ، وقد أورد في خزانة الأدب جملة من ذلك ، وذلك كقول الوداعي :

والنهر كالمبرد يحلو الصدا      يبرده عن قلب ظمائه

الذي أخذه ابن نباتة فقال :

والنهر فيه كمبرد      فلاجل ذا يحلو الصدا

ويقول الوداعي :

ما كنت أول مغرم محروم      من باخل بادي التفار كرم



فيقول ابن نباتة :

مَبْخَلٌ يَشْبَهُ رِيمَ الْفَلَا      يَاطُولُ شَجْوَى مِنْ بَخِيلِ كَرِيمٍ

ومن استعار ابن نباتة بدائعهم أبو الحسين الجزار ، ومحبي الدين بن عبد الظاهر ،  
وعبد العزيز الأنصاري الحموي ، ومجير الدين بن تميم .

### كتابتة

كان كاتباً شاعراً ، كما يصف نفسه مخاطباً ممدوحه :

يَعْظُمُ مَنْ كَانَ لَكُمْ شَاعِراً      فكيف وهو الشاعرُ الكاتبُ ؟

وقد جرى في الكتابة على أسلوب عصره ، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف  
عن التعقيد ، وسلك سبيل البديع في رفق وهوادة ، فجاء ثره حسن النسيج لا يخلو  
من جمال فني . وإنا نقتبس هنا طرفاً من رسالته في المفاخرة بين السيف والقلم .  
قال على لسان القلم يردُّ على السيف :

”أَتَفَاخَرُنِي وَأَنَا لِلْوَصْلِ وَأَنْتَ لِلْقَطْعِ ، وَأَنَا لِلْعَطَاءِ وَأَنْتَ لِلنَّعْ ، وَأَنَا لِلصِّلِحِ  
وَأَنْتَ لِلضَّرَابِ ، وَأَنَا لِلْعِمَارَةِ وَأَنْتَ لِلخَرَابِ ، أَعْلَى مِثْلِي يَشُقُّ الْقَوْلُ ، وَيَرْفَعُ الصَّوْتُ  
وَالصَّوْلُ ، وَأَنَا ذُو اللَّفْظِ الْمَكِينِ ، وَأَنْتَ مِمَّنْ دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَوْ مِنْ يُلْشَأُ  
فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مَيِّينٍ . فَقَدْ تَعَدَّيْتَ حَدَّكَ ، وَطَلَبْتَ مَا لَمْ تَبْلُغْ بِهِ  
جَهْدَكَ ، هِيَاتِ أَنَا الْقَائِمُ بِمَصَالِحِ الدُّوَلِ وَأَنْتَ فِي الْغَمْدِ طَرِيحٌ ، وَالْمَتَعَبُ فِي تَمْهِيدِهَا  
وَأَنْتَ غَافِلٌ مُسْتَرِيحٌ ، وَالسَّاعِي فِي تَدْيِيرِ حَالِ الْقَوْمِ ، وَالْمُنْفِي لِنَفْعِهِمُ الْعَمَرُ ، إِذَا كَانَ  
نَفْعُكَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، فَاقْطَعْ عَنْكَ أَسْبَابَ الْمَفَاخِرَةِ ، وَاسْتَرْ أَنْيَابَكَ عِنْدَ  
الْمَكَاشِرَةِ ، فَمَا يَحْسُنُ بِالصَّامِتِ مُحَاوَرَةُ الْمُفْصِحِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمَفْسَدَ مِنَ الْمَصْلِحِ“ .



## أشهر آثاره

- ( ١ ) ديوان شعر كبير مرتّب على حروف الهجاء ، طبع بالقاهرة .
- ( ٢ ) مَطْلَعُ الفوائد وجمع الفرائد ، وهو كتاب حافل في الأدب .
- ( ٣ ) سَرَحُ العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، وهو من أحسن مؤلفاته ، يدل على سعة اطلاع في اللغة والأدب وتاريخ العرب .



## الشاب الظريف

هو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات في عنفوان شبابه سنة ٦٨٨ هـ فهو طرفة هذا العصر ، وشعره يدل على نبوغ موروث ، فقد كان أبوه عفيف الدين التلمساني شاعرا محسنا ، والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة ، في شعره نفحات من العبقرية المصرية ، وكان مولعا بالبديع كبقية شعراء عصره ، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره ، وأكثر شعره في الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر . وصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال :

” نسيم سرى ، ونعيم جرى ، وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى . لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رق شعره فكاد يشرب ، ودق فلا غرو للقبض أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان ، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وخاصة أهل دمشق فإنه بين غمام حياضهم رباً ، وفي كئام رياضهم حباً ، حتى تدفق نهره ، وأينع زهره . وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالشاعر ، ولا ينظرون له بيتا إلا كالبيت ، ولا يقدمون عليه سابقا حتى ولو قلت ولا امرأ القيس ما باليت ، ومررت له ولهم بالجمي أوقات لم يبق من زمانها إلا تذكره ، ولا من إحسانها إلا تشكره ، وأكثر شعره لا بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفظ ، لا يخلو من الألفاظ العامية ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر ، وعاجله أجله فاخترم ، وحرّم أحبّاء لذة الحياة وحرّم .“



ومن شعره وفيه بديع منسجم :

مثل الغزالِ نظرةً ولَفَتَةً      مَنْ ذَا رَأَاهُ مُقْبِلًا وَلَا افْتِنَ ؟  
أعذبُ خلقِ الله ثغرا ومَآءً      إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِالْحَسَنِ فَمَنْ ؟  
فِي ثَغْرِهِ وَخَدُّهُ وَشَكْلُهُ      الْمَاءُ وَالْخَضِرَةُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ

ومنه قوله :

عَفَا اللهُ عَنْ قَوْمٍ عَفَا الصَّبْرُ عَنْهُمْ      فَلَوْ رُمْتُ ذِكْرِيْ غَيْرَهُمْ خَانِي الْفَمِ  
تَجَنَّبُوا كَأَنَّ لَا وَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ      قَدِيمًا وَحَقٌّ مَا كَانَهُمْ هُمُ  
وَبِالْجُدِّعِ أَحْبَابٌ إِذَا مَا ذَكَرْتَهُمْ      شَرِيفٌ بَدَمَعٌ فِي أَوَانِهِ دَمُ  
أَلَمْ وَمَا فِي الرَّكْبِ مِنَّا مُتَعِمٌّ      وَعَادَ وَمَا فِي الرَّكْبِ إِلَّا مُتَعِمٌّ  
وَلَيْسَ الْهَوَى إِلَّا التَّفَاتَةِ طَامِحٌ      يَرُوقُ لِعَيْنَيْهِ الْجَمَالُ الْمُنْعَمُ  
خَلِيلٌ مَا لِلْقَلْبِ هَاجَتْ شَجُونُهُ      وَعَاوَدَهُ دَاءٌ مِنْ الشُّوقِ مُؤَلَّمُ  
أُظُنُّ دِيَارَ الْحَيِّ مَنَا قَرِيبَةً      وَإِلَّا فَمِنْهَا نَفْحَةٌ تَتَنَسَّمُ



## ابن الوردی

هو زين الدين عمر ، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، كان شاعرا أديبا نحويا فقيها مؤرخا ، وكان عفيفا لا يستجدي بشعره ، وله ديوان شعر مطبوع ، وشعره متوسط في الجودة غاص بالبديع وبخاصة التورية ، تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانا ، ومن شعره :

دهرنا أمسى ضنيننا      باللقا حتى ضنيننا  
باليالى الوصل عودى      واجمعينا أجمعينا

ومن شعره :

أتم أحبائى وقد      فعلمت فعل العدا  
حتى تركتم خبرى      فى العالمين مبتدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجوناً بقلعة دمشق :

عشا فى عرضه قوم سلاط      لهم من نثر جواهره التقاط  
تقى الدين أحمد خير خبر      خيوط المعصلات به ثخاط  
توفى وهو محبوس فريد      وليس له إلى الدنيا انبساط  
قضى نخباً وليس له قرين      ولا كظيره لف القاط

وله القصيدة المشهورة فى الحكم منها :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل      وقل الفصل وجانب من هزل  
ودع الذكر لأيام الصبا      فلا أيام الصبا نجم أقل  
إن أهنأ عيشة قضيتها      ذهبت لذاتها والإثم حل  
واهجر النمرة إن كنت فتى      كيف يسعى فى جنون من عقل  
صدق الشرع ولا تركن إلى      رجل يرصد بالليل زحل  
حارت الأفكار فى قدرة من      قد هدانا سبلنا عز وجل  
كتب الموت على الخلق فكم      فل من جمع وأفنى من دول



## صفي الدين الحلبي

هو عبد العزيز بن سرايا بن علي ، ولد بالحلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ ، ونشأ بها وتأدب وأجاد الشعر ، وخدم ملوك الدولة الأرتقية ، وقد رحل إلى مصر في سنة ٧٢٦ هـ ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا      اللابسات من الحرير جلابيا  
فابتدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا      فتركن حبات القلوب ذوائبا  
وجلون من صبح الوجوه أشعة      غادرن فود الليل منها شائبا  
بيض دعاهن الغي كواعبا      ولو استبان الرشد قال كواكبا

وقد طرق معظم فنون الشعر ، وقال من الأوزان المولدة ، وفي التشطير والتخميس ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات ، وكان شعره سهل اللفظ جيد الأسلوب ، وقد يعدّه بعض الأدباء أشعر شعراء عصره . ومن شعره وهو في غاية الرقة :

إن غبت عن عياني      يا غاية الأمانى  
فالفكر في ضميري      والذكر في لسانى  
ما حال عنك عهدى      ولا انتنى عنانى  
شوق إليك باقٍ      والصبر عنك فانى



ومن شعره :

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| وقال كل الزهر في خدمتي   | قد نشر الزنبقُ أعلامه    |
| مارُفَعَت من دونه رايتي  | اولم أكن في الحسن سلطانه |
| وقال ما تحذر من سطوتي ؟  | فقهقه الورد به سناحرا    |
| يقوله الأشيبُ في حضرتي ؟ | وقال للسَّوسنِ ماذا الذي |
| وقال للأزهار يا رفقتي    | فامتعض الزنبق من قوله    |
| ويضحك الورد على شيتي     | يكون هذا الجليش بي محدقا |

هذا شعر في منتهى الرقة ، ولكن صفى الدين قد يكون في منتهى الجزالة والضحامة إذا قال في الأغراض الشعرية التي تتطلب قوة وحاسة كقوله :

|                               |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| كسيت جلالا من غبار القسطل     | لمن الشواذب كالنعام الجفل  |
| يحمل كل مدرع ومسر بل          | يبرزن في حلل العجاج عوابسا |
| في الخدر من ذيل العجاج المسبل | شبه العرائس تجتلي فكأنها   |
| فعل الصواج في كرات الجندل     | فعلت قوائمه عند طرادها     |
| شبا حوافرها وإن لم تُنعل      | فتظل ترقم في الصخور أهلة   |

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة النونية المشهورة التي قالها في صباه ، وكأنه كان يعارض بها نونية ابن زيدون ، ومن هذه القصيدة :

|                                |                             |
|--------------------------------|-----------------------------|
| واستشهد البيض هل خاب الرجافينا | سل الراح العوالى عن معالينا |
| في أرض قبر عبيد الله أيدينا    | وسائل العرب والأترك ما فعلت |
| عم نروم ولا خابت مساعينا       | لما سعينا فما رقت عزائنا    |



يا يومَ وقعةِ زوراءِ العراقِ وقد  
دنا الأعداءِ كما كانوا يدينونا  
بضميرٍ ما ربطناها مُسومةً  
إلا لنغزو بها من بات يغزونا  
وفتيةٍ إن نقل أصغوا مسامعهم  
لقولنا أو دعوناهم أجاونا  
قومٌ إذا استُخصموا كانوا فراعنةً  
يوماً وإن حكموا كانوا موازينا  
ومن جيد معانيه قوله :

يا مَنْ حكَّتْ شمسُ النهارِ بحسنا  
وبعادٍ منزلها وبهجةِ نورها  
هلاً عدلتِ كعدلها إذ صيرتْ  
للناسِ غيبتها بقدر حضورها  
(توفي ببغداد سنة ٧٥٠ هـ .)

### بدر الدين الذهبي

كان من أرق شعراء الشام أسلوباً وألطفهم طريقة ، ويمتاز شعره بكثرة الوصف وجمال الديباجة وروعة البديع .

وقد جاء في المنتخب أمثلة صالحة من شعره ، وسقنا إليك في مقالة الشعر شيئاً منه .

ومن قوله :

ورياض وقفت أشجارها  
وتمشَّت نسيمة الصبح إليها  
طالعت أوراقها شمس الضحا  
بعد أن وقعت الورق عليها  
وقوله :

عرج على الروض يا ندي  
ومل إلى ظله الظليل  
فالزهر يلقاك بابتسام  
والريح تلقاك بالقبول  
(توفي سنة ٦٨٠ هـ .)



## صلاح الدين الصفدى

كاتب شاعر مؤرخ ، وُلد في صَفَد سنة ٦٩٦ هـ ، وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر ، وتولَّى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب ، وأشهر كتبه الوافى بالوفيات ، وهو أكبر معجم للتراجم يقع في نحو خمسين مجلدا ، ولا يوجد هذا الكتاب كاملا في مكان واحد ، فمنه أجزاء بمصر وحلب وتونس وغوطة وقينا ولندرة وأكسفورد وباريس . ومن شعره :

بسم أجفانه رمانى فذبت من هجره وبنته  
إن مت مالى سواء خَصَمَ لأنه قاتلى بعينه

وله قصيدة طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب ابن زهير منها :

سلوا الدموعَ فإن الصَّبَّ مشغولٌ ولا تملوا ففى إملائها طولٌ  
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى هل فى الغرام الذى تبديه تبديل  
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكم من الجوى عند ماتحويه تحويل  
أحبتي لا وعيش مرٍّ لى بكم وربُّع لهُوى بالذات مأهول  
ما كان لى مذكرفتُ الوجد قط ولا يكون فى غيركم قصدٌ ولا سول

ومن قوله :

يا غائبين تعلمنا غيبتكم بطيب لهُوى ولا والله لم يطب  
ذكرت والكأس فى كفى لياليكم فالكأس فى راحة والقلب فى تعب



وكتب اليه ابن نباتة وكان الصلاح مريضا :

ثُمَّ لَ إِذْ نَبَغِي بِفُظْكَ طَبَّنَا      مِنْ الهمِّ وَالجَسْمِ الشَّرِيفِ نَحِيلُ  
فَهَا أَنْتَ فِينَا كَالنَّسِيمِ بِاطْفِهِ      طَيِّبِ يَدَاوِي النَّاسِ وَهَوِّ عَيْلِ  
وَحَاشَاكَ مِنْ شَكْوَى اعْتِلَالٍ سَيَنْقُضِي      قَرِيبَا كَمَا نَخْتَارُهُ وَيَزُولُ

فكتب إليه الصلاح الصفدى :

لِحِمَايَ نَارٌ جَاءَهَا مِنْكَ جَنَّةٌ      غُصُونُ رُبَاهَا بِالْبَدِيعِ تَمِيلُ  
تَهْدَلَّتْ الْأَفْنَانُ مِنْهَا فُخْطَرِي      لَهُ بَيْنَ هَاتِيكَ الظَّلَالِ مَقِيلُ  
وَأَنْتَ حَبِيبُ الشَّعْرِ أَصْبَحْتَ سَيِّدَا      كَمَا أَنَّنِي مُوَلَّى وَالْأَسْمِ خَلِيلُ

( مات بدمشق في ليلة عاشر شوال سنة ٥٧٦٤ هـ . )

سنة ١٢٠٢  
١٢٠٢



## ديوان الإنشاء

منذ نشأته إلى نهاية هذا العصر

الكتابة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين — كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحو نيف وثلاثين كاتباً ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وزيد بن ثابت الأنصاري وغيرهم من جلة الصحابة ، وكان المداوم له صلى الله عليه وسلم على الكتابة زيدا ومعاوية .

وكان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر ، وزيد بن ثابت كاتباً لعمر ، ومروان ابن الحكم كاتباً لعثمان ، وكتب عبد الله بن أبي رافع لعلي بن أبي طالب .

الديوان في عهد بني أمية — ثم كانت دولة بني أمية فكان أمر الكتابة في زمن كل خليفة مفوضاً إلى كاتب يقيمه ، وكان الخليفة يوقع في القصص بنفسه ، والكتاب يكتب بما يُشير به هذا التوقيع ، وكان كاتب معاوية عبيد الله بن أوس الغساني ، ثم اتخذ كل خليفة من خلفاء بني أمية بعده كاتباً أو أكثر إلى آخر عهد خلفائهم ، وهو مروان بن محمد فكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى مولى بني عامر ، وهو أول من وضع أصول فن الكتابة ، وهو الذي قيل فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

ديوان الإنشاء في العهد العباسي — أما الكتابة في عهد بني العباس فكانت في ضمن الوزارة ، والوزير هو المتصرف في الديوان ، وتحت يده جماعة من الكتاب ، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء ، وصاحب ديوان الرسائل . ومن أشهر الكتاب في الدولة العباسية عبد الله بن المقفع ، وكان كاتباً لأعمام المنصور ومتربحاً له ، والربيع بن يونس وكتب للهدى ، وأحمد بن يوسف



وعمر بن مسعدة وكانا كاتنين للأمون . وكتب للتوكل أحمد بن المدبر وإبراهيم ابن الصولي . وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابي . وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطي المشهور بابن زيادة صاحب ديوان الإنشاء ببغداد ، وإليه انتهت رئاسة الترسل . وكتب للمستعصم عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد مات سنة ٦٥٥ هـ ، وقُتِلَ الخليفة عقب موته ، فهو آخر كتّاب الإنشاء لخلفاء بغداد . قال السيوطي : ”ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بني أمية كتب له عبد الحميد الكتّاب ، وآخر خلفاء بني العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد“ .

الديوان في العصر الفاطمي — أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون ، وحينما قوى أمرها في تلك الأيام أنشئ بها ديوان للإنشاء ، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية ، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها . وأشهر كتّاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سُوردين النصراني ، وكان كاتباً للعزیز بن المعز والحاكم . وأبو القاسم المعروف بابن الصيرفي ، وقد كتب للأمر والحافظ ، ويوسف بن الخلال ، وهو أستاذ القاضي الفاضل ، وكتب للحافظ والعاقد ، وكان يُلقَّب صاحب الديوان في الدولة الفاطمية بكاتب الدَّست الشريف .

ومن أشهر كتّاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضي الفاضل ، ثم أضيفت إليه الوزارة ، وكتب لصالح الدين وابنه العزيز . ثم بهاء الدين زهير الشاعر المشهور وكان كاتباً في عهد الملك الصالح .

الديوان في عصر المماليك — وأنبه أصحاب الدواوين ذكرًا في عهد المماليك محي الدين بن عبد الظاهر . وأول من سُمِّي كاتب السر بالديار المصرية ابنه فتح الدين بن عبد الظاهر ، ولي ديوان الإنشاء في عهد المنصور قلاوون .



ومن كُتّاب السر المشهورين في هذا العهد تاج الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل . ومحبي الدين بن فضل الله العمري ، وشهاب الدين بن فضل الله ، وشرف الدين بن فضل الله ، والشهاب محمود الحلبي ، وكتبوا للناصر . وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد .

صفات صاحب الديوان وأعماله — وكان كاتب السر في عهد المماليك في أرفع محل وأشرف قدر ؛ إليه تُلقَى أسرار المملكة ، وبرأيه يستضاء في حل مشكلاتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعها في القصص أحيانا مقام توقيع السلطان .

وقد أطل صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات الساسة ، ثم شرح أعماله في إسهاب : ”وهي أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه كُتّاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات ، وأن يتلقى المكاتبات الواردة ويقرأها على السلطان ويحجب عنها ، وهو الذي ينظر في البريد ، واختيار من يرسل إلى الخارج في الشؤون السلطانية ، وهو الذي يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو ، وتشمل دائرة عمله المناور ، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بلبس أمكنة عالية يقيم بها مستخدمون من قبل السلطان ، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقمم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار ، وهكذا حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى يقرب بلبس في يوم أو بعض يوم ، ومن هناك تُرسل رسالة على أجنحة الحمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ في التأهب “ .

ومن عمل صاحب الديوان فوق ذلك أنه ينظر في الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة ، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته .



وبديوان كاتب السِّر كُتِّب الدَّسْتُ ، وهم الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرون القصص على السلطان ، ويوقعون عليها بأمر السلطان . وكُتِّب الدَّرَج وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتب ونحوها ، وربما شاركهم كُتِّب الدَّسْتُ في ذلك .

خصائص الديوان وفضله — وربما حَسُن بنا هنا أن ننبه على ما ابتدعه الكُتِّب في دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها ، بحيث تختص كل مرتبة بلقب لا تتجاوزه ، كالمقام والمقر والجناب والمجلس ونحوها ، مع إتباع كل منها بألفاظ خاصة للتبجيل والتفخيم . وقد ابتدعوا أيضا إلحاق ياء النسب بالأوصاف ، كالأُميرى لأرباب السيوف ، والصاحبي للوزراء ، والقضائي لأرباب الأقاليم ، وقد أسرف الكُتِّب كثيرا في هذا العصر في ألقاب التمجيد والتعظيم .

ولن يَحَدَّ جاحد ما كان لديوان الإنشاء من الأثر البين في إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام . ولقد تنافس كبار الكُتِّب والشعراء في الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتساق إلى ذلك المنصب السامي ، الذي كان يُشترط لنبيله أن يكون صاحبه علما في الأدب ، بعيد الغاية في جمال الإنشاء وروعة الكتابة ، ملما بكثير من العلوم العقلية والنقلية . وقد أبرز ديوان الإنشاء في عهد المماليك بمصر والشام نوابغ من الكرام الكتّاب ، والشعراء المحيدين ، والعلماء النابهين وقد مرت بك أسماء طائفة منهم .

وقد كان للغة العربية أيام قيام ديوان الإنشاء دولة قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطلهم ديوان الإنشاء ، فطوى بذلك للعربية والأدب العربي عهد زاهر مجيد .



## الكتابة

تأثر طريقة القاضى الفاضل — تأثر الكتاب فى هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى جرت على غرار طريقة ابن العميد، وأرَبَتْ عليها بالإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأنَّ التعمُّل لإبراز هذه الأنواع كان يضطرُّ الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام. وكانت مواهب القاضى الفاضل وسلامة فطرته وتمكُّنه من اللغة تُنقِذ كتابته من السقوط فى دَرَك السُّخْف. وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له بحسن الذوق ودقَّة الصنعة والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيُه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية.

أولع كتاب الممالك بهذه الطريقة، فأخذوا يحاكونها ويجهدون جهدهم فى بلوغ أوجها، وربما جال فى نفوس كثير منهم أن يَبْرُوها بالإغراق فى البديع والإكثار من الزخرف اللفظي، فجنى عليهم اجتهادهم، وكان عليهم أن يعرفوا أنَّ:

أبلغ ما يُدرِك النجاح به الطَّبْعُ عٌ وعند التعمُّق الزللُ

بجاءت كتابة كثير منهم مملوءة بالسديع، مجلَّة بأنواع الصنعة، فاخفت المعانى تحت أردية الديباج الموشى، والإستبرق المرقَّش، وناءت عقود الجواهر والآلى بنات الأفكار فأتمدت أنفاسها، وأصبحت تقرأ عبارات هى أشبه بالآغاز منها بصريح الكلام، وتعجب كيف أن عقلا إنسانيا يُصوِّر له الجَدُّ العائر أنَّ من أمارات النبوغ وإحكام الصنعة التدهور إلى هذا الحضيض. وطالب الأدب تملُّكه الحيرة إن أراد أن يعال لهذه النازلة التى أصابت الأدب فقضت على فنِّ هو أكثر فنونه استعمالا، وهو أقلُّ فنونه قيودا، وأحوجها إلى السهولة والانسجام. وربما كان من أسباب ذلك تمكُّن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب



وتحذّرها في نفوسهم ، حتى لكأنّهم لا يعرفون من النثر إلا ما كان مسجوعاً متكلفاً ، وحتى لكأنّهم لم يقرءوا تلك الكتابة الرائعة السهلة التي تأسّر بلاغتها النفس في جمال وإبداع ورياسة ، تلك كتابة الصدر الأول العباسي لأمثال ابن المقفّع والجاحظ وعمر بن مَسْعَدَة وسهل بن هارون والصولي وغيرهم .

قوة النقد وتأثيرهم — وقد يكون من سوء الطالع أن نشأت طائفة من النقاد في هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهزّ أعطافها إلا هذا الإسفاف . والنقاد في كل عصر أصحاب القوة والصولة في دولة الأدب ، وهم المسيطرون على فنونه وأساليبه وطرقه ، وهم المتحكّمون في رجاله . والأدب يسمو ويسقط بسمو هؤلاء في إدراك معنى الجمال أو سقوطهم ، والأدباء محكومون حتما بهذه القوة الأدبية ، يتلقونها ويحارونها ويزلون على أحكامها . وقليل من الأدباء من يكون له من قوّة نفسه والاعتداد بمواهبه ما يدفعه إلى الثورة على حكم هذه القوة الغشوم . ولا نعرف من هؤلاء في هذا العصر إلا ابن خلدون ، الذي نعى على كتاب عصره شغفهم بالبديع ، وأخذ عليهم إبعادهم في التكلف .

الألفاظ قبل المعاني — وقد يكون من أسباب هذا الطغيان الصناعي قلة ما لديهم من الأفكار والمعاني ، لأنّ مدى اطلاعهم كان محدوداً ، ولأنّ دراسة العلوم الكونية كانت مقصورة على طائفة قليلة ، فأرادوا أن يغطّوا هذا القصور بستار من الزخرف المفقوت ، وبهذا أصبحت الألفاظ عماد الكتابة ومظهر جمالها الفني ، أما المعاني فتأتى تالية في المرتبة ، فإذا أراد الكاتب أن يكتب رسالة كان اتجاهه إلى اختيار الألفاظ المزوقة والأشباع الزانة ، وكان على المعاني أن تخضع أولاً لسيطرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وفي هذا بلا شك مناهضة لأصل الفطرة ومعاداة لطباع الأشياء .

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُمِلَ اللسان على الفؤاد دليلاً



شاهد من كتابة ابن عبد الظاهر — ولا تترك من غير أن نسوق إليك  
شاهداً تستطيع أن تدرك به ما قدمنا لك من سالف البيان .

من ذلك ما كتبه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وهو من أعلام الكتاب  
في هذا العصر في رسالة قال :

”حَسَّ اللَّهُ نِعْمَةَ مَوْلَايَ ، وَلَا زَالَ كَلِمُ السَّعْدِ مِنْ اسْمِهِ وَفَعَلَهُ وَحَفَ قَلْبُهُ  
يَأْتِلِفُ ، وَمُنَادَى جُودِهِ لَا يُرْخَمُ ، وَأَحْمَدُ عَيْشِهِ لَا يَنْصَرِفُ ، وَلَا عَدِمَ مُسْتَوَصِلُ  
الرِّزْقِ مِنْ يَرَاعَتِهِ الَّتِي لَا تَقِفُ الْوَصْلَ ، وَلَا عَدِمَتْ نُحْمَةُ الْجُودِ مِنْ نَوَالِهِ كُلِّ  
مُوزُونٍ وَمَعْدُودٍ ، وَمِنْ فَضْلِهِ وَظِلِّهِ كُلِّ مَقْصُورٍ وَمَمْدُودٍ ، وَمَا خَاطَبْتَ الْيَوْمَ  
مُلْتَمِسُهُ إِلَّا بِلَامِ التَّوَكُّيدِ ، وَلَا عُدُوهُ إِلَّا بِلَامِ الْمَجْهُودِ “ .

دخول الصناعة في لغة التأليف — على أن بعض الكتاب وقد ملكت  
عليه الصناعة زمام نفسه لم يَقْصُرْ هذا النوع من الكتابة على الرسائل الفنية ، بل  
تعداه إلى التأليف ، فهذا ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الأدب يرينا في مواطن  
كثيرة كيف أفسدت عليه الصناعة تأليفه ، حتى إنك حين تقرأ عباراته لتؤثر  
أن تتركها إلى ما هو خير لك وأجدى عليك من التردى في تورية أو التدهور  
في جناس . وهذا ابن عرب شاه ألف كتاباً كاملاً سماه ”عجائب المقصور في أخبار  
تيمور“ كله سجع من النوع المرتبك المحشو بالبديع ، حتى لقد أصبح فهمه أمراً  
عسيراً . وقصارى القول أن هذا الضرب من الثرکان حبيبا إلى النفوس  
جميعاً ، فإنك تراه في رسائل الأدباء ، وفتاوى الفقهاء ، وإجازات الطلاب  
وأحكام القضاة ، وكلما أراد إنسان أن يتمسح بالأدب أو ينتسب إلى أهله . وإذا  
كان العصر كله عصر صناعة وتزويق فلم لا يكون النثر كذلك ؟ ولم ينفرد  
الشعر بهذه الزخارف دونة ؟ ولم لا يتسع فيه المجال للنفس المصرية التي فطرت  
على اللعب بالكلام ؟ ولكن لكل شيء حدا إذا تجاوزه فقد قوته وسلب جماله .



على أنَّ بعضَ النَّثَرِ مع الزَّامِهم البديع كانت لهم رُوحٌ خفيفة وفِطْرَةٌ سليمة تستر آثارَ التكلف ، وتُصَالِح ما أفسدته الصناعة .

مقدرة الكُتُب اللغوية — ولم يكن يُنْقِص الكُتَاب في هذا الأوان قُوَّة في اللغة وتمكُّن من مفرداتها إلا أنَّ لهم هفوات في الاستعمال وصور بعض الأساليب ، وربما كان شيء من ذلك قليلا في رسائلهم ، ولكنه كثير في مؤلفاتهم . وأشهر كُتَاب هذا العصر :

### محي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر المصري وُلِد سنة ٦٢٠ هـ وتُوفى سنة ٦٩٢ هـ وكان من المتعصبين لطريقة القاضي الفاضل في التزام السجع واتباع المحسنات البديعية ، وبخاصة التورية ، وكان رئيس ديوان الإنشاء في زمن الملك الظاهر بيبرس ، فوضع كثيرا من اصطلاحات الإنشاء ونُظِم الديوان ، وبقيت نُظْمه واصطلاحاته معمولا بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر ، وأصبحت مصر ولاية عثمانية . وله مؤلفات ورسائل سلطانية كثيرة ، فمن مؤلفاته في التاريخ « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة » وقد استعان بها المقرئ في تأليف خطه . ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن عند ما عزاه على موت ابنه ويظهر تجلده على فقده ، وهي طويلة منها :

”ولنا والشكر لله صبر جميل لا نأسف معه على فائت ولا نأسى على مفقود ، وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقول المبشر به هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأغلظ أبكادا من له قلب لا يبالي بالصددمات كثرت أوقلت ، ولا بالباريح حقرت أوجلت ، ولا بالأزمات إن هي توالى أو تولت “ .

وله جملة كافية من النثر في كُتَاب المنتخب فارجع إليها .



## شهاب الدين الحلبي

هو محمود بن سليمان وُلد بدمشق سنة ٦٤٤ هـ . وتوفي بها سنة ٧١٩ هـ .  
وتلقى العلم على علماء الشام وتخرج في علوم العربية على ابن مالك النحوي . وكان  
من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرا ، ورحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك ،  
وولي رئاسة ديوان الإنشاء في حكم الملك الناصر بن قلاوون . وله شعر كثير منشور  
في كتب الأدب .

ومن ثمره في وصف البلاغة :

” البلاغة تسحر الألباب حتى تُحِيلَ العَرَضَ جوهرًا ، وتُحِيلَ الهواء المدرك  
بالسمع لانسجامه وعدوْبته في الذوق نهرًا ، لكنه سحر لم يَجْنِ قتلَ المسلم المُتَحَرِّزِ  
فِيَتَأَوَّلَ في حِلِّهِ ، وإذا كان في الحديث ما هو عَقْلَةٌ لِمُسْتَوْفٍ فهذا أنشودة نشاط  
البليغ وحلُّ عقال عقله “ .

وقوله في وصف الكتابة :

” خَطُّهُ شَرَكُ العقول ، وفتنة تشغل المطمئن بملاحة المبرئ المكتوب عن  
فصاحة المَقُول ، ولو لم يكن البيان سحرا لما تجسدت منه في طرسه هذه الدرر ،  
ولو لم يكن بعض السحر حلالا لما انجلى ظلام النقش عما يهتدى به من الأوضح  
والغُرر “ .

## ابن فضل الله العمري

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سُلالة  
عمر بن الخطاب ، وُلد بدمشق سنة ٧٠٠ هـ وتوفي سنة ٧٤٨ هـ ، وارتحل إلى بلاد  
كثيرة في طلب العلم فلتقاه بدمشق والاسكندرية والقاهرة والحجاز . وكان  
مشهورا بالذكاء النادر ، والحافظة القوية ، وصار بعلمه فريد عصره ، لا يساويه



أحمد في أدبه وترسله وتأليفه ، وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية . وقد أودع ذلك كله كتابه ”مسالك الأبصار في ممالك الأمصار“ . وهو كتاب ضخيم في بضعة وعشرين مجلدا ، يبحث في الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعي وغيرها . ومن تأليفه ”التعريف بالمصطلح الشريف“ وهو مجموع رسائل في فن إنشاء الدواوين وعلى نور مشكاته وضع التلقلشندي كتابه صبح الأعشى . ومن تأليفه كتاب ”فواضل السمر في فضائل آل عمر“ وله مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة .

ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صيد جوارح أرسلها إليه :

”صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير فادمة بجناح ؟ ونُعَلِّمُهُ أَنْ مَكَاتِبُهُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْوُرُودِ تَضَمَّنَتْ التَذْكَارَ مِنَ الْجَوَارِحِ بِمَا بَقِيَ مِنْ رَسْمِهِ ، وَجَرَتْ عَادَةُ صَدَاقَتِنَا الشَّرِيفَةِ أَنْ تَحْسَبَ فِي قِسْمِهِ . وَقَدْ جَهَّزْنَا لَهُ الْآنَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ طُيُورٍ لَا يَبْعِدُ عَلَيْهَا مَطَارٌ ، وَلَا يُوقِدُ لِلْقَرَى فِي غَيْرِ حَمَالِقِهَا جَذْوَةَ نَارٍ ، وَلَا تَوْمٌ طَيْرًا إِلَّا وَتَرَشَّ الْأَرْضُ بِدَمِهِ فَلَا يَلْحَقُ لَهَا بَغَارٌ ، وَهِيَ طُيُورٌ كَمْ لَهَا مِنْ فَتْكَ أَخَذَ الطَّيْرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَسَلَبَ مَا تَحَلَّى بِهِ مِنْ رِيَاشِ الرِّيشِ ثُمَّ تَزَيَّأَ بِأَحْسَنِهِ “ .

### القلقلشندي

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقلشندي المصري . وُلِدَ بقلقلشنده ( قرية بجوار قليوب ) فنسب إليها . تلقى العلم بالأزهر ، واشتهر بين أقرانه بحدّة الذهن وسرعة الفهم ، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب في عصره ، وبرع في الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها .



تولى ديوان الإنشاء بمصر في عهد المماليك سنة ٥٧٩١ هـ . وله مؤلفات كثيرة أشهرها  
”صبح الأعشى في صناعة الإنشاء“ وهو كتاب ضخيم جُمَّ الفائدة ، يستفيد منه  
كثيرا كل من يُعنى بدراسة تاريخ الأدب في هذا العصر . ومن مؤلفاته ”نهاية  
الأرب في معرفة قبائل العرب“ وكتاب ”قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب  
الزمان“ وقد ألف هذا الكتاب لأبي المعالي محمد الجهنى البارزى صاحب دواوين  
الإنشاء لفضله عليه ، وذكر فيه قبائل العرب التي كانت في عصره .

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس في وصف  
موقعة وهو :

”وتحررنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها هضر  
ولا يُظنُّ بها على كثرة الأعداد كسر . ولم نزل نحثُّ السير ، ونُسرع الحركة للقاء العدو  
إسراع الطير ، حتى وافينا دِمَشقَ المحروسة فنزلنا بظاهرها ، مستمطرين النصر في  
أوائل حركتنا وآخرها ، وانضمَّ إلينا من عساكر الشام وعربانها وتركمانها الزائدة على  
العدِّ ما لا ينقطع له مدد ، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد“ .

ومن قوله في خطبة كتابه صبح الأعشى :

”وكانت الديار المصرية ، والمملكة اليوسفية ، أعزَّ الله حماها وضاعفَ علاها ،  
قد تعلَّقت من الثريا بأقراطها ، ورجحت سائر الأقاليم بغيراطها ، بشرَّ بفتحها  
الصادق الأمين فكانت أعظم بشرى ، وأخبر سيّد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا“ .



## التأليف

كثرة المؤلفات — إذا كان لهذا العصر أن يزدهى بشيء من مظاهر الحياة الأدبية فإن التأليف أول ما يحق له أن يفخر به ، فقد كثرت المؤلفات فيه كثرة مدهشة ، وانصبت العلماء فيه على التدوين انصبابا صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤونها ، وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات ، وتنافسوا في الإجادة وتسبقوا في كثرة الإنتاج ، ووصل كثير منهم إلى مدى الاجتهاد أو كاد ، وتناولوا كل شيء بأقلامهم حتى التافه الحقير من الشؤون وابتكر بعضهم مباحث وعلموا لم يكن للناس عهد بها ، ولا غرو فقد كانت مصر والشام في هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم ، وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها من البلاد المصرية ، ثم دمشق وحلب وغيرها من البلاد الشامية تموج بالعلماء والطلاب موجاً .

أسباب نهضة التأليف — وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج في هذا العصر ترجع إلى الأسباب الآتية :

( ١ ) عند ما سقطت بغداد وأُريق التتار كثيرا من الكتب ، ودمروا كل شيء تدميرا ، تملك العلماء شعور ديني دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذي عيشت به كوارث الغزو ، وتجديد ذلك المجد الإسلامي الذي بُنى في دهور ، فأخذوا يبذلون الجهد في التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام ، وإنشاء كتب جديدة في اللغة والدين والأدب وغيرها .

( ٢ ) كان لسلطين المماليك ميل إلى العلم والعلماء ، وإغداق دفعهم إلى التأليف وحفزهم إلى الإحسان فيه ، وكان للسلطين والأمراء والوزراء ولوع باقتناء الكتب النادرة ، وإنشاء الخزانات الجامعة لأنواع شتى من المؤلفات ،



حتى إن بعض الكتب كان يُؤلف خاصة لهم ؛ وقد كانوا يختارون لخزائنهم خير ما أنتجه المؤلفون ، فدفع ذلك المؤلفين إلى الإجادة والتنافس . ولقد أظهر لنا ابن نباتة هذا الشعور جلياً حينما أمر السلطان حسن بوضع ديوان شعره في خزائنه إذ يقول :

أمرت شعري يا خير الملوك على أشعار قوم فلي أمر وديوان

( ٣ ) كان التنافس بين علماء مصر والشام بالغاً حدّه ، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمرا ، وكان من العقائد الراسخة أنّ العالم أو الأديب الذي لا يُبرز أثراً لا يصحّ أن يدعى عالماً أو أديباً .

الابتكار والتقليد فيه — ويرى كثير من كتب في هذا العصر أن التأليف فيه ليس به أثر للابتكار ، وإنما هو جمع من أشات الكتب ، وتقليد لا أثر للاجتهاد فيه ، وهذا قول صحيح سائع في كثير من الكتب ، غير أن هناك كتباً تمتاز على كثير مما أُلّف فيما سبق من العصور ، وإلا فمن يستطيع أن يقول إن ابن خلدون في مقدمته كان مقلداً ؟ ومن يجرؤ أن يدعى أن المقرئ في خطه لم يكن إلا نساخاً ؟ ومن يظن أن ابن خلدون في وفاته لم يكن محققاً بعيد المدى ؟ وهل يشكّ إنسان في اجتهاد ابن مالك والشاطبي وابن هشام المصري في علوم اللغة ؟ وهل لا يحقّ لهذا العصر أن يفخر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب ؟ ولو أردنا أن نحصى الكتب الجلييلة الشأن في هذا العصر لوجدنا عدداً غير قليل .

المتون والشروح والحواشي — هذا ، وقد جرت عادة كثير من المؤلفين في هذا العصر ، وبخاصة مؤلفو العلوم العربية والدينية ، أن يضعوا مَوْجِزاً في العلم يسمونه متناً ، ثم يفسرون مجملَه في شيء من الإسهاب ويسمون هذا التفسير شرحاً ، وأشهر هذه المتون في النحو الألفية لابن مالك ، وفي القراءات الشاطبية للشاطبي ،



وفي الفقه الحنفى متن الكنز للنسفى ، وقد جاء المتأخرون فوضعوا على هذه الشروح شروحا وتقييدات سميت بالحواشى .

وهذه التزعة ربما كانت سببا فى خفاء مسائل العلم على المبتدئين فإن المتون كانت توضع على نمط من الإيجاز والإبعاد فى الاختصار يصعب فهمه .

ولماذا لا يوضع العلم أول وهلة أمام الطالب فى أسلوب واضح مفهوم سائغ ؟ أما الحواشى فتشعبة المباحث ، كثيرة الاستطراد والانتقال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى .

وقد كتب ابن خلدون فى هذا العصر فصولا فى التعليم كان أجدر بمعلمى الناشئين أن يتفهموها ويعملوا بها .

### الكتب الجامعة

يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة . والذى مهد لإبرازها شدة صبر العلماء وجلدهم فى هذا العصر ، وتعدد نواحيهم العلمية . فكثيراً ما كنت تجد بينهم من جمع بين الفقه والحديث والرياضيات والأدب والشعر والتاريخ . ثم إن نازعة الجمع والاختصار فى هذا الزمان كان لها شأن كبير فى إظهار هذه الكتب ، وقد يكون ظهورها أثراً للاعتداد بالنفس والثقة بها ، وسبيلاً إلى التباهى بعلو الكتب والإحاطة بكثير من الفنون والعلوم ، أو إجابة لرغبة سلطان ، بعد أن علمنا ما كان لسلطين هذه الدولة من الميل الشديد لنشر العلوم واقتناء الكتب .

أشهر مؤلفى الكتب الجامعة — وأشهر مؤلفى هذه الكتب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَرى ، وكتابه ”مسالك الأبصار فى ممالك الأوصاف“



سبق التعريف به . وشهابُ الدين أحمد بن علي القلقشندي . وكتابه ”صبح الأعشى“ ، وقد ذكرنا عنه كلمة أنفا . ثم أبو العباس شهاب الدين أحمد النويري أحد رجال الملك الناصر بن قلاوون . واشتهر بكتابه ”نهاية الأرب في فنون الأدب“ . وهو كتاب ضخم يقع في أكثر من ثلاثين مجلدا ، وبه مباحث واسعة في الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والطب والسياسة والتاريخ والأدب . وبتدار الكتب الملكية نسخة كاملة من هذا الكتاب . توفى سنة ٧٣٣ هـ .

### كتب الدين والعربية

وأكثر مؤلفات هذا العصر في الدين واللغة والعلوم العربية ، ويمتاز التأليف في علوم العربية بقوته وسعة مداه ، وبروز التفكير فيه .

وأشهر المؤلفين في علوم الدين :

#### ( ١ ) ابن تيمية

هو أحمد بن عبد الحليم ، وُلد بخرآن سنة ٦٦١ هـ ، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير ، وقد خرجوا من حرّان مهاجرين فرارا من التتار ، فساروا بالليل يحملون كتبهم وأثاثهم على عجلة لعدم وجود الدواب ، فقدموا دمشق في أثناء سنة ٦٦٧ هـ ، ونشأ بها ابن تيمية نشأة صالحة ، في أسرة ذات تمسك بالدين ، وكان أبوه عالما فقيها جليل الصفات ، فورث عنه كثيرا من المواهب الخلقية والنفسية ، ثم تلقى العلم على عدد جسيم من جلة العلماء ، وبرع في علوم العربية والفقه الحنبلي ، وأقبل على التفسير إقبالا فحاز قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغيرها من علوم الشريعة وهو ابن بضعة عشرة سنة ، فبهر علماء وقته بشدة ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه .



نشأ في تصوّف وعفاف وتزهد واقتصاد في الملبس والمأكل ، مشغوفاً بالعلم والدّرس ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، أو تروى من الاطلاع ، أو تكلّ من البحث . وقُلَّ أن يدخل في مبحث من المباحث إلا استوعبه استقصاء واستنبط منه ما غاب عن حدّاق العلماء .

وقام بوظائف التدريس وعمره إحدى وعشرون سنة ، فطار صيته في الآفاق وانتهت إليه الإمامة في العلم والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم . وكان شديداً على المبتدعين ، حرباً على أهل الأهواء ، لا يخشى في الحق لومة لائم ولا يهاب الموت في سبيله . حتى لقد سُمّي محي السنة وآخر المجتهدين وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره . وقد جرّت عليه شدّة عداوة كثير من معاصريه . وكان قوام مباحثه التوفيق بين المعقول والمنقول ، وقد ألف في هذا الصدد كثيراً من الكتب ، وكان المعروف أن العالم لا يُبرز إلا في علم أو علمين ، أما ابن تيمية فقد بلغ الغاية في كثير من العلوم .

يقول بعض عارفيه : ” كان إذا سئل في فنّ من الفنون ظنّ السامع أنه لا يعرف غير هذا الفن ثم حكم أن أحداً لا يعرفه مثله “ .

وقد أثار ما ناله من الشهرة كامن الحقد في نفوس حسّاده ، فأخذوا عليه كلاماً قاله في أحد دروسه عدّوه ابتداء في الدين ، بخادهم وجادلوه ، واستعانوا عليه بالسلطان ، وسعّوا في نقله إلى الديار المصرية ، فنُقِل وأودع السجن ثم أفرج عنه . وما زال أعداؤه يكيدون له حتى اعتُقِل مرات ، وكان آخر اعتقاله بمرسوم جاء من قبل السلطان سنة ٧٢٦ هـ بجعله في قلعة دمشق ، فأُخِلت له قاعة حسنة ، وأقبل في هذه المرة على العبادة والتلاوة والتأليف ، وكتب في المسائل التي حُس من أجلها مجلدات عدّة . فلما اشتهر ذلك مُنِع من الكتابة والمطالعة ، وأُخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا ورقاً ولا قلماً ، فكتب



بعد ذلك بفهم على حيطان سجنه يقول : ”إن إخراج الكتب من عندى من أعظم النقم“ ولم يعيش بعد ذلك طويلا ، فمات في العشرين من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ . وقد ازدحم الناس في جنازته ازدحاما شديدا بين رجال ونساء ، وبالغ المؤرخون في عدد من شيعوه فأوصلوه إلى مائتي ألف ، وأخذ الناس يتنافسون في التبرك بآثاره ، ويظهرون ما خالط نفوسهم من الحزن على فقده .

وبلغت مصنفاته ثلثائة مجلد ، أكثرها في التفسير والفقه والأصول والرد على الفلاسفة والمبتدعة ، وأشهر هذه الكتب ”مُتَقَى الأخبار“ و ”فناوى ابن تيمية“ و ”الايان“ و ”الجمع بين العقل والنقل“ و ”الواسطة بين الحق والخلق“ .

## ( ٢ ) القسطلانى

هو أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك الْقَسْطَلَانِيّ الْقَاهِرِيّ الشافعيّ ، ويلقب بشهاب الدين ، ويكنى بأبى العباس ، من أشهر المحدثين والمؤرخين . وُلِدَ في الثاني والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٥١ هـ بالقاهرة ، وتعلّم بالأزهر ، وحفظ كتباً عدّة منها الشاطبية ، وتلقّى العلم على جماعة من كبار العلماء ، منهم الشيخ خالد الأزهرى والحافظ السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، فبرع في العلوم الدينية ولا سيما الحديث والسيرة النبوية .

وألّف في الحديث كتاب ”إرشاد السارى إلى شرح البخارى“ وهو المشهور بشرح القسطلانى في عشرة مجلدات . ومن مؤلفاته في التاريخ ”المواهب اللدنية في المنح المحمدية“ وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير في بابهِ ، رتّبهُ على عشرة مقاصد في نسب النبي وولادته ورضاعه ومغازيه ، وفيه فصول في أسمائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخدمه ومعجزاته وخصائصه . وقد طُبِعَ في ثمانية أجزاء وترجم إلى اللغة التركية ، وله شرح على الشاطبية والبردة ، وصنّف ”مسالك الحنفا في الصلاة على المصطفى“ و ”آب لطائف الإشارات في القراءات“ الأربع عشرة .



وكان يصحب الشيخ إبراهيم المتبولي ، ويجلس للوعظ بالجامع العتيق . توفى  
يوم الخميس مُستَهْلَ الحرم سنة ٩٢٣ هـ ، وتعذر الخروجُ به إلى الصحراء ذلك اليوم ،  
لأنه اليوم الذي دخل فيه السلطان سليم مصر . ودُفن بمدرسة الإمام العيني بقرب  
الجامع الأزهر .

ومن أشهر المؤلفين في علوم العربية :

### ( ١ ) ابن هشام

هو جمال الدين عبد الله بن هشام المصري ، الإمام المشهور ، ولد سنة ٧٠٨ هـ  
كان من كبار علماء العربية ، وتخرج عليه خلق كثير ، واشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع  
ووضوح البيان ، والقدرة على تعليل الأحكام ، وكان أدبياً عالماً بأسرار الكلام  
العربي ، ملأَ صيته العالم الإسلامي . قال ابن خلدون في مقدمته :

” ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام  
أنحى من سيويه “ .

وله تصانيف في النحو أشهرها ” مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب “ و ” قطر  
الندى وبلل الصدى “ و ” شذور الذهب “ توفى سنة ٧٦١ هـ ، ودُفن في خارج  
باب النصر ، ورثاه ابن نباته بقوله :

سقى ابن هشام في الثرى نوء رحمة      يجرُّ على مثواه ثوب غمام  
سأروى له في سيرة المدح مُسنَدًا      فما زلتُ أروى سيرة ابن هشام



## ( ٢ ) ابن مالك

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد ، كان إمام الفحاة وحافظ اللغة في عصره ، ولد سنة ٦٠٠ هـ ، ونشأ بـجَيَّان ، وهي بلدة بالأندلس ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل في طلب العلم إلى دِمَشْق ، فأخذ عن جماعة من علماءها ، وتصدر لتعليم العربية في حلب ، وبلغ الغاية في علوم العربية ، وألم بأشعار العرب ، وكان إماما في القراءات ، واسع الاطلاع في الحديث ، وأقام بدمشق مدة يصنف ويدرس بالجامع والتربة العادلية ، وقد حفظ التاريخ كتابا كتبه إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب فيه بَسْطَةَ كَفِّ يستعين بها على مطالب الحياة وهو :

”الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض ، ويُنهي إلى السلطان أيَّد الله جنوده ، وأبدَّ سعوده ، أنه أعرِفُ أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب ، وأمله أن يُعينَه نفوذ من سيّد السلاطين ، ومُبيد الشياطين ، خلد الله مُلكه ، وجعل المشارق والمغارب مِلكه ، على ما هو بصدد من إفادة المستفيدين ، وهداية المسترشدين ، بصدقة تكفيه همّ عياله ، وتُعينه على التسبُّب في صلاح حاله ، فقد كان في الدولة الناصرية عناية يتيسر بها الكفاية ، مع أن هذه الدولة من الدولة الظاهرية بكحول من البحر المحيط ، والخلاصة من الوسيط والبسيط ، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية خصوصا وعموما ، وكشف بها عن الناس أجمعين غموما ، ولمَّ بها من شَعَثِ الدين ما لم يكن مالموما ، فمن العجائب كونُ المملوك عن خيراتها غائبا محروما ، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زمامها ، لا برحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأيادها مبدولة موفورة ، وأعادها مخدولة مقهورة ، بمحمد وآله “ .



وله أكثر من ثلاثين مُصَنَّفًا في النحو والصرف والقراءات واللغة ، وأشهر مُصَنَّفاته ” التسهيل “ و ” الكافية الشافية “ و ” الألفية “ ، وكان كريم الخلق حَسَنَ السَّمْتِ كامل الوقار ، تُوِّفى سنة ٦٧٢ هـ .

### (٣) السيوطى

هو جلال الدين السيوطى من أعلام أنحريات هذا العصر ، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية ، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلفات . ولد بأسىوط سنة ٨٤٩ هـ ، وينتهى نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسى ، ويتمتع أصله بالدم التركى من قِبَل أمه . مات والده وسنّه خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التَّحْرِيم ، وأتم حفظه قبل أن يبلغ الثامنة ، ثم أخذ فى تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة ، وانكبَّ على دراسة العلوم بأنواعها ، حتى نبغ فيها ، وأصبح مدرّسًا تهرع إليه الطُّلاب ، ثم عُزل من التدريس قبل موته بأربع سنين . وأرثت مؤلفاته على الخمسمائة ، وأكثر هذه رسائل صغيرة الحجم محدودة الموضوعات ، وخير مؤلفاته ” الإِتقان فى علوم القرآن “ و ” المِزهر “ فى اللغة ، ” والأشباه والنظائر “ فى النحو ” وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة “ فى التاريخ . وقد كتب ترجمة لنفسه فى هذا الكتاب تُدَلُّ على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة ، جاء فيها :

” ورُزِقْتُ التَّبَحُّرَ فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبُغَاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذى أعتقده أن الذى وصلتُ إليه من هذه العلوم سوى الفقه ، والنُّقُول التى اطَّلَعْتُ عليها فيها ، لم يصل إلىه ولا وقف عليه أحد من أشيائى ، فضلًا عن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شِئْخى فيه أوسع نظرًا وأطولُ باعًا . ودونَ هذه السبعةِ فى المعرفة أصولُ الفقه والجدلُ والتصريفُ ، ودونها الانشاءُ والترسلُ والفرائضُ ، ودونها القراءاتُ ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطبُّ ،



وأما علم الحساب فهو أسرّ شئ على ، وأبعده عن ذهني ، وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به ، فكأنما أحاول جبلا أحمله .

وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول تحدثا بنعمة الله تعالى لا لأنفَرَ ، وأى شئ في الدنيا حتى يُطلبَ تحصيله بالفخر ، وقد أَرِفَ الرحيل ، وبدا المشيب ، وذهب أطيّبُ العمر ؟

ولو شئتُ أن أكتبَ في كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها ، وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدّرتُ على ذلك من فضل الله ، لا بحولى ولا قوتى .

(توفى سنة ٩١١ هـ) .

#### ( ٤ ) ابن منظور

هو جمال الدين بن مكرم الإفريقي ، ولد سنة ٦٣٠ هـ ، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها ، وخدم بديوان الإنشاء بمصر ، وألف مئات من المجلدات ، أشهرها "لسان العرب" وهو معجم واسع ، وموسوعة جامعة في اللغة والتفسير والحديث والأدب ، جمع فيه بين تهذيب الأزهري ، ومعجم ابن سيده ، والصحاح ، وجمهرة ابن دريد ، ونهاية ابن الأثير ، طبع في مصر سنة ١٣٠٠ هـ في عشرين مجلدا . وكان ابن مكرم مشغولا باختصار الكتب ، فاختصر مفردات ابن البيطار ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للسمعاني . وكان إلى نواحيه العلمية شاعرا مُقِلّا . فمن قوله :

بالله إن جُرّت بوادي الأراكِ      وقبّلت أغصانه الخضرُ فاكِ

أبعثُ إلى المملوك من بعضه      فإنني والله مالى سِوالِكِ

(توفى سنة ٧١١ هـ) .



## ( ٥ ) الفيروز ابادى

هو مجد الدين محمد الفيروز ابادى ، وُلد بالقرب من شيراز سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قوى الحفظ متمكّنا فى اللغة والحديث والتفسير ، وتبلغ مصنفاته نحو الأربعين أو تزيد ، أشهرها ” القاموس المحيط “ وهو مختصر كتاب ألفه سماه ” اللامع المعلوم العُجاب “ الجامع بين المحكم والعُباب “ والقاموس على كثرة تداوله غاية فى الإيجاز إلى الغموض أحيانا ، لذا شرّحه بعض علماء العربية كالقرافى والزبيدى ويمتاز القاموس بضبط الأعلام .

( توفى سنة ٨١٧ هـ ) .

## كتب التاريخ

كثيرة كتب التاريخ والتراجم — ويمتاز هذا العصر بكثرة ما أُلّف فيه من كتب التاريخ ، بين موجزة ومطوّلة ، وربما كان الدافع إلى ذلك دينيا قوميا بعد فقد كثير من كتب التاريخ عند سقوط بغداد ، وتغلّب الفرّنجية على بعض بلاد الأندلس ، وربما كان لميل سلاطين المماليك إلى تدوين الوقائع وسير الرجال شأنٌ فى كثرة ما ظهر من كتب التاريخ .

وكثُرَتْ فى هذا العهد المعجمات التاريخية ، التى جُمِعَتْ فيها التراجم من أشتات الكتب ، أو اعتُمِدَ فيها على الرواية أو المعاصرة ورُبِّتْ على حروف المعجم .

وظهر فى هذا العصر أيضا الاهتمام بكتابة سير السلاطين والأمراء والوزراء ، كما شاع أن يكتب العلماء ترجمة حياتهم بأنفسهم ، وأول من نعلم ممن كتبوا



ترجمة حياتهم بأنفسهم في إسهاب وتفصيل وبيان للحوادث ، أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ . قال السيوطي في حسن المحاضرة عند ما شرع في كتابة ترجمة حياته :

”وإنما ذكرتُ ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمُحدثين فقلَّ أن أَلَفَ واحدٌ منهم تاريخاً إلا ذكر ترجمته فيه ، ومن وقع له ذلك الإمامُ عبد الغافر الفارسيّ في تاريخ نيسابور ، وياقوت الحمويّ في معجم الأديباء ، تُوفى سنة ٦٢٦ هـ . ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ، تُوفى سنة ٧٧٦ هـ . والحافظ تقي الدين الفارسيّ في تاريخ مكة ، والحافظ بن حجر في قضاة مصر ، توفى سنة ٨٥٢ هـ . وأبو شامة في الروضتين ، توفى سنة ٦٦٥ هـ “ .

وظهر في هذا العصر علمُ فلسفة التاريخ بظهور ابن خلدون . وستكلم في ذلك عند ذكر ترجمته .

وجرى مؤرخو هذا العصر كما جرى سلفُهم على مزج التاريخ بالأدب ، وهذا وإن كان عيباً فنياً في التأليف ، كان له فضل مذكور على مؤرخي الأدب في أيامنا هذه ، فلولا هذه النزعة في المؤرخين لفقدنا كثيراً من الحقائق الأدبية في هذه العصور . وقد عني أكثرُ مؤرخي هذا العصر بالدقة جهدَ المستطاع وتحري الصواب ، ومما يؤخذ عليهم ، وهذا عيب لم ينفردوا به ، تحكيم الوجدان والمبالغة في المديح والإطراء أو التحقير والازدراء .

وقد ترى في بعض هذه الكتب أخباراً لا يقبلها العقل السليم ، يقلونها على علاتها من غير نقد أو تمحيص ، وقد أخذ ابن خلدون على المؤرخين في مقدمته مأخذ من هذا النوع .



وأغفل أكثر المؤرخين تحليل الحوادث وبيان عللها وأسبابها ، واستنباط ما نشأ عنها من النتائج كما أهملوا جانباً عظيم الشأن في كتب تراجمهم ، وهو نشأة العطاء الأولى ، ووصف يئتهم التي درجوا منها ، وما كان لها من الأثر في تكوين بطولتهم ، كما تركوا وصف الحياة الاجتماعية والمنزلية ، ولم يتجردوا لتفصيل عادات الناس وأحوالهم المعيشية .

وأشهر المؤرخين في هذا العصر :

### ( ١ ) ابن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان ، ولد سنة ٦٠٨ هـ . في إربل ونشأ من أسرة عريقة المجد تنتمي إلى البرامكة ، وكان أبوه مدرساً بالمدرسة المظفرية بإربل ، فأخذ عليه مبادئ العلم ، ثم رحل في طلب العلم إلى حلب ودمشق ، وفي سنة ٦٣٣ هـ . ولّاه الظاهر بيبرس قضاء الشام ، ثم عزله عنها ، فرحل ابن خلكان إلى القاهرة ، وعيّن هناك مدرساً بالمدرسة الفخرية ، وفي أثناء إقامته بالقاهرة أتم القسم الأول من معجمه التاريخي ، ثم عاد إلى منصبه بالشام بعد سبع سنين من خلعه ، فوفد عليه الشعراء يهثونه . ومن ذلك قول سعد الدين الفارقي :

أذقت الشام سبع سنين جدباً      غداة هجرته هجرًا جميلاً  
فلما زرتّه من أرض مصر      مددت عليه من كفيك نيلاً

ولم يقيم ابن خلكان في منصبه هذا إلا فترة قليلة ، لأنه اتهم بمعاودة نائب دمشق على الخروج على السلطان فعزل ، وعاش بقية حياته مدرساً بالمدرسة الأمينية وكانت وفاته سنة ٦٨١ هـ .



واشتهر بكتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" وهو معجم تاريخي لم يذكر فيه من تراجم الصحابة والتابعين إلا طائفة قليلة ، ولم يترجم فيه للخلفاء ، وإنما قصره على تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء وكل من له شهرة بين الناس . وقد بذل عناية فائقة في تحقيق نسب كل واحد ، وتحري سنة ولادته ووفاته وضبط الأعمال ضبطا دقيقا .

والكتاب مظهر من مظاهر العناية والتدقيق العلمي . وقد امتاز بتحري الصحة والابتعاد عن كثير من الخرافات والفحش ، وليس بين كتب التاريخ في هذا العصر ما يضاهيه في شرف منزلته وعظم فائدته ، وقد نال شهرة في الشرق والغرب ، وهو سهل العبارة ، جلي الأسلوب ، بلغ الغاية في الدقة والتحصيل ، وبين تضاعيفه مباحث جلية الشأن في التاريخ والأدب .

والاهتمام بكتابة التراجم وجد قبل هذا العصر بزمان طويل ، فقد جمع الخطيب صاحب تاريخ بغداد ، وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق آلافاً من التراجم لمشهورى الرجال في كل ناحية من نواحي العلم والأدب والصناعة .

وقد ترجم "وفيات الأعيان" إلى الفارسية سنة ٨٩٥ هـ ، وترجمه دى سيلان إلى الإنجليزية ، ونشر في لندن في أربعة مجلدات سنة ١٨٤٢ — سنة ١٨٧١ م ، وأشهر ذيل له "فوات الوفيات" لمحمد بن شاكر الكتبي .

## ( ٢ ) ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ويتصل نسبه بوائل من عرب ابن ، رحل خلدون جده التاسع إلى الاندلس في القرن الثالث الهجري ، وسكن إشبيلية ، ولما تغلب الإسبانىون عليها انتقل بأسرته إلى تونس ، وبها ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ ، ونشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب والمروءة ، فتعلم وتأدب على أبيه وكبار رجال المغرب ، وأتقن العلوم المعروفة في عصره حتى صار فريداً زمانه .



وقد رَغِبَ من صغره في خدمة الملوك ، فولِيَ الكُتَّابَةَ لبعض ملوك الدولة الحُفَـصِيَّةِ بُتُونِس ، ثم للملوك بنى الأحمر بالأندلس ، ثم ارتقى مناصب الوزارة عند حاكم بِجَايَةَ بالمغرب الأوسط ، ولما ظهر نبوغه كَثُرَ حِـدَادَه فَسَعَوْا به إلى الحاكم ، فتخَلَّى عن خدمة السلاطين ، وانقطع للتأليف أربعة أعوام أقام فيها بين قبائل العرب على حدود الصحراء . وألف في أثناءها تاريخه ومقدمته المشهورة ، ثم وفد على مصر سنة ٧٨٤ هـ في زمن السلطان برقوق ، ودرس بالأزهر ، وولاه السلطان قضاء المالكية ، فاستقدم أسرته من تُونِس فغرقوا جميعا في أثناء الطريق ، فحزن عليهم حزنا شديدا منعه من القيام بأعباء مناصب القضاء ، فاستعفى وسافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، ثم عاد إلى القاهرة ، واعتزل في ضيعة له بالفيوم ، ثم عاد ثانية إلى القضاء ثم استعفى ، وهكذا إلى أن تولى القضاء ست مرات . وقد أسره تيمورلنك في بعض غزواته بالشام ، فنال ابن خلدون منزلة عنده ، ثم طلب إليه أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليحضر مؤلفه في التاريخ ، فذهب إليها ولم يعد .

ويعد ابن خلدون أول من استنبط فلسفة التاريخ ، وقد فصلها في مقدمة تاريخه ، وأقام الأدلة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة ، وتاريخه يسمى "العبر وديوان المبتدأ والخبر" وهو في سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلد واحد منها هو مقدمة هذا التاريخ ، التي تعد مقخرة في عالم التأليف العربي ، لأنها أول بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ ، وقد بحث فيها في أحوال العمران وأسبابه ، وفي منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها ، ثم في آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة ، وما يعترئها من تقدم أو تدهور ، ثم في العلوم وأنواعها ، والكتب ومعاييرها ، وطرائق التعليم وكيف تكون ، كل ذلك في أسلوب سهل شائق دقيق ، واستنباط منطقي صحيح .

ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة ، وهو أوسع تاريخ



للبربر ودولهم ولعرب الجاهلية ، ويدلُّنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة في القول ، والسداد في الرأي ، والإنصاف في الحكم .

وقد ساد في عصر ابن خلدون التزام السجع في الكتابة والمغالاة في المحسنات البديعية بخالف ذلك ، ورجع بالإنشاء إلى عهده الأول ، فرغب عن السجع وزهد في البديع ، وجعل اللفظ خادما للمعنى . وقد أشار إلى ذلك فقال :

”وكان أكثرها ( الرسائل ) يَصْدُرُ عَنِ بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة بالأسجاع ، لضعف انتحالها وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم أهل هذه الصناعة ، ثم أخذت نفسى بالشعر ، فانثالت على منه بحور توسطت بين الإجادة والقصور“ .

فأنت ترى أنه ترك السجع ومال إلى الكتابة المرسلة جريا على الفطرة والسليقة ، وترى أنه حكم على شعره بأنه وسط بين الجودة والتقصير ، ومن شعره قوله :

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهمها      فمن لى بأن ألقى الخيال المسلما  
وإني ليدعوني السلو تَعَلُّلاً      وتنهاني الأشجان أن أتقدما  
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا      ويعرف آثار الديار توهمها

(توفى سنة ٨٠٨ هـ)

### ( ٣ ) المقرئ

هو ابو العباس تقي الدين بن علاء الدين الحسيني ، أصله من بعلبك ، ونسب إلى حارة فيها تعرف بحارة المقارزة ، وكان جده من كبار المحدثين ببعلبك ، وانتقل أبوه إلى القاهرة فولد له فيها تقي الدين سنة ٧٢٦ هـ ، فنشأ في تلقى العلم ودراسة الحديث على جده لأمه شمس الدين بن الصائغ وغيره ، وسمع



١ المديث في مكة من كثيرين ، وكان حنفى المذهب في أول أمره ، فلما بلغ العشرين تحوّل إلى مذهب الشافعى .

ولما ظهر فضله وعلمه وأدبه تقلّد كثيرا من المناصب الدينية والسياسية ؛ كالخطابة بجامع عمرو والسلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمؤيدية ، وتولّى النيابة في الحكم وكتابة التوقيع والحسبة ، ورحل إلى مكة والشام ، وتقلّد مناصب بدمشق ، واتصل بالظاهر برقوق ، وصحب يشبك الدويدار وأصاب منه ثروة وجاها ، ثم أقام بالقاهرة واشتغل بالتأليف في التاريخ . وله فيه مؤلفات جليلة هى مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية في ذلك العصر .

ومن أشهر مؤلفاته ”المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار“ وهو كتاب جامع جمّ الفائدة ، جعل فيه وصف الخطط والمباني والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالى عليها من حوادث ، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدلّ على تفكير بعيد المدى ، وبالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا توجد في سواه ، واكثره فوائده تُرجم إلى لغات عدّة ، ونسج على منواله على مبارك باشا في كتابه المعروف بالخطط التوفيقية .

ثم كتابه المسمى ”السلوك لمعرفة دول الملوك“ وهو يشتمل على تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، ومن مؤلفاته ”الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية“ يتبدى من مقتل عثمان رضى الله عنه ، وينتهى بالمستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكانت وفاة المقرئ سنة ٨٤٥ هـ .

### كتب تقويم البلدان والرحلات

الدمشق وأبو الفداء — وقد نما في هذا العصر علم تقويم البلدان ، وألّف فيه العدد الجُم من العلماء ، وهؤلاء منهم النظريون الذين نقلوا ما كتبوه من الكتب أو تلقّوه من الرواة ونقلّة الأخبار ، كالدمشق المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ،



وله كتاب يسمى "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" طبع بأوربا . وكأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فإن له كتابا جليل الشأن يدعى "تقويم البلدان" اهتم به الفرنجة كثيرا .

### ابن ماجد النجدى

ومنهم المؤلفون عن مشاهدة وخبرة كابن ماجد النجدى ، وهو ملاح عربى له منظومات موجزة في فن البحر وهداية الملاحين في المحيط الهندى ، وقد كتب بجانب هذه المنظومات كتابا فى سنة ١٤٨٩ م يشتمل على مبادئ الملاحة بعضه منظوم وبعضه مشور ، ولم تظهر هذه المؤلفات فى أوربا إلا من عهد قريب . وكان ابن ماجد بارعا فى علمه وقد ورث هذه البراعة عن أبيه ويقال إن ابن ماجد هذا هو الذى أرشد فاسكو دى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول إفريقيا إلى شواطئ الهند .

### ابن بطوطة

وأشهر مؤلفى الرحلات فى هذا العصر أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، ولد بطنجة ، وخرج من بلده سنة ٧٢٥ هـ للحج ، فبدأ بالحرمين فالشام فالعراق ففارس فإلى بين النهرين فأسيا الصغرى فجنوب روسيا والإستانة فأسيا الصغرى فبخارى فأفغانستان إلى دهلي ، ثم رحل إلى سيلان والصين ، وعاد إلى بلده سنة ٧٥٠ هـ . ورحل فى السنة التالية إلى غرناطة ثم إلى السودان ، وتوفى بمراكش سنة ٧٧٩ هـ . وقد دون كل هذه الأسفار فى رحلة سماها "تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار" وقد طبعت بمصر وأوربا .

وقد فاق ابن بطوطة كل رحالة قبله ولا يغض من شأن كتابه أنه اشتمل على بعض الأغلاط خصوصا بعد أن نعلم أن مذكراته التى دونها فى أثناء الرحلة فُقدت حينما دهم السفينة التى كان بها لصوص البحر فى المحيط الهندى ، وأنه اعتمد على ذاكرته فى قص رحلته ، لذا بقى كتابه مرجعا صحيحا لوصف الحياة



الاجتماعية والسياسية والعقلية في البلاد التي زارها ، وهفوته في الحقيقة هفواتُ أهل عصره ، وأغلبها ناشئ من تأثير البيئة وسرعة الميل إلى التصديق لكل ما يقال ويشاع .

وبالكتاب ناحية أدبية جليلة الشأن ، فقد أضاف إليه ابن جُزَيَّ أبياتا شعرية كثيرة استشهد بها في مواطن عدّة ، واقتباسات رائعة من ابن جُبَيْر وغيره ، وإضافات من عند نفسه ، ولكن الكتاب يبقى بعد هذا قصة سهلة مليئة بالحوادث والعجائب والفكاهات ، من غير تكلف في الأسلوب ، تُرسلُ نوراً على أخلاق أهل هذا العصر وعاداتهم .

### كتب الأدب

ضعف التأليف في الأدب — وكان التأليف في الأدب ضعيفا خائرا ، وجمعا غير موفق من كتب الأولين ، ومن اشتهر بالكتابة فيه في هذا العصر :

#### الوطواط

جمال الدين الوطواط المتوفى سنة ٧١٨ هـ ، واشتهر برسائله وبتكابه "غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة" .

#### البهاء الدمشقي

وعلاء الدين البهاء الدمشقي وله كتاب يدعى "مطالع البدور في منازل السرور" وهو خزانة شعر وأدب ، طبع بمصر .

#### الآبشيهي

والآبشيهي واشتهر بتكابه "المستطرف في كل فن مستظرف" .

#### النواجي

وشمس الدين النواجي القاهري المتوفى سنة ٨٥٩ هـ ، وأشهر كتبه "حلبة الكميت" .



### ابن حبيب الحلبي

وابنُ حبيب الحلبيّ وكان أدبياً مؤرخاً، وأشهر كتبه في الأدب "نسيم الصبا".  
تُوفى سنة ٧٧٩ هـ .

### ابن حجة الحموي

وابنُ حجة الحمويّ ، وكان رئيس أدباء عصره ، مولعاً بالبديع ، وخير كتبه  
كتاب "خزانة الأدب وغاية الأرب" شرح فيه بديعته ، وهو خير كتاب لطالب  
تاريخ الأدب في عصر المماليك ، لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره  
وصور الحياة الأدبية تصويراً صادقا . توفى سنة ٨٢٧ هـ

### كتب العلوم العقلية

#### ابن النفيس

وكان التأليف في العلوم العقلية والرياضية قليلا بالإضافة إلى غيرها ، وأشهر  
المؤلفين في الطب علاء الدين بن النفيس ، شيخُ الطب بالديار المصرية . توفى  
سنة ٦٨٧ هـ . وله كتاب "المختار من الأغذية" .

#### ابن الشاطر

ولابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧ هـ مؤلفات في الجغرافية والرياضيات بدار  
الكتب الملكية .

#### ابن الهائم

ولشهاب الدين بن الهائم الفريضي المتوفى سنة ٨١٥ هـ كتاب يدعى "مرشد  
الطالب" في الحساب .



## الدميرى

وأشهر المؤلفين فى علم الحيوان كمال الدين الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، له معجم مرتب على حروف الهجاء ، للبحث فى حياة الحيوان وطبائعه .

## كتب القصص

ألف ليلة وليلة — وظهر فى هذا العصر فى صورة نهائية كاملة كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية ، وفتن كثيرا من القراء ، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأذن الأوربية ، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتاب الأفاصيص فى الغرب المشهورين بالإغراق فى الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة ، وليس بعجيب أن يغرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى فى أفصاصه على سنن شائق جذاب ، وأكثر ما تظهر فيه المهارة فى حبك القصة ، وخلق المواقف المعقدة التى تضع وجوه الحيلة فى حلها ، ثم العمل على الخروج من هذه المأزق فى لطف وحسن تصرف فى ، هذا إلى إبداع فى الوصف وإبعاد فى الخيال . وهو وإن وُضع فى أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك ، وموعظة تصل إلى قرارة نفسك ، ودراسة عامة لأحوال الحياة .

والفرق بين حكايات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكتاب فى الأولى كان كثير المبالغة والإغراق ، وأنه اهتم بالأحوال الظاهرة وقصّر وصفه على المحسوس المشاهد ، ولم يعتمد على تحليل النفوس ، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع ، ولم يُعنّ عناية مقصوده بدراسة الأخلاق ، بخلاف الكاتب الأوربى فإن الدراسة النفسية أساس قصته وعمادها فى أغلب الأحوال ، وهو يسير فى قصته على سنن واضح من الطبيعة من غير إسراف . ومصدر هذا الكتاب لا يزال محاطا بالشكوك والأقرب إلى الحق أنه من أصل فارسى قديم ، وأن منشأه كتاب هنّار أفسانه



(ألف حكاية) وبه كثير من حكايات هذا الكتاب ، وقد أضيف إلى الأصل الفارسي نواذر كانت منشورة في كتب الأدب ، وحكايات جديدة كانت توضع على مر الأيام ، فالكتاب إذا لم يوضع في عصر واحد ، ولم يصنفه مؤلف واحد وأول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالندا ( ١٧٠٤ — ١٧١٧ م ) .

قصص أخرى — ومن الأقاصيص التي انتشرت في هذا العصر ، والتي يغلب على الظن أنها نبتت مع الحروب الصليبية ، سيرة عنزة بن شداد وسيف بن ذي يزن ، ثم قصة الظاهر بيبرس ، وهي تتضمن حروبه مع الصليبيين ، وقصة أبي زيد الهلالي وغيرها .

وهذه الأقاصيص لا تزال تُقرأ في مشارب القهوة ، وقد فقدت الآن مالها من روعة بسبب النهضة الفكرية العامة ، وانصراف جمهرة الناس إلى قراءة القصص الحديثة واقتنائهم بها .

خيال الظل — وفي القرن السابع الهجري ظهر خيال الظل وألف فيه ابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ هـ كتابا فريدا سماه ” طيف الخيال “ وصف فيه لعبة خيال الظل ، وبالخزانة التيمورية نسخة منه ، وهو كالرواية الهزلية يشتمل على مجون كثير .

وقد كان ظهور خيال الظل بداية صالحة للندرج إلى القصص التمثيلية ، ولكنه لم ينهض ولم يندرج ولم يتقدم خطوة إلى الأمام ، وبقيت العربية عاطلا من الأدب التمثيلي حتى ظهر في العصر الحديث .



## العصر العثماني

هذا هو العصر المظلم حقا الذي أطفأت فيه العواصف مصابيح العلم والأدب ، وتركت مصر الزاهية الزاهرة في ظلام حالك ، وليل من الأحداث دامس ، تلفتت فيه مصر فوجدت يدها صفراً من كل شيء ، بعد أن كانت حاضرة الإسلام ، وملجأ الأمم المظلومة ، ومبأة العلماء والمتعلمين من أقطار الشرق والغرب ، وبعد أن كانت مدارسها وجوامعها حتى بعد ما أصابها من الكوارث في آخريات عهد المماليك حافلة بحلقات العلم والأدب . وليس من شأننا أن نتعرض لحال مصر بعد الفتح العثماني إلا بقدر ما ينفع طالب الأدب في الدرس والاستنباط ، فإن من بدائه العقول أن للعلوم والفنون اتصالا وثيقا بأحوال الأمم السياسية والاجتماعية ، وأنها لا تنمو إلا حيث تبسط السكينة جناحها ، وينشر السلام أعلامه .

الفتح العثماني — هُزم السلطان الغوري أمام جيش العثمانيين في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ ، وأسلمه جنده فحاول الفرار ، وهو شيخ فإن في الخامسة والسبعين ، فسقط عن جواده وتحطفت سنايك الخيل ، فلم يُعثَر له على أثر ، وحاول طومان باي بعده صد غارات العثمانيين ، وكان بطلا صادق العزم ، فهُزم في أربع وقائع ، وبعد شدة وبأس التجأ بمديرية البحيرة إلى شخص كان يثق بنجدة ، وعاهده على المصحف ألا يغير به ، ولكنه لم يلبث عنده طويلا حتى وشى به إلى السلطان ، فحمل مصفدا إلى القاهرة ، وشُق عند باب زويلة .

آثار الفتح — أما ما أصاب مصر من الفتح العثماني فإننا نتركه إلى مؤرخي ذلك العصر ، وبخاصة من كتب عن مشاهدة عيان ، كابن إياس ، فإن في تاريخه صورة واضحة لحال مصر في هذا الزمان ، نصرف وجوهنا عن هذه الصورة ،



ونتيجة إلى ما أصاب العلوم والفنون ، فنرى أن العثمانيين نقلوا أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية ، فحُرِّمَت مصر أعلى كنوزها ، ثم نقلوا كثيرا من العلماء والأدباء والأسراء والمهندسين والوزّاقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم ، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء ، وقال إنهم قد يبلغون الثمانمائة والألف ، وغرقت بعض السفن التي كانت تحملهم فمات كثير منهم ، وكان من نتائج الفتح أيضا أن انتقلت الخلافة من مصر إلى القسطنطينية بإرسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين ، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية .

وكان من نتائج الفتح أن قلّت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرّق الطلاب وانفضّت سوق العلم ، ولم يبق منه إلا ذمّاء بالأزهر الشريف .

ولم تلق العربية في ذلك العهد من يأخذ بيدها ، لأن اللغة التركية حلّت محلها ، وأصبحت لغة الكتابة والدواوين ، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التي تفسّدت في كتابة الأدباء في ذلك الحين تظرفا وتشبّثا بحكاية الغالبيين وطوى بساط ديوان الإنشاء الذي كان له الفضل الأكبر في إحياء العربية وآدابها .

### النثر

كنا نعيب النثر في عهد المماليك بإبعاده في التكلف ، وإغراقه في التحلّي بصنوف البديع ، فإذا نقول اليوم وقد عجز الكتاب عن أن يصلوا إلى هذه المرتبة ؟ فحاولوا تكلف البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء له قيمة فنية ، وتردّوا في الخسيف ، وآتوا بالغث السمج ، الذي إن حسن فيه شيء كان سرقة واغتصابا من بقايا آثار من سبقوهم من الكتّابين . على أن الضعف في اللغة وأصولها تدلّى إلى درك صار فيه كثير من الكتاب عاجزا عن التحرّز من اللحن ، والنجاة من أرزاء العجمة والعي والجهل ، وماذا يكتب الكاتب أو يُدعِ الفنان والخوف



يملاً جوانبه ، والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من أمرٍ مَرِيحٍ ؟ وإن من حق العربية علينا أن نُطيل الوقوف هنا على أطلالها الدارسة ، وآثارها الطامسة وأن نذكر — وهي تتمشى إلى قبرها في ضعف وهُزال — ما كان لها من مجد كان جمالَ العصور ، وزينة الممالك ، ونفخ الأجيال ، وما كان لها في شبابها من حُسْن بهر الألباب ، وسحر العقول .

وكان النثر مع هذا مُقْفراً من المعاني السَّريَّةِ خاويًا من الأساليب الناصعة ، وأصبحت موضوعاته لا تخرج عن الرسائل الإخوانية إلا قليلاً ، وسنُلقِ عليك مثالا من أمثلة الكتابة في هذا العصر ثم نترك لك الحكم :

فما كتبه عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الخفاجي قوله :

مثال من النثر — لقد طَفَحَت أفئدة العلماء بُشْرا ، وارتاحت أسرارُ الكتّابين سِراً وجَهْراً ، وأُفْعِمَت من المَسَرَّةِ صدورُ الصدور ، وطارَت الفضائل بأجنحة السرور ، بُيِّنَ قدوم من اخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحاب أعلامه “ .

وعلى هذا النمط كان يُصاغ الكلام ، وتنافس فيه الأقلام .

## الشعر

أما الشعرُ فسكنت بلائله وصَوَّحت رياضُه ، وحال نظما خاليا من روعة المعاني ، قَفراً من بدائع الصناعة ، ولا عجب فإن الفنون لا تزدهر إلا حيث تطمئن القلوب وتهل النفوس ، ويكثر الخير وتسهل أسباب الحياة . أرايت الطائر الغرد يغني بين حفيف السَّهام ؟ أرايت الزهر يبتسم وقد ألوت به العواصف ولَفَحَتِه السَّمام ، وقد كان الأولون يقولون إن اللهَ تَفَتَحَ اللهُا وقد قلَّ العطاء في ذلك العصر وانقطعت صلاتُ الشعراء .



وكان الشعر في هذا العصر محاكاة للعصر السابق ، وأغلبه في الغزل الصناعي والإخوانيات . وأشهر شعراء هذا العصر :

## ( ١ ) الشهاب الخفاجي

هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجي المصري ، ولد بسرياقوس وتلقى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ، ثم الإستانة ، وعين قاضيا على الروملى ثم في سلانيك ، وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دِمَشَق فخاب فالإستانة ، وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ . وكان أديب عصره عالما باللغة وعلومها كاتباً شاعراً مؤلفاً . ومن أشهر مؤلفاته ”ريحانة الألباء“ وهو كتاب يشتمل على تراجم لبعض أدياء عصره ، ثم ”شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل“ جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعرّبة وضمّنه مباحث مفيدة .

ومن شعره قوله :

إِن وَجَدِي بِمِصْرٍ وَجَدَ مُقِيمٌ      وَحَنِينِي كَمَا تَرُونِ حَنِينِي  
لَمْ يَزَلْ فِي خِيَالِي النَّيْلُ حَتَّى      زَادَ عَنِ فِكْرِي فِقَاضَتْ عَيْنِي

وقوله :

فَدَيْتُكَ يَا مَنْ بِالشَّجَاعَةِ يَرْتَدِي      وَلَيْسَ لَغَيْرِ السُّمْرِ فِي الْحَرْبِ يَغْرُسُ  
فَإِنْ عَشِقَ النَّاسُ الْمَهَا وَعَيُونُهَا      مِنَ الدَّلِّ فِي رَوْضِ الْحَاسَنِ تَنْعَسُ  
فَدِرْعُكَ قَدْ ضَمَّتْكَ ضِمَّةَ عَاشِقٍ      وَصَارَتْ جَمِيعًا أَعْيُنًا لَكَ تَحْرُسُ

وقوله مضمنا :

يَا صَاحِبَ إِنْ وَافَيْتَ رَوْضَةَ نَرْجِسٍ      إِيَّاكَ فِيهَا الْمَشَى فَهُوَ مُحَرَّمٌ  
حَاكَتْ عَيْنٌ مَعْدِي بِذُبُولِهَا      (وَلَأَجَلَ عَيْنِ أَلْفِ عَيْنٍ تَكْرُمُ)



## ( ٢ ) ابن منجك

قال شهاب الدين الخفاجى فى ربحانة الألباء :

”الأمير محمد بن منجك الجركسى أصلاً ومحتداً ، الشامى منشأً ومولداً ،  
أديب أريب ، ونجيب وابن نجيب ، أورد عوده بالشام وأثمر ، فإذا عدت  
السجاياء عرساً فسجاياه جوهر ، نشأ بها والدهر أبيض أقر ، ونادم العيش  
والعيش أخضر ، وللبقاع تأثير فى الطباع ، والعرق كما قيل ، لغرسه نزع ،  
ومن كان جار الرياض ، ليس طبعه برد نسيمها الفضفاض ، كما ليس النهر  
الجارى ، درع النسيم السارى .

وقد تسجّت كف النسيم مفاضةً عليه وما غير الحباب لها حلق

وقد صحنى يخلق ونسيمه يسج ، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تسج ،  
ولازمنى إذ رأى انعطافى عليه ، وشبه الشئ منجذب إليه “ .

وقد اختار له الخفاجى طائفة كبيرة من الشعر نكتفى منها بالصور الآتية التى  
دلّ على علو كعبه فى الشعر وأنه كان فيه نادرة عصره من ذلك قوله :

|                                 |                           |
|---------------------------------|---------------------------|
| سقى الله يوم القصر إذ كان بيننا | حديث كمرّض الجمان المنصّد |
| بروض يحول الماء تحت ظلاله       | كأيم مروع أو حسام مجرد    |
| يلوح به فاني الشقيق وقد حكي     | لواحظ نخبور كحلن بائميد   |
| ويهمى به فطر الندى فتخله        | مبدّد عقيد فى فراش زمرّد  |
| وريحانه الغض الشيمى كأنه        | مبادى عذار فوق خد مورّد   |

وقوله :

|                         |                          |
|-------------------------|--------------------------|
| لا تتهم بالسوء دهرك إنه | جبل يوجب صدك منه صدأ     |
| مرأتك الدنيا وفعلك صورة | فيها فالشعواء والحسواء ؟ |



وقوله :

قَصَرَ الأميرِ بَوَادِي النَّيَّيرِ سَقَى  
رَبَّكَ عَنِي مِنَ الْوَسْمَى مِدْرَارُ  
كَمْ مَرَّ لِي فِيكَ أَيَّامٌ هَوَّاجُهَا  
أَصَائِلُ وَلِيَالِيهِنَّ أَسْحَارُ  
حَيْثُ الشَّيْبَةُ يَكُرُّ فِي غَضَارَتِهَا  
وَلِلصَّبَابَةِ أَحْلَافٌ وَأَنْصَارُ  
حَيْثُ الرِّيَاضُ تَغْنِينِي حَامِئُهَا  
بِالْدَفِّ وَالْجَنِّكَ وَالْمُنْتَوْرُ لِي جَارُ  
حَيْثُ الْخَمَائِلُ أَفْلَاكُهَا طَلَعَتْ  
زُهْرٌ مِنَ الزَّهْرِ وَالنَّدْمَانُ أَقْفَارُ

(توفي سنة ١٠٨٠)

### ( ٣ ) عبد الله الشبراوي

هو عبد الله بن شرف الدين الشبراوي القاهري ، من أكابر مشيخة الأزهر ،  
وهو شاعر رقيق جذاب ، في شعره لين وسهولة ، وأغلبه في المدائح النبوية ومدائح  
أهل البيت ، توفي سنة ١١٧٢ هـ ومن شعره :

آل طه وَمَنْ يَقِلَّ آلَ طه  
مُسْتَجِيرًا بِجَاهِكُمْ لَا يَرُدُّ  
حُبُّكُمْ مَذْهَبِي وَعَقْدُ يَمِينِي  
لَيْسَ لِي مَذْهَبٌ سِوَاهُ وَعَقْدُ  
مَنْكُمُ أَسْتَدُّ بَلْ كُلُّ مَنْ فِي الْـ  
كَوْنِ مِنْ فَيْضِ فَضْلِكُمْ لَيْسَ تَمَدُّ  
يَتَكُمُ مَهِيْطُ الرِّسَالَةِ وَالْوَحْدِ  
ي وَمَنْكُمُ نَوْرُ النُّبُوَّةِ يَبْدُو  
وَلَكُمْ فِي الْعِلَاءِ مَقَامٌ رَفِيعٌ  
يَا ابْنَ بَنَاتِ الرِّسُولِ مَنْ ذَا يُضَاهِي  
لَكُمْ فِي الْعِلَاءِ مَقَامٌ رَفِيعٌ  
يَا حُسَيْنَا هَلْ مِثْلُ أَمِّكَ أُمَّ  
لَكَ اقْتَحَارَا وَأَنْتَ لِلنَّجْوَى عَقْدُ  
لَشَرِيفٍ أَوْ مِثْلُ جَدِّكَ جَدُّ

ومما قاله مؤرخا في رثاء أحمد الدلنجاوي :

سَأَلْتُ الشَّعَرَ هَلْ لَكَ مِنْ صَدِيقٍ  
وَقَدْ سَكَنَ الدَّلْنَجَاوِيُّ لَحْدَهُ ؟  
فَصَاحَ وَخَرَّ مَغْشَا عَلَيْهِ  
وَأَصْبَحَ سَاكِنًا فِي الْقَبْرِ عِنْدَهُ



فقلتُ لمن أراد الشعرَ أقصرُ      فقد أرختُ مات الشعرُ بعده  
سنة ١١٢٣ هـ .  
٤٤١      ٦٠١      ٨١

ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه :

إن ذنبي والله ذنب كبيرُ      غير أني بحلمكم أستجيرُ  
ضاق صدري وأنجل الذنب وجهي      واعتراني من الحيا تغيرُ  
وتأسفتُ حين كان الذي كا      ن ولكن جرى به المقدور  
وتأخرت عن لقاءكم حياء      ثم إني أعياني التأخير  
وتركتُ الحضورَ بين يديكم      نَجَلًا حين عَمِيَ التقصير  
لكن العفو ليس يبعدُ عنكم      فعسى أن يصحَّ قلبٌ كبيرُ  
إن ظني والله فيكم جميل      ولساني عن اعتذارى قصير  
سعة الصدر قد دعيتني إلى ما      كان مني والحلمُ عنكم شهير  
شيمة الأكرمين عفوٌ وصفحٌ      كلُّ ذنبٍ لديكم مغفور

### التأليف

نزل التأليف عن مرتبته كثيرا ، واقتصر على أن يكون تطويلا لموجز  
أو اختصارا لمطول ، إلا في القليل النادر .

### الزبيدي

ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر الشهاب الخفاجي وقد مرت ترجمته ،  
ثم الزبيدي وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضى الحسيني الزبيدي ، ولد سنة ١١٤٥ هـ ،  
ونشأ باليمن ، ورحل في طلب العلم فترل مصر سنة ١١٦٧ هـ ، واشتهر أمره  
وعلا ذكره بين العلماء والأمرء وألف رحلات لأسفاره ، ثم تجرد لشرح  
القاموس المحيط فأنتمه في سنين عدة ، وسماه " تاج العروس " ولما أنشأ  
محمد بك أبو الذهب مكتبته في جامعته ، أوعز إليه أن يقتني تاج العروس فاشتراه



من مؤلفه بمائة ألف درهم ، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكردية ،  
وقد عوّل في شرح القاموس على لسان العرب ، واستدرك على صاحب القاموس  
بعد كلّ مادة ما غفل عن ذكره من المفردات اللغوية .

ومن مؤلفاته ” إتحاف السادة المتقين “ وهو شرح لإحياء العلوم للغزالي  
توفي سنة ١٢٠٥ هـ .

### عبد القادر البغدادى

ومن كبار المؤلفين في هذا العصر عبد القادر بن عمر البغدادى ، درس  
بدمشق ، وتردد على القاهرة ، ثم رحل إلى أدرنة واتصل برجال الدولة التركية ،  
ثم عاد إلى القاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣ هـ .

وكان غزيرَ المادة في اللغة والأدب ، محباً لاقتناء الكتب ، فكانت خزانة  
كتبه تشتمل على كثير من الكتب الثمينة النادرة ، وأشهر مؤلفاته ” خزانة الأدب  
وُلبُّ لباب لسان العرب “ ، وقد شرح في هذا الكتاب شواهد شرح الكافية ،  
وضمّنه كثيرا من تراجم الشعراء والأدباء في الجاهلية وصدر الإسلام ، والكتاب  
جليل القيمة جدا يدل على علم واسع ودقّة وتمحيص .



## عصر النهضة الحديثة

### تمهيد

عرفت أن مصر في هذا العصر الذي تقدّم غزو الفرنسيين لها كانت في شبه انقطاع تام عن بلاد الغرب ، فلم تكن تربطها بها صلة ، اللهم إلا ما كان من طوائف تهبط مصر من مختلف البلاد للتجارة ؛ وإلا بعض السّياح يختلفون إليها الحين بعد الحين لدرس أحوالها ، ومطالعة معاهدها وآثارها ، والوقوف على خلائق أهلها ومُرسَل عاداتهم ، وغير ذلك من أسبابهم ، وكان لبعض الدول قناصل في مصر يقومون على منافع هذه الجاليات وتيسير أسباب العيش لهم ؛ على أن هؤلاء النزلة من الإفرنج ، إنما كانوا يعيشون محتجّز عن جمهرة المصريين ، لا يخالطونهم ولا يلبسونهم إلا بالقدر الذي تستوى به منافعهم . بل لقد كانوا في القاهرة يعيشون وحدهم ، إذ قد اتخذوا لهم رُقعة خاصّة لسكنائهم تدعى "حارة الأفرنج" (١).

أما هجرة المصريين إلى بلاد الغرب فكانت معدومة أو هي في شبه العدم . فإذا كان أفذاذ منهم قد فعلوا فذلك ما لم يظهر له أى أثر في عقد الصلة بين مصر وبلاد الغرب .

على هذا لم تكن للغات الغرب ولا لعلومه ولا لآدابه وثقافته ولا لشيء من وسائل أممه في الحياة أى أثر في هذه البلاد ، بل لقد كان سواد المصريين في جهل تام بالغرب وأحواله . أضف إلى هذا أن مصر كانت قد تدلّت في ذلك الوقت إلى الحضيض الأوهدي في كل شيء : في العلوم والفنون ، في الأخلاق والآداب ، في الصناعة والتجارة ، وفي غير أولئك من سائر أسباب الحياة . وليس بعجيب في بلاد عانت ما عانت مصر من حكام أفاقين ، غلاظ الأكباد ، رقاق الأديان ،

(١) حارة الفرنج بشارع الموسيقى يسلك منها للدرب الحديد وبها جامع التستري .



دقاق الأخلاق ، لا غاية لهم من الحكم إلا طلب الأبهة وإظهار السطوة وبسط ،  
الظلم والجور وإهلاك النفوس في سبيل استخراج الأموال .

وهذا اللون من الحكم لقد كان حقيقاً بأن يصرف الناشئ عن التجرد ، ولو  
بعض الوقت في طلب العلم ، والتبريز في الفن ، وتجويد الصناعات ، وتحصيل  
الآداب ، وإحراز الثروات . وكيف لهم بشيء من هذا وقد حاق بهم البلاء من  
كل جانب ، وملكت ضروبُ الظلم عليهم كلَّ سبيل .

وإذا كان تطاول هذا الحكم البالغ قصارى الظلم قد دعف على دور العلم والحكمة ،  
ونزائن الكتب التي كانت قائمة في البلاد ، فإنه لم يستطع ، والحمد لله ، أن يعنى  
على الأزهر الشريف . ذلك بأن موضع الأزهر الشريف من تعاليم الدين الكريم  
وقيامه على حراسة الشرع الحكيم ، وطلب شباب المسلمين له من قواصي الأرض  
وأدانيها تفقها في العلم والدين ، إلى ثباته الدهر الأطول ، حتى حلَّ من عقائد  
الناس في موطن التقديس ؛ كلُّ ذلك قد قبض أيدي الطغيان عنه فلم تنله بكل  
ما عندها من المكروه . وسأتى الكلام في الجامع الأزهر بشيء من التفصيل .

### الحملة الفرنسية

لما بلغ الضعف بمصر ذلك المبلغ ، وزادها وهنا على وهن ، تنازع المماليك على  
الحكم ، واستقلال كل منهم برقعة من البلاد ، وتربص بعضهم الدوائر ببعض ،  
طلباً للاستئثار بالحكم وبسطة السلطان ، وقيام الحروب بينهم في هذا وشن الغارات  
وضعف شأن الوالي ، ممثل الخليفة العثماني في هذه البلاد ، واكتفاؤه بما يحل إلى  
الدولة العلية كلَّ عام من الخراج ، وما يستخرج لنفسه من كرائم الأموال ؛ لم  
يصبح عسيرا على بونايرت أو على غيره من الغزاة أن يطمع في فتحها وتملكها  
بلا كبير عناء .



ففى مستهل سنة ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) وفدت على مياه الإسكندرية عمارة إنجليزية ثم لحقتها عمارة أخرى . وأوفد قائد الأسطول رُسلًا إلى المدينة ينبئون المتحدثين على شأنها بأنهم إنما جاءوا فى طلب الأسطول الفرنسى ، وقد علموا بإقلاعه إلى الشرق ، وأكبر الظن أنه إنما جاء يطلب مصر . فأغاظ لهم هؤلاء الجواب ، وقالوا لهم : إنا مصر من بلاد الخليفة ، ولا شأن للفرنسيين ولا لغيرهم بها . فراجعهم رسل الإنجليز وأخبروهم بأنهم مر تصدون بسفنهم للفرنسيين بعيدًا عن المدينة ، حتى إذا وصلوا صدوهم عن غزو البلاد ، وسألوا أن يبيعهم أهلها ما يحتاجون إليه من الأقوات ، فأبوا هذا عليهم أيضا . فاضطرَّ الأسطول الإنجليزى إلى الإقلاع خوفًا من نقاد ما عنده من الزاد . أما الأمراء ( المماليك ) فلم يكتروا للأمر اعتراضًا بقوتهم ، واعتراضًا بشدة بأسهم . على أنه لم تمض ثلاثة أيام حتى أقبل بونايرت فى أسطول ضخم ومالبت أن أنزل جنده إلى البر فاحتلَّ المدينة من غير عناء كبير . وسارت الجيوش الفرنسية غازية فى صميم البلاد حتى دخلت القاهرة فاتحة ، لم يعوقها كثيرا ما تمكَّن المماليك من تجهيزه من الجيوش ، ولا ثورة من كان يثور بها من الأهلىين .

لبث حكم الفرنسيين لمصر ثلاث سنين ، على أن المصريين ظلُّوا طول هذه المدة يقاومونهم ويشيرون بهم الحين بعد الحين ، مع أنهم عُرِّل من السلاح مستهدفون لألوان من القسوة والفتك يشيب لهولها الولدان ، وعلى أن بعض المماليك قد اعتصموا ببعض بلاد الصعيد واستقلوا بحكمها ، ولم يستطع الفرنسيون أن ينالوا منهم منالا . ودامت الحال كذلك إلى أن وُجِّهت إلى مصر حملة من الإنجليز والعثمانيين فأجلَّت عنها الفرنسيين سنة ١٢١٦ هـ ( ١٨٠١ م ) فعادت مصر إلى حكم الدولة العثمانية اسما ، وإلى استبداد المماليك واستئثارهم بالأمر فعلا .



## إنشاء المجمع العلمى المصرى

لما قَدِمَ بونابرت إلى مصر جاء معه بطائفة كبيرة من العلماء فى مختلف العلوم ، ومن الأساتذة المبرزين فى شتى الفنون . كما جاء بكثير من حذاق الصنائع . وذلك لدراسة القطر المصرى فى مختلف أسبابه ، وتحقيق تاريخه ، والكشف عن آثاره وعادياته ، وإقامة ما يرى إقامته من المعامل والمصانع . وغير ذلك من الوسائل التى لا يطلبها ولا يجتمع لها إلا مَنْ ينوئ استلحاق هذه البلاد إلى غاية الزمان .

وقد اتخذ الفرنسيون لهذه المرافق طائفة من دور الأُمراء ( المماليك ) الواقعة فى الدرب الجديد بحى الناصرية ، وأقاموا مكتبة جامعة يطلبها للراجعة والنظر مَنْ يشاء منهم ومن غيرهم . كما أنشئوا مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين فى مصر .

ولقد كان أهم المعاهد التى أقاموها فى هذه البلاد ( المجمع العلمى المصرى ) فى نفس السنة التى فتحوا فيها مصر . وذلك لتحقيق أول الأغراض التى تقدمت فى صدر هذا الفصل ، واتخذوا لمنشأه منزل حسن شركس فى الدرب الجديد أيضاً . وقد أُلِّفَ من ثمانية وأربعين عضواً تحرر ربعمهم للرياضيات ، والربع الثانى للطبيعيات ، والثالث للاقتصاد السياسى ، والرابع للأدب . وقد عهد برياسته للعالم الكبير المسيو منج . وبوكالته إلى بونابرت نفسه .

ولقد جَدَّ هذا المجمع فى مهمته وأكَّـبَ على موالاة بحوثه ، وجعل يصدر كل ثلاثة أشهر نشرة يضمها ما ينتهى إليه من تلك البحوث . ثم نشروا بعد ضُـقُوتها كلها فى أربعة مجلدات . كما نشروا فى وصف مصر كتاباً جليل القيمة دعوهُ (Description d'Egypte) وقع فى مجلدات كثيرة .



وقد أغلق هذا المجمع بخروج الفرنسيين من مصر . على أنه في سنة ١٨٥٩ م رأى جماعة من الفضلاء أن يبعثوه ثانياً ، فأقاموه أولاً في الإسكندرية ، ثم نُقل إلى القاهرة ولا يزال يوالى عمله بها ، وداره قائمة الآن بحجى المنيرة بإزاء كلية التجارة .

ولقد دعا الفرنسيون في أثناء قيامهم في مصر طائفة من كبار المصريين وعلمائهم للتفرج في هذا المعهد وشهود وسائلهم في الحياة على مقتضى العلم الحديث . ولم يكن هؤلاء يرون آثار صنع أولئك ، وخاصة ما كانوا يستحدثونه أمامهم من التفاعلات الكيميائية حتى شُدُّهُوا وأخذ العجب منهم كلَّ مأخذ ، وحتى ظنَّ بعضهم أن ما يصنعون إنما هو ضَرْبٌ من السحر؟ وعذرهم في هذا واضح بطول انقطاع البلاد عن علوم الدنيا ، وعدم متابعتها القرون الطوال لما تتضح به العقول وتجد به التجارب في مختلف أسباب الحياة <sup>(١)</sup> .

وإذا كان المصريون قد انبهروا مما رأوا بادئ الرأى ، شأن من سَطَعَ النور على عينيه بفاة بعد طول المقام في حال ك الظلام ، فإنهم ما لبثوا أن عرفوا أن هناك علما غير ما عهدوا من العلم ، وأن هناك حياة غير ما أدركوا من الحياة .

(١) كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور بين من دعوا لذلك ، فوصف ما رأى هناك . وما جاء في وصفه قوله : ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ان وصعد منهما دخان ملون حتى انقطع وجفَّ ما في الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فحمد حجراً أزرق ، وبأخرى فحمد حجراً أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجتنا منه فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشير ، ضيقة الفم ، فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى عل غير هيئتها ، وأدخلهما في الماء وأصعدهما بحركة انخسب بها الهواء في إحداهما ، وأتى آخر فقتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا .



وعلى كل حال فقد قامت تلك البعثة العلمية بأعمال عظيمة الخطر ما برحت إلى اليوم شاهدا على جلاله فضلها ، وشدة ما عانت في البحث والاستقراء ، والكشف والاستقصاء في جميع الأسباب العامة في هذه البلاد .

ومما تقدم تعلم أن الصلة بين مصر والغرب قد بدأت في الواقع من عهد الحملة الفرنسية ، وإن لم يظهر لها أثر فعلي إلا بعد ذلك بعدة سنين . فإنه ما جلا الفرنسيون عن مصر حتى عادت إلى سابق عهدها بحكم الممالك . فخرجت من ظلم يتخلله بصيص من نور ، إلى ظلم يتخبط في حلك الديجور .



## محمد على

قدم محمد على إلى مصر سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) ضابطا مع الحملة التي وجهتها تركيا إليها لإخراج الفرنسيين منها ، وكان بعدُ في شباب السنّ . على أنه كان شديد العقل ، وثيق الحلم ، متسعر الذكاء ، واسع الحيلة . وقد اجتمع له إلى هذا كله شجاعة القلب ، ومضاء العزم ، وبعد الهمة فما برحت كفاياته تيك تتقدم به وتوالى عليه الرقيّ دراكا في الدرجات العلا ، فلم تدخل سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) حتى نودى به واليا على مصر . وذلك بما أظهر من البراعة وحسن السياسة من جهة ، ومن جهة أخرى بما تألف من قلوب المصريين كبار أعيانهم وعلمائهم بلطف معاملتهم ، وجميل مذاخلتهم ، وما توسّموا فيه من الجِد والعدل والنزاهة وشرف الغاية فأجمعوا أمرهم على أن يسألوا الباب العالي أن يوليه على مصر ، فتم لهم ما أرادوا .

ولم يكن شأن محمد على كشأن من تقدمه من الولاة من التوفر على حمل الخراج المقسوم للدولة ، وبذل الجهد في استخراج جلائل الأموال لشخصه . بل لقد كان أبعد من ذلك مطمعا وأنبِل غرضا . كان يريد أن يحكم لينتشل البلاد من الوَهْد الذي تردّت فيه بسوء الحكم ، وطول الظلم . ويهيئ لها أسباب القوة ، ويدفعها دفعا إلى مراقى العلاء . وقد عرّف أن شيئا من ذلك لا يتهيأ له مادام هؤلاء المماليك مستأثرين بالسلطان متكئين في حكمهم على وسائل البطش والجبروت . فما زال يصابهم ويصانعهم حتى فتّقت له الحيلة أن يؤلّم لهم في القلعة ، مثنى الوالى يومئذ ، فإذا اجتمعوا أوقع بهم ، واستخلص البلاد من شرورهم وآثامهم . وقد تم له هذا في سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) .

لم يكن لمحمد على ، بعد هذا ، بدّ من أن يُجيش جيشا قويا مدرّبا منظما يستطيع أن يُقرّ به الأمن ويصون هيبة الحكم في الداخل ؛ ويدفع به غارة المُعْير من الخارج .



فدعا أولا بطائفة من أساتذة الفنون العسكرية في أوروبا ، وأشخصهم مع ممالكه إلى أطراف الصعيد ليدرّبوهم هناك ويعلموهم . فلقد خشي إن هو صنع هذا في القاهرة بعين جند الممالك أن يشوروا به ، إذ كانوا يعرفون أنهم مدينون لمأهم فيه من بسطة جاه ووفرة أرزاق لشوزهم على الطاعة ، وتمردهم على كل نظام .

ثم لما استمكن له الأمر أقام في سنة ١٢٤٠ هـ ( ١٨٢٥ م ) مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العيني ( متوى كلية الطب الآن ) . فاجتمع فيها الطلبة من الأصناف المختلفة ، اللهم إلا المصريين ، فقد ضعف الرأى فيهم من هذه الناحية ، لأنهم قد عاشوا قرونا لا يباشرون حربا ولا ينفرون لقتال . على أن هؤلاء الطلبة الذين حشروا في تلك المدرسة لم يحققوا الظنّ بهم . فكان هذا مدعاة لأن يخرف نظر محمد عليّ إلى المصريين ، فأصبحت كثرة تلاميذها بعد ذلك منهم .

وكانت لغة التعليم إلى ذلك الوقت هي التركية ، وإن كانت تدرس بجانبها العربية .

ثم بدا لمحمد عليّ أن يرقى بالتعليم العسكرى . فأنشأ في تلك السنة نفسها في جهة أبي زعبل مدرسة أركان الحرب ، ودعا لها بأساتذة من الإخصائيين أكثرهم من الفرنسيين .

على أنه تعجلا للفائدة في هذه السبيل كان قد سبق فأوفد إلى بعض مدن إيطاليا في سنة ١٢٢٨ هـ ( ١٨١٣ م ) طائفة من شبان الممالك لدراسة الفنون العسكرية وما إليها . وبعد خمس سنين أتبع هؤلاء ببعثة أخرى من شبان الممالك إلى إنجلترا لدراسة ( الميكانيكا ) وغيرها من الفنون .



## تنظيم العلاقات العلمية بين مصر وأوربا

لقد سلف عليك أنّ مصر بعد أن ظلت الأزمان الطويلة في تمام الانقطاع عن بلاد الغرب ، وأنها قد بدأت تتصل به من عهد الحملة الفرنسية ، وإن كان هذا الاتصال لم يُجِدْ عليها شيئا أو لم يُجِدْ عليها لوقته . إلا أنه لما استقرّ الأمر في مصر لمحمد عليّ رأى الحاجة شديدة إلى إنشاء جيش منظم مدرب على الأساليب العسكرية الحديثة . ولم يكن له بد في تحقيق هذا الغرض من أن يستقدم رجالا من أساتذة الفن العسكري ليدرّبوا الجند في البلاد ، وأن يبعث في الوقت نفسه إلى أوربا طائفة من الشبان لتلقّي هذه الفنون وما إليها هناك . ومن هذا الحين بدأت العلاقة ، ذات الأثر الفعلي ، تنعقد بين مصر وبلاد الغرب ، وإن كان أثرا عسكريا محضا .

على أنه لم يمض كبير من الزمن حتى جعلت تنظم العلاقات العلمية بينهما وتقوى وتستوثق على مرّ الأيام ، وكان هذا أيضا باستقدام العلماء وإرسال البعوث . وهذه النهضة ، وإن كانت علمية خالصة ، إلا أنها انبعثت أول الأمر لخدمة العسكرية كما ترى .

## مدرسة الطب

عرفت أن همة محمد عليّ اتجهت أول ما اتجهت لعظام الأمور إلى إنشاء جيش مدرب منظم ، ولا بدّ لهذا الجيش من أطباء يعالون المرضى ، ويأسون جراحات الجرحى ، ويدافعون الأوباء إذا هبّت ريحها . وليس للطب الحديث ولا لفنونه أثر في هذه البلاد . اللهم خلا عددا قليلا من أطباء الإفرنج كانوا يقومون بمعالجة النزلاء الغربيين . أما المصريون فكان خاصتهم يعتمدون في هذا على المأثور من نسخ الأدوية في الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها البكى



والحجامة ونحو ذلك . وأما الدهماء فكانوا في عامة شأنهم يعوزون بالمطبيين من الدجالين والمشعوذين من مدعي السحر والاتصال بعالم الأرواح ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة أضرحة الصالحين .

من هذا رأى محمد على أن ينشئ مدرسة طبية تقوم بتعليم الطب الحديث على أحدث الوسائل التي انتهت إليها بلاد الغرب في تلك الأيام . فأنشأ في سنة ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٦ م ) في جهة أبي زعبل هذه المدرسة ، وأقام بإزائها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى من جهة ، ولتمرين التلاميذ في التطبيب من جهة أخرى . وجاء لها بأساتذة من الغرب ، وجعل رياستها إلى الدكتور ( كلوت بك الفرنسى ) ، وكان محمد على قد استقدمه في السنة السابقة طبيباً للجيش . وكان الطلاب في هذه المدرسة مزجاً من المصريين وغيرهم . وكثير من أولئك اختيروا من متقدمى الطلاب في الأزهر . ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني في سنة ١٨٣٨ م .

ولا يذهب عن مؤرخ الأدب في العصر الحديث أن يضيف أكبر الفضل في انبعاث اللغة العربية وتحرك آدابها ، وإنهاض مظاهر بلاغاتها ، واتصالها بالعلم والفن الحديثين إلى هذه المدرسة . ذلك بأنك تعرف أن فصيح العربية فوق أنه غم على الناس ، وعلى المصريين خاصة ، من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهر بلاغتها قد دب إليهما الضعف والانحلال إلى حد كبير ، قد تخلفت عن متابعة العلم ومدارجته العصر الأطول ، حتى استوى العلم الحديث وأدرك ، فإذا هو في وادٍ ، وإذا حظ الناس من لغة العرب في وادٍ آخر ، لا يكاد يجمع بينهما سبب ، أو يرتبطهما أى نسب ، أما وقد فاجأ محمد على مصر بهذه العلوم التي انتضحت بها القرائح في الغرب عدة قرون ، تشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتطبع لها المصطلحات ، فتد بان العسر أشد العسر في تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب لا يجذقون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو قد عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرسوا بها ، لعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهيأ لها أن تؤديه ليس في متناول اليد ، بل



إنه لما يحتاج إلى كثرة مراجعة وشدة تنقيب . لهذا اضطر محمد على أول الأمر إلى أن يقيم بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس من أولئك في اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية . وهؤلاء المترجمون كانوا مزجاً من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانى هؤلاء المترجمون كثيراً في الاضطلاع بمهمتهم العسيرة . ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة كانت أول ما دعا ، في صدر هذه النهضة الحديثة ، إلى مراجعة معجمات اللغة ، والكتب الفنية القديمة ، كمفردات ابن البيطار لاستخراج المصطلحات العلمية ، أو لصوغ ما يؤدي مطالب العلم الحديث ، إذ لم يُوفَّ بأدائه القديم . وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية في كثير من الأحيان ، فإن لهم الفضل على كل حال في البدء بمقد الصلة بين لغة العرب القديمة وبين علم الغرب الحديث . على أن هذه الحركة قد نمت بعد ذلك وازدهرت وآتت خير الثمار . وسيجيء في هذا الكلام .

### البعوث العلمية

لم تقف همة محمد على عند ذلك القدر . بل لقد امتدَّ به العزم إلى أن يأخذ هذه البلاد في جميع أسباب الحياة بمظاهرها الحضارة الغربية . فرأى أن يتعجل الفائدة بإيفاد البعثات العلمية إلى أوروبا .

### البعثة العلمية الأولى

ففي سنة ١٢٤٢ هـ ( ١٨٢٦ م ) بعث إلى باريس أربعة وأربعين من متقدمي الطلاب ليتقسموا طلب الفنون والعلوم المختلفة من إدارة ملكية ، وإدارة عسكرية ، وأخرى بحرية ، وللعلوم السياسية ، والطب ، والتاريخ الطبيعى ، والكيمياء والفِلِزَّات ( المعادن ) ، والزراعة ، والطباعة والحفر ، وغير ذلك . وكان هؤلاء



مزيحاً من المصريين وغير المصريين . وقد جدّوا في طلب العلم حتى حدّقوا ما تحرّروا له من الفنون ، وحتى فاق بعضهم لداتهم من الطلبة الفرنسيين أنفسهم . فلما عادوا إلى مصر كانوا عدّة قويّة لمحمد على فيما اضطلع به من وجوه الإصلاح في مختلف المرافق في البلاد . ولقد أعظم التاريخ شأن كثيرين منهم بما أظهرُوا من الفضل والبراعة ، وما انتهضوا به من جلائل الأعمال ، في سعة كفاية وعظيم إحسان .

وما برح ، رحمه الله ، يوالى إيفاد البعث العلمية إلى بلاد الغرب ، أفراداً وجماعات ، لتلقى العلوم العالية في أجلّ مدارسها شأنًا ، حتى زادت عدّتهم في أثناء ولايته على ثلاثمائة طالب .

على أنه لم يقنع بكل هذا ، فلقد أقام في باريس نفسها مدرسة خاصة نظم فيها نحو أربعين طالبا مصريا ، كان فيهم اثنان من أولاده ، واثنان من أحفاده .

### المدارس

قد مرّ بك أنه لما أفضت الولاية إلى محمد على كان التعليم العالى في مصر محصوراً في الجامع الأزهر ، يتوفّر طلابه على دراسة العلوم الدينية واللغوية ، وبعض العلوم العقلية ، وأمّشاج من علوم أخرى ، وإن كانت تتصل بمطالب الدنيا ، إلا أنها أصبحت لا غناء لها في علوم الحياة التي قامت عليها حضارة الغرب الحديثة . لذلك عمد ، رحمه الله ، إلى تأسيس المدارس العلمية في مصر توسّلاً إلى تحقيق هذه الغاية . وقسمها إلى طبقات ثلاث : ابتدائية ، وتجهيزية ، وخاصة . ومن هذه المدارس الخاصة مدرسة الطب ، وهي أقدمها كما مرّ بك ، وإن كان الغرض الأول من إنشائها خدمة العسكرية . ومنها مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ، والطب البيطرى ، والفنون والصناعات ، والزراعة ، والألسن ، وغيرها للإحاطة بمرافق الحياة المختلفة . وكانت عدة المدارس الابتدائية التي بثها في أرجاء البلاد خمسين مدرسة .



## ديوان المدارس

كانت المدارس في مبدأ أمرها تابعة للإدارة العسكرية ، لما علمت من أن التعليم إنما بدأ في مصر للأغراض العسكرية ، فلما اتسعت رقعته ، وتنوعت فنونه ، وتجردت أكثر مدارسها للأغراض العلمية ، أنشأ له إدارة ملكية خاصة في سنة ١٨٣٩ م ، سميت ديوان المدارس واتخذ للحدث على شأن هذا الديوان طائفة من العلماء المصريين والأجانب ، وجعلت رياسته إلى مصطفى مختار بك من أعضاء البعثة العلمية الأولى .

## الترجمة والتأليف

الترجمة — تعلم أن مصر ، في صدر هذا العهد ، كانت خلوا من العلوم الحديثة التي شاعت في الغرب وازدهرت وآتته بأسباب القوة والعظمة في نواحي الحياة ، كما أن اللغة العربية قد بعد عهدا بتناول هذه العلوم . ومن جهة أخرى فإن انقباض أهلها عنها قد أعجزهم عن تناول ما عسى أن يكون مخبوءا في مجفواتها مما يتصل بهذا الباب . فأصبح وصل أبناءها بهذه العلوم في لغتهم مما يكاد يتصل بالمستحيل . على أن الهمم إذا صدقت ، والعزائم إذا صحت ، ذلت أصعب الصعاب ، ويسرت أعسر العسير .

ولقد عرفت أن أول عهد مصر بالترجمة العلمية في هذه النهضة ما كان يقوم به المترجمون في مدرسة الطب بين الأساتذة وتلاميذهم . ولم يقتصر هؤلاء على ذلك ، بل قاموا بترجمة طائفة من الكتب الطبية التي وضعها بعض أولئك الأساتذة الأجانب في لغاتهم في الطب ، والتشريح ، والأقرباذين ، و ( الفسيولوجيا ) ، والطب البيطري ، والصبغة ، وغير ذلك .



ولما عاد المرحوم رفاة بك الطحطاوى من باريس سنة ١٨٣١ م ، وكان قد حذق الفرنسية ، ودرس صدرا من العلوم الحديثة ، من بينها التاريخ وتقويم البلدان ، عهد محمد على إليه أولا بالترجمة فى مدرسة الطب ، ثم أحال إليه ترجمة كتب الهندسة والفنون العسكرية .

وبعد هذا أنشأ محمد على ، رحمه الله ، مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ، وولى رفاة بك إدارتها ، فظل قائما على شأنها إلى أن خرجت طائفة من المترجمين الأكفاء . حتى إذا كانت سنة ١٢٥٨ هـ ( ١٨٤٢ ) م أُلِّف من هؤلاء قلم للترجمة تولى رفاة بك رياسته . ولقد انتفض هذا القلم كما انتفض رفاة نفسه بترجمة كثير من الكتب العلمية فى مختلف أسباب الحياة ، استطاعوا بها أن يعقدوا الصلة بين العربية وبين العلوم الحديثة . ولقد كان سعيهم فى هذا شاقا مضنيا ، على أنهم قد استطاعوا بسعة العلم ، وقوة الصبر ، والإخلاص لوجه النهضة ، ما يكاد يضاف إلى جملة المستحيل . وآثارهم فى هذا الباب ما برحت قائمة إلى الآن ، وما زالت تبعث الفخر بهم على كل لسان .

ولقد فترت هذه الحركة العظيمة بعد موت محمد على ، كما فترت سائر وسائل النهوض والإصلاح . حتى إذا كان عصر إسماعيل ، وانبعث من جديد نهضة العلوم والآداب ، انبعثت معها الترجمة ، وجعلت تطرد فى تقدمها طوعا لكثرة المدارس ، وازدياد عدد المتعلمين ، واستيثاق الصلة بين المصريين وعلوم الغرب وآدابه . كما جعل أداء كتب الأفرنج بالعربية يدق وترفع اللغة فيه . وبعد أن كانت الترجمة مقصورة ، على جهة التقريب ، على الكتب العلمية ، فقد جعلت تتناول أيضا كتب الآداب فى مختلف صورها . وما زالت هذه الحركة تطرد وتتسع وتقوى على الزمان ، حتى أدركت اليوم حظا جليلا لقد كان له فى بناء النهضة القائمة أثره العظيم .



وإذا كنا اليوم نحمد للغتنا تقدمها ووفاءها بكثير من مطالب الحياة في أسبابها الحديثة ، وإذا كنا بهذا قد جلونا منها ما لا يكاد يبلغه الحصر من كتب الغرب في العلوم والآداب ، فإنما نحن مدينون لأولئك الأسلاف بالقسط الأعظم من هذا الفضل العظيم .

التأليف — أما التأليف في العلوم الحديثة ، فقد استأثر به ، بادئ الأمر ، جماعة الأطباء من الغربيين ، حتى إذا أتم المصريون علومهم سواء في أوروبا أو في مصر ، جعلوا هم أيضا يعالجونه في الطب وما إليه أولا ، ثم في مختلف العلوم الأخرى فأخرجوا مؤلفات نفيسة .

وعلى الجملة ، فإن بناء هذه النهضة من المعمرين الذين استصنعهم محمد على لم يقف مطعمهم عند التفقه في العلوم الحديثة ، والقناعة بالتبريز فيها ، بل حاولوا موفقين ، وخاصة في السنين المتأخرة ، أن يكون لهم أثر ذاتي فيها ، فبلغوا من ذلك حظا محمودا .

على أن هذه الحركة قد فترت بعد وفاة محمد على فيما فتر من أسباب النهضة ، حتى إذا عادت الحياة العلمية والأدبية في عصر إسماعيل ، أقبل علماء المصريين على التأليف ، وما برحت هذه النهضة في اطراد واتساع حتى بلغت اليوم قدرا إذا جل شأنه فإن البلاد لا تزال تتطلع إلى ما هو أجل منه ، طوعا لنهضتنا الكريمة ، ومشايعة لآمالها الجسام في الحياة .

ومما ينبغي أن يذكر في هذا الباب أن التأليف جعل يصطبغ بالصبغة الغربية من حيث التحقيق العلمي والجرى على مذاهب النقد الحديثة . ولم يقتصر على ما ترويناه من العلوم عن الغرب ، بل لقد امتد إلى التأليف في علوم العربية وآدابها .



## الثقافة ومصادرها في العصر الحديث

لقد كانت مصادر الثقافة العامة في مصر لأول هذا العصر الذي نتحدث عنه لا تتجاوز ، في الجملة ، ثلاثة : الكتّيب ، ومعاهد التعليم الديني ، والمكتبات :

الكتّيب — أما الكتّيب فلا يخلو منها بلد ولا قرية ، ولا يكاد يخلو منها في المدن حتى ولا درّب . فلقد كانت وحدها الينبوع الأول الذي يطلبه الناس لتعليم أبنائهم . وفيها يتعلم الصبيان القراءة والكتابة . ويحفظ من شاء القراءان كله ، ومن شاء قنع بحفظ صدر من سورة الكريمة ، ثم انكفأ به أهله إلى المهنة التي أرادوها له . ويقوم على التعليم والتأديب في هذه الكتّيب رجل يُعرف ( بالفقي ) فإذا كان الكتاب كبيرا ساعده آخر يُدعى ( العريف ) ومما أدّب به صبيان المصريين أنهم لا يدعون هذا ولا هذا إلا ( بسيدنا ) . والكثرة الغامرة جدا من هؤلاء المعلمين لا تُحسن شيئا غير حفظ القراءان الكريم ، وأحكام تجويده في الغالب ، ومعرفة قراءاته في النادر . أما شيء آخر من العلم فلا حظ لأكثرهم فيه ، وخاصة تفسير القراءان الكريم الذي يطوون الأعمار في تلقينه للنشء وتحفيظه . ولعل معرفة أكثرهم لأليات أحكام الدين ترجع إلى المحاكاة والتقليد بطول تردد المشاهدة والاستماع .

خزائن الكتب — وأما خزائن الكتب فالعامة منها قائمة في المعاهد الدينية وفي بعض المساجد الكبيرة ، على أنها لم تكن من التنظيم والتبويب بحيث يسلس للاستعير تناول ما شاء منها ، وخاصة في نوادر الكتب ، وفي غير الدائر من العلوم . وهناك الخزائن الخاصة في قصور الأمراء ومن إليهم ، وفي دور متقدمي العلماء .



كما كان هناك جماعات الوراقين يبيعون صنوف الكتب في حواضر البلاد .  
ولا يذهب عنك ، في الغاية ، أن هذه الكتب مخطوطة كلها ، فهي في الجملة ،  
نادرة . وتناولها ليس بالسهل اليسير على كل إنسان .

المعاهد الدينية — وأما المعاهد الدينية فعلى رأسها الجامع الأزهر .  
وبحالة محله نحرر له فصلا خاصا . ولقد كان يدرس العلم في غيره من المساجد  
الشهيرة في القاهرة وفي أمهات المدن الأخرى . على أنها كلها إنما كانت تستمد  
منه . فالمدرس فيها إن لم يكن متعلما في الأزهر . فهو متخرج على متعلم فيه ،  
وهكذا .



## الأزهر

موجز من تاريخ الأزهر — لما فتح مصر جوهر الصقليّ باسم الفاطميين في ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بنى في ٩ رمضان سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٠ م ) الجامع الأزهر على أن يكون مسجدًا للعبادة وإقامة شعائر الدين كشأن سائر المساجد . ثم ما لبث هذا المسجد أن اتُّخذ مدرسة جامعة تُدرس فيها العلوم الدينية ، على مذهب الشيعة ، كما تُلقَى فيها العلوم اللغوية والعقلية ، وطائفة أخرى من علوم الحياة الدنيا .

وقد جدّد الخلفاء الفاطميون في استقدام أعيان العلماء من كثير من أقطار العالم الإسلامي وعهدوا إليهم بالتدريس في الأزهر ، وأَجَرُوا عليهم الأرزاق ، وأَجَزَلُوا لهم الصِّلَات ، وَبَنَوْا بجانبه الدور لسكّانهم تخفيفًا عنهم وترفيها . وكلما زاد عدد الطلاب وكثرت حلق الدروس وسَّعُوا في بناء الجامع . حتى إذا أدال الله من الفاطميين لصالح الدين الأيوبي هدم دورهم ، وَحَرَّقَ كتبهم ، وأَبْطَلَ مذهبهم ، فقام التعليم في الأزهر على المذهب السُّنِّي ، وهو القائم في عامة البلاد إلى الآن . وما برح التعليم في الأزهر ينمو ويزدهر بتدريس علوم الدين والدنيا معا ، يطلبه الطلاب من جميع مدن القُطُر وقُراه ، كما يطلبونه من جميع أقطار العالم الإسلامي . وما زال هذا شأنه إلى اليوم .

ولقد تقدم صلاح الدين وخلفاؤه من سلاطين الدولة الأيوبية بإنشاء المدارس المختلفة لتعليم الفتيان في أرجاء القطر المصري . حتى إذا كانت دولة المماليك شاعت الفنون ، وراجت سوق العلوم ، وعمت المدارس أرجاء القاهرة . حتى إذا ضاقت بها أقيمت خلف سورها ، بل لقد برزوا بها إلى الصحراء . على أن شيئًا من هذا لم يَغُصَّ من قدر الأزهر ، ولم يتخيف من حظ التعليم فيه ، وتهافت الطلاب عليه من كل مكان .



فلما كان الفتح التركى وساء حكم البلاد ، وشاعت فيها الفوضى بافتتان الممالك  
وتقاتلهم على السلطة ، ودأبهم على اعتصار دم البلاد بكثرة جباية الأموال .  
وبسط الظلم لوجه الأبهة والتكاثر بالسلطان ، درست الفنون ، وعُفيت دور العلم .  
إلا أن الأزهر وحده ثبت خلال هذه العواصف العاصفة . ولعل انقباض أيدي  
الظلمة عنه يرجع أولا إلى أنه مثابة التعليم الدينى فلا يسهل مدّ الأيدي إليه بالأذى ،  
ثم إلى قدمه الذى حلّ به فى العقائد موضع التقديس ، فضلا عن جليل مكانه  
فى جميع العالم الإسلامى . وفوق هذا كله فإن عامة طلابه إنما كانوا يقدون عليه  
احتسابا لله بالتفقه فى علوم الدين وأسبابها . وعامة شيوخه من الزهدة فى الدنيا  
القانعين بالتافة من وسائل العيش . هذا إلى أن ما كان يجرى عليهم من رقيق الأرزاق  
إنما تفيض به الحبوس والإرصادات التى وقفها عليه الخالون من السلاطين  
والأمراء ونحوهم .

وبعد فلا يذهب عنك أن للبيئة حكمها ، وأن جمود الفنون وتقلص العلوم عن  
البلاد عامة لابد أن يكون له أثر ما فى التعليم فى الجامع الأزهر . ولقد كان له ذلك  
بطول الزمن ، فزالت منه علوم الحياة ، على جهة التقريب ، إلّا ضربا من الحساب  
( المناسخت ) ، للحاجة إليها فى مسائل الموارث ، وأمشاجا من علم الهيئة لضبط  
المواقيت وتحرير مواعيد الصلاة ، وبعض قضايا الهندسة والفلك ونحو ذلك .

أما العلوم الأخرى ، دينة ولغوية وعقلية ، فقد ظلت تدرس فى الأزهر  
بكل جدّ وتسمير ، إلا أن جلّ العناية فيها كلها جعل يتجه إلى المناقشات اللفظية ،  
واستنباط فنون الاعتراضات ، وبث ألوان الإشكالات التى لا يزال الطالب يتعثر فيها ،  
ويعتصر ذهنه فى تفهمها وإلانتها بشدة الجهد والمطاول . حتى إذا تخلص إلى لبّ  
المادة — إذا تهيأ له أن يخلص — وصل منهوك النفس ، مستهلك قوى التفكير .



وإن علوم البلاغة نفسها لم تسلم من هذا الأسلوب ؛ بل لقد كانت من أشد العلوم إمعانا فيه . فكانت بهذا أبعد ما تكون عن تعليم البيان وتذوقه وطبع الملكات عليه .

ومهما يكن من شيء فإن لهذا الأسلوب من أساليب التعليم خطره الجليل بما يفسح في الملكات ، ويُرهِف الأذهان ، ويَطْبَع أفكار طلاب العلم على التفطن لكل دقيق وجميل مما يعرض لهم ، فلا يتقبلون قولاً إلا بعد إجابة الفكر وتقليب الذهن ، والارتصاد لكل ما عسى أن يقوم في سبيله من وجوه الاعتراض وألوان الإشكال ، إلى تعويد النفس الصبر على الجِدِّ في الإجابة على الدرس ، والحمل عليها بشدة المطاوعة في تفهم حقائق الأشياء .

وهذا يفسر لك سبب النجاح البارع الذي أحرزه طلاب البعثات الذين اصطفاهم محمد علي من بين طلبة الأزهر ، وتبريزهم على سواهم في علوم ليس لهم بها قديم عهد ولا وثيق اتصال .

وعلى كل حال فإن للأزهر وحده الفضل في صيانة العلم في هذه البلاد على طول ما حلَّ بها من المحن ، وما عصفت بها من ألوان الفتن . وهو لقد كان ينبوع الذي نهلت منه النهضة العتيدة ، واستمدت منه العلم الحديث .



## أشهر رجال الأزهر في هذا العصر

لم يخل الأزهر في أيّ عهد من عهوده من جمهرة من فطاحل العلماء الذين دَوَّى صيْثُهم في الآفاق بما علَّموا وحقَّقوا ، وما ألَّفوا وعلَّقوا ، وما بسطوا من كتب السالِّفين وما أدجوا ، وما استظهروا من قضايا العلم وما استخرجوا . لم يتعلَّق أكثرهم في هذا بدنيا . ولا عدل به عنه عرض . بل إن منهم لمن كانت تعتريه الدنيا فيولِّي منها فرارا ، وتطالعه النعم فيأبى إلا عيشا قفارا ، ونوما غارارا .

وليس يتَّسع مثلُ هذا المقام في مثل هذا الكتاب لعرض من زخَّ بهم الأزهر من أئمة العلماء في هذا العصر . ولكنا نجتزئ بالإلمام بأربعة نفر : اثنين ممن جمعوا إلى سعة العلم وجلالة الفضل ، المشاركة في الأسباب العامة ، وملابسة الأمراء ومن إليهم ، فعرض جاهُّهم ، وجلَّ مالُهم ، واستمكن سلطانُهم . واثنين ممن تروا أيديهم من أسباب الدنيا جملة ، وتجرَّدوا في تحرير مسائل العلم وتعليم حكام الدين .

### ( ١ ) الشيخ عبد الله الشرقاوى

المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ ( ١٨١٢ م )

هو العلامة الفقيه الأصولى النحوى المؤرخ الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشهير بالشرقاوى . ولد ببلدة الطويلة ، وتربَّى في القرين ، وكلتاها من أعمال مديرية الشرقية . وبعد أن حفظ القرآن الكريم هبط مصر واتصل بالجامع



الأزهر ، فأخذ عن طائفة من كبار أشيائه . فلما استوى له ما شاء الله من العلم ، قام بالتدريس في الأزهر . وسرعان ما طارت شهرته بحسن الإلقاء وعظيم التحقيق ، والبراعة في التأليف في كثير من علوم الدين واللغة وغيرهما .

وكان الشرقاوى رجلاً دأب التطلع لمجد الدنيا فما برح يعالجه ، ويطلب أسبابه ، جاهدًا في ذلك كُلَّ الجهد حتى انتهت إليه مشيخة الجامع الأزهر ، وحتى تهيأ له من الجاه والسلطان وبسطة الغنى ما تتقطع دونه علائق الآمال . ولما قدم الفرنسيون إلى مصر أنشأوا ديواناً للأحكام ، كما تقدم ، وولَّوا الشرقاوى رياسته <sup>(١)</sup> .

## ( ٢ ) الشيخ محمد الحنفى المهدى

المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ( ١٨١٥ م )

هو العلامة الفقيه النحوى الأصولى المنطقى الشيخ محمد الحنفى المهدى . والده من القبط . وقد أسلم وهو صغير على يد الشيخ الحنفى من أكبر جهات العلماء في عصره . وتولاه الشيخ الحنفى ورَّباه في منزله وضمه إلى أولاده ، حفظ القرآن وطلب العلم في الأزهر وأخذ عن أئمة شيوخه جاهدًا مُجدًّا حتى أدركت كفايته وبانت براعته ، فجلس للتدريس فيه . وما زال يعظم قدره ، وينبئه ذكره . على

---

(١) ومن وصف الشيخ الشرقاوى رجال الحملة الفرنسية قوله : ” حقيقة حال الفرنسية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طباعية يقال لهم نصارى قاثوليقية ، يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ، ويقولون إن الله واحد لكن بطريق التعليل ، ويحكون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونهم شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ، ولذا جعلوا في مصر وقرأها الكبار ودواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان في ذلك رحمة بأهل مصر فانهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع “ .



أنه كان إلى سعة علمه ، ودقة فهمه ، طلق اللسان ، حاضر البديهة ، لطيف المحاضرة ، كيساً واسع الحيلة ، يلقي كل امرئ بما يرضيه ، ويقع من كل إنسان عند ما يحب ، فيسر له ذلك مجالسة الأمراء ، وملابسة الأعيان من أهل السطوة والثراء . فأحبه وآثروه وأجروا مختلف الأرزاق عليه . وكان إلى جانب حبه للجاء والسلطان ، شديد الشغف بجمع المال ، فدخل في الالتزامات ، وساهم في التجارات ، واستنبط ألوان الحيل في استخراج الأموال ، حتى أصبح مثلاً سائراً في سعة الغنى واليسار .

وما زال يسعى ويجد ويدل فنون الحيل في طلب مشيخة الأزهر حتى أدركها بعد وفاة الشرفاوى ، ولكنه لم يكد يستقر فيها حتى ثار به العلماء وانتقضوا عليه ، فأزالوه عنها وأدبل منه بالشيخ الشنّوانى الذى سيأتى ذكره .

ولما قدم الفرنسيون مصر وأنشأوا ديوان الأحكام جعلوه فى جملة أعضائه ، واختصوه بعنايتهم وإيثارهم ، وتقبلوا شفاعاته فى الناس عندهم ، حتى لقد كان له من سعة الجاه ، ونفاذ الكلمة ما لم يكن لغيره من سائر أعضاء ذلك الديوان .

### ( ٣ ) الشيخ الأمير

المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ ( ١٨١٧ م )

هو العلامة الذى لا يتعلّق بغيره فى علمه وتحقيقه ، ولا فى دقة فهمه وشدة تدقيقه ، الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الشهير بالأمر . انحدر من أصل مغربى ، وقد هبط أهله مصر ، وسكنوا بلدة سنبل من أعمال مديرية أسيوط ، وفيها ولد المترجم ، رحمه الله . وقد قدم به والداه مصر وهو ابن تسع سنين ، وكان قد حفظ القرآن الكريم فلما جوده طلب العلم فى الأزهر وأخذ عن أئمة الأشياء فيه حتى جود المعقول والمنقول ، وحقق ما تهياً لعصره من الحساب ، والهندسة ،



والفلك . ثم تصدّر لإلقاء الدروس بأعين أشياخه ومجيزيه ، فذاع أمره ، واشتهر فضله ، وقصد إليه الطلاب من كل مكان . وبعثته بعض البواعث إلى القسطنطينية ، مثنوئ الخلافة يومئذ . فألقى دروسا حضرها أعيان العلماء هنالك ، فأقروا بفضله ، وشهدوا بسعة علمه ، واستجازوه فأجازهم .

وقد صنف في كثير من العلوم فكانت تصانيفه موضع الإجلال والثقة لما امتازت به من براعة التحرير ، وقوة التحقيق . حتى لقد كان بعض أشياخه إذا غم عليهم الأمر في إحدى مسائل العلم راجعوا بأعين طلابهم ما كتب فيها الأمير . وكلها حواش وشروح في الفقه المالكي وعلم العربية .

وكان رحمه الله رقيق القلب ، مرهف الحس ، حلو الحديث ، زاهدا في متاع الدنيا ، شديد الرغبة عنها . ولقد عاش ما عاش ، ماتهافت على صحبة الحكام ، ولا داور طغامة الظلام ، ولا جهد في إحراز الجاه ولا جمع الحطام . وكان يعالج نظم القريض أحيانا . ومن قوله في التشبيه :

يا حسن لون الشمس عند غروبها      في روض أنس نزهة للأنفس  
فكأنه وكأنها في ناظري      ذهب يحول على بساط سندس

#### ( ٤ ) الشيخ الشنواني

المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ ( ١٨١٧ م )

هو العلامة الثقة المحجة في المعقول والمنقول ، الورع الناسك شيخ الإسلام الشيخ محمد بن علي الشنواني الشافعي . طلب العلم في الأزهر ، وترواه عن أعيان شيوخه حتى بدّ لداته وبرع قرناه . ثم جلس للتدريس في جامع الفاكهاني ، الواقع



في منتصف شارع الغورية ، فأقبل عليه الطلاب من كل حدب ، وكان رحمه الله على جرالة فضله وجلالة محله ، شديد التواضع والانكسار ، وخفض الجناح لأهون الناس ، وإذا فرغ من نُسكِهِ ودَرَسِهِ شَمَّرَ ثوبه وراح يَكْنُسُ الجامع بيده وَيُسْرِجُ قناديله احتساباً لله تعالى .

ولما قُبِضَ الشَّيْخُ الشَّرْقَاوِيُّ أَرَادَوه على مشيخة الأزهر فأبأها وتعذر عليها ، وهرب إلى مصر العتيقة ، وكان قد وثب إليها المهدى ، فجاءوا بالشنواني وولَّوه المشيخة قهراً بعد أن أزالوا المهدى عنها كما تقدم .



## آثر الثقافة فى ذلك العصر

قد عرفت مصادر الثقافة العامة فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه ، وأنت خير بأن ذلك التعليم الأولى أى تعليم الكتّاب ، لم يكن له أى غناء فى تنوير الناشئ وإعداد ذهنه للتفطن فى جواهر الأشياء ، وصّدق الحكم على ما يعرض له من الحقائق فى أسباب الحياة . وأما قراءة الكتب وتقليب الأذهان فيها فقد كان ذلك مقصورا على طبقة ضئيلة جدا من الناس ، على حين كان سواد المصريين غارقا فى الجهالة العمياء ، وأما الأزهر وما يلحقه من المعاهد الدينية ، فلم يكن كذلك فيه كبير غناء فى تعليم جمهرة الشعب ، وخاصة من هذه الناحية التى سقنا إليها الكلام ، ذلك بأن عدد طلابه ضئيل جدا بالقياس إلى مجموع الأمة ، على أنه قلّ من كان يواصل التعلم فيه إلى النهاية ، بل إن أكثر من كانوا يطلبونه ليتخلّفون فى بعض الطريق ، وعلى أنّ من يواصل الطلب حتى يستوى له القدر الصالح من العلم ، يؤثر البقاء فى جوفه ليدرس كما درس ، وليعلم كما تعلم ، فلم يكن الاتصال وثيقا بين العلم الذى يلقى فى الأزهر وما إليه وبين سواد الناس .

كذلك لا يذهب عنك أنّ الأزهر فى ذلك العهد ، فوق أنه كان خلوًا من علوم الدنيا ، على جهة التقريب ، كانت العناية بالتعليم فيه مقصوراً أجلّها على تحقیقات لفظية لا يمكن أن تتعلق بها أذهان العامة ، ولا هى مما يُجدى عليهم فى كثير ولا قليل .

بقى أنّ هناك شيئا لا يُجْهَل خطره ، ولا يُنكر فى هذا الباب أثره ، وهو أنّ كثيرا من علماء الدين كانوا ، وما زالوا ، يماسون للعامة فى المساجد فى القاهرة وفى



كثير من المدن وبعض القرى لتعليمهم أوليات فرائض الدين ، وطرفا من تفسير الكتاب العزيز ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة ما اتصل منه بالحض على فضائل الأعمال . فإذا كانت المعاهد الدينية قد أجدت على سواد المصريين في باب الثقافة ، فأبلغ الجَدوى إنما كان من هذه الناحية .

### الثقافة الحديثة

لا شك في أن النهضة التي بعثها محمد على في هذه البلاد بإنشاء المدارس للتعليم العام ، ولتعليم الفنون المختلفة ، وباستقدام طوائف العلماء من بلاد الغرب ، وبإيفاد البعث من شباب المصريين إليها للتكفل بالعلوم العالية — لا شك في أن كل هذا وما استتبعه من الإقبال على قراءة الكتب وترجمتها وتأليفها ، ومعالجة الأسباب الفنية في الوجوه المختلفة — كل هذا لقد كان له أبلغ الأثر في بث الثقافة الحديثة في هذه البلاد ، ورفع المستوى الذهني فيها إلى درجة محمودة .

نعم ، إن هذه الثقافة لم تَشِعْ في سواد الأمة ؛ بل لقد كانت مقصورة على طبقة صغيرة خاصة ، هي طبقة المتعلمين على النظام الحديث ؛ على أنهم وإن قلّ عددهم بالإضافة إلى مجموع الأمة ، فلقد كان انتاجهم كثيرا جليلا ، بحيث كانوا في جملتهم قادرين بالتعليم والتهديب والتأليف والمحاضرة في المجالس الخاصة على رفع المستوى الذهني العام إلى حظٍ صالح .

وقد اصطبغت الثقافة الحديثة في صدر هذا العصر بالصبغة العلمية . وذلك لأن هذه النهضة إنما أثارها القائم بالأمر ، بادی الرأي ، تحقيقا لا غراض القومية المادية . فبدأ بالتعليم العسکرى ، وثنى بتعليم الطب وما إليه حاجة الجيش أولا .



ثم جعل يتدرج في تعليم الفنون المختلفة ليقم صدور الإصلاح والتعمير والتشجير في مختلف النواحي ، وليست بصنع البلاد ما تحتاج إليه في مرافقها ، مستغنية به ، بقدر الإمكان ، عما من شأنها استيراده من البلاد الأجنبية . فكان من الطبيعي أن يخرج الثقافة العامة في الصبغة العلمية . على أن الآداب إذا كانت قد تحركت هي الأخرى في هذا العهد ، فلقد كان تحرُّكها طوعاً للنهضة العلمية ، وتحقيقاً لمطالبها ، وموانئها بحاجاتها في الترجمة والتأليف .

فلما كان عصر المرحوم إسماعيل باشا ، وقطعت البلاد شوطاً بعيداً في تحصيل العلوم والفنون المادية ، جعلت تلتفت إلى الآداب على صورة أقوى وأدق وأوضح ، وما برحت تطرد في هذا وتستريد منه ببعث كتب الآداب القديمة ، والإقبال على دراستها ، والتأليف فيها ، وإرسال الأفلام في الصحف السيارة بمعالجة البحوث المختلفة فيها . وظلَّ يحلَّ شأنها حتى أقيمت للآداب كُليتان إحداها في الجامعة المصرية ، والأخرى في الجامعة الأزهرية ، حتى لقد أصبح العنصر الأدبي في الثقافة المصرية إن لم يزد على العنصر العلمي فيها ، فهو لا يقل عنه بحال .

ومهما يكن من شيء فإن نشر الثقافة العامة في مصر كما يرجع إلى الأسباب المتقدمة ، فإنه يرجع كذلك إلى سببين مهمين : وهما إنشاء المطابع ، وإصدار الصحف .

### المطابع والصحف

من أهم ما عيّنت به هذه النهضة الحديثة ، وكان له الأثر البالغ في إشاعة العلم ببعث الكتب القديمة ، ونشر المؤلفات الحديثة ، كما كان له الأثر البعيد في نشر الثقافة العامة بين سواد الأهالي ، هو إقامة المطابع وإصدار الصحف .



وأنت خير بأن الكتب إذا كان المعتمد في إخراجها على النسخ باليد قلت وتدرت، لما في ذلك من الجهد والمشقة، إلى ضن مالكيها بها خوفاً عليها من جهة، ومطوعة للأثرة والاعتزاز من جهة أخرى . أما وسائل النشر الأخرى فكانت معدومة إلا ما كان يعتمد عليه الحكام في تبليغ أوامرهم للأهلين على ألسن عمدة البلاد ومشايخها في القرى، وشيوخ الأقسام والحوارى في المدن، فلما قامت المطابع وجعلت تطبع الكتب بالمئات والآلاف يسرتها للناس بالشراء، وللعاجزين والضائين بالاستعارة من المكتبات ومن الأفراد . وبهذا شاع العلم وتيسر طلبه لطالبه . كما أن إصدار الصحف قد يسر للأهلين الوقوف على أوامر الحكومة، وما تفرضه من الأحكام العامة عليهم . ثم امتد عمل الصحف، على توالى الأيام، فتناولت إفشاء الأخبار الهامة، محلية فعلية، ثم ارتقت إلى قد الأعمال الحكومية، والإفضاء بآمال الأهلين ورغباتهم في المرافق المختلفة .

## المطابع

مهما قيل من أن الطباعة كانت معروفة منذ العصور القديمة عند الصينيين، وعند الكلدانيين بطريق النقش على الخشب أو الحجر، فإن الطباعة الحديثة القائمة على جمع الكلمات من الأحرف الرصاصية المنفردة لم تُعرف إلا في أواسط القرن الخامس عشر ليلاد . والمعروف أن مخترع هذه الطريقة هو حنا جوتنبرج الألماني سنة ١٤٤٠ ثم شاع استعمالها في سائر أوروبا . ثم دخلت إلى الآستانة في منتصف القرن السادس عشر .

ولقد كان لشيوع الطباعة أثرها البالغ في الحضارة القائمة، بما أشاعت من الكتب في العلوم والفنون، ويسرت من تبادل الأفكار بين أهل العلم والرأى



في أقطار الأرض ، واستثارت من الهمم للتأليف وإرسال البيان في جميع أسباب الحياة ، وبعثت على إخراج الصحف الدورية ، وغير ذلك من وسائل النشر وإشاعة العرفان في أرجاء العالم .

أما مصر فلم يكن لها أى عهد بالطباعة قبل مقدم الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ ( ١٧٩٨ م ) . حتى إذا جاء بونابرت على رأس تلك الحملة جاء معه بمطبعة مزودة بحروف لاتينية ويونانية وعربية ، لطبع حاجات الفاتحين ، ومنها إبلاغ أوامرهم للمصريين ، وولّى إدارتها أحد المستشرقين الفرنسيين ، وأرفده بطائفة من المصححين والعمال ، كما استقدم من روما اثنين من السوريين ليقوما بالترجمة إلى العربية .

وانتهضت هذه المطبعة بأداء تلك الأغراض ، كما تولّت طبع صحيفتين فرنسيتين كلن يُصدرهما الفاتحون ، وصحيفة عربية كانت تدعى ( التنبيه ) . وسيأتى ذكرها عند الكلام على الصحافة . وقامت فوق ذلك بطبع كُتيب في الهجاء العربى والتركى والفارسى ، وتمرينات في القراءة العربية الفُصحى مقتطفة من القرآن الكريم ، وكتاب ( وصف الرّمَد في مصر وطرق معالجته ) للطبيب سافارنى وغير ذلك .

فلما جلا الفرنسيون عن مصر بطلت الطّباعة فيها . حتى إذا كانت سنة ١٨٢١ م بدا لمحمد على الكبير أن ينشئ مطبعة يُواتى بها الحاجات الحكومية من جهة ، ويُواتى بها شطراً من رغباته في نشر العلم وإشاعة العرفان . فأنشأ ” المطبعة الأهلية ” أو ” مطبعة بولاق ” ، وكان يقال لها مطبعة الباشا ، وأقامها في موضع ” الترسانة الأميرية ” الآن على نحو نصف كيلو متر من موضعها الحالى من الجهة الشمالية .



وقد جدّت هذه المطبعة في طبع الأسباب الحكومية ، عسكرية ومملّكية .  
وقامت على طبع ( الوقائع المصرية ) وهى الجريدة الرسمية للحكومة إلى الآن .  
وسياقى الكلام عليها بعد . كما انتهضت بطبع ما لا يُحصى كثرة من الكتب التى  
ألّفت من ذلك الحين فى اللغات المتعددة ، وبعثت كثيرا جدّا من الكتب  
القديمة فى مختلف العلوم والفنون . وكان فى مطبعة بولاق قسم يدعى ( القسم الأدبى )  
يختص بطبع الكتب التى يراد طبعها فى العلوم والفنون والآداب . ثم فصل عنها  
والحق بدار الكتب المصرية .

ومن ذلك الحين اقتصرت مطبعة بولاق على طبع الحاجات الحكومية ، ومنها  
( الوقائع المصرية ) وكثير من الكتب الدراسية ، وقليل جدا من الكتب الأخرى .  
وعلى كل حال فإن مطبعة بولاق كما تُعدُّ أقدم المطابع المصرية فى هذه  
البلاد ، فإنها أنخر مطابعها وأغناها وأوسعها وأعظمها استعدادا وأكثرها إنتاجا ،  
كما أنها تُعدُّ من هذه النواحي ، فى مقدمة المطابع فى الشرق إن لم تكن أهمها جميعا .  
وقد أنشأ محمد على مطابع أخرى لطبع الأوامر والأحكام العسكرية ونحوها ،  
ولكن شيئا منها لم يبلغ بعض شأو هذه المطبعة .

أما الأهلون فظلوا بعد ذلك ، منقبضين عن إنشاء المطابع عشرات السنين  
إلى أن أنشأت الدار البطريكية القبطية ، فى غاية حكم المرحوم سعيد باشا ،  
مطبعة سميت ( المطبعة الأهلية ) . وما زال إنشاء المطابع يتوالى بعد ذلك على  
مرور الأيام . وما برحت تتبارى فى تجويد الطبع وتحسينه ، كما جعلت تقف  
فى طبع الصور ملوّنة وغير ملوّنة ، محاكية فى ذلك أنخر مطابع الغرب حتى بلغت  
من ذلك الآن موضعا تُحمد عليه ، وإن كانت ما تزال تستشرف من هذا إلى مزيد  
من الإحسان والإبداع .



أما البلاد السُورية فقد سبقت مصر إلى اتِّخاذ الطِّباعة . فقد أنشأ الرهبان اللبنانيون مطبعة في أوائل القرن السابع عشر ، وكان أكثر ما يُطبع فيها الكتبُ الدينية ؛ على أنها وإن كانت تقوم بطبع المصنِّفات العربية إلا أنها تُخرِّجها في حروف سريانية . وظلَّت الحال على هذا إلى أن صُنِعت الحروف العربية في حلب في أوائل القرن الثامن عشر ، ومهما يكن من شيء فقد ظلَّت المطابعُ في سورية مقصورة ، على جهة التقريب ، على طبع الكتب الدينية إلى صُحَّى القرن التاسع عشر .

وتوالى بعد ذلك إنشاء المطابع ، وقامت إلى جانب طبع الكتب الدينية بطبع الكتب العلمية والأدبية . وأهم المطابع في سورية وأخرها وأعظمها استعدادا مطبعة الآباء اليسوعيين ، أُسِّست في منتصف القرن التاسع عشر ، ولا زالت قائمة إلى الآن . وقد أخرجت ما لا يُحصى كثرةً من الكتب والرسائل في العلوم والفنون والآداب ، بين مصنِّفات حديثة ، وأخرى قديمة .

### الصحف

الصحف جمع صحيفة ، وهي القِرطاس المكتوب . وهي من الكتاب الورقة بوجهيها . وقد أُطْلِقَتْ في العُرف الحديث على صحيفة مطبوعة تنشرُ الأنباء والآراء وآثار الفكر في أسباب الحياة المختلفة . وتُدعى بإطلاق العُرف أيضا ( الجريدة ) . وقد خصصوا هذه اللفظة للصحف التي تخرج كلَّ يوم أو يومين أو أكثر ، في ورقات طويلة عريضة ، في العادة ، لمعالجة المسائل السياسية ، وإذاعة الأخبار الهامة ، وإرسال الأفكار والآراء في الأسباب الدائرة بين الناس . وهناك ضربٌ آخر من الصُّحف يخرج في كل أسبوع أو أكثر في شكل الكراسة ، متحررا للعلوم أو الآداب أو الفنون ، أو جامعا بينها جميعا . وهذا يُدعى في العرف الحديث أيضا ( المجلَّة ) . والمجلَّة في أصل اللغة : صحيفة فيها الحكمة .



وقد عُرِفَت الصحافةُ عند الصينيين من قبل الميلاد بنحو ألف عام . ولعلها كانت في أضيق الحدود ، واتَّخذها الرومان قبل الميلاد أيضا بنحو سبعة قرون . وعلى كلِّ حال فالصحافة بمعناها الحديث ، وبقوتها وذيوعها ، لم تظهر إلا في أواسط القرن السادس عشر بعد الميلاد ، أى بعد اختراع المطبعة ، فهى التى يَسَّرَتْ لها السبيل . ومن ذلك التاريخ جعلت تتعاقب الصحف فى بلاد أوروبا حتى عَمَّتْها ، وجعل شأنها يعلو ، وكلمتها تنفذ ، وسلطانها يتبسط ، ومزاياها تجزُل ؛ حتى أصبحت عنصرا من أهم عناصر الحضارة التى نعيش فيها وأبعدها أثرا ، وأمكنها سلطانا . وحسبها أن عَدَّها جمهورُ أهل الرأى فى العالم المتحضَّر رابعة السُّلطات ، يريدون سلطات التشريع ، والتنفيذ ، والقضاء . وذلك لما لها من جلالة المحلِّ بالتحدُّث على آمال الأهلين ونفض جملة رغباتهم ، ونقد أعمال الحكومات ولقتها إلى وجوه النفع العام ، والترجمة عن نزعات الأحزاب والهيئات المختلفة ، وبثِّ الدعوة إليها ، والتلويح بنبات الحكومات فى الأسباب الهامة سواء لمجموع الشعب أو للحكومات الأخرى فيما يتعلق بالمسائل الخارجية . وهذا كُلُّهُ فوق إذاعة الأخبار من جميع أقطار العالم وما يحدِّث فيه من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما ينجلي عنه السعى من اختراع جديد ، أو كشف طريف .

ولم تقف الصحف القيِّمة عند هذا الحد ، فلقد حررت فى مطاويها صفحات لنشر البحوث العلمية ، والأدبية ، والفنية . وعلى الجملة فإن الصحف على ما لها من الفضل العظيم فى ربط أجزاء العالم ببعضه ببعض ، حتى أصبح بها وكأنه يعيش كُلُّهُ فى رُقعة من الأرض واحدة ، وما لها من الفضل فى الوجوه التى أسلفناها عليك ، فإن لها كذلك أبلغ الأثر فى تهذيب الشعوب وأخذها بأنور الثقافات .



## الصحافة في مصر

لم يكن لمصر أىّ عهد بالصحف من أىّ نوع كان حتى مهبط الفرنسيين مصر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) إذ أصدروا فيها صحيفتين فرنسيتين . وأخرجوا نشرة بالعربية دُعيت (التنبية) لإذاعة المهّمّ مما يجرى فى ديوان القضايا كما تقدم لك ، فإذا صدق على هذه النشرة اسم ( الصحيفة ) فهى أول صحيفة عربية صدرت فى مصر على الإطلاق .

## الوقائع المصرية

أما أول صحيفة فى حدود المعنى المعروف فهى (الوقائع المصرية) . تقدم بإنشائها المرحوم محمد على باشا فى سنة ١٨٢٨ م . وكانت تصدر أولا بالتركية ، ثم بالتركية والعربية . ثم أصبحت عربية خالصة . وكانت فوق نشرها أوامر الحكومة وأحكامها العامة تورد الحوادث والأخبار الهامة ، وتعالج طرفا من الموضوعات الأدبية والاجتماعية وغيرها ، بقدر ما كان يسمح به التفكير ، ويأذن به نظام الحكم فى ذلك الزمان . وقد تولى تحريرها نفر من أفاضل الكتاب فى ذلك العصر من أمثال المرحومين الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين . ولم تصدر أية صحيفة أخرى بعد ذلك إلى أن كان عصر إسماعيل .

فلما كان ذلك العصر واتسعت رقعة الحضارة ، وجعلت مصر تدارج فى هذا الباب أمم الغرب ، أخذ الأهلون أنفسهم يُنشئون المجلات العلمية ، والصحف السياسية . ففى سنة ١٨٦٥ م أصدر المرحوم محمد على باشا البقلى ( اليعسوب ) وهى مجلة طبية شهرية . وعاونوه فى تحريرها المرحوم الشيخ محمد الدسوقي . ومما ينبغى أن يذكر أن ( اليعسوب ) كانت أول مجلة ظهرت فى العربية فى العالم . وفى سنة ١٨٦٦ م أصدر المرحوم أبو السعود أفندى جريدة سياسية أدبية علمية دعاها



( وادى النيل ) تَخْرُجُ مرتين في كل أسبوع . وظلت قائمة إلى وفاة صاحبها سنة ١٨٧٨ م . وفي سنة ١٨٦٩ م أصدر المرحومان إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة أسبوعية دَعَاها ( نزهة الأفكار ) وكانت شديدة اللهجة ، فلم يلبثها إسماعيل باشا حتى ألغاهها .

وفي سنة ١٨٧٠ م أصدرت مجلة للطلبة دُعيت ( روضة المدارس ) كانت تفيض بسايع الفصول فيها أقلام أئمة العلم والأدب من أمثال رفاة بك ، وعلى مبارك باشا ، وإسماعيل باشا الفلكي ، والشيخ حسين المرصفي ، وعبد الله باشا فكري . وكانت إلى جانب هذا تنشر آثارا مختلفة لبعض متقدمي الطلاب . والواقع الذي لا مِرْيَة فيه أنَّ هذه المجلة كانت مما نفخ في روح النهضة اللغوية والأدبية في هذه البلاد حتى شَبَّتْ وأضحى لها أعظم شأن .

وفي سنة ١٨٧٧ م صدرت جريدة (الوطن) . وهي أقدم الصحف القبطية . وفي سنة ١٨٩٥ م صدرت جريدة قبطية أخرى هي ( مصر ) ولا تزال قائمة إلى الآن . وبين هذين التاريخين صدرت صحف قبطية أخرى إلا أنها لم تعيش طويلا . ولقد كانت البلاد السورية تزح تحت نير الحكم التركي ، فلم يكن لحرية الأقلام ولا لغيرها من صور الحريات حظ كبير ، فترح كثير من أدباء تلك البلاد إلى مصر ، وأنشأوا فيها الصحف ، لانتساع مجال الأقلام ، ولما عرّفوا من هوى إسماعيل لمظاهر الحضارة الحديثة ، وتشجيعه للأدب وعطفه على رجال البيان . وأقدم تلك الصحف جريدة ( الكوكب الشرقى ) التي أصدرها سليم حموى باشا في الإسكندرية سنة ١٨٧٣ م . ثم صدرت في الإسكندرية أيضا ( الأهرام ) للأخوين سليم وبشارة تقلا في سنة ١٨٧٦ م . ثم نُقِيت إلى القاهرة ، وما برحت تصدر بها إلى الآن . ثم صدرت ( المحروسة ) لصاحبيها أديب إسحاق ، وسليم تقاش سنة ١٨٨٠ م .



وما زالت تتعاورها الأيدي بعدهما حتى أبطلت من بضع سنين . ثم ظهرت جريدة (المقطم) سنة ١٨٨٨ م . ولا تزال قائمة إلى الآن .

ولقد راع أهل الرأي وأعيان أصحاب الفضل أن ليس هناك صحيفة واحدة تتحدث عن الأمة وتترجم عن الأمنيات القومية . والاحتلال الإنجليزي قائم في البلاد ، وسultan المعتمد البريطاني يتبسط في جميع مرافقها يوما بعد يوم ، إذ الصحف القائمة ما بين مؤيد للنفوذ البريطاني . جاد في الدعوة إليه . وبين من كان ظاهر الهوى إلى فرنسا . أما الصحف المصرية الطائفية ، فكانت نزعها ، على الجملة ، احتلالية . راع المصريون هذا وسرعان ما صدرت في السنة التالية ١٨٨٩ جريدة المؤيد ويقوم على شأنها المرحومان الشيخ على يوسف والشيخ أحمد ماضي . ثم خلصت لأولهما بعون من أصحاب الفضل واليسار . وأقبل أئمة العلماء و كبار الكتّاب من الساسة والأدباء على المؤيد فأجالوا أفلامهم فيه بكل كريم من القول جليل . وكذلك أصبح المؤيد لسان مصر الناطق ، وترجمانها الصادق . كما أصبح ترجمان العالم الإسلامي كله ، بما شاد بفضائل الإسلام و زاد عنه . وما نال من حقوق المسلمين في كل مكان . وكان يكتب فيه عصارة رجال العلم والقلم من أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، وقاسم بك أمين وإبراهيم بك المويلحي ومصطفى كامل باشا ، في أول نشأته ، وأضرابهم .

وعلى كل حال ، فلقد كانت جريدة المؤيد هي المدرسة التي تخرج عليها أشهر كتّاب العصر الماضي . وسيأتي ذكر صاحبها في موضع آخر .

وفي سنة ١٩٠٠ أصدر المرحوم مصطفى كامل جريدة اللواء ، وكان شعلة ملتهبة من الوطنية الخالصة ، جياش القلم بحق الوطن في الخلاص من الاحتلال الأجنبي . وسرعان ما التف حوله شباب البلاد وكثير من شيوخها ، وأحبوه وظاهروه وناصروه . وبهذا استطاع أن يؤلف أول حزب في البلاد بعد الاحتلال الإنجليزي وهو (الحزب الوطني) . وأنشأ رحمه الله صحيفتين أخريين إحداهما فرنسية ،



والأخرى إنجليزية ، وأرصدهما للغرض الذى أصدرله اللواء . على أنهما لم يعيشا طويلا . وسيأتى ذكر المرحوم مصطفى كامل ناشا فى موضع آخر .

ثم توالى ظهور الصحف اليومية من ذلك التاريخ إلى الآن . وما برحت الصحف المصرية تتبارى فى التجويد والإحسان بسعة الحجم ، وإتقان الطبع ، وصحة العبارة ، والإسراع إلى نشر الأنباء الهامة ، فى مصر بطريق مخبريها ، وفى سائر أرجاء العالم عن طريق مراسليها فى أهم مدن الغرب والشرق . وقد تحررت بعض الصحف فى أكثرها لأبواب العلوم والفنون والآداب ، يتبارى فى القول فيها كل نابه حسان ، من عالم وأديب وفنان . وعنى أكثرها كذلك بتجلية ما يهم الجمهور من صور الأناسى والأمكنة وغيرهما . وعلى الجملة فقد جعلت الصحف فى بلادنا تحاكي مثيلاتها فى الغرب . وأصبح أكثرها ألسنة للأحزاب القائمة فى البلاد . وقد زاد عدد المطبوع منها زيادة هائلة بكثرة المتعلمين ، وإقبال الجمهور على تفهّم الشؤون العامة .

وبعد ، فقد أضحى الصحافة فى مصر قوية ، وأضحى نفوذها عظيما فى توجيه الجماهير فى المنازع السياسية . وتنبيهها على وجوه المنافع القومية فى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية . والارتصاد لتقد أعمال الحكومات . ولفتها إلى ما يحذر بها من القيام على المصالح العامة . هذا فضلا عن أثرها البعيد فى التعليم والتنقيف .

ولم يكن شأن المجلات العلمية والأدبية والفنية فى بابها بأقل من شأن الصحف السياسية . فقد جعلت هى الأخرى تتبارى فى الإجادة والإحسان حتى أدرك بعضها حظا جليلا من شأو مثيلاتها فى بلاد الغرب .



## النهضة السورية

لم يكن حظ البلاد السورية في صدر هذا العصر الذي نتحدث عنه خيراً من حظ مصر . وإذا كان التعليم هنالك تقوم به طائفة من المدارس منتشرة هنا وهناك ، وقوامها التعليم الديني في الغالب ، فإن مصر تمتاز بالأزهر الشريف . فلقد كان ، على كل حال ، وحدة تعليمية جامعة إذ كان ، وما زال ، يقصد إليه الطلاب من جميع مدن القطر وقراه ، كما ينتجعه الطلاب من جميع بلاد العالم الإسلامي . وإذا كان الجامع الأموي قائماً في دمشق تدرس فيه علوم الدين واللغة كما تدرس في الأزهر ، فإن شأنه ، في أية ناحية من النواحي ، لم يرتفع إلى شأن الأزهر .

على أن دخول الفرنسيين مصر كما كان له أثره في لغتهم إلى أسباب الحياة الحديثة ، فقد كان له كذلك أثر في تنبيه جيراننا السوريين إلى هذا العيش الحديث . ولكن معالجة العلوم الحديثة ، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية يختلف سببه المباشر في مصر عنه في سورية . فقد علمت أن رغبة محمد علي الكبير في إنشاء جيش منظم مدرّب أولاً ، وأخذه البلاد بمظاهر هذه الحضارة ثانياً ، هما اللذان دفعا مصر إلى هذه النهضة . أما في سورية حيث تكثر نسبة السكان المسيحيين ، على اختلاف نحلهم ، وحيث الحكم والسيطان إلى دولة على غير دينهم . فلقد تسرّب إليهم العلم الحديث ، بادئ الأمر ، عن طريق التبشير . ذلك بأن البعث الغربية من أوربية وأمريكية ، قد توالّت على ربوع سوريا وشيّدت المدارس ، وأقامت المكتبات ، وأدارت المطابع ، وقامت إلى جانب تعليم الدين المسيحي والدعوة إليه بتعليم العلوم الحديثة . فأقبل الطلاب عليها من كل مكان .



حتى إذا برع في أبواب العلوم والفنون من شباب السورين من برع ، جعلوا هم أنفسهم يشيدون المدارس العالية وغيرها ليُباروا بها مدارس تلك البعوث .

وفوق أن وحدة الدين قد يَسَرَّتْ للبعوث الغربية تبسُّطها في البلاد السورية وتهافَّت الطلاب عليها ، فإنها كذلك ذَلَّلَتْ للكثيرين من السورين الاختلاف إلى ديار الغرب لترقى العلم من مناهله .

ومهما يكن من شيء فإن هذه النهضة لم تقتصر جدواها على نشر العلم وحده . بل لقد حَرَّكَت الرغبة في إحياء اللغة أيضا . لأنه لا حياة للعلم بدون اللغة ، ولأن دخول العلوم الحديثة قد أثار العزائم لمراجعة قديم اللغة طلبا لاستخراج ما عسى أن يمكن استخراجه من مفرداتها وصيغها للوفاء بمطالب العلم الحديث ، على نحو ما صنعت طليعة المصلحين في مصر . ومما ينبغي أن يذكر أيضا أن هؤلاء المبعوثين الغربيين قد لفتوا أبناء العربية من أهل سورية إلى وجوب مراجعة لغتهم وبعثها علما منهم بما فيها من السعة ، وما تملك من نواصي الكلام في مختلف الأغراض .

وليس معنى هذا كله أن السورين لم يُعْنَوْا بدراسة العربية والتفقه فيها إلا بعد مهبط تلك البعوث إلى ديارهم ، فلقد تَوَقَّرَ على درسها وتقييد شواردها ، والاستشراف إلى مجالى بلاغتها من قَبْلِ ذلك كثيرون ، سواء أكان ذلك في أثناء طلب العلم في المدارس التي سَلِكُوا فيها ، أم في تحرُّرهم الشخصي لهذا المطلب ، إلا أن مسعاهم بادئ الرأي إلى التفقه في اللغة وإصابة بدائعها لم يكن يُطَلَّبُ به إلا ترسُّمُ خطِّ السابقين ومحاكاتهم في أشعارهم ومقاماتهم ، ومجاراتهم في أخيارهم ومنازع بلاغتهم . ولكنَّ الهمة لم تُشَحِّذْ في طلب اللغة مدارجة لحاجات الحياة إلا بعد وفود تلك البعوث إلى هذه البلاد . وخاصة عند ما دُعِيَ بعض هؤلاء اللغويين للتدريس في المعاهد الحديثة ، وأريدوا على وَضْعِ الكُتُبِ في اللغة وآدابها على مُقْتَضَى مناهج التعليم الحديثة .



وعلى كل حال فقد جعلت تلك النهضة في البلاد السورية تشبّ وتتنعّ ، فزادت المدارس الوطنية ، وأنشئت المجامع العلمية ، وكثرت المطابع ، وجَلَّ شأنُ الصُّحف ، وعلى الجملة فإن السوريين قد خطّوا خطاً واسعاً وأسّسوا أسباب الحضارة ، والتوسّل بوسائل العصر الحديث . وما برحوا يطلبون من ذلك المزيد .

ومما يذكر في هذا المقام أن الثقافة العامة كما اصطبغت في مصر لأول عصر النهضة الحديثة بالصبغة العلمية ، كما تقدّم ، فقد اصطبغت الثقافة السورية أول الأمر بالثقافة الأدبية . ذلك بأن نهضة سورية الحديثة إنما أثارها البعثات الغربية ، كما سلف عليك ، وإنما كانت مهمتها أولاً نشر المذاهب الدينية ، وكان من أهم مساعيها في هذا الباب ترجمة التوراة إلى العربية ترجمة دقيقة وافية . فلا بدع أن تصطبغ الثقافة هناك أول الأمر بالصبغة الأدبية ، حتى لقد ظلّت الصحف في سورية دهرًا مقصوراً كلّ همّها أو أجلّه على البحوث الدينية والمذهبية .

وإذا كانت هذه البعثات قد حملت معها إلى تلك البلاد صدراً صالحاً من العلوم والفنون المادية ، فإن ذلك لم يكن الغرض الأول من مساعيها على كل حال .



## إسماعيل وإتمامه أعمال جدّه

قُيِّضَ المرحومُ محمد عليّ باشا في سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) بعد أن حُكِمَ مصر أكثر من أربعين سنة كانت كلّها في فنون الإصلاح والتعمير والتشجير نهضات متداركة متلاحقة ، ووشاتٍ متبارية متسابقة . فن جيش قوى مدرب منظم ، إلى تعليم ناجح مثر في كلّ أسباب الحياة ، وإلى مصانع ومعامل تُخْرَجُ على أيدي العمال المصريين ما يكاد يسد حاجات البلاد ، إلى فنون الصناعات المختلفة ، إلى استصلاح الأراضي بشقّ الترّع ، وغير ذلك من وسائل إقبال الزرع وتوفير الغلات .

وقد استتبع ذلك كلّ انبعاثا في الأدب ، كان في مبدأ الأمر ضرورة دعت إليها حاجة العلم ، ثم ما لبث أن جعل يُطَلَّبُ لذاته كما تقدم .

ولما صارت الولاية إلى حفيده عباس الأول سرعان ما أغلقت المدارس العليا خلا المدرسة الحربية ، وانقطعت البحوث العلمية ، وعُفِّيتْ أكثرُ المصانع والمعامل ، وشلّت حركة الإصلاح ، وأبطلت أكثر مشروعات التعمير والتشجير . ولم يبق لولى الأمر ما يستهلك أجَلَ همّه سوى الجيش . على أنه ، في غالب الظن ، كان يُحرَصُ عليه للزينة والتكاثر أكثر مما يعدُّ للطالب الجسام .

وكان من أثر ذلك أن انقبضت كثرة العلماء والمُصلِحين في أكسار دورهم حتى يَقْضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولا .

ثم صار الأمر إلى سعيد بن محمد عليّ ، فكان شأنه ، في الجملة ، شأن سلفه عباس ، لولا أنه أقدم على أمرين كان لهما شديد الخطر ، وبعيدُ الأثر . أمر أولهما أكبر النفع والخير ، وجاء ثانيهما بأبلغ الشر والضرر . وهما مد سكة الحديد بين مصر والإسكندرية . والإذن بشق قناة السويس .



ومهما يكن من شيء فليس بدعا أن تصير الحال إلى ما ذكرنا في عهد هذين القائمين ، ما دامت الحكومة هي وحدها المضطلة بوجوه الإصلاح في جميع المرافق العامة إذ أمرها كله إلى من لا يخالف رأيه ، ولا يرجع في إشارته . إذ الأمة من وراء ذلك لا كلمة لها ، ولا كثير ولا قليل من سلطان . فإذا كان الحاكم ، على ذلك مُصلحا ، وإلا فالفقر والجهل والدمار ، والعياذ بالله !

وما كاد الحكم يُقضى إلى إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي في سنة ١٢٨٠ هـ ( ١٨٦٣ م ) حتى جرد للإصلاح همة لا يعرفها الكلال ، وشمر للنهوض بمصر عن عزمة لا تنوء برواسي الجبال .

ولقد مضى ، رحمه الله ، لطيبته في هذا السبيل متأثرا خطي جدّه العظيم . ويسر الأمر له أن وجد الذخيرة الصالحة من أولئك العلماء الأفاضل الذين خرجهم محمد علي الكبير . فدعا بهم وقربهم وأجرى واسع الأرزاق عليهم ، وولّاهم مختلف الأعمال توسلا إلى ما ينبغي من وجوه الإصلاح . فشق الترع ، وبني القناطر ، وأقام المصانع والمعامل ، وغير ذلك مما كان يرمى به إلى إيتاء مصر من أسباب الحضارة والعظمة ما يتسّق لتاريخها القديم .

### المدارس والبعوث العلمية

ولقد كان من أول همّ إسماعيل في ولاية الحكم إعادة فتح المدارس على اختلاف طبقاتها ، والزيادة عليها في فنون التعليم العالي . فأنشأ ، فضلا عن إعادة المدارس القديمة ، مدرسة الإدارة (صارت بعد مدرسة الحقوق) ومدرسة المعلمين ، ومدرسة الفنون والصناعات ( الصنائع ) .



## دار العلوم

ومن أولى المدارس العالية التي أنشأها وأحقها بالذكر لاتصالها الوثيق بموضوع هذا الكتاب ، مدرسة دار العلوم . فلقد عهد ، رحمه الله ، إلى المرحوم علي مبارك باشا بتأسيس مدرسة يتجرد طلابها في دراسة علوم العربية ، مع الأخذ بحفظ من العلوم الدينية والعقلية ، وصدر من العلوم الحديثة ليعلموا العربية في المدارس على أسلوب يدرج مع حاجة العصر ووسائله في التربية والتعليم . ولقد تم له ما أراد ، وفتحت مدرسة دار العلوم في ١٥ صفر سنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) . واختير لها التلاميذ من متقدمي طلبة الأزهر ، كما اصطفى لها الأساتيد من كبار شيوخه ومن غيرهم ممن عرفت لهم البراعة في العلوم الحديثة .

ولقد آتت هذه المدرسة خير الثمار بما يسر أفاضل خريجيها من وسائل تعليم العربية ، وإشاعة صحيحها ، وبعث قديم أديها ، وإطلاق الألسن والأقلام بناصح القول ورائع البيان .

ولم يقنع إسماعيل في نشر العلم بفتح المدارس وتشييدها ، بل لقد أحيا أيضا سنة جدّه في إرسال البعوث من متقدمي طلاب المدارس إلى بلاد الغرب المختلفة لترؤي العلم العالی من أصفّى مناهله . كما استقدم من بلاد الغرب كثيرا من فطاحل العلماء يستعين بهم على ما هو بسبيله من وجوه الإصلاح في مرافق الحياة .

وفوق هذا وهذا فلقد كان من أثر التعمير والتشجير في عهده ، وتوثيق أسباب الرفاهية في البلاد استندراج العديد الأكبر من الغربيين إلى استيطان مصر ، أو الاختلاف إليها للسياسة . كما بعث تقدم الحضارة كثيرا من مومسرى المصريين على السياحة في بلاد الغرب . ولقد كان من أثر ذلك كله استيثاق الصلات بين مصر وبلاد الغرب ، وما زالت هذه الصلات تطرد في توثيقها إلى اليوم .



## دار الكتب المصرية

ومن مفاخر إسماعيل الخالدة على وجه الزمان قيام "دار الكتب المصرية". فلقد كانت الكتب المحبوسة على النفع العام مبعثرة في المساجد ونحوها ، داخلية في عهدته خدمها . ولقد طالما تظاهر عليها من أولئك الشره والجهل جميعا ، حتى تسرب من نفائسها إلى بلاد الإفرنج وغيرهم ما لا يحصى عددا ولا يحصى قيمة لقاء ما يُرضخ هؤلاء من الدراهم ؛ بل كثيرا ما كانوا يحملون بأيديهم هذه الكتب فيبيعونها للبقالين ونحوهم بأبخس الأثمان ليُلف هؤلاء ببياعتهم في أوراقها .

ولما صارت الولاية إلى المرحوم إسماعيل باشا كان من أعظم همهم في وجوه الإصلاح إقامة مكتبة عامة جامعة . فتقدم في سنة ١٨٧٠ م إلى المرحوم على مبارك باشا بجمع هذه الكتب ونظمها في مكتبة واحدة . فصدع بالأمر ، وما زال يبحث في ذلك حتى تم له ما أراد . وأضاف إلى ما اجتمع له من هذه الكتب ما كان فضلا عند الحكومة مما طبعت مطبعة بولاق . وكذلك ما يقرب من ألفي كتاب اشترت من تركة المرحوم حسن باشا المنسترلى . وفي سنة ١٨٧٦ م توفي الأمير مصطفى فاضل باشا أخو الخديو إسماعيل ، وكان من أعظم هواة الكتب في الشرق ، فابتاع الخديو من مكتبته أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة مجلد أكثرها من نفائس الكتب . وأهداها إلى (الكتبخانة الخديوية) وكان ذلك اسمها القديم ، فارتفع بهذه المجموعة أمرها ، وعظم وفورها .

وما زالت هذه المكتبة تنمو وتزداد وفرا بما يضاف إليها بالشراء والهبات والاستنساخ والنقل بالتصوير الشمسي ، حتى أربت عدة مجلداتها الآن على مائتين وعشرين ألفا ، في جميع العلوم والفنون ، وأكثرها الكثير بالعربية ، وفيها كتب كثيرة في اللغات الشرقية والإفريقية .



وهي قائمة الآن في ميدان ( باب الخلق ) يطلبها من يشاء للطباعة والاستعارة والنسخ .

وقد تقدم لك أنه قد ألحق بدار الكتب ( القسم الأدبي ) من مطبعة بولاق وذلك أن وزارة المعارف قررت من نحو عشرين عاما مشروعا ( لإحياء الآداب العربية ) فرأت تحقيقا لذلك أن تُلحق القسم الأدبي بدار الكتب . وقد بعثت هذه المطبعة من ذلك العهد كثيرا من أمهات الكتب القديمة في العلوم والآداب ، كما طبعت كثيرا من الكتب الحديثة التي تقدم إليها أصحابها بطبعها .

ولقد كان لإنشاء هذه المكتبة من أبلغ العوامل ، في العصر الحديث ، على نشر العلم وبث العرفان ، بما يَسَرُّ للجمهور من مراجعة الكتب في العلوم والفنون والآداب ، وبما سَهَّلَتْ على الطابعين من استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها في العالمين .

### تقدم العلوم والآداب

من عهد إسماعيل ، رحمه الله ، جعلت العلوم والفنون والآداب تطرد في سبيل تقدمها ورقيا إلى اليوم . على أن قوة أطرافها في هذه المدة لم تكن على درجة سواء ، بل لقد كانت تُغْدُ السَّيْرَ حيناً وتتبدل في مشيها حيناً ، إلا أنه في السنين الأخيرة ، وخاصة في عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ”فؤاد الأول“ ، قد قويت حركة التعليم في العلوم والفنون والآداب ، وعظمت نهضتها إلى الحد الذي لم تبلغه في أي دور من أدوار العصر الحديث ، سواء في كثرة عدد المتعلمين ، أو في أنواع التعليم ، أو في التجرد لطلب العلوم العالية في مصر وفي بلاد الغرب .

أما التعليم الأولي فقد فرضه الدستور على كل مصري ومصرية متى بلغا الخامسة من العمر ، وجعله بالتجان . وقد أنشأت وزارة المعارف تحقيقا لهذه الغاية قدرا



كثيرا جدا من المدارس الأولية بثتها في جميع مدن القطر المصري وكثير من قراه ، حيث يتعلم الأطفال فيها القراءة والكتابة ويحفظون القرآن كله أو بعضه ، والحساب وصورا من المعلومات العامة (الجغرافيا والتاريخ والأشياء وتدبير الصحة ) ، والتربية الوطنية ، والرسم .

وأما التعليم الابتدائي والثانوي فقد زادت مدارسهما زيادة هائلة بما أنشأته وزارة المعارف وما ينشئه الأهليون أنفسهم .

وأما التعليم الفني في مصر فقد بلغت العناية به مدى بعيدا بقيام المدارس المتوسطة والعالية لكل من فني الزراعة والتجارة . ورُفِعَ شأن مدرسة الفنون والصناعات . وأنشئت المدارس الصناعية في أمهات المديريات . كما أنشئت المدارس لتعليم الفنون الجميلة من النحت والتصوير والزخرفة ونحو ذلك .

وأما التعليم العالي فقد وسَّع في مناهجه ورُفِعَتْ علومه . وزيد في مدارس بإنشاء معهد التربية .

### الجامعة المصرية

في سنة ١٩٠٦ م هزّت النعرة القومية طائفة من كبار المصريين ، فتنادوا فيما بينهم ، ثم أهابوا بأبناء مصر أن يعاونوهم على إنشاء جامعة أهلية تُؤاتي مطامع البلاد في التعليم العالي . وقد تم لهم ما أرادوا وتبارى المحسنون في الاكتساب لهذا الغرض . ومن أجل ما رُفِدَتْ به الجامعة ما وهبته سمو الأميرة البارة فاطمة هانم إسماعيل من نقد وحلي وحبوس ، وأجرت عليها نظارة ( وزارة ) الأوقاف بضعة آلاف جنيه كل عام ، وأسندت رئاسة الشرف فيها إلى حضرة صاحب السمو العالم الجليل الأمير أحمد فؤاد ( حضرة صاحب الجلالة الملك ) . وقد فُتِحَتْ هذه الجامعة فعلاً في سنة ١٩٠٨ م . ودعت بكبار العلماء من المصريين والأجانب للتدريس فيها . وبعد قليل أجرت عليها الحكومة كذلك إعانة سنوية .



وفي سنة ١٩٢٥ م تَوَلَّتْ وزارة المعارف هذه الجامعة مضطلة بما يزيد من مصرفها على مواردها . وأقامت لها الأبنية الفاخرة ، وزودتها بما يزود به أمثالها في بلاد الغرب ، وأتت إليها بكار الأساتذة المصريين والأجانب ، وأصبحت تقوم بكليات عدة منها : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، وقد ألحق بهذه أخيراً مدرسة لطب الأسنان . وهذه الجامعة لقد أغنت الكثيرين من الطلاب عن ارتياد بلاد الغرب لطلب العلم العالي في جامعاته . وحطَّت عن أهلهم ما يقتضيه ذلك من وجوه النفقات .

ومما يُذكر في هذا المقام أن قد فُرض للبنات من حقّ التعلّم في الجامعة المصرية ما فُرض للبنين ، وقد أحرز بعضهنّ فعلاً إجازاتها العالية .

### الجامعة الأزهرية

ومن بضع وثلاثين سنة فُكِّرَ بعض المصلحين في إضافة طائفة من العلوم الحديثة إلى العلوم التي كانت تدرس في الأزهر ، كالحساب والتاريخ وتقويم البلدان . وعاونهم أولو الأمر على ما أرادوا ، كما أُجريت إدارة الأزهر على نظام جديد . وما برحت الحكومة تتعاهد الأزهر من ذلك التاريخ بفنون الإصلاح ، متهدية في ذلك برأى كبار علمائه وبآراء أصحاب الخبرة والدراية من غيرهم . حتى استقرّ التعليم فيه الآن على ثلاث درجات : ابتدائي ، وثانوي ، وعالي . وأنشئت فوق ذلك كليات ثلاث : إحداها لأصول الدين ، والثانية للشرعية ، والثالثة للغة العربية . أما سائر المعاهد الدينية فقد اقتصر التعليم فيها على المرحلتين الابتدائية والثانوية .

### البعوث العلمية

ومع هذا كله فما برح سيل البعثات العلمية يتدفّق إلى بلاد الغرب تدفقاً . فوزارة المعارف تبعث في كل عام عددا كبيرا من محرزي الشهادات العالية ليتحرروا



فى العلوم والفنون المختلفة التى لا يستطيعون تناولها أو التبريز فيها فى بلادهم. كما يرسل  
الأهلون أبناءهم لهذا فى رعاية وزارة المعارف وتحت إشرافها .

وعلى كل حال ، فإن مصر الآن جاذبة كل الجسد ، جاهدة كل الجهد ،  
فى تحصيل العلوم والفنون العالية ، ملاحظة بهذا مجدها القديم ، ومواتية مطمحها  
الحديث .

### المجمع الملكى للغة العربية

ومما يؤذكر بالخير لهذه النهضة الجليلة صدور المرسوم الملكى فى سنة ١٩٣٢م  
 بإنشاء (المجمع الملكى للغة العربية) . وقد نصّ فى المرسوم على الأغراض المطلوب  
إليه تحقيقها وهى :

( ١ ) أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم  
والفنون فى تقدّمها . ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر  
الحاضر ، وذلك بأن يحدّد فى معاجم أو تفاسير خاصة أو بغير ذلك  
من الطرق ما ينبغى استعماله أو تجنبه من التراكيب .

(ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثا دقيقة  
فى تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

(ج) أن ينظم دراسة علمية للجهات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد  
العربية .

(د) أن يبحث كل ما له شأن فى تقدم اللغة العربية مما يعهد إليه فيه بقرار  
من وزير المعارف .



## الأدب وخصائصه في هذا العصر

لقد انحدر الأدب في هذا العصر ، بالضرورة ، من أدب العصر الذي تقدمه . وقد مرّت بك صفته . ولم يدخل عليه في هذه الفترة ما يرفع من شأنه ، أو يعدل به عن وجهه ، أو يفسّح في أغراضه . وعلى الجملة لم يدخل عليه جديد من أى قطر من أقطاره . بل لقد ظلّ الأدباء يتأثرون من قبلهم في فنون الآداب ، منظومها ومنثورها ، ويقصّونهم في جملة أغراضهم ، ويتسمون خطاهم في منازع بلاغاتهم . ما اجتمعوا للتوسّع في أغراض الكلام ، ولا تحرّكوا للابتكار في فنون البيان .

وأنت بعدُ خير بأنّ المقلّد ، في العادة ، دون المقلّد رتبةً وأقلّ محلاً . وكذلك تدلّ حظّ الأدب ، في الجملة ، في هذا العصر عن حظّه في العصر الذي تقدّمه أطراداً مع سنة الضعف بطول لزوم القديم ، وعدم الانبعاث لطلب الجديد الطريف .

## الشعر

لقد ظلّت أغراض الشعر يدور أكثرها في أبواب الغزل والمديح والهجاء ، والوصف والرائاء ، ونحو ذلك . على أنه لا يكاد يظهر في ذلك الغزل طبع ، لأن الصنعة تصيح في جميع نواحيه . ناهيك بشدّة الغلوّ في جميع أبواب الشعر إلى الحدّ الذي لا يطمئن إليه الطبع ، ولا يستريح إليه الذوق . وكان أجلّ العناية في قرض الشعر مصروفاً إلى التماس المحسنات من جناس وتورية واستخدام ، ونحو ذلك من نكات البديع تُصطاد ، في الغالب ، اصطيفاداً ، وتُسكّره للقريض استكراهاً .



ومهما يكن من شيء فقد بقي الشعر في هذا العصر جارياً على السهولة والركة التي قد تبلغ أحياناً حدَّ الانخزال والترايل . والسهولة والركة مما يمتاز به الشعر المصري على العموم ، ولأنَّ طَلَبَ النكتة لا يستقيم مع الإغراب ، فضلاً عن أنَّ البيئة ضئيلة المحصول من فقه اللغة . هذا فضلاً عن أنَّ الشعر في ذلك الحين إنما كانت تُطَلَّب به الأغراضُ الرقيقة من الغزل ونحوه ، ولم يكن له في العادة من المطالب ما يستدعي خولة اللفظ وسَطوة الكلام .

ومن أشهر الشعراء في هذا العصر :

### (١) السيد إسماعيل الخشاب

المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م)

هو السيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب . كان أبوه نجاراً ثم جعل يتجر في الخشب ، ودفع ولده صغيراً إلى الكُتَّاب ، فأقبل على حفظ القرآن الكريم حتى أتمه . ثم طلب العلم في الأزهر حتى أصبحت له مشاركة في كثير من علومه . وتجرّد في قراءة كتب الأدب والتاريخ والتصوف ، واستظهر كثيراً من الشعر ومحاضرات الأدباء ومراسلاتهم حتى برع في هذا جميع لداته . وكان خفيف الروح ، طَلَقَ اللسان ، حَسَنَ المحاضرة ، حَلَوَ المفاكهة ، حاضر البديهة . فكانت هذه الخلال مدعاة لأنَّ يتجاذبه أعيانُ عصره ، ويتنافسوا في صحبته طلباً لحسن حديثه ولطف منادرتة . وقد بعثته رقة الحال إلى التكسب بالشهادة في المحكمة الكبرى بالقاهرة .

ولما أقام الفرنسيون ديواناً للقضايا ليرفع إليه ما يقع من الأقضية بين المسلمين اتخذوه لتدوين ما يجري فيه من الحوادث وتلخيصها ونظمها ، ونشرها في صحيفة ( التنبيه ) التي سلفت الإشارة إليها ، وأجروا عليه وظيفة شهرية حسنة . على أنَّ ذلك لم يصرفه عن مهنة التكسب بالشهادة في المحكمة .



والخشب بالإضافة إلى عصره ، يَعدُّ من أخل الأدباء ، وأبلغ الشعراء ، وأبرع الكتّاب . وشعره ، في الجملة ، يمتاز بالسهولة والرصانة وقلة التكلف ، وخاصة ما يتعلّق منه بألوان البديع .

وقد امتدّ به الزمن حتى أدركَ عهدَ محمد على الكبير ، ولكنه لم يَلِ له عملا . وإذا كان محمد على لم يستصنعه فذلك لأنّ السنة التي مات فيها ( ١٢٣٠ هـ ) لم تكن الحاجة قد دعتْ بعدُ إلى استخدام أصحاب البيان .

ولما توفّي جمع صديقه الشيخ حسن العطار أشعاره في ديوان خاص طبع بعدُ في الآستانة .

## ( ٢ ) الشيخ حسن العطار

المتوفّي سنة ١٢٥٠ هـ ( ١٨٣٤ م )

هو العالم الكاتب الشاعر الشيخ حسن العطار . انحدر من أسرة مغربية ، لكنه وُلد في القاهرة . وكان أبوه عطارا . فلما رأى هواه إلى العلم أدخله الأزهر فأخذ عن أئمّة شيوخه حتى برع . وتعلّم مبادئ الهيئة وغيرها ، وأكبّ على كتب الأدب فأصاب منها حظا عظيما . وأجاد الشعر والنثر كليهما ، ولما دخل الفرنسيون مصر اتّصل برجالٍ منهم فأصاب منهم طرفا من العلوم العصرية وعلمهم العربية . ثم ساح في كثير من الاقاليم الإسلامية ، وعاد إلى مصر فتولّى تحرير ( الوقائع المصرية ) ثم انتهت إليه مشيخة الجامع الأزهر .

ولم يُجمع شعره في ديوان خاص . ولكنّ نثره جمع في كتاب دُعِيَ ( إنشاء العطار ) . وله منظومة في النحو ، وبعض حواش في النحو والبلاغة .



### ( ٣ ) الدرويش

المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ ( ١٨٥٣ م )

هو السيد على افندى الدرويش بن حسن بن إبراهيم ، نشأ بالقاهرة ؛ وأولع بالآداب ، فأقبل على ما تهيا له من كتبها مطالعة وحفظا واستظهارا ، وقرض الشعر ، وأجال اليراع في فنون النثر ، ونظم كثيرا من الأصوات ( أدوار الغناء ) ، وقد بلغ بأدبه المنزلة في أمراء عصره ووجوهه ، وعرف بشاعر عباس الأول ، ولم يكن يتكسب بالشعر مكتفيا بماله وعقاره .

وكان رحمه الله ، سواء في شعره أو في نثره ، شديد الولع باصطياد المحسنات البديعية ، يحشُرُها في الكلام حشرا ، ويقسرها على النظم قسرا ، وكان من أمهر نُظَّام التواريخ الشعرية الحسابية <sup>(١)</sup> ، وله ديوان طُبع في مصر جمع بين شعره وأغانيه ونثره .

---

(١) تجد نموذجا من شعره في الجزء الثاني من المنتخب .



## الشعر من عصر إسماعيل

لقد كانت النهضة من أول عصر إسماعيل مشوبة في مرافق الحياة من جميع أقطارها : نهضة في العلم والفن ، ونهضة في الأدب ، ونهضات في سائر وسائل الحضارة الحديثة . على أن الشعر ظل في أكثر هذا العصر حيث هو : عناية باللفظ ، واحتفالاً للبدیع ، وضيق في الأغراض ، وتناقل عن التحليق إلى جُلّ المعاني ، فإذا كان قد أفاد بادی الأمر شيئاً ففى شيء من سعة اللغة بما انبعث في ذلك العهد من المعجمات والكتب في الأدب القديم ، وفي شيء من سعة الأغراض في الوصف والمنادرات ونحوها ، وتناوله جديداً من القصص . على أن هذا وهذا لم يكذبُ حزنه عن أفقه أو يلوّنه بغير لونه .

وإليك طائفة من متقدمى الشعراء في هذا العصر :

### ( ١ ) صفوت الساعاتى

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨٠ م )

هو محمود صفوت افندى المعروف بالساعاتى بن مصطفى أغا . وُلد بالقاهرة وتعلّم فيها ، ثم خرج إلى الحجّ فاتّصل بشريف مكة ، فأثره الشريف واستبقاه مدة ، وشاهد هو معه بعض ملاحم وصفها في شعره . ثم عاد فاستُخدم في معية الخديو ثم في مجلس أحكام البحيرة والقلوبية . واشتهر بالساعاتى لحذقه في فنّ الساعات ، وإن كان لم يحترفه . وكان رحمه الله ، بالقياس إلى عصره ، أدبياً شاعراً ناثراً ، حلّوا الحديث ، حسن المحاضرة ، وله ديوان مطبوع <sup>(١)</sup> .

(١) نجد نماذج من شعره في جزأى المنتخب .



## ( ٢ ) السيد على أبو النصر

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ ( ١٨٨٠ م )

هو الشريف السيد على أبو النصر . أصله من منفلوط من أعمال مديرية أسيوط . وقد انحدر إلى القاهرة يافعا ، وطأب العلم في الأزهر . وكان له ولع بالأدب واستعداد كبير له ، فقرض الشعر غلاما ونظم الأجمال . ولم يتراخ به الزمن حتى طارت فيهما شهرته . واتصل ببيت الإمارة من عهد محمد على باشا ودام اتصاله إلى عهد توفيق باشا . وأزجى لأمرائه سوانح المدايح فأجزلوا له الصلوات ، وخاصة أيام المرحوم إسماعيل باشا .

وقد أوفده محمد على الكبير إلى الآستانة لبعض الشأن في خلافة السلطان عبد المجيد ، ثم استصحبه إليها إسماعيل باشا في خلافة السلطان عبد العزيز . وله ديوان مطبوع . وشعره في الجملة ، لا يوتقى إلى حظ كبير من الجودة ، ولا يتبدل إلى غاية الإسفاف . وكان ، رحمه الله ، وُلّوعا بالتاريخ الشعري<sup>(١)</sup> .

## ( ٣ ) الشيخ على الليثي

المتوفى سنة ١٣١٣ هـ ( ١٨٩٦ م )

هو العالم الأديب الكاتب الشاعر الشيخ على بن حسن بن علي . وُلد في بولاق مصر . ومات أبوه وهو صغير فتحوّلت به أمّه إلى جهة الإمام الليث . وطلب العلم في الأزهر بضع سنين ، ثم شتخ إلى طرابلس الغرب ، وهناك أخذ على الشيخ السنوسي والشيخ القوصي الكبير . ولما عاد اتصل بالبيت الخديوي . واشتهر في

---

(١) تجد نماذج من شعره في جزأى المنتخب .



أيام إسماعيل وتوفيق ، فكان شاعرهما ونديهما . ورافق الخديو إسماعيل في بعض أسفاره .

وكان ، رحمه الله ، جميل المحاضرة ، بديع المفاكهة والمنادرة ، وله في هذا الباب من روائع الآثار ، ما لا يزال يتردد في مجالس الأسمار . وقد قرّبه المرحوم إسماعيل باشا وأكرم مثواه ، وأسّنى له الجوائز وأجزل له العطايا ، وأضفى عليه لقب (شاعر الخديو) . ولما خلقه المرحوم توفيق باشا أبقى عليه وأسّغ عليه عطفه ، فأخلص له الشيخ أيمّا إخلاص ، وخاصة في إبان الثورة العرابية .

وله ديوان شعر لم يُطبع ، وعند صهره حضرة الأستاذ محمد سعودى افندى الخبير نسخة كاملة منه ، وقيل إن السبب في عدم طبعه يرجع إلى علم أهله وخاصة بأنه لَعَن من يُقدّم على ذلك . ولعله فعل تحرّجاً من نشر ما عسى أن يكون تورّط فيه كشأن أكثر الشعراء من دُعابة أو غلوّ في مديح أو ذمّ أو نحو ذلك . فلقد كان في الرجل دين وفيه تقيّة . وشعره في المنزلة الوسطى من منازل الشعر<sup>(١)</sup> .

### نهضة الشعر

تقدم لك أنّ دخول العلوم والفنون الحديثة في هذه البلاد ، والحاجة إلى ترجمتها إلى العربية ، دلّت المصطلعين بهذا الشأن على أنّ العربية الدائرة في ذلك الوقت لا يمكن أن نفى بمطالب الحضارة القائمة ، فجدّوا في التنقيب على كتب الأقدمين ليستخرجوا منها ما يتهيأ لهم استخراجهم من الألفاظ الفنيّة ، والمصطلحات العلمية . فإذا استصعب عليهم شيء من ذلك مضّوا هم في إطلاق الألفاظ ووضع المصطلحات .

(١) تجد نموذجا من شعره في الجزء الأول من المنتخب وآخر من شعره ونثره في الجزء الثاني منه .



على أن التفاتهم إلى كتب الأقدمين لحاجتهم إليها في الأغراض العلمية والفنية قد دعا إلى انتباههم إلى آثار السابقين عامة ، وخاصة ما خرج منها في أبواب اللغة والأدب . فتعاظمهم شأنها . وراعتهم منازع بلاغاتها . وهفت أنفسهم لمراجعتها وإشاعتها ، فطبعوا طائفة من كتب أئمة اللغة وأعيان البيان في العصور المتقدمة . وكان في أوائل ما عُنوا بطبعه كتاب ( كلیلة ودمنة ) لابن المقفع .

وجعلت هذه الحركة تطرد ، والإقبال على مراجعة الأدب القديم يزداد ، فُبِعث الكثير من شعر الجاهليين ودواوين فحول الشعراء في أزهى عصور العربية . على أن ذلك لم يكف في تحويل ملكات الشعراء القائلين ، وطبعهم على قوة النظام . حتى كان البارودي ، فطفر بالشعر طفرة عظيمة ردت عليه ديباجته التي نصلت من مئات السنين .

ولقد قرض البارودي الشعر فتى فَبَدَّ وبرع ، وأطاق الشعر جزلا فخما يحكى أنفر ما قال المتقدمون .

ولقد كان لهذا من البارودي أثره البالغ في نهضة الشعر العربي واتصالها إلى هذه الغاية بفعل الناشئون من الشعراء يترسمونه ، ويتكلفون محاكاة . وراحوا ، توسلا إلى هذا ، يستظهرون أشعار الفحول من الجاهليين والإسلاميين في أزكى عصور البلاغة ، فأدركت الملكات ، واشتدت الطباع . وجرى الشعر جزلا فخا ، شريف اللفظ ، مشرق الديباجة ، متلاحم النسيج ، رصين القافية ، وجعل الشعراء يتخففون من الإمعان في طلب المحسنات البديعية ، والجهد في اصطياها ، فضلا عن سوق البيت لمجرد شكها وإصابتها ، على ما كان يصنع السابقون عليهم . بل لقد جرت البلاغة ، على قدر ما وآتى الجهد ، عباسية ، إذا سححت لها النكتة البديعية أصابتها في غير مطاولة ولا استكراه .

ولكن شعر البارودي ، على جلالة محله ، لم يكد يتجاوز أغراض المتقدمين أو يعدو مطالبهم من الغزل ، والمديح ، والرثاء ، والفخر ،



والوصف ، إلى حدٍّ محدود ، وفي التشبيب بالديار ، والوقوف بالدمن . والآثار .

فإذا كان الشعر قد تَطَوَّر بعد ذلك ، فلقد كان ، وما برح ، تَطَوُّرُهُ بطيئاً ، على خلاف النثر ، فإنه أسبق تطورا ، وأسرع في سبيل الكمال عدوا .

والوجه في هذا أنَّ الشعر ، كما تعلم ، من الكماليات التي لا تدعو إليها ضرورة في الأسباب الدائرة بين الناس ، والمتأدبون إذ يتكلفونه إنما يطلبون به تصوير ما يعتلج في النفس من ألوان العواطف ، وما يترقق لأذهانهم من فنون الأخيلة في غزل أو تشبيب ، أو حُرقة جوى أو فرقة حبيب ، أو في تغير الأيام أو لحوق مشيب . وقد تستعار العواطف له استعارة في مدح أو هتاء ، أو ذم أو رثاء ، أو غير ذلك . نعم إن الشعر قد يسلك في بعض الأحيان غير هذا مما تدعو إليه حاجات الحياة ، بل إلى ما تدعو إليه عظام الأمور ، كتحميس الناس واستنفارهم لحرب ، وكتثيبت دعوة دولة قائمة ، وإظهار حجتها في الملك والسلطان ، أو حربها والدعوة إلى الانتفاض عليها ، أو حفز الجمهرة للاشتراك في نفع عام أو غير عام . إلا أنَّ هذا القدر اليسير لا يخرج الشعر عن أفقه ، ولا يعدل به عن وجهه . فهو ما يزال ، في الجملة ، زُحفا لا تدعو إليه ضرورة الحياة . وعلى هذا كان مثله الأعلى فيما جادت به قرائح السابقين من أئمة البيان .

ولا يذهب عنك أن الثقافة العلمية قد سبقت في مصر الثقافة الأدبية ، لما جَلَّونا عليك من الأسباب ، وكانت نهضة النثر طوعا لهذا أسبق وأسرع من نهضة الشعر . حتى إذا شاعت الثقافة الغربية في هذه البلاد ، وطالع كثير من الشعراء أدب القوم ، راحوا يتوسَّعون في أغراض الشعر ، ويلوِّنون في مطالبه . وما برحوا يتدرَّجون في هذا السبيل ، ويخوضون بالقريض في فنون من المعاني لم يخضها من تقدِّمهم . وهم إلى الآن جادّون في طلب المزيد .

وإليك طائفة من أشهر الشعراء من ذلك العهد :



## ( ١ ) البارودى

المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ ( ١٩٠٤ م )

هو الوزير القائد الشاعر محمود سامى باشا البارودى بن حسن بك حسنى مدير دقنة وبربر فى عهد المرحوم محمد على باشا . وهو ينحدر من أصل شركسى . ولكنه وُلد بمصر ونشأ فيها . ولم يكد يبلغ السابعة من سنه حتى رزأه الموت فى أبيه ، فتولاه بعضُ أهله . ونظّموه فى المدرسة الحربية ، فتعلّم فنونها ، ثم خرج منها ضابطاً . فجعل يترقّى فى رُتَب الجيش بكفائته ونزاهته وعفته وشجاعة نفسه . وخاض المعامع فى حرب الروس ، وثورة أكريطش ( كريد ) . ثم تحول إلى الإدارة فنُصِبَ مديراً للشرقية . ثم رئيساً للضبطية . ثم صارت إليه نظارة الأوقاف ، فنظارة الجهادية . ثم صارت إليه رئاسة مجلس النظار قبيل الثورة العرابية . فلما كان الاحتلال الإنجليزى وقُبِضَ على زعماء الفتنة كان البارودى منهم ، فحوكم ونُفِى إلى جزيرة سرنديب ( سيلان ) ولبث فى منفاه إلى أن عُفِيَ عنه وأُبيح له التمتع بالحقوق المدنية فعاد إلى الوطن . ولكن الموت لم يلبثه طويلاً فقد قَضَى إلى رحمة الله سنة ١٣٢٢ هـ .

ولقد كان للبارودى من عهد الحداثة ولَع بالشعر فنظمه فى التركية ، كما نظمه فى الفارسية ، وكان ضليعاً فى آدابهما . ونظم فى العربية وهو دون العشرين فأوفى على الغاية من الإبداع والإحسان . ولقد ظلّ يقرض الشعر إلى ما قبل وفاته بقليل . وشعر البارودى يمتاز بسطوة القول ، وجزالة اللفظ ، وخفولة النظم ، ورسانة القافية وإشراق الديباجة . حتى يمكن أن يقال ، فى غير تتعّع ، إنه لم يحى من بعد العصر العباسى الثانى مَنْ يَبْرَعُ البارودى فى هذا الباب ، أو مَنْ يُدانيه . ولقد عارضَ فحول الشعراء من المتقدمين وجال مجاهم ، فلم ينقطع دونهم ولا تحلّف عنهم .



والعجب أن هذا الرجل ، على كثرة شعره ، لا يكاد يلحقه الإسفاف في بيت واحد من قصيده . ولقد تصرف في أكثر فنون الشعر فراع وأصاب .

ولقد كان البارودي ، رحمه الله ، رجلاً شريف النفس ، نبيل الخلق ، على الهمة ، شجاع القلب . فإذا هو قال الشعر عصمته هذه الخلال عما يتورط فيه أكثر الشعراء : فهو لا يمدح إلا من يؤثر . ولا يرثي إلا من يُعزّ ، ولا يفخر إلا لأنه كفء للبخار ، وإذا وصف الحرب فقد خاض غمارها ، وصلى نارها . وإذا تغزل فعن هوى وصدق صباية . وإذا كان الغزل لم يكثر في شعره فلعل مرد ذلك إلى أن الصباية لم تتاد به طويلاً .

ومهما يكن من شيء فلسامى باشا البارودي الفضل الأول في رد الشعر في هذا العصر الحديث إلى فتوته وقوته ونضارته في الأعصر المتقدمة . ولا تنس في هذا الباب فضل زميله عبد الله باشا فكرى ، فلقد أوتى كذلك من قوة النظم وتلاحم النسج ما تجاوز أفق عصره .

ولسامى باشا ، رحمه الله ، ديوان مطبوع . وله مختارات من شعر أعيان الشعراء السابقين تقع في أربعة أجزاء ضخام ، وهى مطبوعة كذلك <sup>(١)</sup> .

## ( ٢ ) حنفى بك ناصف

المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ ( ١٩١٩ م )

هو العالم اللغوى الأديب الشاعر الناصر محمد حنفى بن الشيخ إسماعيل ناصف ولد بقرية بركة الحج من أعمال مديرية القليوبية . وقد نشأ يتيماً فقيراً فتولاه حاله وجدته لأبيه . ودخل كُتّاب القرية فتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ صدراً من القرآن الكريم . ثم طلب العلم فى الأزهر وجدّ فى الطلب حتى أشرف على غايته ،

(١) تجد نماذج من شعره فى جزأى المنتخب .



فعدل إلى مدرسة دار العلوم . وكان في ذلك الوقت لا يدخلها إلا من قارب نهاية  
الطَّلب في الأزهر . فلما جاز مَدَى التعلُّم فيها نُصِبَ مدرِّساً في مدارس الحكومة  
وكان من أولئك الصدور الأوَّلى الذين خرجتهم دار العلوم في أوَّل نشأتها إن لم يكن  
أبرعهم جميعاً . وقد شارَكَ في تأليف مجموعة الكتب التي يَسَّرت تعليم العربية  
لتلاميذ المدارس . ثم صار مدرِّساً في مدرسة الحقوق فرأى الفرصة مهيَّأة لدراسة  
علوم القانون . ثم وَلِيَ مَنَصِب القضاء الأهلَى ، فلبث فيه سنين حتى قُلِّد وكالة محكمة  
طنطا . وفي أثناء ذلك اختير لتدريس الآداب العربية في الجامعة المصرية القديمة .  
ولما خلا مَنَصِب رئيس مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف بخروج المرحوم  
الشيخ حمزة فتح الله منه ببلوغ الستين ، خلفه فيه حفنى بك إلى أن أُقيل هو أيضاً  
بحكم الستين .

وحفنى بك ناصف ، رحمه الله ، كان عظيم الحِظ من فقه العربية ، ومطالعة  
دقائقها ، ومعرفة نكاتها وفرائدها ، واسع العلم بنفونها وقواعدها ، إلى مشاركة  
مجمودة في سائر العلوم التي كانت تدرس في الأزهر ودار العلوم في ذلك الحين .

وكان إلى هذا حادّ الذكاء ، حاضر البديهة ، خفيف الروح ، بارع النكتة ،  
جَمّ التواضع . وكان شعره رصيناً سهلاً ، ونثره محكماً جزلاً . إذا تعمَّد السجع فيه  
أحكم فواصله ، وأصاب منه كُلاه ومفاصله ، وإذا أرسل القول جاء بالسَّلس العذب  
من الكلام . وشعره ونثره كلاهما لا يكادان يخلوان من نكتة بارعة ، أو إشارة إلى  
نادرة رائعة . يجيء بهذا في غير تكلف ولا استكراه ، حتى لكأنك ، إذ تقرأه ،  
في حديثٍ نديم لبق نضاح الذهن ، يفاكهك بالرائع مما تبعث إليه مناسبات الكلام <sup>(١)</sup> .

وبعد فحفنى بك ناصف يُعدُّ في صدر من بعثوا نهضة العربية في هذا العصر  
الذى نعيش فيه ، وفي أوائل من عملوا على ردِّ بيانها القديم بما علَّم وما ألَّف وما  
حاضر ، وما نظم ونثر ، وما اجتمعتُ الخاصَّة في هذه البلاد لحدِّث يتعلَّق باللغة  
والأدب إلا شارَكَ في الأمر بأوفى نصيب .

(١) تجد نماذج من شعره ونثره في كلا جزأى المنتخب .



### ( ٣ ) اسماعيل باشا صبرى

المتوفى سنة ١٩٢٣ م

ولد فى مصر ونشأ بها فلما ترعرع أدخل المدارس الابتدائية فأتَم علومها وجازها إلى المدارس ( التجهيزية ) ثم ارتقى إلى مدرسة الإدارة ( التى صارت مدرسة الحقوق فيما بعد ) . ثم سافر فى إحدى البعثات إلى فرنسا ، وانتظم فى جامعة ( إكس ) . ونال إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م . وعاد فتولَّى منصب القضاء الأهلى وما برح يتدرَّج فيه حتى قُلِّد منصب النائب العام . ثم تحوَّل إلى الإدارة فتولَّى محافظة الإسكندرية . ثم قُلِّد وكالة الحقانية ، حتى إذا بلغ الستين أُقيل ، بحكمها ، من المنصب .

ولقد كان إسماعيل صبرى ، رحمه الله ، رجلا رضى الخلق ، هادئ السَّعى ، وضىء النفس ، حلوا الحديث ، وقد عالج الشعر من فَناء السنِّ ، فكان وهو لما ينيف على السادسة عشرة يرسل القصائد فى مجلَّة ( روضة المدارس ) مديحا فى ولى الأمر . على أنَّ شعره يومئذ كان مطبوعا على غرار الشعر فى الزمن الذى تقدَّم عصره . وفى بعض عصره . على أن الرجل كان له طبع ، وكانت نفسه تنطوى على موهبة الشعر ، فما إن عاش فى فرنسا وطالع مافيه من فتنة وجمال . وقرأ أدب القوم فى لغتهم ، حتى جعلتْ نفسه تنفطن إلى مواطن الجمال حيث وقع ، وبهذا جعلتْ موهبته الكامنة تتحرك ، وملكته الشعرية تنضج وتزكو ، حتى أوفى قريضه على الغاية من اللطف والإحسان والجمال .

ولقد انتهى إسماعيل صبرى إلى أن أصبح شاعرا بأدقِّ معانى الكلمة ، فهو لا يحتفل لقرض الشعر إلا إذا جاشتْ فى نفسه العاطفة القويَّة ، وسنح لذهنه الخاطر البديع . فلا يزال يتخيَّر له الألفاظ الشريفة يرصِّعها فى الصَّيغ ترصيعا ، وما يزال بها يصفقها ويجلوها حتى يُخرجها وكأنها من نظم جوهرى لا من نظم شاعر .



كان ، رحمه الله ، مُرْهَفَ الحسّ ، تامّ الذوق ، صادق الوجدان ، يحتفل للموسيقى الشعرية ويهتزّها . لا تقرأ شعره إلا أشعرك الحاجة إلى الاستماع للغناء ، لأنّ الموسيقى تستشرف له من جميع أقطاره . ولقد تَغَنَّى حُذّاق المغنين بشعره ، فزادوا بحسن الكلام إطراباً على إطراب .

ومما أغلَى شعر صبرى وزاد في بهائه وإشراقه أنه أضحى لا ينظم إلا لنفسه ، فإذا أصاب من هذا غايته وإلا فلائم الشعر الهبل . فكان شأنه في هذا شأن الكروان يُغرد إذا تآلق القمر ، والهزار يشدو إذا تفتّح الزهر .

وشعره كلّ ، في طوره الثانى ، يجرى في سهولة ، وحلاوة لفظ ، ورقة أسلوب وتلاحم نسج ، ورسانة قافية . ولقد كان من أثر اقتضاره في الشعر على الترجمة عما يعتلج في نفسه أن أصبح مُقِلّاً يقتصر على البيتين أو الأربعة أو العشرة . اللهم إلا أن تبعثه بعض الأحداث إلى القصيد فيُطيل ماشاء أن يُطيل . على أنه وإن كان لا يَضْعُف في الإطالة ولا يُسِف . ولكنك لا ترى في أكثر أبياته تلك الموسيقى ، ولا الارتفاع إلى تلك المعانى التي لم يُصِبْها أحدٌ قبله .

ولقد كان متقدّموا الشعراء من أمثال شوقي ، في أول نشأته ، وحافظ وأضرابهما يعرضون عليه أشعارهم لما عرفوا من رهافة حسّه ، ودقّة ذوقه ، ورقة طبعه . فيلفتهم إلى ما ينشر على الأذن الموسيقية . ولعلّه يساهمهم نسج ما يحلو في مثل هذا المقام (١) .

(١) تجد نماذج كثيرة من شعره في جزأى المنتخب .



## ( ٤ ) الشيخ عبد المطلب

المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ ( ١٩٣١ م )

هو العالم الشاعر الأديب الشيخ محمد بن عبد المطلب بن واصل . ولد ببيلة  
ياصونة من أعمال مديرية جرجا من أبوين عربيين . وبعد أن أتم حفظ القرآن  
الكریم جرى به إلى الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين ، ثم عدل إلى دار العلوم ،  
فكان فيها طالبا متقدما معروفا بين لِدَاتِهِ بِالْحِدِّ والاستقامة والحفاظ للدين الحنيف .  
وبعد أن نال إجازتها قام بالتدريس في مدارس الحكومة ، ومنها مدرسة القضاء  
الشرعی ، ثم مدارس الأوقاف الملكية ، ثم دار العلوم . وظل يدرس فيها إلى أن  
خرج إلى التقاعد بحكم الستين .

والشيخ عبد المطلب كما كان صالحا وافر الصلاح ، فلقد كان كذلك محافظا  
شديد المحافظة ، ولم يكن مَرَدَّ هذا إلى أصله العربي ، ثم إلى نشأته الدينية فحسب ؛  
بل لقد كانت في فطرته شدة ، وفيه ، على ما فيه من أدب وتواضع وكرم نفس ،  
شيء يشبه العُجْهِية . فهو بهذا كله ، وبتوفره على شعر الأقدمين ، كان متعصبا  
شديد التعصب للقديم ، يؤثره ، ويحافظ عليه ، ويدعو ما استطاع إليه . فإذا هو  
استوى لقرض الشعر ترسم آثار الجاهليين ومن نحا من الشعراء نحوهم ، ونهج  
مناهجهم ، وتكلف مثل صنعتهم ، وباراهم في منازعهم ، وربما أكثر في هذه  
السبيل من الغريب ، فخرج شعره فخلا ، ولفظه جزلا ، ومعانيه بدوية لم يكدر يطريها  
لين الحضر .

وله ، رحمه الله ، ديوان شعر تم طبعه الآن <sup>(١)</sup> .

(١) تجد نماذج من شعره في الجزء الثاني من المنتخب ( الطبعة الأخيرة ) .



## (٥) حافظ إبراهيم

المتوفى سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م)

هو الشاعر الكاتب الأديب المحاضر محمد حافظ بك إبراهيم . وُلد في ديروط من أعمال مديرية أسيوط إذ كان أبوه من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها . ونشأ بالقاهرة ورزى في أبيه فكفله خاله . وأدخل صغيراً في مدرسة تُدعى (المدرسة الخيرية) وكان مقامها في القلعة . فلما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا الحكم ألغيت هذه المدرسة وحُوِّل كثير من طُلَّابها ، وفيهم المترجم إلى مدرسة (المبتديان) ، ثم صار إلى المدرسة الخديوية . على أن مقامه لم يطل فيها . وبعد أن عالج بعض الأعمال الحرة بضع سنين دخل المدرسة الحربية ، وظلَّ فيها حتى خرج منها ضابطاً ، فأشخص إلى السودان ، وألحق بسلاح المدفعية (الطبيعية) أولاً ، ثم أقيم على أقوات الجيش (التعيينات) ثم تحول إلى بوليس مصر ، ثم أعيد إلى الجيش . ثم أُحيل إلى (الاستيداع) . ثم إلى التقاعد (المعاش) . وفي سنة ١٩١٠ عين رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ثم وكيلاً لها . وظلَّ في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة ١٩٣٢ م بحكم الستين . ومات في أواسط السنة نفسها .

وحافظ إبراهيم يعدُّ بحق شاعراً من الطراز الأول في عصره : ناصح القول ، جزل اللفظ ، نفخ العبارة ، متين النسيج ، نير الديباجة ، رصين القافية . إذا اجتمع للشعر جعل يحسُّ ماخرج له منه ، فإذا أصاب في بعض اللفظ قلقل أو نبواً أقبل عليه بالعلاج والصقل حتى يطمئن ويستوى في موضعه المقسوم له من الكلام . وحافظ ، رحمه الله ، كان مرهف الأذن ، عظيم التدقيق لبارع الكلام ، يهتد لما يقع له منه ، ويستد طربه عليه . وكان إلى هذا سريع الحفظ قوى الحافظة . يلقط ما يستجيد ويبقى عليه ، حتى لم يكن يدانيه كثير في حفظ مصطفى الشعر



ومتخيره من جميع أعصار العربية إلى غاية عصره. وهو ممن يدينون أولاً بالديباجة، ويصرفون أجل همهم لها. أما المعاني فعنده في المرتبة الثانية، وإنه ليرتفع في طلبها على ألا تُقلق لفظه أو تُخلّ بنظمه. ولقد تصرّف بالشعر كثيراً في المسائل الاجتماعية وغيرها من الأسباب الدائرة بين الناس، وكان في هذا من السابقين إلى تلوين فنون الشعر، وعدم توفّره على تلك الأغراض الهزيلة التي كان يدور فيها الزمن الذي تقدم عصره.

وقد أجدى كثيراً على الأدب والعلم جميعاً بما استظهر من الصّيع الرائعة من جفوة العربية، فشاعت على أفلام الأدباء بقدر كبير، وانتفع بها أصحاب العلم بقدر غير يسير.

وله ديوان مطبوع في ثلاثة أجزاء، وكتاب (ليالي سطّيح) نحي فيه منجى المويلحي في (حديث عيسى بن هشام)، وترجم صدرّاً كبيراً من كتاب (البؤساء) لفكتور هيجو، وشارك في ترجمة كتاب (الموجز في الاقتصاد السياسي) لروابوليه (١).

---

(١) تجد نماذج من شعره في الجزء الثاني من المنتخب (الطبعة الأخيرة).



## ( ٦ ) شوقي

المتوفى سنة ١٣٥١ هـ ( ١٩٣٢ م )

هو أحمد شوقي بك بن أحمد شوقي بك . ولد بالقاهرة ونشأ فيها . وقد حدث عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لديوانه ( الشوقيات ) قال : ” سمعتُ أبي يردُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول إن والده قدِم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من أحمد باشا الجزائر إلى والى مصر محمد على باشا ..... فأدخله والى فى معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية “ . ثم ذكر طرفا عن سيرة جدّه لوالدته إلى أن قال عن نفسه : ” أنا إذن عربى ، تركى ، يونانى ، حركسى “ .

وقد كفلته من المهّد جدّه لأُمّه ، وكانت فى يسر ونعمة ، على حين أئلف أبوه ما ورثه عن أبيه . ولقد كانت جدته تيك من وصائف قصر الإمارة فى عهد إسماعيل قال : ” حدثتني ( يريد جدته ) أنها دخلتُ بى على الخديو إسماعيل وأنا فى الثالثة من عمري ، وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو يدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، ف وقعت على الذهب اشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتى اصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يامولاي . قال جيئى إلىّ به متى شئت .

فلما بلغ الرابعة أدخل فى مكتب الشيخ صالح ، وكانت نشأته فى خطّ الحنفى ، وقد جاز بعد ذلك متفوّقا بارعا مرحلتى التعليمين الابتدائى والثانوى . فلما تقدّم إلى



مدرسة الحقوق اعتل ناظرها عليه لصغر سنه . على أنه دخلها ودرس بها عامين . وكان قد أنشئ فيها قسم الترجمة فعدل إليه وليث فيه سنتين آخرين ، وأحرز الإجازة النهائية . وألحقه المرحوم الخديو توفيق بمعينه . ثم أشخصه على نفقته إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، على أن يقضى عامين في مدينة "منبلييه" ، وعامين في باريس . حتى إذا أحرز الشهادة النهائية رأى ولي الأمر أن يظل في فرنسا ستة أشهر أخرى ففعل ، وعاد بعدها إلى مصر ، وتولّى منصبه في معية الأمير . وفي سنة ١٨٩٦ م ناب عن مصر في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في جنيف من أعمال سويسرا .

وما برح شوق يتدرّج في المناصب حتى تولّى رئاسة القلم الإنجى في المعية الخديوية . ولما نشبت الحرب الكبرى أزيل عن منصبه . ثم رُوى له أن يغادر البلاد فاختار برشلونه من أعمال أسبانيا مَثَوًى له ولأسرته . ولم يؤذن له في العودة إلى مصر إلا بعد أن استقرّ السلام العالمى .

ولقد رأيت أنّ أكبر منصب سما إليه شوق في معية الخديو هو رئاسة القلم الإنجى ، على أنّ نفوذه وسلطانه لقد تجاوزا شأن هذا المنصب إلى حدّ بعيد ، فلقد نال من الحُظوة عند وليّ الأمر ما لم ينله من قبل أحد . فكانت داره ( كرمه ابن هانى ) مثابة طُلاب الحاجات ، ومورد المستشفعين من كلّ ناحية ، صغار الناس وكبارهم في هذا بمنزلة سواء . فلقد كانت إشارته حُكماً ، وطاعته عند أكثر الحكام من بعض المغنم .

ولقد كانت مصرُ إلى ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية ، فكان شوق كثير الاختلاف إلى الآستانة ، فلا يكاد يدخل الصيف من العام إلا وهو على جناح السفر إليها ، فلا يَلْقَ من أولياء الأمر هناك إلا الإجلال والتزول في منزل الكرامة ولقد انتهى إلى الخليفة في إحدى السنين خبرٌ مقدمه فأمر بأن يُقيم ، ما أقام هناك ضيفاً ، على مقام الخلافة . وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثانى ، وهو يتقدّم



بها على بعض من يحملون لقب الباشوية . كما أنعم عليه بـجـار الأوسمة من الدولة العلية ، ومن ألمانيا ( قبل الحرب ) ومن الدولة السورية .

وكان ، رحمه الله ، شغفا بالسياحة في الغرب وفي بلاد الشرق القريب ، ولكنه في مؤخرات عمره قصر سياحاته على البلاد السورية واللبنانية فليق من أعيانها وأدبائها أبلغ العطف وأعظم الإكرام .

وفي سنة ١٩٢٧ عُقد في مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه عنق من رجالات مصر وعلمائها وأدبائها ، وحضر إليه عدد غير قليل من أعيان الأدباء في الأقطار العربية . وتوجت حفلة التكريم برعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فؤاد الأول حفظه الله .

ولقد عاش شوق مبيجلا على الاسم ، رفيع المنزلة . فلما قبض إلى رحمة الله تعالى أقامت له وزارة المعارف بالاشتراك مع طائفة من أعيان أهل الفضل والأدب حفلة تأبين دعت إليها كبار العلماء والأدباء في الأقطار العربية . وشرفها جلالة الملك المعظم بنائب عن ذاته الكريمة . وقد أقيمت هذه الحفلة في دار الأوبرا الملكية في شهر ديسمبر من السنة التي قبض فيها .

وبعد ، فقد تقلب شوقي من أول نشأته في النعمة ، وأصاب ما شاء من متع الحياة ، ولو قد درّ خلّق من الناس أن يدركوا كلّ مناهم ، وأن يبلغوا الحياة مدى أشيرها ، لكان شوقي من أحد هؤلاء .

وإن قد عرفت هذا فلا يتعاطمك ما ترى من شيوع الترف في شعره ، فلا تقع من تشبيهاته ، في غير المآسى ، إلا على كلّ فاحر ثمين .

صفاته وأخلاقه — كان شوقي ذكيا وافر الذكاء ، حيا جَمّ الحياء ، لا يتبسّط في الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين . ولعلّ بعض ما حمّله على هذا أنّ طلاقة لسانه لا تكافئ فصاحة قلمه ، ولا تواتى مطالب عقله .



(١) قال رحمه الله :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| ونخيلة فوق الجزيرة مسها    | ذهب الأصيل حواشيا ومتونا   |
| كالتبر أفتا والزبرجد ربوة  | والمسك تربا واللجين معينا  |
| وقف الحيا من دونها مستأذنا | ومشى النسيم بظلمها مأذونا  |
| وجرى عليها النيل يقذف فضة  | نثرا ويكسر مرمرها مسنونا   |
| يفرى جواريه بها فيجننها    | ويغيرهن بها فيستعلينا      |
| راع الظلام بها أوانس ترمي  | مثل الظباء من الربى يهويها |
| يخطر في ساح القلوب عواليا  | ويملن في مرأى العيون غصونا |
| عفن الذبول من الحرير وغيره | وسبحن ثم الآس والنسرينا    |

وقال من قصيدة له في وصف دمشق :

|                                 |                             |
|---------------------------------|-----------------------------|
| آمنت بالله واستئنيت جنته        | دمشق روح وجنات وريحان       |
| قال الرفاق وقد هبت نhamلها      | الأرض دارها (الفيحاء) بستان |
| جرى وصفق يلقانا بها (بردى)      | كما تلقاك دون الخلد رضوان   |
| دخلتها وحواشيا زمردة            | والشمس فوق لجين الماء عقيان |
| والحور في (دمر) أو حول (هامها)  | حور كواشف عن ساق وولدان     |
| وربوة الواد في جلاب راقصة       | الساق كاسية والنحر عريان    |
| والطير تصدح من خلف العيون بها   | والعيون كما الطير الحان     |
| وأقبلت بالنبات الأرض مختلفا     | أفوافه فهو أصباغ وألوان     |
| وقد صفا (بردى) للريح فابتردت    | لدى ستور حواشين أفنان       |
| ثم انتنت لم يزل عنها البلال ولا | جفت من الماء أذيال وأردان   |

و (الحور) في صدر البيت شجر عظيم يشبه السرو ، و (الحور) في عجزه بنات الجنة .



يكفه الدخول في زحمة الناس ، وينفر من شهود الحفل الجامع ؛ إلا أن ينقبض في ركن من ملهى أو ملعب ، وادع النفس ، هادئ السعى . لا تراه يعنف ، وقل أن يستفزه الغضب . عطوف شديد العطف ، رحيم كثير الرحمة . ينفر من ذكر المآسى ويفتر من رؤيتها فرارا . على أنه مع هذا قد راض نفسه على الصبر على المكروه ودرّبها على الرضا بالقضاء واقعا حيث وقع . فإذا لحقه المكروه راح بذهنه يستخرج من بعض نواحيه خيرا . فإن تعذر عليه استراح ، في النهاية ، إلى أن الله تعالى إنما دفع به ما هو أكره .

وهو دائم الاعتداد بما يعتريه من النعماء ، فإذا دقت وصغرت جعل يُجِلُّها ويُعْظِمُ ، ولو بالتخييل ، من شأنها . وعلى الجملة فإن هذا الرجل لو انحدرت عنه كل نعمة لعاش من رضاه في أوسع نعمة . وعلى هذا لقد كان من أقل الناس شكوى من زمانه . ولعل أوجع ما شكاه فيه قوله :

أحرام على بلايله الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟ !

وهذا قاله وهو منفي من وطنه . ولقد جعل الله النفي من الوطن عديلا للقتل والصلب وتقطيع الأطراف . قال جلّ مجده : ” إِلَّا أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يَصْلُبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ “ . وأى رجل هذا المنفي من وطنه ؟ هو الذي يقول في هذا الوطن من القصيدة نفسها :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَعَتْنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي !

ولقد كان شوق شديد الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر . ولم يُخَصَّ عليه في هذا الباب زلة لسان أو عثرة قلم . وكان شديد الحنين إلى السيد المسيح صلوات الله عليه ، دائم الذكر له في شعره ما وافته المناسبة يذكره في عطف وشوق ولهفة . وإذا ذكرت ماركب في طبع هذا الشاعر من الرقة والرحمة والحنو ودعة النفس أدركت الوجه في إيثاره لاسم هذا النبي الكريم بكثرة الإشادة والترديد .



على أنَّ شوقي، على شدة إيمانه هذا، كان في شباب السنّ مستهترا بلذائذ الدنيا، مُسْرِفًا في الإصابة مما يطيب له منها ، لا يثأثم في هذا ولا يتكلف مداراة الناس فبلغ فيه حدًّا يشبه الإباحية . ولكنه حين لحقته السنّ قَصَرَتْ مَتَعَتُهُ على شهود (السينا) وحضور مجلس الغناء . وله من بلائه في النَّضْح عن دولة الإسلام، وفي مِدَحِهِ لسيد الأنام <sup>(١)</sup> ، أعظم رجاء في كرم العاقبة وحسن الختام . ولقد قال في (نهج البردة) :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ      فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ

وهو بعد هذا مفتنٌ بأجمع معاني الكلمة ، يكلف بفنّه إلى حد الافتتان ، بل إنه لا يكاد يرى الرجل كل الرجل يتمثل إلا في الشاعر ، ولا يرى للحياة في جميع صورها غاية إلا قرض الشعر . انظر كيف يقول على لسان إحدى من يَنسَبُ بهنَّ :

جاذبَتْنِي تَوْبِي الْعَصَى وَقَالَتْ :      أَنْتُمْ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعْرَاءُ !

ولقد كان إلى هذا شديد التمكن من نفسه حتى ما يرى في الدنيا شاعراً يباريه أو يتعلق بغباره .

شاعريته — لم يطاول شوقي في قرض الشعر ولم يجهد فيه ، بل لقد جاء به فتى ، وأطلقته قريحته الغضة على المعنى ، نغم اللفظ ، متلاحم النسيج . ومدح الخديو توفيقاً وهو لما يَزَلْ طالبا حدثاً . ونُسِرَتْ مدائحه يومئذٍ في (الوقائع المصرية) وارتفعت من فورها إلى وليّ الأمر . فدلّ هذا على أنَّ فيه طبيعة ، وأنه أوتي الموهبة . ثم لقد كشف الزمن عن أنَّ تلك الموهبة من الضَّرْبِ الرفيع الغالى الذى يَضُنُّ بنفسه على الأجيال .

(١) لشوقي في هذا الباب قصيدتان سابقتان عارض بإحداهما البردة ، وبالأخرى الحمزية للبوصري عليه رحمة الله ، وله مدائح أخرى في الرسول صلى الله عليه وسلم .



ولا شك في أنّ المواهب الفنيّة لا تُعَلَّل . فإن حاولت أن تردّ هذا إلى أنه قد دخل في أصله العنصر العربيّ ، فهذه ملايين الخلق من خلّص العرب لم يقولوا الشعر ولم تتّضح به ألسنتهم ، وأكثر من عاجلوه منهم لم يرتفعوا إلى شيء من حظّ شوقي . وإن أنت رددته إلى أنه جرى في أعراقه الدم اليونانيّ ، فهذه الملايين من اليونان الخلّص لقد تعدّرت عليهم ملكة الشعر فلم يحيثوا منه بجيد ولا برديء .

نعم ، لقد يكون للعنصر وللدم دخل في توجيهه شاعرية الشاعر ، وتكوين عقليته . وفي تصوير منطقته ، وتلوين عاطفته ، والذهاب بنزعتيه مذهبا خاصا . ونحو ذلك . أما أنّ ذلك مما يخلق الموهبة خلقا فهذا ما لا يكون .

### شعره

تقدم لك في أثناء هذا الكتاب صفة الشعر في العصر الحديث ( من الحملة الفرنسية ) . وكيف كان يغلب عليه الضعف والإسفاف والدوران في فنون من الأغراض لا غناء فيها لمطالب العاطفة ولا لحاجات المجتمع . ولقد نجم شوقي أول ما نجم والكثرة الغامرة من جمهرة الشعراء على هذا ؛ على أنه من يمين طالعه أن تقدمه إلى قرض الشعر أفذاذ ثلاثة : عبد الله فكري ، ومحمود سامي البارودي ، وإسماعيل صبري . فدلته الموهبة عليهم ، وعدل من فوره إلى احتذائهم ، واتباع طريقهم في تجويد الشعر باصطفاء اللفظ ، وإحكام الصياغة ، والاحتفال للمعاني ، وعدم استهلاكها في سبيل البديع ، صنع أكثر من يقوم في العصر من الشعراء .

ولقد كان في صدر شبابه كلما قرض قصيدة أو نظم مقطوعة من الشعر عرضها على إسماعيل باشا صبري ، وقد عرفت أنه شاعر بلغ الغاية من دقة الذهن ، وكمال الذوق ، ورهافة الحسّ . فلا يزال يعالج معه ما عسى أن يقع من قلق في اللفظ ، أو انحراف في المعنى ، أو نشوز على مواقع الجمال . وتلك كانت سنة كثير من الشعراء من قديم الزمان .



وشوقى ، فوق هذا ، كان شديد الإكباب على قراءة الكتب بوجه عام ،  
وكتب الأدب على وجه خاص ، ودواوين الشعراء على وجه أخص . ومن أعظم من  
عني بقراءة دواوينهم ، واستظهار أشعارهم ، وانتهاج طرائقهم ، ومباراتهم في  
منازعتهم : أبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، والمتنبي . وقد نصح أربعتهم على  
شعره ، فكان أثر كلٍّ منهم فيه بَيِّنًا . وإنك لتلمح فيه حلاوة أبي نواس ودقة  
وصفه ، وتصرفه في فنون الغزل ، وإشادته بمجالس اللهو ، وافتنانه في الخمریات <sup>(١)</sup> .

(١) قال في الربيع :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| آذار أقبل فم بنا يا صاح     | حى الربيع حديقة الأرواح    |
| واجمع ندائى الظرف تحت لوائه | واشر بساحته بساط الراح     |
| صفوا أتيح نغد لنفسك قسطها   | فالصفو ليس على المدى بمتاح |
| واجلس بضاحكة الرياض مصفقا   | لتجاوب الأوتار والأفداح    |
| واستأنس من السقاة برفقة     | غر كأمثال النجوم صباح      |
| رقت ، كندمان الملوك ، خلاهم | وتجملوا بمروءة وسماح       |
| واجعل صبوحك فى البكور سلية  | للتجيين : الكرم والنفاح    |
| مهما فضضت دنائنا فاستضحكت   | ملى المكان سنى وطيب نفاح   |
| تطغى فإن ذكرت كريم أصولها   | خلعت على الشوان حلية صاح   |
| فرعون خباها ليوم فتوحه      | وأعد منها قربة ( لفتاح )   |
| ما بين شاد فى المجالس أيكه  | ومحجبات الأيك فى الأدواح   |
| غرد على أوتاره يوحى إلى     | غرد على أغصانه صداح        |



كما تلمح فيه احتفال أبي تمام للعاني الرفيعة والارتصاد لإصابتهما مهما جَسَمَه ذلك  
من إعنات اللفظ وجلجلة الصياغة . ولقد تلمح فيه هلهلة البحترى ، وإحكام

وقال في الخمر :

|                  |                  |
|------------------|------------------|
| حفّ كأسها الحبيب | فهى فضة ذهب      |
| أو دوائر درر     | مائج بها لب      |
| أو فم الحبيب جلا | عن جمانه الشنب   |
| أو يدها باطنها   | عاطل ومختضب      |
| أو شقيق وجنته    | حين لي به لعب    |
| راحة النفوس وهل  | عند راحة تعب ؟   |
| يا نديم خفّ بها  | لا كسبا بك الطرب |
| لا تقل عواقبها   | فالعواقب الأدب   |

وقال يتغزل :

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| الله في الخلق من صبّ ومن عانى | تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى |
| صونى حالك عنا إننا بشر        | من التراب وهذا الحسن روحانى   |
| أوفابتغى فلكا تأوينه ملكا     | لم يتخذ شركا فى العالم الفانى |
| ينساب فى النور مشغوبا بصورته  | منعما فى بديعات الحلى هانى    |
| إذا تبسم أبدى الكون زينته     | وإن تنفس أبدى طيب ريحان       |
| وأشرق من سماء العزّ مشرقة     | بمنظر ضاحك اللالاء فتان       |
| عسى تكفّ دموع فيك هامية       | لا تطلع الشمس والأنداء فى آن  |
| يامن هجرت إلى الأوطان رؤيتها  | فرحت أشوق مشتاق لأوطان        |
| أتذكرين حنيني فى الزمان لها   | وسكبى الدمع من تذكراها قانى   |
| وغبطى الطير ألقاه أصبح به     | ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى  |



نسجه ، و براعة نظمه . أما أثر المتنبي في شعره ففيا ترى من شيوع الحكمة والإثثار  
من ضرب المثل .

وقال من تسع عشرة سنة يصف الطيارة . وهذا من أروع الكلام :

نصفه طير ، ونصف بشر      يا لها لإحدى أعاجيب القضاء !  
حمل الفولاذ ريشا وجرى      في عنانين له : نار وماء  
وجناح غير ذي قادمة      بكناح النحل مصقول سواء  
وذناي (١) ، كل ربح مسها      مسه صاعقة من كهرباء  
يترأى كوكبا ذا ذنب      فإذا جدّ فسهما ذا مضاء  
فإذا جاز الثريا للثرى      جرّ كالطاووس ذيل الخيلاء

ومن روائع حكمه ، وما جرى من شعره مجرى الأمثال قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

\*  
\* \*

إذا أصيب القوم في أخلاقهم      فأقم عليهم مأتما وعويلا

\*  
\* \*

وما يـ السلاح لقوم كلّ عدّتهم      حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

\*  
\* \*

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا      فليس وراءها للعز ركن

\*  
\* \*

وليس بعامر بنيان قوم      إذا أخلاقهم كانت خرابا

\*  
\* \*

ولا المصائب إذ يرى الرجال بها      بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

\*  
\* \*

أعلمت أشرف أو أجل من الذي      يبنى وينشئ أنفسا وعقولا

(١) الذناي ذنب الطائر .



ولا يذهب عنك أن هذا الكلام ليس معناه أن شوق إنما هو مستعير منهم ومقلد لهم . بل الغرض أنه استظهر أشعارهم فاتصلت بذوقه ، وجرت في عرقه ، وخالطت طبعه فنضحت على قلمه . والواقع أنه إذا كانت أشعار هؤلاء الشعراء وغيرهم من العناصر التي دخلت على شاعرية شوقي وجلته في هذه الصورة ، فإنه مما لا شك فيه أن للرجل شخصيته القوية الخاصة به والتي ينفرد بها عن سائر من عداه من الشعراء ، حتى إنك لو عرضت شعره على أهل البصيرة من نقدة الكلام لما ترددوا في نسبته له وإضافته إليه ، شأن غيره من فحول البيان . واعلم أن احتفال الشاعر للعاني حتى ليقاق الألفاظ في سبيلها لا ينافي اجتماعه في بعض الأحيان لإحكام النسيج وتجويد الصياغة . والشاهد على هذا ما نرى في شعر أبي تمام والبحترى كليهما .

وليس بالفاضل في نفسه من ينكر الفضل على ربه

\*  
\* \*

ما أصعب الفضل لمن رامه وأسهل القول على من أراد

\*  
\* \*

رب إن شئت فالفضاء مضيق وإذا شئت فالمضيق فضاء

\*  
\* \*

واستقيموا يفتح الله لكم بابا فبابا

\*  
\* \*

والجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرحم

\*  
\* \*

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقيم

والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

\*  
\* \*

( الموت بالزهر مثل الموت بالفحم )



ولا شك أيضا في أن من العناصر التي دخلت على شعر شوقي فذهبت به هذا المذهب حذقه اللغة الفرنسية ، وسعة اطلاعه فيها على أدب الغرب ، وترويه عيون بلاغاته . ومن الحق أن يذكر له في هذا المقام ، أنه كثيرا ما مَسَّ من معاني القوم أُولحها في شعره ، ومع هذا لقد جلاها عربية خالصة لا تنشز على الذوق العربي ، ولا يجد هو فيها ريح الاستعجاب . وإذا ذكرنا أن شوقي من أوائل من ارتصدوا لهذا وعالجوه في العصر الحديث . فجاء به عربيا خالصا في مثل هذا اليسر ، قدرنا مبلغ كفايته وتبريزه في فنون البيان .

كذلك من العوامل التي لها أثر واضح في شعر شوقي نشأته في بيت الملك ، ومقامه في بطانة الأمراء وظهارتهم ، ودخوله في أدق الأسباب السياسية في مصر ، سواء ما اتصل منها بالدولة المحتلة ( إنجلترا ) أو بالدولة المتبوعة يومئذ ( تركيا ) .

وفي الغاية ، لا تنس أثر سياحاته الكثيرة في بلاد الغرب ، وفي بلاد الشرق القريب ، ومخالطته لأصناف الخلق ، ووقوفه على طبائعهم وأخلاقهم ومأثور عاداتهم ، وما تجلى من صور الطبيعة في بلادهم ، وغير ذلك مما لا يتهاى الكثير من الشعراء .

وبعد ، فما لا يعتريه الريب أن شوقي يُعدُّ ، بحق ، من أعظم أقطاب الشعراء في العالم العربي كله ؛ بل إن بعض النقدة ليتخطى به القرون فيصمله بأعلام الشعراء في أزكى عصور العربية وأنضرها بيانا .

ولقد تصرف شوقي في كل فن ، وجال في كل غرض ، وأصاب من كل مطلب ، فبذو برع . وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم فما قصر ولا تخلف . ولقد ظل جيلا ونصف جيل يرسل غالى الشعر ، ما وقع في البلد من حدث إلا جليل بالقرىض ، ولا كانت الجُلَى في رجا من أرجاء العالم إلا نظم ما تتقطع من دونه علائق الأقلام .



وهنا ينبغي أن يُذكر له ولصاحبه حافظ إبراهيم ، عليهما رحمة الله ، أنهما من أوائل من بعثوا الشعر في الأغراض العامة ، وخاضوا به في المسائل الاجتماعية ، فأغنوا وأجدوا ، وأصبح أثرهم في هذا الباب ثابتا على وجه الزمان .

ومن خصائص شوقي في شعره أنك قد تراه يمدح أو يرثى أو يتصرف في غير هذين الفنين من فنون القريض ، ولكنه لا يفتأ يخوف عما هو بسبيله إلى ضرب مثل أو إجراء حكمة فيها كل النفع لو قد أخذ بها الناس .

وهو طويل النفس جدا حتى لقد يبلغ بالقصيد المائة ، وقد ينفذ عليها في غير قلق ولا إسفاف . ولقد بلغت قصيدته ( كبار الحوادث في وادي النيل ) مائتين وتسعين بيتا أكثرها من مصطفى الشعر ومتخير الكلام .

وله مقطوعات شعرية يرجعها بعض حُذّاق المغنين اليوم <sup>(١)</sup> ومن شعره الذي

(١) راجع الجزء الثاني من المنتخب ( الطبعة الأخيرة ) ، وما يتغنى فيه اليوم من شعره كذلك قوله من قصيد ( زحلة ) :

|                               |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| يا جارة الوادي طربت وعادني    | ما يشبه الأحلام من ذكراك   |
| مثلت في الذكري هواك وفي الكرى | والذكريات صدى السنين الحاك |
| ولقد مررت على الرياض بربرة    | غناء كنت حيالها ألقاك      |
| ضحكت إلى وجوها وعيونها        | ووجدت في أنفاسها ريك       |

\*\*\*

|                                |                          |
|--------------------------------|--------------------------|
| لم أدر ما طيب العناق على الهوى | حتى ترفق ساعدي فطواك     |
| وتأودت أعطاف بانك في يدي       | واحمّر من خفريهما خذاك   |
| ودخلت في ليلين فرعك والدجى     | ولثمت كالصبح المنور فاك  |
| ووجدت في كته الجوايح نشوة      | من طيب فيك ومن سلاف لماك |
| وتعطلت لغة الكلام وخاطبت       | عيني في لغة الهوى عيناك  |
| ومحوت كل لبانة من خاطري        | ونسيت كل تعاتب وتشاكى    |
| لا أمس من عمر الزمان ولا غد    | جمع الزمان فكان يوم رضاك |



لو تقدم به الزمان لكان حقيقاً بأن يَتَغَنَّى به أمثال إبراهيم الموصلي وابْنُه إسحاق  
قوله من قصيدة (لبنان) :

|                             |                               |
|-----------------------------|-------------------------------|
| دخل الكنيسة فارتقت فلم يطل  | فأتيت دون طريقه فزحمته        |
| فازور غضبانا وأعرض نافراً   | حال من الغيد الملاح عرفته     |
| فصرفت تلعبى إلى أترابه      | وزعمتهم لبائى فأغرته          |
| فمشى إلىّ وليس أول جوذر     | وقعت عليه حبايى فقنصته        |
| قد جاء من سحر الجفون فصادنى | وأتيت من سحر البيان فصدته     |
| لما ظفرت به على حرم الهدى   | لابن البتول وللصلاة وهبته (١) |

وديوان شوق رحمه الله يقع فى أربعة أجزاء ، طبع منها اثنان . وله غيره فى  
الشعر كتاب (عطاء الإسلام) ، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر ، وقصائد سهلة  
للأطفال والأغانى ، وربما استغرق هذا الكشكول ثلاثة أجزاء . وله فى النثر  
كتاب (أسواق الذهب) جارى فيه الزمخشري رحمه الله فى كتابه (أطواق الذهب) .  
وله روايات شعرية وهى : على بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليل ، وقهيز ،  
وعنترة . وله روايات أخرى نثرية منها : لادياس ، وورقة الآس ، ومذكرات  
بنتاؤر ، وأميرة الأندلس . ومن هذا تدرك مبلغ إنتاج الرجل وسخاء ذهنه من يوم  
نجم إلى أن أدركته الوفاة .

(١) ابن البتول هو السيد المسيح عليه السلام .



## النثر

لم يكن النثر الأدبيّ في صدر النهضة الحديثة يجري في جَدٍّ من الأمر ، أو يطلب جليلا من المعنى ولا ساميا من الأغراض . بل لقد كان كذلك يدور في أبواب ضيقة من نحو كتب المودّات ، والاستعطاف ، والشكوى والهناء ، والعزاء ، وضئيل من الوصف ، وما إلى ذلك . كما كان يُعنى به في مقدّمات الكتب وفي تقرّظها .

وأما من حيث صياغته ونسجه ، وترقُّق الأخيّلة فيه ، وشدة الارتصاد لطلب المحسنات ، واصطياد النكات البديعية واستكراهها على الكلام ، إن لم تكن صدورُ الكلام نفسه مهياة من قبل لمجرّد إصابة النكتة لا لأصابة شيء آخر ، فشأنه في كل هذا شأن الشعر إلا أنه محلّول والشعر معقود .

وأما لغة التّأليف في ذلك العهد فقد بلغت أقصى حدود الضعف والركاكة ، فوق الافتنان في تعقيد العبارات بالمبالغة في الإيجاز مما يُحتاج في تفهّمه وتبيين قصده المؤلّف إلى شدة الجهد والمطاولّة وقدح الأذهان . ولم يقف منهم هذا عند كتب التوحيد والنظر ، ولا عند كتب الشريعة أصولها وفروعها . بل يتعداه إلى كتب اللسان ومنها المصنّفات في البلاغة نفسها ! . فإذا وقع لك في أثناء هذه المؤلّفات تعبير جيد أو فقرة فصيحة نيرة ، فإنما سقطت إلى السّكّاب من اصطلاح مأثور ، أو كانت من نسج الأقدمين .

وبعد فإنما تتحدّث عن موضع الشعر والنثر ، في الجملة ، وليس هذا بناف أن كانت ، في بعض الأحيان ، تخرج الأبيات بل المقطوعات الشعرية على حظ من الإصابة ، وكرم المطلب ، وشرف اللفظ ، وإشراق الديباجة ، وتلاحم النسج . وقُلْ مثَل هذا فيما انتضحت به الأقلام في منشور الكلام . على أنّ هذا القدر لا يدلّ على أدب العصر ، ولا على حظّ المتأدّبين من البلاغة فيه .



ومما يدلّك على أن البيان لم يتصل بطبع كثير من المتأدين ولم يرسخ في ملكاتهم أن ما يظهر من بلاغاتهم إنما كان من ثمرة الاجتماع والتشهير وشدة الجهد . حتى إذا أرسلوا أقلامهم على السجية جاءت بالدون المسفّ . ولا تنس الشيخ الجبرتيّ في هذا المقام . فلقد كان مسلوكا في أعيان الكتاب والشعراء ، وله في كلا البابين آثار تضاف إلى البدائع بالنسبة لعصره . ومع هذا فقد كان دأبه في سائر ما يكتب الإسفاف إلى أشنع العامية : سخف لفظ ، وركاكة تأليف ، وقبح أداء .

ومن أشهر الكتاب في هذا العصر :

- ( ١ ) السيد إسماعيل الخشاب ، ( ٢ ) الشيخ محمد الحفنى المهدي ،  
( ٣ ) الشيخ حسن العطار . وقد تقدم ذكرهم . ومنهم :

#### ( ٤ ) الجبرتي

المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ ( ١٨٢٥ م )

هو الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن الجبرتي ، نسبة إلى جبرّت من أعمال الحبشة . نشأ في مصر ، وتعلم في الأزهر . وأخذ العلم عن أبيه وعن طائفة من كبار الشيوخ . وعالج الأدب ، وشعر ونثر . ولما دخل الفرنسيون مصر اصطفوه للكتابة في ديوان القضايا الذي سبقت الإشارة إليه . ثم انقطع للتدوين والتصنيف .

وأهم مؤلفاته التاريخ المسمى ( عجائب الآثار ، في التراجم والأخبار ) أُنخ فيه من القرن الثاني عشر الهجري إلى سنة ٣٦ من القرن الثالث عشر ، وقد التزم فيه تدوين الحوادث يوما بيوم <sup>(١)</sup> . ولقد وقعت أجلّ الأحداث في عصره من قبيل دخول الفرنسيين مصر إلى صدر كبير من ولاية محمد علي ، فدون في تاريخه كل

(١) تجد نموذجا من أحسن ما تألق الجبرتي في كتابته في الجزء الثاني من المنتخب .



ما جدّ منها في تلك الفترة ، على ما وقع بعينه أو بسمعه . وقَفَى على أثر كلِّ سنة بتراجم من مات فيها من الأمراء وكبار العلماء وصدور الأعيان .

وله في التاريخ كذلك كتاب دعاه (مظهر التقديس ، بذهاب دولة الفرنسيين) وقد تُرجم الكتابان كلاهما إلى الفرنسية ، وتُرجم هذا إلى التركية أيضا .

### تطوّر النثر

لقد مضت الإشارة إلى أن النثر كان أسبق من الشعر تطورا وأسرع إلى السكال عدوًا . وقد كشفنا لك عن الوجه في ثقل حركة الشعر في هذا الباب . أما النثر فلقد تعلّم أن البلاد من أول منجم هذه النهضة قد أخذت بعلوم الغرب وفنونه ، إذ لا عهد لها من قبل بكثير منها . ومنها ما طال العهد به حتى تقطع ما بينه وبين العربية أو كاد . فكان لا بدّ لأداء هذه العلوم والفنون بالعربية من مراجعة معجمات اللغة وتقليب مجفّواتها في الأسباب المختلفة توسّلا إلى تلك الغاية . وكان من أثر ذلك أن استُخرجت صيغ قديمة ، وطُبعت صيغ جديدة ، وجعلت اللغة تتطور تطورا يشتد ويعنف باشتداد حركة الترجمة والتأليف ، ويلين ويفتر طوعا للينها وفورها . إلا أنّ تفتّح العيون على أسباب الحضارة الجديدة أمال صدرا من تفكير الكاتبين إلى المعاني ، وعدم استهلاكه كله في نظم الألفاظ ، وإلى أن المكتبات الحكومية بعد استحالتها من التركية إلى العربية ، قد استدرجت هي الأخرى إلى تقليب الأذهان في وجوه الصيغ لأداء المعاني التي تتطلبها وسائل الحكم المختلفة .

على أن هذا وهذا وهذا لم يحزف النثر الأدبي عن طبعه ، ولا عدل به عن مذهبه . بل لقد ظل دهورا طويلا على شأنه الذي عرّفت ، حتى لقد كان كثير من المراسلات الديوانية والتوقيعات الخديوية في طویل من عهد إسماعيل يُلترَم فيها السجعُ وتُصيّد لها ألوانُ البديع . والسبب في هذا يعود إلى أن النهضة إلى ذلك العهد كانت نهضة علوم لا نهضة آداب .



## نهضة النثر الأدبي

ما كادت البلاد تبلغ حظاً محموداً من مطالب العلم في عهد إسماعيل حتى اشتد تهاافتها على طلب الآداب . فأكثر باعثو النهضة من بعث كتب السابقين من أعيان البيان بالطبع والاستنساخ . وأقبل المتأدبون على قراءتها وترويضها ، وتقليب اللسان في صيغها ، وإجالة الفكر في منازع بلاغاتها ، وراعهما ما أصابوا من المأثور عن أعلام العربية في أشعارهم وكلامهم في خطبهم ، وأمثالهم ، ومحاضراتهم ، ومناقلاتهم ، وغير ذلك في مختلف مقاماتهم ، وجعلوا يترسمون خطاهم ، ويتكلفون محاكاةهم إذاهم كتبوا في الوسائل الأدبية . وتخففوا ، جهدهم ، من الإمعان في طلب المحسنات البديعية ، والارتصاد لاصطيادها . فضلاً عن سوق الكلام لمجرد شكها وإصابتها .

ولا تنس ، مع هذا ، عاملاً خطيراً كان له أثره البعيد في تطور الأدب العربي عامة ، وفي النثر خاصة . وذلك أن ظهور المتعلمين على الأدب الغربي في لغاته ، أوترجماً إلى العربية ، وإمعانهم في قراءته وتقليب الذهن فيه ، كان له في أقلام الكتّاب أثر بعيد ظهر واضحاً في صرف أجل العناية إلى المعاني لا إلى تحسين اللفظ وتبهيجه ، وفي القصد في الألفاظ فلا يُطلق منها إلا بقدر المعاني القائمة في النفس ، والتيجوز من المبالغات المموجة ، والتحليق بالأخيلة السخيفة ، والانصراف عن التمهيد بالمقدمات الطويلة التي كثيراً ما تستهلك جهد الكاتب والقارئ جميعاً دون بلوغ الغرض الذي سيق له الكلام .

وكان من أثر هذا أيضاً تغير طريقة الكتابة طوعاً لتغير طريقة التفكير ، وتقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد . واعتماد لون طريف في ترتيب الكلام وتبويبه وسوق المقال في الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجاوز بكثير من المفردات لإصابة



مالا تطوله بأصل الوضع اللغوى. كما أن النقد قد اتخذ مذهبا حديثا ، ودقّ تحليل  
الأناسى واتسعت رقعته ، وتجاوز النقد غالبا تناول الكلام جملة بجملة إلى تناول  
الموضوع كله باعتباره صورة واحدة إلا ما كان له من الجمل خطر خاص . وإهمال  
الالتكاء فى تأييد المسائل العلمية ، وخاصة فى أبواب الأخلاق والآداب ، على  
إيراد المأثور من الحكم . وغير ذلك مما لا يسهل استقصاؤه .

وقد استحدث قيام الحرب العالمية وما وليها من الرجات ، وخاصة فى مصر ،  
صيفا كثيرة جدا لا عهد للعربية بها من قبل . وأكثرها مما استساغه المتأدبون ،  
وأجروا به أقلامهم فى الأسباب السياسية بنوع خاص . على أن الكتاب ، مع  
هذا ، ما برحوا جاهدين فى مشاكلة أساليب العربية القديمة ، واستخراج روائعها ،  
وتحرى فصيحها .

وفى الواقع ، لقد جلّ شأن النثر فى مصر ، على الزمن ، وخاض كلّ مخاض ،  
 وخاصة فى أبواب السياسة والاجتماع والآداب ، وتجلّى فيها يُسر العربية ووفرها ،  
وقدرتها على الوفاء ، بما كان يظن بها دونة القصور والإعياء .

بقى أنّ من أشدّ ما يتعرّف فيه العلماء وأصحاب الفنون ، ويحدون العُسر أبلغ  
العسر فى أدائه بالعربية ، القدر العظيم من المفردات والمصطلحات العلمية والفنية ،  
وإصابة الأسماء للعدد الضخم من مسميات المخترعات الحديثة وأجزائها . ولقد يبدو  
هذا عجيبا إذا ذكرنا أن ثقافتنا قد اصطبغت من أول منجمها بالصبغة العلمية ، على  
ما تقدم ! . ولكن الواقع أن الحركة العلمية قد أصابها الفتور فى بعض هذه الأثناء ،  
فتحول كثير من الهم إلى الآداب ، وأن العلوم الحديثة ظلت تدرس كلها دهرا  
فى المدارس باللغات الأجنبية . فهذا وهذا لقد كانا السبب فيما ترى . ولو قد  
أطردت نهضة رفاة وتلاميذه لكُفينا المؤونات فى هذا الباب .

على أن إنشاء المجمع الملكى للغة العربية كفى ، إن شاء الله ، بازدهار  
العربية فى العلوم والفنون كما ازدهرت فى ألوان الآداب .



## أنواع النثر

يتقلب النثر الفني في أنواع ثلاثة ، لكل منها صورته ومميزاته ، وهى :

( ١ ) النثر الاجتماعى ، ( ٢ ) نثر الصحافة ، ( ٣ ) النثر الأدبى . ونحن محدثوك عن كل منها بالاختصار :

### ( ١ ) النثر الاجتماعى

وهو الذى يُطلب به تقرير حالة اجتماعية ، أو محاولة لإصلاح ناحية من نواحي الحياة العامة .

وهذا النوع من النثر ينبغى له إلى صحة العبارة ، بالضرورة ، البعد عن الزخرف ، ووضوح العبارة ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج ، وإجرائها على حكم المنطق الصحيح . لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، كما سلف عليك ، فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية فيه ، اللهم إلا فى المقامات التى تستدعى استفزاز الجماهرة وتحسيسها للإفلاق عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بفتح عام . على أن يكون ذلك بقدر ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجرى فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

ومما يتصل بالنثر الاجتماعى السكابة الدينية فى الإصلاح العام .

### ( ٢ ) نثر الصحافة

قد عرفت أن الصحف تنقسم إلى جرائد سياسية ومجلات علمية أو فنية . فنثر الجرائد السياسية يجب أن يكون واضحاً سهلاً بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه . لأن هذه الصحف إنما تتخاطب العامة كما تتخاطب الخاصة ، وتتحدث إلى الجهال



كما تتحدث إلى المتعلمين. هذا إلى أن قراءها إنما يبعونها للساعة، فلا محل للارتفاع بعباراتها والتعمق في معانيها بما يقتضى القارئ كدّ الذهن وإرهاق العصب.

وإذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية لما عرفت من أنه يتكئ، في الغالب، على القضايا العلمية، وعلى الحقائق الواقعة. فإن النثر الصحفى لا يلتزم فيه ذلك. بل إن أكثر اعتماداه في هذا الباب على الأدلة الخطابية، لأنها هي الأنفذ في إقناع الجماهير من جهة، ولأن النزعات السياسية تقوم، في الغالب، على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية.

أما نثر المجلات العلمية والفنية، ويلحق بها الأبواب التى تُحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون، فهذه ينبغى التأنق في عباراتها والإيغال في معانيها تحقيقاً للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب. ولأن هذه الصحف لا يُقبل على قراءتها إلا المتعلمون.

### ( ٣ ) النثر الأدبى

وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ، والتأنق في النظم، حتى يخرج الكلام مُشرقاً نيراً، لطيف الموضع في النفوس، حلواً للنبوة في الآذان. لأن الصناعة اللفظية عنصر فيه ذو خطر كبير. فهو أدنى ألوان النثر إلى الشعر، ولهذا لا يُنكر منه البديع، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارئ، وبحيث لا يُستكره على النظم استكراها، ولا تُساق الجملة لمجرد اصطياده، بل إن خيره ما جاء عفواً، وما استشرف له الكلام استشرافاً.



وهذا التخيّر والاصطفاء ، وتجويد النسخ ، والتأنق في النظم ، يقتضى إلى ما بوفر من مفردات اللغة وخبرة بمواقعها ، واستظهار كثير من الشعر . وما جادت به أقلام البلغاء ، وأرسلته ألسنة أعلام الخطباء ، إلى أن يكون للرء طبيعة ودقة ذوق ، ورهافة حسّ ، وبصّر بدقائق الأشياء ، وفطنة إلى مواقع الجمال .

ومن أشهر من شهروا في هذا العصر في النثر الاجتماعي : السيد جمال الدين الأفغانى ، وقاسم بك أمين . وفي النثر الصحفي الشيخ على يوسف . وفي الكتابة في الموضوعات الدينية الشيخ محمد عبده . والشيخ عبد العزيز جاویش . وفي الكتابة العلمية الدكتور صروف . وفي النثر الأدبى أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله باشا فكرى ، وإبراهيم بك المولىحى ، والسيد مصطفى المنفلوطى .

وإليك موجزا في سيرة كل منهم وفي آثاره :

## ( ١ ) جمال الدين الأفغانى

المتوفى سنة ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٧ م )

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما . وُلد بقرية أسعد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان ، وعشيرته فيها من أكبر العشائر وأجلّها محلا . وقد تحول به أبوه إلى كابل وهو لما يزل في الثامنة من عمره فتلقّى فيها مبادئ العلوم العربية ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية ودرس التاريخ وعلوم الرياضة والهيئة وغيرها ، وواتته شدة ذكائه بالتبريز في كل ذلك في مدّى قصير . ثم شخّص إلى الهند فأقام هنالك سنة وبضعة أشهر راجع فيها العلوم الرياضية على الأسلوب الحديث . وما زال يضطرب بين أقاليم الأرض المختلفة يعالج العظائم ، ويعانى جُلّ الأحداث حتى وفد على مصر سنة ٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) . ولم يكن وفوده بنية الإقامة . غير أنّ المرحوم رياض باشا ، رئيس الوزارة يومئذ ، حبّب إليه المقام استفادة بفضلله وحكيم رأيه . وأجرت عليه



الحكومة رزقا شهريا يقيم به شأنه . وتصدر في داره لقراءة كتب العلم في التوحيد والفلسفة وأصول الفقه وغيرها ، فاستوى إلى دروسه الكثير من نجباء الطلاب .

ولقد كان جمال الدين يمتاز بحدة الذكاء ، ووثاقة العقل ، وشدة الطبع ، وقوة العزم ، كما أوفى على الغاية من اللسان وصولة الحجّة . وكان لا يفتأ ينفخ في طلابه وجلاسه روح الحرية السياسية ، ويدعو إلى العمل على جمع كلمة المسلمين في أقطار العالم . وقد تخرج عليه طائفة من علاصيتهم في العلم والفضل والسياسة وقوة البيان .

على أن الرجل وإن كان هو نفسه لم يصب حظا عظيما من العربية ، ولم يتذوق منازع بلاغاتها بقدر كبير ، إلا أنه أجدى على العربية في نهضتها الأخيرة باستحثاث طلابه على الالتفات إلى المعاني وترك العناية بزخرف اللفظ ، والتكاثر بالعبارات الجوفاء لا تحمل معنى ولا تتدقّ إلى غرض ، وصرفهم عن التمهيد بين يدى كل موضوع بتلك المقدمات الطويلة التي لا تدعو إليها حاجة الكلام .

ومع أنه لم يكن سريّا من العربية وآدابها إلا أنه بشدة نفسه وقوة تفكيره كان ينتزع البلاغة انتزاعا : فترى لقلمه سطوة لا تراها لكثير من الأقلام وإن كانت تأبى عليه أعجميته إلا أن يغلط أحيانا في بسائط الإملاء <sup>(١)</sup> .

ولقد أخرج من القطر المصري في سنة ١٢٩٦ هـ ( ١٨٧٩ م ) فرحل إلى الهند ثم تحول إلى إنجلترا فلم يلبث فيها طويلا . ثم شخص إلى باريس ، وهناك وافاه إليها تلميذه المرحوم الشيخ محمد عبده ، وأخرجها جريدة ( العروة الوثقى ) داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ورفع النير الأجنبي عنهم .

وانتهت به خاتمة المطاف إلى الآستانة ، فأقام فيها مكرّم المنزلة أثيرا عند السلطان حتى قبض إلى رحمة الله .

---

(١) تجد نموذجا من بيانه في الجزء الثاني من المنتخب .



## ( ٢ ) قاسم بك أمين

المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٨ م )

انحدر من أصل كردى ، ولكنه ولد فى مصر وتعلّم فى مدارسها ، ودرس الحقوق ثم شخّص إلى باريس فأتمّ علومه هناك . ولما عاد نُظِمَ فى السلك القضائى وما زال يتدرّج فيه حتى صار مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية . وظل فى هذا المنصب حتى توفى إلى رحمة الله .

ولقد كان قاسم شديد الذكاء ، راجح العقل ، هادئ السعى ، لطيف النفس كثير الإطراق . لا يتهافت على مجالس الناس ولا يُكثر من الترائى لهم ، قانعا بنفر من صحبه يحالسهم ، ويتبسّط بالحديث معهم . وكان له حسّ مرهف ، وذوق دقيق ، لا يتعلق من المعانى إلا بكل جميل . وهو إلى هذا قوى الطبع جريّ الجنان .

رأى أن المرأة المسلمة محرومة من العلم ، محرومة من الحرية ، يحول الحجاب بينها وبين المشاركة بقسط صالح فى أسباب الحياة . وأن إمعانها فى الجهالة مما يحول بينها وبين تربية الصغار وإحسان نشأتهم ، فضلا على أنه يفسّح المدى بينها وبين زوجها لاختلاف العقل والثقافة . وليس من شأن هذا أن يعقد التعاون بين طرفى الأسرة على ما يحقق منافعها . ويتضمّن المستقبل السعيد لها . فوق أن السعادة البيتية لا يمكن أن تنهيا مع تلك الحال — فوضع كتابا دعاه ( تحرير المرأة ) دعا فيه إلى وجوب تعليمها وإطلاقها من الحجاب . والتمس لرأيه الأدلة الكثيرة من الشرع الحكيم ، ومن التاريخ ، ومن قواعد الاجتماع ، ومن الواقع المحسوس . فنارت لهذا الكتاب ثائرة الخاصة والعامة جميعا . ففريق من الخاصة أيدوه وشايعوه . وفريق خاصموه وجادلوه . أما العامة جميعا وأشباههم فقد كرهوه وأطلقوا



ألستهم بكلمة السوء فيه . على أن الرجل صمد لهذا ولم يهن له عزم ، فعاد إلى تأييد رأيه وردّ حجج مخالفيه في كتاب دعاه ( المرأة الجديدة ) .

ولم يكن قاسم بك متمكّنا من العربية ، ولا على حظّ عظيم من مظاهر بلاغاتها . بل لعله كان أشدّ تمكّنا من الفرنسية وآدابها . ولكنك مع هذا تجد كلامه مشرقا نيرا ، يجرى في قصّد وحسن سبك . وذلك إنما جاءه من جمال نفسه ، ورهافة حسّه ، ولطف ذوقه ، وتمكّنه من الأدب الفرنسى الذى ترى أثره واضحاً فيما استخرج قاسم من طريف الصيغ ، كما تراه واضحاً فى أسلوب حوارهِ ، وطريقة تدليلهِ (١) .

### ( ٣ ) الشيخ على يوسف

المتوفى سنة ١٣٣١ هـ ( ١٩١٣ م )

ولد فى قرية بلّصفوره من أعمال مديرية جرجا . وقد نجم من أسرة حسبية كريمة ، غير أنها قد رقت على الأيام حالها . وبعد أن تعلم فى كُتاب القرية مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الحكيم أُشخّص إلى بلدة بنى عدى من أعمال مديرية أسيوط ليتلقى العلم على أفاضل العلماء هناك . ولما حصّل من العلم صَدْرًا محمودًا وقَد على الأزهر فانتظم فى طلابه ، وجعل يأخذ عن كبار شيوخه . على أن هواه إلى الأدب صرف أجلّ عنايته إلى قراءة كتبه ، والتروى من ألوان بلاغات العربية . فقرض الشعر فى المديح وغيره شعرا يتسق لطالب أزهرى فى مثل تلك الأيام . وجعل يعالج الكتابة فى الصحف الحين بعد الحين . وكان رحمه الله وثيق الحلم ، شديد الطبع ، صلب العزم ، فأصدر فى سنة ١٨٨٥ م مع صديق له

---

(١) تجد نموذجا من بيانه فى ( المرأة الجديدة ) فى الجزء الأول من المنتخب ، وآخر من تحرير

المرأة فى الجزء الثانى .



يدعى الشيخ أحمد ماضى بمجلة دعواها الآداب . ثم أصدر جريدة المؤيد سياسية يومية . ثم استقل بها الشيخ على بعد قليل . وقد علمت شأن المؤيد فى الحديث عن الصحافة فلا محل لمعاودة الكلام فيه ، وإنما هذا الحديث لصاحبه ، فما زال بيان الشيخ منضقل ويعلو حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ فى هذا الضرب من البيان ، وحتى سوى نفسه أسلوبا كتابيا لا عهد للناس به من قبل ولا من بعد إلى الآن .

كان بيانه يجمع إلى السهولة والسلاسة متانة الرصف وقوة الكلام . وكان لمحجته فى حوار السياسى سطوة لا تنهيا لكثير من الكتاب . وكان رجل كفاح ونضال . ولقد طالما تظاهرت عليه القوى المختلفة وأخذته الصيحات من جميع أقطاره ، فصمد لتزاهى ما يتجامل له عزم حتى يخرج من الميدان ولا يخرج منه إلا متصرا قاهرا . وكثيرا ما كان خصومه يؤلبون جمهرة الناس عليه ، فتجهد فى عداوته والكيد له ، حتى إذا حدثت الأحداث وكرئت الكوارث ارتفعت الأنظار إلى الشيخ على من كل جانب ، وتطالت الأعناق تسمعا لما يقول ، فإذا قال كفى وشفى ، وتقع الغلل وأبرأ العلل .

وهنا ينبغى أن ننبه الطالب إلى شىء حقيق بالتنبيه : ذلك أن هناك نوعا من البيان لا يدرك وزنه ، ولا يقدر قدره ، إلا فى وقته أو ما جاور وقته ، فإذا تقادم العهد تغير حكم النقد عليه بقدر كبير أو صغير . لأنه خرج فى ظرف خاص ، إذ شعور الجمهور وعواطفه نائرة فى لون خاص . فإذا ذهب الحادث وانصرفت العواطف إلى شىء آخر ذهبت جدة المقال ، ولم يبق عليه من الطلاوة ما كان له فى وقته . وأكثر ما يكون هذا فى المقالات السياسية . وكذلك كان شأن الشيخ على فى أكثر ما كتب . وليس هذا بغاىض من قدر بيانه ، فحسبه أن عرف ساعة النزال كيف يصيب المقاتل ، ويقصد بالسهم الكلى والمفاصل (١) .

(١) تجد نموذجا من إثنائه الصحفى فى الجزء الثانى من المنتخب .



وقد أدرك الشيخ على من عظم الشأن وجلالة المحل ما لم يدركه صحفى فى مصر قبله .

وفى مؤخرات أيامه ولّاه ولى الأمر مشيخة السادة الوفائية خلفا لصهره المرحوم السيد أحمد عبد الخالق السادات . وظلّ مع هذا قائما بتحرير المؤيد ، بعد أن رفع اسمه عنه ، إلى أن وافاه القضاء .

#### ( ٤ ) الشيخ محمد عبده

المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٥ م )

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله . ولد بحلة نصر من أعمال مديرية البحيرة . وتعلم فى كتاب القرية مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم . وأُتخِص إلى طنطا لطلب العلم فى الجامع الأحمدي . ثم تحوّل إلى الطالب فى الجامع الأزهر فلما لبث فيه طويلا حتى فرّ . ثم عاد إليه وأخذ عن كبار شيوخه . وما إن هبط السيد جمال الدين الأفغانى مصر حتى كان الشيخ من أوائل من استَوّوا لدروسه ولأزموه مجالسه واستمعوا لدعوته . وأحرز شهادة العالمية فى سنة ١٢٩٤ هـ ثم تولّى التدريس فى دار العلوم . ثم رياسة التحرير فى " الوقائع المصرية " . ثم شَبَّث الثورة العربية نخاض غمارها وأوضع فيها أيما إضاع . فلما خَبَّت نارها أبعد عن مصر فرحل إلى سورية فأقام فيها دهرا ، شرح فى أنشائه نهج البلاغة ومقامات البدع . ثم رحل إلى باريس لاحقا بأستاذه جمال الدين ، فأصدرها صحيفة " العروة الوثقى " كما تقدم . ثم عفا عنه ولى الأمر فعاد إلى مصر وأقيم قاضيا فى المحاكم الأهلية ، ثم رقى مستشارا فى محكمة الاستئناف العليا . ثم اختير مفتيا للديار المصرية ، وعيّن عضوا فى مجلس إدارة الأزهر لأول العهد بإنشائه لتقدم رغبة أولى الأمر فى تنظيم الأزهر وإصلاح التعليم فيه ، وإدخال طَرف من العلوم الحديثة إليه . وما برج فى منصب الإفتاء حتى قبض إلى رحمة الله .



وقد قرأ في الأزهر في أثناء قيامه بالإفتاء كتباً في البلاغة والمنطق ، وصدرًا من تفسير الكتاب العزيز نحا فيه نحواً طريفاً من التوفيق بين آية الكريمة وبين موجب العقل والحكمة ، ومسايرة أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران ، والإبانة عما تنطوى عليه من جليل المرامي في إصلاح شأن الأفراد والجماعات ، والارتفاع بشأن الإنسانية إلى أوفى حدود الكمال . وله رحمه الله من المصنفات رسالة في التوحيد ، وتفسير جزء (عم) وشرح نهج البلاغة وآخر لمقامات البديع . ورسالة دعاها ( العلم والمدنية في الإسلام والنصرانية ) .

وأسلوبه الكتابي يتزع إلى جزالة اللفظ وقوة السبك ، وسطوة المقال ، وقد يعمد أحياناً إلى السجع وإلى غيره من المحسنات فيروضها في لباقة لنظم الكلام . ولعل فحولة لفظه نضحت عليه من طول النظر في نهج البلاغة . أما سطوة قلمه فلا شك أنها كانت من أثر شدة طبعه<sup>(١)</sup> .

## ( ٥ ) الشيخ عبد العزيز جاویش

المتوفى سنة ١٩٢٨ م

ينحدر من أصل مغربي ؛ ولكنه وُلد في الإسكندرية ونشأ بها . وبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الحكيم طلب العلم في جامع الشيخ هناك ، ثم وفد على الأزهر فطلب العلم فيه وأخذ عن كبار شيوخه . ثم دخل دار العلوم ، واشتهر بين لِداته بالجد في الطلب ، والجد في القول والعمل ، والغيرة على الدين وعلى الكرامة جميعاً . أما صلابة رأيه فيما يراه الحق فكانت عندهم من مضارب الأمثال . فلما نال إجازة دار العلوم تولى التدريس في مدرسة الناصرية . ثم سافر في بعثة إلى إنجلترا ، فلما أتم ما تحرر له من العلوم عاد مفتشاً

(١) ترى نموذجاً من بيانه في الجزء الأول من المنتخب .



في الوزارة . ثم عين أستاذا للغة العربية في جامعة كبردج . فقضى هناك مدة ثم عاد إلى التفتيش في الوزارة .

ثم أثر على المنصب الحكومي خدمة البلاد من طريق الصحافة ، وكان هواه السياسي كله إلى الحزب الوطني ، بل لقد كان من الغلاة في هذا المذهب ، فاستقال وقام بالتحرير في جريدة اللواء ، وجعل يكتب المقالات السياسية تتدفق قوة وتلهب حماسة ، ثم اتهم في جريمة صحفية ، ففُضِيَ عليه بالحبس فيها أشهراً . ولما خَلَّى سبيله رحل إلى أوربا . ثم نشبت الحرب العالمية فلم يجد إلى العودة سبيلاً ، فظلَّ يتقلب في بلادها المختلفة ، وكان أكثر مقامه في ألمانيا . وقد ذاق الأمرين من الفاقة والغربة في تلك الظروف القاسية ، والبعد عن الصَّحْب والولد ، وامْتَحَن بهذا كله امتحاناً شديداً ، ولكنه صبر لقضاء الله . على أنه ما برح يجهد في الدعوة لمصر ما وجد إلى الدعوة سبيلاً . وبعد أن وقفت رجلي الحرب عاد إلى مصر وهو في أسوأ الأحوال . وبعد لَأَى أُسْنَد إليه منصب مراقب التعليم الأولى في وزارة المعارف ، والعزم مجتمع لتعميم هذا النوع من التعليم في جميع أرجاء البلاد ، طوعاً لحكم الدستور . فاضطلع رحمه الله بالأمر وجدَّ وجهه ، وذلل الصَّعْب ويسَّر العسير . وخطَّ المشروع خطًّا واسعة . إلا أن الشيخ لم يلبث بضع سنين حتى أدركته علة القلب ، فما وهن ولا فتر حتى غلبه الأجل المحتوم .

وكان الشيخ جاويز ، رحمه الله ، إلى ماله من الصفات التي ذكرناها لك في صدر هذه الترجمة ، عذب الروح ، حلوا الحديث في توقُّر واحتشام ، شديد الحياء حتى ما يكاد يرفع بصره إلى محدثه . وكان مع هذا حاد المزاج يثور لأقل ما يتوهم فيه الغص من كرامته أو تهاون دينه : بل مخالفة رأيه . على أنه كان من صفاء النفس ، وطيبة القلب ، وخلوص النية بالمكان الأرفع ، كما كان سمحاً كريماً يجرود حتى بقوته ولو لم يكن إلى سواه السبيل .



أما أسلوبه فقوىّ جزل سهل : ولفظه شريف نخم . يترسم فيه أسلوب نهج  
البلاغة . وقد يعمد إلى السجع فيجىء به في براعة وإحسان (١) .

(١) ومن بيانه ، رحمه الله ، في الموضوعات الدينية ما كتبه تحت عنوان (في الإسلام) :  
سمعت بعض المارقين الذين لا يتجاوز إسلامهم أزياءهم وأسماءهم يقول ذات يوم إنه يستهجن أن  
تلمس الفضائل والمكارم من طريق الدين . إذ خير للء أن يمت إليها بأسباب أخرى كالبحث والنظر  
في مزاياها وخواصها حتى تتجلى له صفاتها الطيبة فتجذب نفسه إليها تعشقا لحاسنها وجمالها . فإذا قام  
الناس بالهداية والإرشاد من هذا الطريق فما حاجة الناس لإذن إلى الدين ؟

يزعم أمثال هذا الجاهل أن دعوى العلم قد تؤيدها أمثال هذه السخافات ، فهم ، ما استطاعوا ،  
ينشرونها بين النابتة من أبناء المسلمين ليضالوهم بها غير مبتغين منهم سوى أن ينعتوهم "بالفلاسفة" أو بدوى  
الأفكار الحرة . ولو فقهوا قليلا لعلموا أنه ليست الفلسفة إلا إدراك حقائق الأشياء من غير تنطع ولا جحود  
وأنتهم لو كانوا من أهل النظر لعلموا أن الدين أقرب طريق إلى معرفة الحق والباطل . وأن الأخذ بمسائله  
وأحكامه وأخباره يحدث في النفوس وازعا عن الشرور والمآثم أكثر مما تحدثه الدراسات على النحو الذي  
يبتغيه أولئك المتعالمون المتفهمون . يفسر هذا قوله عليه الصلاة والسلام ما معناه : "يزع الله بالقرءان  
أكثر مما يزع بالسلطان" .

والأصل في ذلك أن زمام العالم في قبضة عقائدهم ، فيها يرتكبون المناكير ، ويترفون السيئات  
وبها يفعلون كثيرا من الطيبات والحسنات . ذلك لأن الاعتقاد الجازم الذي لا تنقضه الشكوك ، ولا  
تؤثر فيه هواجس الشبهات يستلزم أن يعمل صاحبه على مقتضاه . فإذا ما وهنت العقيدة ، وأرخت  
لشكوك والسواس العنان للنفس خبطت خبط العشواء ، وتقاذفتها عوامل الأهواء . وقلبا سهلت لها  
سيرة من عثرة ، أو وضحت أمامها سبيل إلى الخير .



## ( ٦ ) الدكتور صروف

المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ ( ١٩٢٧ م )

هو الدكتور يعقوب صروف بن نقولا . وُلد في بلدة الحَدَث القريبة من بيروت . وتلقَّى علومه الابتدائية في مدرستى سوق الغرب وعُيِّية التي يقوم عليهما المبعوثون الأمريكان . ولما بلغ من التعليم الابتدائى غايته دخل الكلية الأمريكية في بيروت ، وظلَّ فيها طالبا مجتادا يدرس العلوم اللغوية والكونية والطبيعية والفلسفية حتى نال الإجازة العالية في سنة ١٨٧٠ م وبرع في اللغة الإنجليزية ، وحصلَ طَرَفًا من الفرنسية واليونانية . وأقيم أستاذًا في الكلية التي تخرَّجَ عليها . وفي سنة ١٨٧٦ م أصدر مع زميله في الطلب الدكتور فارس نمر مجلَّة دعواها ( المقتطف ) لمعالجة البحوث العلمية والأدبية والزراعية والصناعية . وبعد عامين انضم إليهما شاهين مكارىوس على أن يَلِيَ إدارة المجلَّة . وفي سنة ١٨٨٦ م تحوَّل بها ثلاثتهم إلى مصر ، وما بَرَحَ المقتطف يصدر في القاهرة إلى الآن . وفي سنة ١٨٨٨ م أصدر مع زميله جريدة المقطم يومية سياسية . وما زالت كذلك تصدر في القاهرة إلى الآن .

والدكتور صروف كان إلى رجاحة عقله ، وذكاء لبه ، غزير العلم ، واسع الاطلاع ، شديد الصبر على معاناة القضايا العلمية وتحقيقها . وحسبه في هذا أنه طوى من عمره نحو اثنتين وخمسين سنة يعالج في ” المقتطف ” أجلَّ البحوث في العلوم والفنون والآداب ، ويحجب بعد المراجعة والتبَيُّن عن كل ما يُسأل عنه مما يتصل بأسباب الحياة . هذا إلى اشتراكه ، بقدر ، في تحرير صحيفة يومية سياسية . ونقول بقدر لأنه جعل أكثر باله للمقتطف لا للمقطم .

ولقد كان وديعا طيب النفس حلو الحديث عذب اللسان . وعلى الجملة فقد كان الرجل متخلقا بما ينبغي لمثله من كبار العلماء . وله ثلاث روايات من وضعه



اثنان عن مصر والثالثة عن لبنان . وترجم إلى العربية كتاب ( سر النجاح ) . أما أسلوبه البيانيّ فسهل رصين لا يتكلّف فيه ولا يطالب الزخرف ، تغلب عليه اللهجة العلمية ولو جرى في غير قضايا العلم <sup>(١)</sup> .

والدكتور صروف يُعتبر بحقّ من بُناة الثقافة في مصر وفي سائر الأقاليم العربية التي لها حظ من الحضارة والعرفان .

## ( ٧ ) أحمد فارس الشدياق

المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ ( ١٨٨٧ م )

أصله ماروني ، وُلد في بلدة عشقوت من أعمال لبنان . وبعد أن حصّل صدرًا صالحًا من العلم وأصاب حظًا من اللغة تحوّل إلى مصر فأتّم فيها علومه . ثم شارك في تحرير ( الوقائع المصرية ) . ثم انتهى به المطاف إلى لندن للمعاونة في ترجمة التوراة إلى العربية . ثم رحل إلى تونس واتّصل بالباي فأكرمه وآثره . فأسلم وُسّى أحمد . ثم شخّص إلى الآستانة . وهناك أصدر جريدة الجوائب ، فكان لها شأن مذكور في ذلك الزمان . وكان متبحرًا في العربية ، متمكنًا من فنونها ، واقفًا على أسرارها ودقائقها . وقد أوتي مع هذا بيانًا سهلاً يُلين له وجوه المقاصد ، وترهف له الآذان . ويهفو إليه مُستصعب الأذهان <sup>(٢)</sup> . وله كذلك شعر مشرق الديباجة رصين البناء . وقد مدح باي تونس بقصيدة رنانة جارية فيها مدح كعب بن زهير في النبي صلى الله عليه وسلم .

وله مؤلّفات جمّة من أهمها كتاب ( الساق على الساق ) أجراه على أسلوب فكاهيّ بديع لم يُسبق إليه في العربية ، لولا إسفافه أحيانًا إلى ألوان من المجون

(١) تجد نموذجًا من بيانه التعليمي في الجزء الأول من المنتخب .

(٢) تجد نموذجًا من نثره في الجزء الثاني من المنتخب .



لأنَّه من مثله . ولقد تعمَّد أن يبذل فيه ما شاء الله من فنون المترادفات اللغوية في الأغراض المختلفة مما يدلُّ على سعة علمه بدقائق العربية . وله مؤلَّفات أخرى في نحو اللغة العربية وصرفها ، وفي نحو اللغة الإنجليزية ، وفي صرف اللغة الفرنسية وفي الأدب العربيّ وله كذلك كتاب في نقد قاموس الفيروز آبادي دعاه (الجاسوس على القاموس) . وله رحلتان إحداهما إلى أوروبا والأخرى إلى مالطة . وله كتب أخرى في موضوعات متفرقة . وديوان شعر لم يطبع .

### ( ٨ ) عبد الله فكرى باشا

المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ( ١٨٨٩ م )

هو الوزير العالم الكاتب الشاعر عبد الله فكرى باشا ، ابن محمد أفندى بليغ المهندس ، ابن الشيخ عبد الله من علماء الأزهر . وُلد المترجم في مكة المكرمة إذ كان أبوه قد رحل إلى الحجاز مع الجيوش المصرية . ثم عاد به إلى القاهرة ، وتوفى أبوه وهو لما يبلغ الحلم ، فتولاه بعض قرابة أبيه من السادة العلوية ، فواصلوا تحفيظه القرآن الكريم حتى أتمه وجوده ، ثم طلب العلم في الجامع الأزهر وأخذ عن كبار شيوخه ، وكان في الوقت نفسه يتعلم اللغة التركية حتى إذا حذقها عُن في القلم التركي في الديوان الكِتخدائي ، على أن لم ذلك يصرفه عن طلب العلم في الأزهر قبل ذهابه إلى الديوان وبعد قفوله ، إلى أن تراحمت أشغاله فانقطع عنه ، ثم حول إلى ديوان المحافظة ، ثم إلى الداخلية ، ثم التحق بالمعية الخديوية في عهد المرحوم سعيد باشا ، وتولَّى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية تارة وبالعربية أخرى .

ولما صار أمر مصر إلى المرحوم إسماعيل باشا استبقاه في خدمته وقربه واستصحبه معه مرارا إلى الآستانة ( مثوى الخلافة يومئذ ) . وعهد إليه بمراقبة الدروس الشرقية التي يتلقاها في باريس الأمراء أولاده وأحفاده مع ما يتلقَّون فيها



من العلوم والفنون . فكأن يُشرف على تلك الدروس ، وأحيانا يتولّاها بنفسه ثم عاد مع المرحوم توفيق باشا أكبر أولاد الخديو إسماعيل . ثم نقل إلى نظارة (وزارة) المالية ، وفي هذه الأثناء أعان المرحوم على مبارك باشا إعانة قيمة في إنشاء الكتبخانة الخديوية ( دار الكتب المصرية ) وقد سلف عليك موجز من تاريخها .

ثم عُين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، ثم صار وكيلا لنظارة المعارف العمومية ثم أسند إليه مع قيامه في هذا المنصب منصبُ المكاتب الأول في مجلس النواب ، ثم صار ناظرا للمعارف العمومية ، ثم استقال مع سائر النظار ( الوزراء ) بسبب الفتنة العرابية . فلما أُنحلت تلك الثورة أتهم بالمشاركة في إذكائها مع من أتهموا ، ثم ثبتت براءته فأطلق من سجنه ، إلا أن ( معاشه ) ظلّ محبوسا عنه لتغيّر الخديو توفيق عليه فراح يستعطفه ويتبرأ لديه من تهمة الانحراف عن طاعته بتلك القصيدة الفاخرة التي مطلعها ( كتابي توجّه وجهه الساحة الكبرى )<sup>(١)</sup> فعفا عنه وأطلق له ( معاشه ) ثم مضى إلى الحجاز حاجّا فلقي من أمرائه وعلمائه وأدبائه أبلغ الحفاوة والإعظام . وله في هذه الرحلة مقال يُعرف بالرحلة المكيّة . ثم شخص إلى القدس والخليل حتى إذا تم له ما أراد من زيارة مقامات الأنبياء والأصفياء عرج على لبنان للسياحة وتبديل الهواء ، فلقي من أهله ما شاء الله من إكبار وإكرام لما رأوا من سعة علمه وعظم فضله ، وبراعة أدبه ، وحسن محاضرته .

وفي سنة ١٣٠٦ هـ أقيم رئيسا للوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الذى عُقد فى مدينة استكهلم عاصمة السويد والنرويج ( يومئذ ) ، فأدرك من سائر العلماء الوافدين على المؤتمر أبغح حظ من الرعاية والتبجيل ، وانتَهز هذه الفرصة بفحالى فى كثير من عواصم أوربا وكبار مدنها يطالع مكتباتها ودور طباعتها ، ويشاهد متاحفها ، ومعاهدها . ثم عاد وتهايا لوضع رحلة جامعة يضمونها ما شاهد من مجالى الطبيعة فى تلك البلاد ،

(١) تجد هذه القصيدة بنصها فى الجزء الثانى من المنتخب .



وما رأى من آثار العقل الغربى فى الحضارة الأوربية القائمة . غير أن الموت لم يلبثه حتى يتم هذه الرحلة فأتمها ولده المرحوم أمين فكرى باشا .

وعبد الله باشا فكرى من أوائل من بعثوا نهضة اللغة العربية فى هذا العصر ، وردوا عليها قوى بيانها شعرا ونثرا ، إن لم يكن أولهم جميعا . ولو قارنت بيانه ، فى هذين البابين ، ببيان من أدرك عصرهم ومن تقدمهم من أول عهد الأدب العربى بالانحلال ، لعرفت أنه من لم يرتفعوا بالبيان فحسب ، بل ممن لقد طَفَرُوا به طَفرا .

ولقد كان فى أسلوبه الكتابى يتأثر البديع والحوارزمى بالتزام السجع القصير والمحسنات البديعية فى غير تكلف ولا استكراه .

ومن مآثره الجليلة أن المراسلات الديوانية ، لأول منجمه ، كانت تحرر بالتركية الخالصة وأحيانا بعربية عامية بالغة حدود الغاية فى الركاكة والإسفاف . فلما اتصل بمعية الأمير جعل يُصدر عنها الرسائل بلغة فصيحة قوية رصينة اتَّخَذَتْ بعدُ نموذجا للكتابات الديوانية ، وتأثرها الكتاب من عمال الحكومة بقدر ما واثمهم الجهد وانفسح لهم فى صدر البيان<sup>(١)</sup> .

وله ، رحمه الله ، عدا تلك الرحلة التى سبقت الإشارة إليها مؤلف تعليمى جميل يدعى ( الفصول الفكرية ) وترجم عن التركية كتاب ( المملكة الباطنية ) . وقد جمع ولده المرحوم أمين فكرى باشا ما أصابه من شعره ونثره فى كتاب دعاه ( الآثار الفكرية ) مُهدله بترجمة طويلة لحياته بقلم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وعنها اقتبسنا هذه الترجمة . وكل هذه الكتب مطبوع بمصر .

---

(١) تجد نماذج من شعره ونثره فى جزأى المنتخب .



## (٩) إبراهيم بك المويلحي

المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦ م)

هو إبراهيم بك ابن السيد عبد الخالق المويلحي . أصل أجداده من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، وقد انحدروا إلى مصر من زمان بعيد . وولد إبراهيم في مصر ونشأ بها . وكان أبوه من كبار المتجربين في الحرير ، وبيته ، على العموم ، معروف بالحسب والغنى . ولما نال حظاً من التعليم الابتدائي أرادته أبوه على التحرر للتجارة ، ولكن رغبته في العلم وشغفه بالأدب ، دفعاه به ، مع اشتغاله بالتجارة ، إلى مطالعة الكتب ودواوين الشعر ، وكان من أول من تهّدوا في هذه النهضة إلى الأدب القديم ، وأخذوا بروعة بلاغته وسحر بيانه . وأخذ عن السيد جمال الدين الأفغاني ، وصاحب كبار العلماء والأدباء في مصر فتروى عنهم وروى لهم ، وحذق الفرنسية والتركية ، وجوّد التاريخ القديم والحديث . وقرأ من الكتب في ألوان العلوم والفنون ما شاء الله أن يقرأ . وما برح يروض قلمه على البيان متحلاً من قيوده في ذلك العصر شيئاً فشيئاً ، مترسماً أثر الجاحظ وغيره من فحول الكتاب ، مع رعاية العصر وأسبابه ، حتى أوفى على الغاية من صناعة القلم .

ولقد كان المويلحي ، رحمه الله ، ملتهب الذكاء ، حاضر البديهة ، شديد الطبع غضب اللسان ، مغامراً ، لا يرى الرضا بما يبيح من العيش إلا ضرباً من العجز والسكون إلى ما يسكن به الناس إلا من ضعف الهمة ، فالحياة عنده وثب ومجازفة وانتزاع . فلما قضى أبوه غامر تجارته فأنت مغامرته على رأس المال . فنفعه الخديو إسماعيل بمال جليل إبقاء على هذا البيت القديم والكريم موضعه عنده . فما لبث هذا المال أن ضاع أيضاً . فأقامه عضواً في مجلس الاستئناف وتقلب في مناصب أخرى . واشترك في تأليف جمعية دُعيت (جمعية المعارف) لإحياء الكتب القيمة . وأنشأ في سنة ١٢٨٥ هـ مطبعة لطبع تلك الكتب . وأنشأ مع المرحوم محمد عثمان جلال بك جريدة (نزهة الأفكار) ، لكنها عطلت كما تقدّم في الكلام على الصحافة



في هذا الكتاب . على أنه لم ينقطع عن الكتابة في الصحف إلى أن أدركته الوفاة . ولما غادر الخديو إسماعيل مصر إلى إيطاليا دعا به ليتخذ كاتب سره ، فلبث هناك بضع سنين . ثم رحل إلى الآستانة فأكرم السلطان وفادته وأقامه عضواً في مجلس المعارف . فلبث هناك بضع سنين كذلك . ثم عاد إلى مصر وأنشأ صحيفة أسبوعية دعاها ( مصباح الشرق ) كانت نموذجاً من أعلى نماذج الأدب الحر في هذا العصر يتطلع إليها المتأدبون في شوق وهف . لما تطلع به من مصفى الكلام ومنتقاه ، وأبدع البيان وأحلاه في أبواب السياسة والعلم والفلسفة والأدب . ويطرقها الكبراء في قلق ووجيب قلوب ، كل خشية أن تدمغه بنقدها المتر الأليم . فلقد كان المويلحي أقدر كتاب العربية على النقد وأمرهم وأوجعهم في غير ما نهش للعرض ولا نُشوز على أحكام القانون . وكان يعاونه في تحرير هذه الصحيفة الفذة ولده الأديب الكاتب العالم محمد بك المويلحي ، وهو الذي كان يكتب رسائل ( حديث عيسى ابن هاشم ) التي سويت بعد كتاباً (١) .

وإبراهيم بك المويلحي يمتاز بجزالة اللفظ ، وحلاوة العبارة ، ودقة الوصف ، والتفطن إلى الدقائق التي لا يتفطن إليها كثير ، والوقوع على المعاني الغريبة التي تثير في النفس عجباً ، وتشيع فيها طرباً ، وحضور الشاهد على كل ما يكتب من شعر قديم ، أو حكمة مأثورة ، أو حادثة كثيراً ما تكون راکدة في إحدى زوايا التاريخ ، حتى يبعثها المويلحي ليكمل بها غرضه في رشاقة إلا تنهياً إلا للاقين من الناس . أما قدرته على النقد فقد أوفى بها على الغاية . وعلى الجملة فقد شرع المويلحي أسلوباً من البيان لم يكن للناس عهد به . وهو يعدّ ، بحق ، من أقوى دعائم النهضة الأدبية الحديثة . وله شعر جزل بديع . وله كتاب أسماه ( ما هنالك ) لم يضيف إليه اسمه ، وصف فيه بلاط السلطان وحال الحكم التركي في تلك الأيام . وعلى ذكر الحكم التركي نقول إنه كان في ذلك العهد من شر أنواع الحكم وأشدّه

(١) تجد نماذج من بيانه في جزأى المنتخب .



استبداداً . يؤخذ برأس المرء فيه على الشبهة ، وينكل به بحض الوشاية ، فاضطرت هذه الحال المويلحى إلى أن يحذق ذلك الفن الذى لا ينبت ولا يعيش ، ولا تدعو إليه حاجة إلا فى مثل تلك البيئات . وهذا الفن يُعَلِّم كيف يُتَّقَى الكيد ، وكيف يكاد للناس ، والعياذ بالله .

## (١٠) المنفلوطى

المتوفى سنة ١٩٢٤ م

هو السيد مصطفى لطفى . وُلِدَ فى منفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وإليها نسب ، وأسرته فيها معفة بالوجاهة والحسب . ولما تعلَّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفَدَّ على الأزهر طالبا ، وحَصَّلَ صَدْرًا من علومه . وكان به شغف شديد للأدب ، فعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ويستظهر ، ولازم من فئاته رجال الأدب وأعيان كُتَّاب الصحف ، وكانت له ملكة ، وفيه طبيعة ، فنظم الشعر جزلا سهلا رصين القافية . وأرسل النثر حلوا مسلسلا محبوبا . وقد شغله هذا ، بقدر ما ، عن الكدح فى مطاولة كتب الأزهر ومعاونة دروسه ، على أنه واطب على حضور دروس الشيخ محمد عبده إلى غايتها . وفى أثناء طلبه فى الأزهر نُسِبَ إليه أنه هجا الخديو السابق بقصيدة نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية ، فحكم عليه فيها بالحبس فقضى فى السجن مدة العقوبة ، ثم عفا الخديو عن جرمه بشفاعة مَنْ لهُم عنده كريم منزلة . فلما صارت نظارة المعارف إلى المرحوم سعد زغلول باشا عينه محررا عربيا لها . ولما تحول إلى نظارة الحفانية حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب . ثم فُصِّلَ بعد سنين من هذا المنصب ، حتى إذا قام البرلمان عن فى ( سكرتاريته ) . على أن الموت لم يُبْلِثْهُ فقضى فى العقد الخامس من عمره .



والمنفلوطى ، رحمه الله ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رحيم القلب ،  
يغمره الشعور بالأسى من كل ما يتغير على هذا العالم من ضروب الويل والشقاء .  
لهذا ترى قلبه أجود ما يكون فى صفة مدنف عان ، أو يтим محروم ، أو متهم مظلوم .  
ونحو هذا من مآسى الحياة . وهو بعد رقيق القلم ، سهل البيان ، حلو العبارة ،  
متين نظم الكلام . إذا هبطت عليه السجعة فذاك ، وإلا لم يتكلف طلبها ولم  
يتعمّل . وكان شديد التذوق لبلاغات العرب ، يحتفل للجملة البارة ، وللصيغة  
الرائعة ، فيفسح لها فى خلال نثره مكانها المقسوم . وقد جمع قدراً عظيماً من مقالاته  
فى كتاب دعاه ( النظرات ) وأخرى فى كتاب دعاه ( العبرات ) . وله مختارات  
بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم دعاها ( مختارات المنفلوطى ) . وهى تدل على  
حسن ذوقه ودقة اختياره . وترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية رواية ( مجدولين )  
بجود فى العربية صياغتها وصقلها صقلاً جميلاً <sup>(١)</sup> .

---

(١) ترى نماذج من بيانه فى جزأى المنتخب .



## الخطابة

هى التحدث باللسان إلى جمع من الناس قَلَّ أو كثر، ولا تكون عادة إلا فى شأنٍ عامٍّ . فينبغى أن تكون الخطبة من السهولة والوضوح بحيث يكون المعنى فى ظاهر اللفظ ، حتى يستطيع فهمها أبداً من يخاطبون بها فهماً ، كما ينبغى أن تكون صغيرة الفواصل قصيرة الجمل ، ليتيسر للسامعين حسن المتابعة ، وللخطيب الاستراحة متى شاء . وأن تكون عباراتها قوية ، وخاصة عند مواقف الكلام . فإن من شأن هذا أن يحمس الجمهور ويستثير عواطفه . وهذا أبلغ ما يُطلب بهذا النوع من الخطاب .

ولا يشترط فى الخطبة التزام الأقيسة المنطقية ، بل إنه لَتُغنى فيها الأقيسة الخطابية والشعرية فيما لا صلة له بقضايا العلم ونحوها مما لا بُدَّ فيه من التحرى والتحقيق .

أما الخطيب نفسه فينبغى أن يكون جَهِير الصوت فى غير إزعاج ، وأن يكون فصيح اللسان ، حاضر البديهة ، جريئاً ثَبَّتَ الجَنَان ، فإن لمطالعة الجماهير رهبة وروعاً . كما أن الخطيب قد يُفاجأ بما لم يدخل فى حسابه ، فإذا لم يؤاته ذهنه ، ولم يُسَعِدْه بيانه ، فلربما سقط سقوطاً لا قيامَ له منه على طول الأيام .

واعلم أن مَلَكة الخطابة إنما تقوى وتشتدّ وشيع فى الناس فى أثناء الرجات الاجتماعية ، والسياسية بوجه خاص ، لأنها هى التى تبعث قادة الفكر والمتصددين لمعالجة الأحداث على استئثار الجماعات وتوجيهها إلى ما يبعون منها فى الشأن العام .

وطوعاً لهذا لقد ظَلَّتْ مَلَكة الخطابة فى ركودٍ من قيام محمد على ، ثم انبعثت فى عهد توفيق ، ثم شَبَّتْ وزَكَتْ فى أثناء الثورة العرابية ، فقام الخطباء المقاويل فى كلِّ مكان . حتى إذا أُخِدت تلك الثورة ، واستقر الأمر للجيش الإنجليزى عادت إلى ركودها . على أنه لم تمض سنون طوال حتى جعل جماعات من المصريين



يتخاطبون في جمعيات صغيرة في الغالب ، مطالبين بجلاء الجيش البريطاني عن البلاد . وفي بعض هذه الجمعيات كان يخطب المرحوم مصطفى كامل تلميذا .  
فما إن شبَّ وختم دروسه حتى جعل يخطب في الآلاف المؤلفة من الناس .  
بعد هذا نورد عليك ذكر نفرٍ من أفذاذ من اشتهروا بالخطابة في هذه النهضة الأخيرة :

### ( ١ ) عبد الله نديم

المتوفى سنة ١٣١٤ هـ ( ١٨٩٦ م )

هو السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم ، وُلد في الإسكندرية ونشأ بها ،  
وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن العزيز صغيرا ، ودخل معهد  
الإسكندرية الديني في ذلك الوقت ( جامع الشيخ إبراهيم باشا ) فدرَّس ما يُدرس  
فيه من العلوم الدينية واللغوية والعقلية . وتعلَّق بالأدب ، حفظ واستظهر ، ونظَّم  
وتثر ، وما لبث أن شاع ذكره فكتبه العلماء ، وطارحه المتأدبون ، وقد نهج  
في بيانه نهجا طريفا لم يسبق إليه . على أن مطالب العيش أعجلته عن مواصلة  
الطلب في ذلك المعهد ، فتعلَّم فن ( التلغراف ) ، واستُخدم في ( تلغرافات الحكومة )  
ولم تقف هذه المهنة عن مذاكرة العلم ومراجعة رفاقه في مسأله أوقات الفراغ .  
ثم فُصل عن الخدمة فاحترف التجارة في مدينة المنصورة ، فلم يخرج منها ولا برأس  
المال ، فقد كان كريما إلى حد الإتلاف . ثم عاد إلى الإسكندرية ، فجدَّ  
في مؤنرات عهد إسماعيل في تأليف جمعية خيرية إسلامية ، وتمَّ له ما أراد ،  
وتسارع أعيان الإسكندرية وسرَّائها إلى معونتها والاشتراك فيها . وكان غرض  
هذه الجمعية تربية النشء وتعليمهم وطبعهم على مكارم الخلال . ولقد سارت في سبيلها  
شوطا ، حتى إذا صار الأمر إلى المرحوم توفيق باشا غذاها بماله وبرعايته معا ،  
وأجرت عليها نظارة المعارف مالا سنويا غير قليل . ثم سعت الوشايات سعيها ففُصل  
النديم منها فصلا .



ومن قبل ذلك جعل يعالج الكتابة في المطالب السياسية ويرسل المقالات في الصحف السيارة، فعظم شأنه، وازدادت نباهة اسمه. وأنشأ جريدة أسبوعية دعاها (التنكيك والتبكيك) ظاهرها الهزل المضحك، وباطنها الجحد الأليم. ثم استبدل بها الطائف. وكان من النافخين في ضرام الثورة العربية، فلما اشتعلت كان خطيبها المفوه، وفارسها المعلم، كما كانت جريدة (الطائف) أفسح ميداناً للثائرين من حملة الأقلام. ولما خبت الثورة وقُبِضَ على مَنْ قُبِضَ من أعلامها اختفى ولزم التنكر عشر سنين، ثم قُبِضَ عليه وحُيِسَ أياماً. ثم عفا الخديو عنه على أن يترك البلاد المصرية إلى حيث يشاء، فاختر فلسطين مقاما. ثم عاد إلى مصر بعد أن أُطِيقَ له ذلك، فأنشأ في القاهرة مجلة علمية أدبية دعاها (الأستاذ) فعلا صيتها وتخطفتها الأيدي. ولكنه كان يدس فيها من المغامر ما بعث الحكومة على إبعاده ثانية من هذه البلاد. وأخيراً طاب له المقام في الآستانة فنال حظوة عند السلطان وعُين مفتشاً للطبوعات في الباب العالي، ولبت هناك حتى قبض إلى رحمة الله.

وبعد فإن السيد عبد الله نديماً لم يكن وافر المحصول من العلم، إلا أنه كان عظيم الحظ من الأدب. وكان ذكياً متوقداً للذهن، حاضر البديهة، سريع الجواب ذرب اللسان، قوى العارضة، بصيراً حق البصير بعاتات المصريين وخلاهم، وأحوال طبقاتهم، محيطاً بال دقيق والخليل من أسبابهم. فإذا كتب أعجب، وإذا خطب خلب، وإذا جادل عزّ وغلّب. وأسلوبه البياني طليّ طريف، وكثيراً ما يأتي فيه بالعجب العاجب من غريب الكلام. ومما أثار عن السيد جمال الدين الأفغانى أنه قال: "ما رأيت طول حياتي مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل، ووضع الألفاظ وضعا محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب". وعلى الجملة فالسيد النديم يعدّ بحق من أعظم قادة الجماهير<sup>(١)</sup>.

(١) نجد نموذجاً من شعره وآخر من ثمره في الجزء الثاني من المنتخب.



## ( ٢ ) مصطفى كامل باشا

المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ ( ١٩٠٨ م )

ولد بالقاهرة ونشأ فيها ، وتعلم في مدارس الحكومة ، وجاز مرحلق التعليم الابتدائي والثانوي . في غير عُشر ، ثم دخل مدرسة الحقوق فتدرج في سنيها طالبا متقدما حتى نال إجازتها . وكان في أثناء الدراسة الثانوية يحنث إلى مجلس المرحوم على مبارك باشا ، ناظر المعارف يومئذ ، فيحاور القوم ويأخذ معهم في أحاديثهم ، والباشا يظهر الإعجاب به ، وكثيرا ما يُسنى له الجوائز تشجيعا له واستدراجا لغيره .

ولما صار إلى مدرسة الحقوق جعل يكثر من حديث الوطن ، ويناجي به لِداته ومن يلا بسهم من غيرهم ، كما جعل يأخذ نفسه بالتمرين في الخطابة في الجمعيات التي كانت تقوم في ذلك العهد ، وأنشأ يكتب المقالات السياسية يرسلها في جريدة المؤيد ، ويرتصد لكل حادث يتصل بالوطن فيكون أول المحتفلين له . فلفت إليه الأنظار وأهفى له القلوب . ولما نال إجازة الحقوق لم يلتمس منصبا في القضاء ولا طلب مهنة المحاماة ، بل عدل عنهما جميعا إلى التحرر لخدمة الوطن ، من طريق السياسة . وشيخ إلى أوروبا مرات يدعو لمصر ، وخاصة في فرنسا ، ويظهر حجة بمقالاته في صحفها ، وخطبه في محافلها ، ويستدرج كبار الساسة والصحفيين لمظاهرتها في قضيتها . ثم أنشأ اللواء العربي ، فاللوائين الإنجليزى والفرنسى ، كما تقدم ، ففسح في دعوته ، ومكّن لها في البلاد وفي خارج البلاد تمكينا عظيما ، على أنه رحمه الله ، لم ينقطع عن الوفود إلى أوروبا كل عام يرفع صوته بالدعوة لمصر ، والمطالبة بالجلء عنها بكل ما تهيا له من الوسائل جادا جاهدا لا يثنيه عارض ولا يخذل له عزم . فأمرع هذا الجهد الشديد في صحته حتى حطمه تحطيا . وقضى ولم يرتق إلى السابعة والثلاثين من عمره . ولما أحسّ مقدم المنية أسرع إلى تأليف الحزب



الوطني ، وتولّى بنفسه زعامته . على أن المنية لم تلبثه بعد ذلك إلا أياما فقضى إلى رمة الله تعالى .

ولقد كان مصطفى كامل خطيبا لا يتعلّق بغباره : جهارة صوت في حلاوة وعذوبة نبرة ، وحضور ذهن وتدقّق بيان ، ونصاحة قول ، وروعة مطلع ، وبراعة مقطع .

وعلى كل حال فمصطفى كامل باشا ، رحمه الله ، أول من أثار الحمية في هذه البلاد ، بعد محمود الثورة العرابية ، وأذكى شُعلة الوطنية ، وألقى أعلى الدروس في الكرامة القومية . ومما يذكّر له أنه لم يدعْ ، طوال دعوته ، إلى التوسل إلى المطالب القومية بالعنف ؛ بل لقد كان يدعو جاهدا إلى التذرع بالسلم<sup>(١)</sup> .

### ( ٣ ) سعد زغلول باشا

المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ ( ١٩٢٧ م )

وُلد في بلدة إبيانه من أعمال مديرية الغربية ، وبعد أن تعلم في كُتّاب القرية مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن أشخّص إلى مصر لطلب العلم في الأزهر بحدّ في الطلب وتمثّل لدروس كبار الشيوخ . ووافق أسلوبُ التعليم في الأزهر هوّى من طبعه ، فقد كان من أول نشأته مولعا بالجلد شديد الاحتفال له . وكثيرا ما كان يخلق أسباب المناظرة بينه وبين لِداته خلقا إذا هي لم تعرّض عفوا ، ويأبى دائما إلا أن يكون غالبا . فشاع بين الطلبة اسمه . ولما هبط السيد جمال الدين الأفغانى مصر كان سعد ممن أخذوا عنه ولازموا مجالسه . ولما كانت الثورة العرابية كان فيمن خاضوا غمارها . فخبس في الضبطية ( المحافظة ) بضعة أشهر ثم أطلق . ثم احترف المحاماة ولم يكن يُشترط في احترافها إجازة . بل مجرد امتحان يعقد في المحكمة . ولم يمض عليه طويل في المحاماة حتى نبّه اسمه ، وعلا

(١) تجد نموذجا من خطبه في جزأى المنتخب .



فيها صيته ، وانتهت إليه الزعامة فيها غير مدافع ، ثم عُيِّنَ مستشارا في محكمة الاستئناف الأهلية ، فجَدَّ في تعلُّم الفرنسية ، وما زال يطلب فرنسا كلَّ عام ليتكلَّم في علوم القانون حتى أحرز من إحدى كلياتها إجازة الحقوق (ليسانس) .

ولقد كان ، رحمه الله ، قاضيا عظيما تُضرب الأمثال بكفائته وقوة استنتاجه ومثانة أحكامه . وفي سنة ١٩٠٦ م عُيِّنَ ناظراً للعارف العمومية ، وكانت جميع العلوم ، ما عدا الدين وعلوم العربية بالضرورة ، تدرس باللغة الإنجليزية ، فوجه أَجَلَ همته إلى تدريسها بالعربية ، ومَهَّد السُّبُلَ لتحقيق هذه الغاية ، فترجمت كتبُ العلم الحديث إلى العربية ، ونشط المتعلمون للتأليف والتدوين فيها . ثم عُيِّنَ ناظرا للقانية فجَدَّ في إصلاح نُظُم القضاء . وتعقَّب القوانين القائمة بألوان التعديل حتى تفي بالحاجة وتدارج روح العصر . ثم أُقِيلَ من الوزارة فلزم داره . ثم شَبَّتْ نيران الحرب العالمية فجعل يتتبع تصرفاتها في اهتمام واحتفال ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، وتهبَّتْ الدولُ لعقد مؤتمر للصالح وتقرير مصير الأمم ، تحرَّكت مصرُ للطالبة بحقِّها في تقرير مصيرها ، وولكت عنها وفدا يسعى إلى هذه الغاية ، وانتخب هذا الوفد لرياسته سعد باشا زغلول . وبعد قليل نفته السلطة العسكرية في نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة . ثم أُطْلِقُوا فشخصوا إلى باريس (مَثَوَى مؤتمر الصلح) حيث وافاهم إليها سائر أعضاء الوفد . ولما لم يجعل هذا المؤتمر إلى الأمانى المصرية بالأعاد بعض أعضاء الوفد ، وبقي سعد في باريس مع سائرهم .

وفي سنة ١٩٢٠ م شخَّص إلى لندن ومعه بعض أعضاء الوفد ، وذلك بدعوة من الحكومة البريطانية للمفاوضة في شأن المطالب المصرية . وكانت تمثل تلك الحكومة لجنة برئاسة اللورد ملنر . ولما لم تسفر هذه المفاوضة عن تحقيق الأمانى القومية قطعها الجانب المصرى ورجع أدراجَه .

وفي صدر سنة ١٩٢١ م عاد سعد باشا إلى مصر فقبول من الأمة مقابلة منقطعة النظير ، وظلَّ قائماً بالزعامة حتى نفته السلطة ثانيا مع نفر من أصحابه إلى جزيرة



سيشل ، فلبثوا بها مدة ، ثم حُوِّلَ وحده إلى جبل طارق ، ثم أطلق سراحهم  
فشخص من فوره إلى فرنسا . فبقى فيها مدة ، ثم عاد إلى مصر ، وكانت الحكومة  
البريطانية قد أصدرت من جانبها في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تصريحا بالتخليّة بين  
مصر وشؤونها ، واحتفظت فيه ببضع مسائل ، وأعلن حضرة صاحب الجلالة  
الملك المعظم استقلال الدولة المصرية . ثم أصدر الدستور في سنة ١٩٢٣ م ، ثم  
تولّى سعد باشا رئاسة الوزارة في أوائل سنة ١٩٢٤ باعتبار أنه زعيم الكتلة في مجلس  
البرلمان . ثم اعتزل الوزارة في السنة نفسها . ثم تولّى رئاسة مجلس النواب ، وظلّ  
فيها حتى قبض إلى رحمة الله .

وبعد ، فلقد كان سعد باشا زغلول ، رحمه الله ، متسعرّ الذهن ، نافذ البصيرة ،  
حاضر البديهة ، شديد الطبع ، رائع الفصاحة ، قوى الحجّة ، يحتاجك في الأمر تجزم  
بأنّ الحقّ فيه معك ، ولكنه ما يزال يسطو عليك بالحجة بعد الحجّة حتى ما ترى بداً  
من التسليم . وكان خطيبا لا يجارى : جهازة صوت ، وفصاحة منطوق ، وقوة  
كلام . وقد أثر عنه ما لا يحصى من الصيغ والتعبيرات التي استحدثها في العربية ،  
وخاصّة في الأسباب السياسية . وكان على ارتفاع سنه ، جمّ النشاط ، وأنشط  
ما يكون إذا دعاه داع إلى الكفاح . فقد كان . كما قال هو نفسه ، رجل  
كفاح <sup>(١)</sup> .

---

(١) تجد نماذج من بيانه في جزأى المنتخب .



## اللغة والأدب

أسلفنا عليك في الكلام على ( التأليف ) في النهضة الحديثة أنه جعل يطرد في الرقّ من حيث التحقيق العلمىّ والجرى على مذاهب النقد الحديثة . والواقع أنه فوق أخذه بحظّ صالح في هذين البابين فقد غنى المؤلّفون كذلك بإحسان الترتيب والتبويب ، والإكثار من الشواهد والأمثلة تيسيرا للعلم على المتعلمين .

ومن العلوم التى بلغت فى التدوين والتصنيف غاية محدودة من الإحسان والإجمال علوم اللغة والأدب ، والتاريخ وتقويم البلدان . فقد وُضِعَتْ فى أثناء هذه النهضة معاجم لغوية عدة ، تعتمد فيها واضعوها إسلاس الكشف وتيسير المراجعة ، وأحاطوا فيها بكثير من الدخيل الذى دار على ألسن الخاصة مع النصّ على أنه دخيل . وحلّى بعضهم بعض هذه المعاجم برسوم الحيوان والنبات والأشجار والآلات وغير ذلك تجليةً للمسميات بإزاء الأسماء وغير ذلك .

كذلك ، وُضِعَتْ كتب الأدب وتاريخه على أسلوب حديث يتضمّن فوق التيسير والتسهيل بحسن الترتيب والتبويب والشرح والضبط بالشكل فيما يستبهم لفظه ، التحقيق العلمىّ بقدر ما تواتى الطاقة . وتجلية صورة واضحة للأدب فى كل عصر ، والإبانة عن العوامل التى كان لها أثر فيه .

أما فنا التاريخ وتقويم البلدان فلم يقلّ حظّهما من العناية والتجويد عن حظ اللغة والأدب .

وإليك طائفة من اشتهروا فى هذه النهضة فى اللغة والأدب ، وكان لهم فيهما اثر كبير :



## ( ١ ) المعلم بطرس البستاني

المتوفى سنة ١٣٠١ هـ ( ١٨٨٣ م )

هو العالم اللغويّ الكاتب المؤلّف المربي بطرس بن بولس البستاني . وهو ماروني انحدر من أسرة عريقة في الفضل والحسب . وُلد ببلدة الدّبيّة من أعمال لبنان . وتلقى العلوم الدينية واللغوية في إحدى مدارسهِ . وكان بعيد الهمة وافر الذكاء شغفا بطلب العلم . فأصاب في مدى عشر سنين حظا غير يسير من اللغات العربية والسريانية واللاتينية والتليانية . ومن التاريخ وتقسيم البلدان والحساب والحقوق والعلوم اللاهوتية . ثم قضى دهرا في التعليم في المدرسة التي تعلم فيها . ثم تحوّل إلى بيروت ودرس الإنجليزية ، واتصل بمبشرى الأمريكان ، فعلم بعضهم العربية ، وأخذ عنهم العبرية واليونانية . ثم اعتنق مذهبهم فانتحل البروتستنتية . وأصبح مبشرا بنحلتهم ، وتولّى رئاسة إحدى مدارسهم زهاء خمس عشرة سنة ، وأعانهم إعانة قيّمة في ترجمة التوراة إلى العربية . ثم أنشأ في بيروت مدرسة عالية مالبت أن طارت شهرتها في الآفاق ، وطلبها طُلاب العلم من كل مكان .

ومن آثاره البليغة في تاريخ الصحافة السورية أنه أول من أنشأ مجلة علمية في تلك البلاد . فقد أصدر في سنة ١٨٧٠ م مجلة (الحنان) كما أخرج جريدة سياسية دعاها (الجنة) .

وقد عكف في مؤخرات عمره على المطالعة والكتابة والتأليف ، فعالج وضع (دائرة معارف) وهي أول دائرة معارف بالمعنى الجامع خرجت في العربية ، أتم منها ستة أجزاء ضخمة ، وعوجل بالموت في أثناء وضع الجزء السابع ، فواصل العمل فيها ابنه وحفدته حتى أتموا الجزء الحادى عشر .



ووضع قاموساً لغوياً دعاه ( محيط المحيط ) رتبة على أوائل الكلم ، وضمنه ما حوى محيط الفيروز ابادى وزاد عليه كثيراً من المصطلحات العلمية ، والفوائد اللغوية المتفرقة فى الكتب المختلفة . ووضع مختصراً لهذا القاموس دعاه ( قطر المحيط ) . وله كتب أخرى فى النحو والصرف ، والحساب ، ومسك الدفاتر .

والمعلم بطرس البستانى يعدّ ، من غير نزاع ، من أقطاب النهضة العلمية واللغوية فى سوريا فى العصر الحديث . كما أنه من أوائل من طبعوا المجموع على الثقافة الحديثة فى تلك البلاد .

على أن فضله وأثره فى العلم واللغة والأدب لم تحتجزه البلاد السورية ؛ بل لقد تعداها إلى غيرها من الأقطار العربية <sup>(١)</sup> .

## ( ٢ ) الشيخ حسين المرصفي

المتوفى فى سنة ١٣٠٧ هـ ( ١٨٨٩ م )

هو العلامة اللغوى الأديب المحقق الشيخ حسين بن أحمد المرصفي . ولد بمصر ونشأ فيها . وبعد أن حفظ القرآن الكريم ، وكان مكفوف البصر ، جرى به إلى الأزهر ، فأخذ العلم عن كبار شيوخه ، حتى أدرك منه الكفاية ، وتصدر للتدريس فيه . وكان هواه الشديد إلى علوم العربية وآدابها ، فجدّ فى مدارستها وتقليب الذهن فى منازع بلاغاتها . ولم يسترح إلى ذلك الأدب الذى كان شائعاً فى عصره ؛ بل كان من أوائل من تفتطنوا فى هذه البلاد إلى قدر الأدب القديم ، فراح يقرأ كتب أعلام البلاغة ودواوين متقدمى الشعراء ، ويتروى منها بالحفظ والاستظهار ، ويروض قلمه على البيان القوى حتى أصبح الأديب التام . ودرّس الأدب فى دار العلوم للسابقين الأولى من طلابها ، وكان منهم حفنى ناصف وأثرابه . وأخذ عنه

---

(١) تجد نموذجاً من كتابته التأليفية فى الجزء الأول من المنتخب .



كبار المتأدين في عصره من أمثال البارودي وعبد الله فكري ، وصاحبوه ولازموه وعرضوا عليه بيانهم فهدى ونقح وهذب ، وكتب في مجلة ( روضة المدارس ) وغيرها ، فعلم الأدب علما ، كما درّب بالعمل والقودة على صحيح البيان . وقد ألف في البلاغة كتابا جليلا دعاه ( الوسيلة الأدبية ) نحا في تفصيل قضاياها نحوا طريفا ، فشاع الانتفاع به ، ولا يزال هذا الكتاب مرجع المتأدين إلى اليوم . وله كذلك رسالة دعاه ( الكلمات الثمان ) تحدث فيها عن معاني : الأمة ، والوطن ، والحكومة ، والعدل ، والنظام ، والسياسة ، والحرية ، والتربية .

وعلى كل حال فالشيخ حسين المرصفي ، رحمة الله ، يعدّ من أقوى الدعائم التي قامت عليها النهضة الحديثة في اللغة والأدب <sup>(١)</sup> .

### ( ٣ ) الشيخ إبراهيم اليازجي

المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ ( ١٩٠٦ م )

هو العالم المحقق الأديب الشاعر الكاتب إبراهيم بن ناصيف اليازجي من أعلام أصحاب اللغة والبيان . ولد في بيروت ونشأ بها . وأخذ العلم عن أبيه . وتوفر على كتب اللغة والأدب درسا وحفظا واستظهارا حتى أوفى من ذلك على الغاية . وقام بتدريس اللغة في إحدى مدارس بيروت ، وعالج الصحافة في بعض جرائدها ، ولما اجتمع رأى اليسوعيين على ترجمة التوراة إلى العربية عهدوا إليه بضبط صيغها وتنقيح عباراتها ، ففُضِيَ في هذا نحو تسع سنين لم ينقطع في أنشائها عن النثر والنظم . ثم نزع إلى مصر سنة ١٨٩٤ م فأصدر مع آخر مجلة دعواها ( البيان ) ثم استقلّ بأخرى دعاه ( الضياء ) وظلّ يصدرها حتى وافاه الأجل المحتوم . وقد دأب في كلتا صحيفتيه على تعقّب الأدباء إذا كتبوا أو نظموا فدعّم على ما وقعوا

(١) تجد نموذجا من بيانه في الجزء الثاني من المنتخب .



فيه من الأخطاء الشائعة في اللغة وفنونها ، وهداهم إلى الصحيح الفصيح من القول . فكان لصنيعه أثر بليغ في تجنب كثير من الأخطاء ، وفي أخذ المتأدين أنفسهم بالتحري والمراجعة إذا نظموا أو نثروا طلبا للسلامة من نقد الناقلين . وله كتاب جليل دعاه ( نجعة الرائد في المترادف والمتوارد ) ورسالة أخرى دعاها ( لغة الجرائد ) أحصى فيها ما وقع له من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء ، ورد الأمر فيها إلى الصواب . وشعره جزل رصين ، ونثره منسجم متين . فإذا التزم السجع جاء به محكما لا قلقا ولا مستكرها . وعلى كل حال فاليازجي يعد كذلك من أركان النهضة الحديثة في اللغة والأدب <sup>(١)</sup> .

#### ( ٤ ) الشيخ حمزة فتح الله .

المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ ( ١٩١٨ م )

هو العالم اللغوى المجتهد الكاتب الشاعر . ينحدر من أصل مغربي ، ولكنه ولد في الإسكندرية ونشأ بها ، وطلب العلم فيها ، ثم أكمل علومه في الأزهر . ودرس الآداب ، وأصاب حظا عظيما من فقه اللغة . ونثرونظم . ثم رحل إلى تونس فوكل إليه تحرير جريدة ( الرائد التونسي ) فلبث في هذا بضع سنين . ثم عاد إلى الإسكندرية وقام على تحرير جريدة ( البرهان ) . ومثل الحكومة في المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد في فيينا سنة ١٨٨٦ م ، ثم مثلها في مؤتمر المستشرقين الذى عقد في أستانكلم سنة ١٨٨٩ م . وفى سنة ١٨٨٨ م أقيم مدرسا في مدرسة الألسن ، ثم حوّل إلى دار العلوم ، فتخرجت عليه طائفة من كبار المتفقيين في العربية ، السابقين في معرفة آدابها . ثم ولى رئاسة التفتيش في وزارة المعارف ، فظل فيها حتى خرج إلى ( المعاش ) بحكم الستين . وله ، رحمه الله ، كتاب ( المواهب الفتحية

(١) نجد نموذجا من بيانه في المنتخب .



في علوم اللغة العربية) ألّفه في أثناء تدريسه في دار العلوم . ولقد أجدى على العربية كثيراً بتعليمه وتلقيته ، وبصحاحه لما كانت تقوم الوزارة بطبعه من كتبها ، وبتفتيشه في المدارس وتنبيهه أساتذ العربية إلى مواطن الصواب ، واستحثاثهم على أخذ تلاميذهم بالصحيح الفصيح . وله شعر ترسم فيه نهج المتقدمين ، وترسله جارياً فيه أساليب المتأخرين .

وكان ، رحمه الله ، يلتزم الحديث بالعربية الصحيحة حتى مع خادمه في أتفه أسبابه ، وكان إلى هذا مولعاً بالغريب يأتي به في شعره وترسله وتقاريره وحديثه . وهو أيضاً يعدّ من أقوى الأساس لنهضة اللغة والآداب في هذا العصر .

## ( ٥ ) جرجى بك زيدان

المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ ( ١٩١٤ م )

هو جرجى بن حبيب زيدان . وُلد في بيروت ، وتعلم في بعض مدارسها الابتدائية ، إلا أن حاجة العيش أعجلته عن مواصلة التعلم فيها ، فتركها صغيراً وراح يعاون أباه في أعماله . وكان فيه شغف بالعلم والأدب من أول نشأته ، فأكّب على مطالعة ما تصل إليه يده من كتبهما . وفي سنة ١٨٨١ م بدّله أن يدرس الطب ، وبعد أن درس بنفسه علومه الإعدادية في زمن وجيز تهيأ له أن يدخل المدرسة الطبية فتقدم فيها قرناه . ثم جرى على تلك المدرسة ما استدعى أن يتركها أكثر تلاميذها ، فعُدل إلى الصيدلة وأحرز إجازتها . ثم هبط مصر ليكمل علوم الطب في مدرسته المصرية ، غير أنه تعاضمه طول زمن الدراسة فيها ، فعُدل إلى معالجة العلم والأدب . وتولى تحرير جريدة (الزمان) مدى سنة . ثم عُين مترجماً بقلم الخبارات ، وصاحب الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ م وحضر هناك بعض المواقع الحربية ، ثم عاد إلى بيروت ، فتفقه في اللغتين العبرية والسريانية وغيرهما . وألّف كتاباً دعاه ( الفلسفة اللغوية ) . ثم عاد إلى مصر فساعد في تحرير مجلة



(المقتطف) مدة ، ثم تولى التدريس في إحدى المدارس مدة أخرى . ثم أنشأ مجلة (الهلل) سنة ١٨٩٢ م لمعالجة البحوث العلمية والتاريخية والأدبية وغيرها ، ولا يزال يصدر في القاهرة إلى الآن . وقد ألّف ثمانية كتب في التاريخ ، وثمانية أخرى في العلوم الأدبية واللغوية وغيرها ، وثمانى عشرة (رواية) سلسل فيها القدر الأعظم من تاريخ الإسلام . وأربع روايات أخرى في موضوعات مختلفة<sup>(١)</sup> .

من هذا القدر الموجز من تاريخ جرجى زيدان تدرك مبلغ همته ، وصدق عزمه ، وشدة بلائه في سبيل العلم والأدب ، وخاصة إذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل مبتوت الذرائع . ومن أهم مؤلفاته التي تتصل بموضوع هذا الكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) . يتبع في أربعة أجزاء ، وهو يشهد له بالجهود وطول الصبر على المراجعة والاستخبار ، والواقع أنه مرجع قيم للشغليين بتاريخ الآداب العربية .

---

(١) تجد نموذجاً من بيانه التأليفي في الجزء الثاني من المنتخب .



## التاريخ والجغرافيا

وهنا نورد عليك طائفة ممن اشتهروا في هذين العلمين ولهم فيهما آثار مذكورة :

### ( ١ ) على باشا مبارك

المتوفى سنة ١٣١١ هـ ( ١٨٩٣ م )

هو الوزير العالم ، الرياضى ، المهندس ، المؤرخ ، المصالح الخليل القدر والبعيد الأثر . ولد فى قرية برنبال من أعمال مديرية الدقهلية . ثم تحوّل به أبوه الشيخ مبارك إلى عرب السماعنة بالشرقية ، وتولّى تربية ابنه بنفسه . ثم عهد به إلى آخر نفتم القراءن فى سنتين . ثم عهد به إلى رجل يتعاطى الكتّابة فلأزمه دهرًا ، ثم تركه لقسوته وسوء معاملته . وناقت نفسه إلى طلب العلم فى القاهرة فلقى فى هذا من أبيه عنتًا . وما زال يَحْتال لذلك حتى تمكّن من الفرار ودخل مدرسة قصر ابن العيني . ولم تكن مدرسة الطب قد تحولت إليه بعد ، وكانت سنه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . ثم انتظم فى مدرسة الهندسة ، حتى إذا نال من فنونها حظًا مجودًا أوفده محمد على إلى باريس ليُدرس فنون الحرب . ولما عاد ألحق بالجيش المصرى .

وقد تقدم إليه عباس باشا الأول بوضع نظام للدارس فصَدع للأمر وعمل وجدّ ، ووضع تقريرًا حافلًا أعجب به الأمير ، فرفع رتبته وولاه نظارة المدارس لتنفيذ ما سنّه لنظامها ، فقام بالأمر أحسن قيام .

ولما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا سافر مع الحملة المصرية التى أمدّت بها تركيا فحضر حرب القرم . ثم عاد بعد ما عانى صنوف الأهوال ، فعُطِّل عن العمل بسبب ما دبّ عنه من الوشايات عند الأمير . فتفرّغ للعلم والأدب قراءة



وتدويننا . حتى إذا صار الأمر إلى المرحوم إسماعيل باشا ألحقه بمعينه ، وآثره وأكرم مثواه . وما برح يتقلب في عليا المناصب الحكومية حتى صارت إليه نظارة الحربية ونظارة المعارف . وله في كاتبيهما وخاصة في ثانيتهما ، إصلاحات تخلد على الزمان .

ومن أجل أعماله وأبعدها أثرا في نشر الثقافة الحديثة لإنشاؤه دار الكتب المصرية . وقد تقدم ذكرها . ومدرسة دار العلوم . وقد مضت الإشارة إليها .

ولقد كان ، رحمه الله ، حركة قوية دائبة لا تقي ولا تكل في معالجة الإصلاح وبعث النهضة العلمية والأدبية من جميع أقطارها . وكان فوق جده في تصريف الأمور في الديوان العام ، وطول معالجته لسبل الإصلاح ، لا يفتر عن مطالعة المدارس بشخصه الحين بعد الحين : يمتحن تلاميذها ، ويراجع أساتيذها ، ويتفقد الجليل والدقيق من شؤون التعليم فيها ، ويسرع إلى إثابة المجد المحسن ، والتغيب للوإني المقصر .

وكانت داره ندوة علم وأدب . فإذا دخل الليل طلبها الكثير من معلمي المدارس والقائمين عليها ومن متقدمي الطلاب أنفسهم . وكذلك يظل صدرا من الليل يذاكر جلّاسه ويراجعهم ويحاضرهم . ويثيب نجباء الطلاب من حرّماله . وبهذا أذكى الهمم في طلب العلم والأدب بما جنت منه البلاد وما زالت تجني منه أنضج الثمار .

ومن آثاره كتاب ( الخطط التوفيقية ) وقد جرى فيه على نهج خطط المقرري وزاد عليها ما استجد إلى عصره .

وقد وصف فيه مصر وبلادها وخططها ومدارسها وجوامعها وغير ذلك . وإذا عرض لشيء من هذا ذكر من أنشأ وترجم له . وقد ضمن خطته ، فوق ذلك مالا يحصى من الفوائد الفنية والأدبية . وهذا الكتاب الجليل يقع في عشرين جزءا وله كتاب دعاة ( علم الدين ) وهو ديني عمراني ، سبكه في قالب قصصي طريف . وله غير ذلك من المؤلفات والمترجمات .



## ( ٢ ) إسماعيل باشا سرهنك

المتوفى سنة ١٩٣٤ م

هو إسماعيل باشا ابن سرهنك بك ابن عبد الله افندى . وُلِدَ أبوه في إحدى البلاد من أعمال جزيرة كريد . وجاء به إلى مصر المرحوم إبراهيم باشا الكبير وهو في سن السادسة مع كثير من فتيان تلك الجزيرة عقب الثورة التي شبت فيها . ثم ألحقه محمد علي بمدرسة (الجهادية) ثم تحول إلى المدرسة البحرية فظل فيها حتى نرج ضابطاً وبقى دهراً يتقلب في مناصب البحرية حتى أحرز رتبة (أمير آلاى) ، وشغل كذلك بعض المناصب الإدارية (الملكية) .

ولما ترعرع ولده إسماعيل ، وأحرز في المدارس صدراً صالحاً من العلوم العامة ألحق هو الآخر بالمدرسة البحرية ، حتى أتم تعليمه فيها . ولما كانت قد بانت براعته في فنه بُعث به إلى إنجلترا . وألحق بالبحرية الإنجليزية ، فترؤد منها ما شاء الله أن يتروذ علماً وتمريناً . ثم عاد إلى مصر وظل يرقى في المناصب العسكرية حتى أصبح ناظراً للدارس الحربية . ثم صار مديراً للقرعة العسكرية . وينسب إليه وضع قانون القرعة القائم الآن . ثم صارت إليه وكالة وزارة الحربية ، ولبث في هذا المنصب حتى أحيل بحكم السن إلى (المعاش) . ونال رتبة (الفريق) وهى كما تعلم أعلى الرتب العسكرية في مصر .

وكان ، رحمه الله ، رجلاً عظيم التواضع ، جَمَّ الحياء . وقد عُني ، فيما عني به ، بدراسة التاريخ فحذقه وألّف فيه كتاباً جليلاً دعاه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ، وهو يقع في ثلاثة أجزاء ضخام : طبع منها الأول والثاني وصدر من الثالث . وقد خصّ الثاني كله بتاريخ مصر من أول علم التاريخ بها إلى مطلع القرن العشرين للميلاد .



### ( ٣ ) رفيق بك العظم

المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ ( ١٩٢٥ م )

هو العالم المؤرخ المصلح الأديب رفيق بن محمود العظم . وهو سليل بيت من أنحر بيوتات الشام وأكرمها موضعاً ، وفي بيته الحكم والسيادة من الزمان القديم . وقد ولد رفيق بك في دمشق ونشأ بها ، وتعلم فيها وكان هواه إلى الأدب والتاريخ فأكتب على دراستهما ، وتروأهما من أصفى ينابيعهما . ولما لم يطب له المقام في بلاده لما كان يتولأها من سوء الحكم رحل إلى مصر في سنة ١٣١٠ هـ وأقام بها حتى أدركته الوفاة . وشارك في الكثير من الأسباب العامة . وجال بقلمه ومسعاته في طلب الإصلاح للأمم الإسلامية عامة ، والدولة التركية خاصة . وكان ، رحمه الله ، وافر الذكاء جَمَّ الأدب ، أبى النفس ، شريف الخلق ، غصبى المزاج . تتسعر عصبية إذا مُسَّ أباء دينه أو نيل من قومه .

وله بحوث قيمة أرسلها في الصحف السيارة ، طاف فيها بالكثير من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية . ومن مصنفاته : كتاب أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ، أخرج منه أربعة أجزاء ولم يكمل . والبيان ، في كيفية انتشار الأديان . والدروس الحكيمة ، للناشئة الإسلامية . والبيان ، في أسباب التمدن والعمران . وتنبيه الأفهام ، إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام . والجامعة الإسلامية وأوروبا .

ومن كرائم ماثره أن أهدى مكتبته النفيسة وبها قرابة ألف مجلد إلى المجمع العربي في دمشق .



## ( ٤ ) الشيخ الخضرى

المتوفى فى سنة ١٩٢٧ م

هو العالم المؤرخ الأديب الشيخ محمد بك الخضرى ابن الشيخ عفيفى الباجورى .  
نسبة إلى بلدة الباجور من أعمال مديرية المنوفية . وُلد بالقاهرة ونشأ فيها . وتعلم  
فى بعض كتّابها مبادئ القراءة والكتابة . وحفظ القرآن الكريم . ثم أدخل  
الأزهر فطلب العلم فيه بضع سنين ، وكان رحمه الله وافر الذكاء جيد الحفظ ،  
ثم تحوّل إلى دار العلوم فتخرج على كبار أساتذتها . وكان معروفاً عندهم كما كان  
معروفاً بين لِدائِهِ بالجدِّ فى طلب العلم ، والحمل على النفس فى سبيل تحصيله .  
ولما أحرز إجازة تلك المدرسة خرج للتعليم فى مدارس الحكومة سنين عدداً .  
ثم تولّى القضاء فى السودان دهرًا . ثم تحول إلى التدريس فى كلية غردون . حتى  
إذا أنشئت مدرسة القضاء الشرعى دُعِيَ للتدريس فيها . ثم صارت إليه وكالتها .  
وظلَّ فى هذا المنصب إلى أن قبض إلى رحمة الله . وفوق عمله الأصيل فى مدرسة  
القضاء ندب لتدريس التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة .

وكان فيه ميل شديد إلى التاريخ الإسلامى ، يعالج مباحثه ما تهبأ له ذلك  
بالمحاضرة والكتابة والتأليف . وهو مرسل القلم ، سلس العبارة ، لا يتعمل  
ولا يتكلف بديعاً ، على أنه كان على حظ من الأدب غير يسير . ومن مؤلفاته :  
نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين . وإتمام الوفاء ، بسيرة الخلفاء . وتاريخ  
التشريع الإسلامى . وكتاب الأصول ( فى أصول الفقه ) . ومهذب الأغانى ( لأبى  
فرج الأصبهاني ) ، فضلاً عن محاضراته فى الجامعة فى التاريخ الإسلامى ، فقد  
جمعها بعد ذلك . ومؤلفاته كلها مطبوعة بمصر . وله مقالات كان يبعثها فى الصحف  
السيارة فى المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية ؛ وفى أكثرها كان  
يطوى اسمه عن جمهرة القارئین <sup>(١)</sup> .

(١) تجد نموذجاً من كتابته العلمية فى الجزء الثانى من المنتخب .



## المستشرقون

الاستشراق وتاريخه — يراد بكلمة "المستشرقون" كل من تجرّد من أهل الغرب في دراسة بعض اللغات الشرقية ، وتقصى آدابها طلباً لتعرف شأن أمة أو أمة شرقية ، من حيث أخلاقها وعاداتها ، وتاريخها وديانتها ، أو علومها وآدابها ، أو غير ذلك من أسباب الأمم . والأصل في كلمة "استشرق" أنه صار شرقياً ، كما يقال "استعرب" إذا صار عربياً .

وأول عهد الغربيين بالاستشراق يرجع إلى القرن العاشر ليلاد . ذلك بأنه لما شهد القوم ما بلغ العرب من الحظ العظيم في العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها من علوم الحياة ، وبهرهم ما رأوا من آثارها في ازدهار حضارتهم انبعثوا في طلبها ، وتقليب النظر فيها ، والانتفاع بقضاياها في حياتهم العملية . فأقبلوا على دراسة العربية ليتبها لهم ما طلبوا . ثم جعلوا يترجمون ما يقع لهم من كتب العرب في تلك العلوم إلى اللاتينية التي كانت لغة العلوم والآداب في ذلك الزمان . وكان أول من شمر في ذلك رجال الدين ، إذ كانوا يومذاك المستأثرين بمذاهب الفكر في تلك البلاد .

ولم يمض قرن على ذلك التاريخ حتى كان كثير من مدائن الأندلس ، وخاصة طليطلة ، مثابة طلاب العلم من الإفرنج بين دارس وناقل . وجدّوا في هذا حتى تمّ لهم نقل بضع مئات من المصنفات العربية ، أو المترجمة إليها عن اليونانية في المنطق ، والفلسفة ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ،



والطبيعة وغيرها . وحملوا ما ترجعوا من الكتب إلى بلادهم ، فأقبل عليها طلاب العلم بالنظر والدرس ، ففتحت العيون ، وصغت إلى العلم العقول . وبتق هذا السعى بحر الحضارة الغربية التي تقوم على أساسها مادة حياة القوم إلى اليوم .

ولقد ظلت هذه الحركة مشبوبة طوال القرون الوسطى تتنافس فيها الأمم ، وتبارى الدول . وإذا كان الهم مصروفا بادئ الرأي إلى نقل العلوم والفنون التي يدخل أثرها في الحياة المادية لأنها مما يتصل بحاجات العيش ، ويعلق بضرورات الحياة ، فإن من الطبيعي بعد إذ أصابوا كفايتهم في هذا الباب أن يلتفتوا إلى درس الفنون الأخرى من الشرائع والأخلاق والآداب ونحوها . وكذلك فعلوا ، وكذلك فعلنا نحن في نهضتنا الأخيرة . وقد تقدم في ذلك الكلام .

ولا يذهب عنك ، في هذا المقام ، أن إقبال الغربيين على درس اللغات الشرقية وتفهمها لم يكن الغرض منه مقصورا على الانتفاع بما خرج فيها من العلوم فحسب ؛ بل لقد طلبوا ذلك أيضا للأغراض التجارية . وطلبوه بحظ أعظم من هذا لتيسير التبشير بالمسيحية في البلاد الشرقية .

وظلَّت حركة تعلم العربية وفنونها في بلاد الغرب في اطراد وتقدم ، حتى لم يكد يدخل القرن السادس عشر الميلادي إلا وقد جعلوا يعلمونها في بعض المدارس ، كما أقبلوا على إنشاء المطابع العربية تحقيقا لما سلف من الأغراض . على أن الزمن لم يطل حتى أصبح الاستشراق فنا قائما بنفسه ، يُطلب لدرس اللغات الشرقية وآدابها وفنونها وأديان أهلها وعاداتهم ونحو ذلك . وراحت المطابع تطبع ما يُلقَى إليها من الكتب في اللغات الشرقية . فكان من أوائل ما طُبع في العربية كتاب (المجموع المبارك) في التاريخ لابن العميد المعروف بالمكي . وكتاب (تاريخ الدول) لابن العبري . و (نظم الجوهر) لسعيد بن البطريق . ثم تاريخ أبي الفداء ومقامات الحريري . وما برحوا إلى هذه الغاية يوالون طبع نفائس الكتب العربية في مطابعهم



ويلقون عليها الحواشي ، ويلحقون بها ألوان الفهارس تيسيرا للاستفادة منها .  
حتى بلغ ما أخرجوا من كتب العربية مالا يحصى كثرة .

ولم يقتصر همهم على هذا ؛ بل لقد جعلوا يعالجون البحوث المختلفة عن بلاد  
الشرق وتواريخها ، وأخلاق أممهم وعاداتهم وشرائعهم ولغاتهم وعلومهم وفنونهم  
وكل ما يتصل بأسبابهم . وما برح للدين الإسلامي وللغة العرب وآدابها حظ عظيم  
من جهودهم .

ومما عُنوا به كذلك جمع الكتب العربية في مختلف العلوم والفنون يتلقطونها  
من هنا ، وليستخرجونها من هناك ، حتى اكتظت بها المكتبات العامة في أممات  
بلادهم ، وحتى أصبح أبناء العربية يلتمسون الكثير من كتب آبائهم فلا يصيبونها  
إلا في تلك المكتبات !

أثر المستشرقين — لاشك في أن للمستشرقين أثرا بعيدا في بعث اللغة العربية  
وآدابها . وهذا الأثر يرجع في جملته إلى هذه العناصر :

( ١ ) نشر مجفوات الكتب العربية القيمة ، وإحسان طبعها ، وبذل  
أقصى العناية في تصحيحها . ومعارضتها على النسخ المتعددة ، ولو تفرقت في الممالك  
المختلفة توسلا إلى ضبطها ، وبيان ما اختلفت عباراته في تلك النسخ ، وضبط  
الأعلام وأسماء الأمكنة ونحوها . وتعليق الحواشي بما يعين على الفهم ويستفتح  
المستغلق . وتعقيها بألوان الفهارس الجامعة للوضوعات ، وأسماء الأشخاص  
والأمكنة وغير ذلك مما ييسر للطالب الوقوع على ما ينبغي من الكتاب من غير كد  
في طول المراجعة ، ولا جهد في كثرة التقلب .



( ٢ ) البحوث القيمة فى متن اللغة من تحقيق كثير من ألفاظها ، وردها إلى أصولها . وكذلك التحقيق فى كثير مما يتصل بتاريخ العربية وآدابها . فضلا عن تحقيق الكثير من مسائل تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم .

( ٣ ) الاعتماد فى البحث على التحقيق العلمى ، وفى النقد على مذاهب النقد الحديثة مما أجدى على العربية وطلاب التفقه فى آدابها كثيرا . ومما يدل على هذا أن مصر ، وهى فى طليعة البلاد العربية فقها فى اللغة ، وعلماء بتاريخ آدابها ، وإصابة لمنازع بلاغاتها — مابرت من يوم إنشاء الجامعة المصرية القديمة إلى اليوم تستقدم المستشرقين لتستعين بهم فى تدريس الآداب العربية على خير الوجوه .

ولا يذهب عنك أن علماء الأدب فى مصر وفى غير مصر قد جعلوا يتكلفون فى كل ما تقدم صنعهم ويحذون فى البحث والاستقراء حذوهم . ولن يمضى ، إن شاء الله ، زمن طويل حتى يدركوا فى هذا شأوهم ، بل ويبرعواهم فى مساعدتهم . فاللغة لغتهم ، وبلاد العرب إنما هى بلادهم .

ومن آثار المستشرقين فى العربية وعلومها وفنونها وأبنائها وتاريخها أن الغرب كان بهذا كله فى جهالة تامة ، بحيث لا يتمثل لأبنائه من هذا إلا بقدر ما كانوا يتصورون العرب ، وما كانوا يتصورونهم إلا جماعات من البدو ترعى الإبل فى الصحراء المجردة ، يقوم عيشهم على النهب والسلب ، والعدوان والبغى ، لا أكثر ولا أقل . فلما ترجموا إلى لغاتهم كتب العرب فى الآداب والأخلاق والعلوم والفنون عرفوا أقوامهم قدر العربية وقدر العرب .

وفوق هذا وهذا فإنهم مابرحوا الحين بعد الحين يعقدون المؤتمرات الشرقية فى أمهات مدن الغرب ، ويدعون إليها رجال الآداب الشرقية فى أقطار العالم . وهناك يُدلى كلُّ بجوئه فيما عند قومه . ولقد كان للأقطار العربية ، ومصر خاصة ، فى هذه المؤتمرات حظٌّ غير يسير .



وأخيرا ، لقد كان الدين الإسلامى وكانت علومه وآدابه مجهولة جهلا فادحا  
فى بلاد الغرب ، وكان يمثلها غلاة المتعصبين لقومهم أشنع تمثيل . فانظر بعد هذا  
قدر سعى المستشرقين فى ترجمة القرآن الكريم وتفسيره ، وكتب السنة ، والكلام ،  
والفقه ، والتصوف ، والأخلاق الدينية ، وغيرها مما يتصل بأداب الشرع الحنيف .  
على أن التعصب الأعمى قد عصف ببعض هؤلاء فافترؤا على هذا الدين وأحالوا  
حسنته سيئات ، وتعهدوا تشويه كثير من حقائقه الناصعة . فخانوا بهذا أمانة  
العلم ، وعملوا على تضليل أقوامهم . فهم غير أحرىء بأن ينسبوا إلى العلم ، وينظموا  
فى سلك العلماء .

أشهر المستشرقين — ونحن ذا كرون لك أسماء طائفة من أعلام  
المستشرقين ، وبعض آثار كل منهم فى العربية . وهذا على جهة التمثيل لا على  
سبيل الاستقصاء :

## ١ — البارون سلفستردى ساسى الفرنسى

المتوفى سنة ١٨٣٨ م

هو من أعلى المستشرقين قدرا ، وأبعدهم فى هذا الباب أثرا . ولقد تجرد  
فى تعلم العربية والفارسية حتى برع فيهما أيما براعة . وتخرج عليه فيهما طائفة من  
أعلام المستشرقين فى أرجاء بلاد الغرب . ومن مؤلفاته فى العربية كتاب دعاه  
( الأئیس المفید للطالب المستفید ) جمع فيه صدرا محمودا من المنتخبات العربية .  
وله شرح وجيز على مقامات الحريري . ونشر كتاب كيلة ودمنة . وألفية ابن مالك  
ورحلة عبد اللطيف البغدادى . وذلك عدا الكتب العربية التى ترجمها إلى لغته ،  
والبحوث الكثيرة التى عاجلها فى الموضوعات الشرقية والعربية .



## ( ٢ ) إتيان كتر مير الفرنسى

المتوفى سنة ١٨٥٧ م

تلميذ دى ساسى وخليفته . وهو من أعلى المستشرقين كعبا ، وأنفذهم أثرا ، وأكثرتهم تلاميذ تخرجوا عليه فى بعض اللغات الشرقية ، والعربية منها خاصة . وقد ترجم إلى لغته بعض كتاب السلوك للقريزى ، ونشر مقدمة ابن خلدون . ومنتخبات أمثال الميدانى . وكتاب الروضتين . وله عدا ذلك بحوث كثيرة تتصل بالشرق والشرقيين .

## ( ٣ ) فرايتاج الألمانى

المتوفى سنة ١٨٦١ م

وهو أيضا من تلاميذ دى ساسى . ألف معجما فى العربية واللاتينية . ونشر حماسه أبى تمام عليها شرح التبريزى مع ترجمة لاتينية . وحكم لقمان . وفاكهة الخلفاء لابن عرب شاه . والمنتخب من تاريخ حلب . وأمثال الميدانى . ورحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر . وذلك غير ما ألفه عن العرب والعربية فى لغته ، وما عاجله فى هذا الباب من البحوث الكثيرة .

## ( ٤ ) جنبول الهولندى

المتوفى سنة ١٨٦١ م

نشر قصائد المتنبى ومعاصريه فى مدح سيف الدولة مع ترجمة لاتينية ، وكتاب الجبال والأمكنة للزنجشى . ومراصد الاطلاع " مختصر معجم البلدان " ، والنجوم الزاهرة لآبى المحاسن تغرى بردى . والخراج لابن آدم .



## ( ٥ ) ادوردلين الإنجليزى

المتوفى سنة ١٨٦٤ م

عاش بمصر فى صدر شبابه بضع سنين . ووضع كتابا فى وصف مصر . وآخر فى آداب المصريين وعاداتهم . وقاموسا عربيا إنجليزيا . وترجم ألف ليلة وليلة ، وصدرا من القرآن الكريم . وله عدا ذلك بحوث فى الآداب الإسلامية .

## ( ٦ ) جستاف فلوجل الألمانى

المتوفى سنة ١٨٧٠ م

نشر كشف الظنون . والفهرست لابن النديم . ومؤنس الوحيد للثعالبي . وطبقات الحنفية لقطلوبغا . والقراءان ، ونجوم الفرقان ، وهو فهرس للقراءان الكريم .

## ( ٧ ) كازمرسكى البولونى

المتوفى سنة ١٨٧٠ م

وضع قاموسا عربيا فرنسيا . وترجم القراءان الكريم إلى الفرنسية . ونشر طائفة من الكتب العربية .

## ( ٨ ) دوزى الهولندى

المتوفى سنة ١٨٨٣ م

ألف معجما عربيا وصله بالمعجمات العربية ، جمع فيه الألفاظ التى لم ترد فيها ، وهو يقع فى جزأين . ومما نشره تاريخ ابن زيان . وتاريخ المعجب للراكشى . والبيان المغرب لابن عذارى . وجغرافية الإدريسى .



## ( ٩ ) فلتشر الألمانى

المتوفى سنة ١٨٨٨ م

ألف فى الآداب الشرقية كتباً كثيرة جداً . ومما نشره تفسير القاضى  
البيضاوى . والمفصل للزخشرى . وبعض ألف ليلة وليلة . وبعض تاريخ  
أبى الفداء .

## ( ١٠ ) فردينان وستيفيلد الألمانى

المتوفى سنة ١٨٩٠ م

من أهم ما نشره من الكتب العربية : طبقات الحفاظ للذهبي . وسيرة  
ابن هشام . ووفيات الأعيان لابن خلكان . وكتاب الاشتقاق لابن دزيد . ومعجم  
البلدان لياقوت . ومعجم ما استعجم للبكرى . وتهذيب الأسماء للنوى . وتهذيب  
الأنساب للسمعاني . والمشارك لياقوت . وعجائب المخلوقات للقزويني . والمعارف  
لابن قتيبة . وغير ذلك كثير .

## ( ١١ ) نلدى الألمانى

المتوفى سنة ١٩٣١ م

ألف فى الألمانية (تاريخ القراءن) ، وأحرز به الجائزة من المجمع العلمى الفرنسى  
( الأكاديمية ) . وتاريخ عروة بن الورد . وبحث فى الشعر الجاهلى . وتاريخ  
الفرس والعرب فى عهد الساسانيين . واللغات السامية . وبحث فى المعلقة الخمس .  
وغير ذلك .



## (١٢) الأستاذ جلتزير المجرى

له مؤلفات عدة في اللغة العربية والإسلام . وبحوث في الفقه لإسلامي  
والحديث النبوي . وبحث في آداب البحث والمناظرة عند الشيعة . وآخر عند  
الظاهرية . وكتاب في طبقات المفسرين . وكل هذا بالألمانية . وله آثار غير هذه  
كثيرة .

ومن جليل ما قام به المستشرقون من الأعمال تأليف دائرة المعارف الإسلامية  
مرتبة على الحروف الأبجدية تنشر باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وتشمل  
تراجم أعلام الرجال ، وأهم الموضوعات الإسلامية من جغرافيا وتاريخ وقفه وأصول  
وأدب ، بدأوا في نشرها في أعداد تشبه المجلات من سنة ١٩٠٨ ولا يزالون  
يوالون النشر إلى اليوم ، وإذا تمت كانت في أربعة مجلدات ضخمة يحوى كل مجلد  
نحو ألف صفحة .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق

في يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٦

(٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥) م

مدير المطبعة الأميرية

فحمد أمين يهجت





















0315334830

DATE DUE

OCT 7 1975

DATE DUE

NOV 5 1975

06597696

ENTRY

INSERT



BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE.  
A TWO DOLLAR FINE WILL  
BE CHARGED FOR THE LOSS  
OR MUTILATION OF THIS CARD.

71 72 73 74 75 76 77 78 79 80  
65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80  
PRINTED IN U.S.A.

06597696

893.79

IS4 V2 C1

06597696

OCT 23 1964



